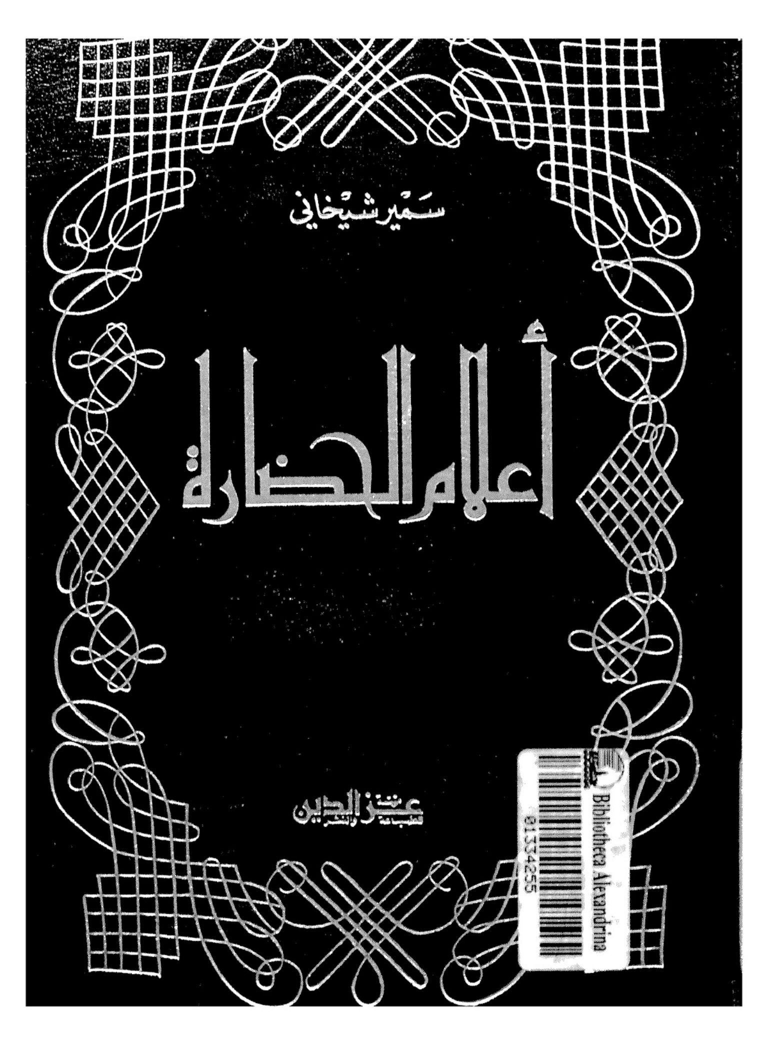
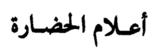

سمير شيخاني
أعلام الحضارة
عز الدين
للطباعة والنشر
Bibliotheca Alexandrina
01334255


أعـلام الحضـارة

سمير شيخاني

أعلام الحضارة

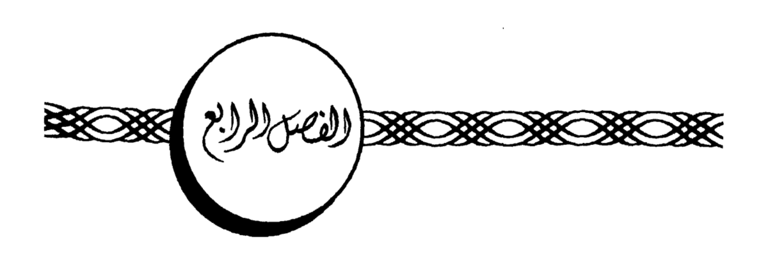
الجزء الثاني

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

الطّبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف : ٨٣١٦٤٠ - ٨٠٠٦٢١ - ٨٦٢٤١٤ - ٨٦٢٠٥١



٣٧ من اعلام الفن (رسم ، موسيقى)

باغانيني	: رواية روكامبولية
شيروبيني	: الاول بين معاصرية الاحياء
شوبان	: مدافع تغطيها الزهور
شتراوس	: الأب والابن : ملكا الفالس
مدام توسو	: متحف الشمع
دولا كروى	: شمس في رأسه وعواصف في قلبه
انغر	: مصلح ثوري
دومييه	: ينبغي للمرء ان يكون ابن عصره
فاغنر	: مجدّد في كل شيء
مانيه	: كان أعظم كثيراً من رأي زملائه
إركل	: رمز النضال في كل زمان ومكان
تشايكوفسكي	: اغرب علاقة عاطفية
تولوز - لوتريك	: الدون جوان الأحدب
غوغان	: عبقري أسيء فهمه
سيزان	: « اودّ ان اموت وانا ارسم »
هنري روسو	: رائد السوبر - واقعية في الرسم
رمسكي - كورساكوف	: مخيّلة الاطفال الخصبة
ديغا	: رسّام الحياة
رينوار	: الأرض هي جنة الآلهة
باديرفسكي	: « يالهذا السقوط ! »
ديبوسي	: ابو الموسيقى الحديثة
موديلياني	: شاعر بالقلم وبضربات الفرشاة
سيبيليوس	: باخ القرن العشرين
سترافنسكي	: انفصل عن تقاليد الماضي الموسيقية
بيكاسو	: عالَمٌ مدهش

دافنتشي : الرجل العصري الاول

(١٤٥٢ - ١٥١٩)

صوت: ايها المعلم ، انك ابصرت النور في قصر « دافنتشي » ، بالقرب من بيزا . ويقال ان ملائكة الخير انحنت فوق مهدك !

دافنتشي : صحيح ، حتى ان برج بيزا انحنى فوق مهدى كذلك ، الى حد انه لم يستطع بعد ذلك ان ينتصب مستقيما .

صوت: وقد اختلفت الناس حول تاريخ ولادتك ، حتى كان يوم ، عثر فيه الكاهن دبي على شجرة الاسرة ، فاتاحت له تعيين السنة التي ولدت فيها ، بصورة ثابتة مؤكدة ، وهي سنة **١٤٥٢** .

دافنتشي : اعتقد ان الاب دبي كان مصيبا في قوله ، فقد ابصرت النور في هذه السنة من اب فلورنسي ، كان يتعاطى المحاماة . ودرست الاصول الموسيقية والفنية في مسقط رأسي . . .

صوت: (مقاطعا) . . . مهلا ، مهلا ايها المعلم ، سنصل عما قليل الى الحديث عن مواهبك . . دعنا الآن نتبسط قليلا في موضوع مولدك . . . فانت من اسرة كانت تتعاطى اعمال تسجيل العقود وتحريرها .

دافنتشي : تقصد ان ابي كان الكاتب العدل في بلدته؟

صوت: وكان والدك في الثالثة والعشرين من عمره ، عندما رزقك من فلاحة جميلة ، تدعى كاتارينا . وكان مجيئك الى هذا العالم مناسبة لفرحة شملت منزل جدك . ولكن كاتارينا اعتبرت ضالة وزوجوها مزارعا طيبا . وفيما بعد اقترن والدك بفتاة من اسرة نبيلة تدعى البيريا جيوفاني امادوري التي اعتبرتك كأنك من لحمها ودمها ، لانها لم تزرق اطفالا . . .

دافنتشي : مسكينة ، ولكنها لم تعمر طويلا ، فقد ماتت في ميعة الصبا .

صوت : اعرف ذلك ، واعرف كذلك ان والدك تزوج ، مثنى وثلاث ورباع . . . وكلها زيجات شرعية .

دافنتشي : آه ، اجل . . فكم مرة بدلت امهات . . وكان يحدث احيانا ان اطلب من واحدة منهن قطعة الحلوى ، فاذا بها تختفي لتحل محلها اخرى ، فتناولني هذه الام الجديدة قطعة الحلوى المطلوبة !

صوت : وقضيت طفولتك في قرية فنتشي الصغيرة ، كما قضيت اغلب ايامك هائما في البراري ، بدلا من الجلوس على مقاعد الدراسة . وكانت معلوماتك بدائية بسبب ذلك .

دافنتشي : انك لعلى صواب . . . واذا كانت معلومات والدي ، تعتبر على جانب من الوفرة والقيمة ، فمعلوماتي كانت معروفة تماما .

صوت : ومع ذلك كله ، فقد كنت شديد التعطش للمعرفة ، وشديد التوق لتقوية ثقافتك . . .

دافنتشي : وقد نجحت في بلوغ هذه الغاية . فاذا انا اصبح شخصية من شخصيات التاريخ الفذة ، التي قلما يجود الزمان بمثلها . . .

صوت : (مقاطعا) . . . انك كما يبدو ، على عجل في تعريف الناس بك ! ولو تركت الحديث يأخذ مجراه الطبيعي في هذه المقابلة ، لكنا بلغنا هذا الحد في حينه . فأنت . . .

دافنتشي : (مقاطعا) . . . . كما تشاء ، ارجو الا اقاطعك بعد الآن . . .

صوت : ها انت قد قاطعتني ، ولم تدعني اكمل عبارتي ، فقد شئت ان اعقب على كلامك ، فأقول انك حقا عبقرية ، قلما يجود الزمان بمثلها . . . فقد كنت رساما ، ومثّالاً ، وموسيقيا ، ومهندسا ، وفيلسوفا . . . .

دافنتشي : ومع انني عشت قبل فرنسيس بايكون بزمن طويل ، فقد تفهمت مبادىء التجارب والاختبارات العملية احسن من بايكون ، وعرفت ما سوف يكتشفه العلماء ، امثال غاليليو ونيوتن . . .

صوت : ويقدر العارفون كذلك ، يا سيد دافنتشي ، انه لو عَرف عصركِ قوة من القوى الحديثة ، كالبترول مثلا ،

او الكهرباء لاتيح لك انهاء عملك في عالم الطيران . . .

دافنتشي : ارأيت ماذا كان بوسعي ان افعل ؟ . . . فان هذا العمل يعتبر بالنسبة الى عصري ، من اروع الاعمال .

صوت : حسناً ، اتسمح الآن بالعودة قليلا الى الوراء ، وبتفصيل بعض الامور ؟ . . .

دافنتشي : طبعا كما تشاء ، لنعد الى الوراء قليلا . . .

صوت : منذ نعومة اظفارك ، ظهر ميلك الى الرسم بالقلم ، ورغبة من والدك في تشجيعك ، جمع بعض الرسوم التي صنعتها وانت في السادسة عشرة ، وحملها الى صديقه الرسام الشهير فيروكيو الذي لم يشأ ان يصدق ان ما وقعت عليه عيناه ، رسمه فتى دون العشرين . .

دافنتشي : آه من رساميكم اليوم ، رسامي العصر الحديث . . . فان العكس تماما هو ما يجري فعندما يشاهد الناس لوحاتهم ، لا يصدقون انها من صنع رسامين كبار .

صوت : وفي ذات يوم ، شاء احد جيران والدك من الفلاحين ، ان يرسم له احد اصدقائه لوحة ، على قطعة خشبية مستديره اعطاه اياها ، فاستوليت عليها ، ورسمت رأسا مخيفا للحيوان البحري ، المعروف برئة البحر ، تحل الافاعي محل شعره .

دافنتشي : كانت تلك احدى خطرات العبقرية . . . ولعلي بذلك

سبقت اولئك المزينين ، الذين ابتكروا طريقة تجعيد الشعر النسائي .

صوت : ثم اخفيت صنيعك هذا في غرفتك ، خلف الستار . . .

دافنتشي : ستار رئة البحر ، هذا امر معروف وشائع . . .

صوت : وناديت والدك ، ثم سحبت الستار على حين غرة ، فانكشف امام عينيه المنظر المرعب ، الذي جعله يولي الادبار ، فزعا مما رأى !!

دافنتشي : وانا كذلك هرولت على اثره ، وتبعته صائحا : « لا تخف يا ابتاه ، لا تخف . . فهذا ليس رأسا حقيقياً . . انا رسمته، عد ، ولا تخشَ بأساً » !

صوت : وماذا فعل والدك ؟ . .

دافنتشي : اجابني مضطرباً ، انا لست هارباً ولا خائفاً ، انما اسرعت الى تاجر اللوحات الفنية ، اعرض عليه لوحتك الرائعة هذه . . .

صوت : وفي الواقع ابتاع هذا التاجر اللوحة منه بمئة قطعة نقدية ، وعاد ، في اليوم ذاته فباعها بثلاثمئة قطعة من دوق ميلانو . . الامر الذي يدل على حنكة التجار ، في عصركم .

دافنتشي : وفي جميع العصور . . اليس كذلك ؟ . .

صوت : ومن ثم ، دخلت محترف فيروكيو ، حيث تكشفت

عبقريتك في الرسم ، فأثرت غيرته وحسده ، فما كان منه الا ان طردك . . .

دافنتشي : هوذا الواقع ! قاتل الله الغيرة والحسد . الم تسمع المثل العربي القديم : « يكفيك من الحاسد انه يغتم وقت سرورك » ؟

صوت : انا اعرف اقوالا اخرى في الحسد ، بين شعر ونثر ، فاسمع ما يقول بعضهم :

اصبر على حسد الحسود فـان صبـرك قـاتله
كـالنار تـأكـل بعضهـا ان لم تجد ما تـأكله

ولكن دعنا من هذه الاستشهادات الآن ، فليس المجال مجالها . . . فالى جانب كونك رساما ماهرا ، كنت مخترعا ماهرا . . . فقد ابتكرت العصافير التي تطير ، وجهاز الغطس تحت الماء ، والبكرة ، ورافعة الاثقال . . .

دافنتشي : (مقاطعا) . . . والعجلات المربعة للتوقف في المنحدرات ، و . . .

صوت: دعنا نتحدث قليلا عن لوحتك الشهيرة « موناليزا » او « الجوكندة » ، فلا يمكننا ان نفترق دون ان نذكر هذه اللوحة الخالدة ، فهل لك اخيراً ان تطلعنا على سر ابتسامتها الغامضة ؟.

دافنتشي : آه ، ابتسامتها . . هذا امر بسيط للغاية . انت تعلم

انني قضيت اربع سنوات في رسمها ، رسم « موناليزا » ، مما جعلها تسأم طوال هذه المدة . فكنت اروي لها النكات والنوادر المضحكة ، لتزجية الوقت ، فكانت تبتسم لها من كل قلبها . . .

صوت : سيدي دافنتشي . انت قضيت ست عشرة سنة في بلاط لودوفيك المغربي ، حيث كنت تنظم له الاحتفالات . ولما عاد الملك فرنسوى الاول الفرنسي الى وطنه ، بعد الحرب الايطالية ، حملك الى بلاطه ، مخصصا لك مرتبا قدره سبعمئة قطعة ذهبية ، وقصرا هو قصر دوكلو بالقرب من امبواز .

دافنتشي : صحيح ، فقد كان هذا العاهل الفرنسي شديد الاعجاب بي ، وانا من لقبت بلقب « الرجل الكامل » !

صوت : وذات يوم ، لزمت الفراش بسبب المرض ، فكان فرنسوى الاول يتردد عليك يوميا لعيادتك . واتفق مرة انه كان يتأهب لمغادرة القصر عندما دخل عليه احد النبلاء ، فلم يؤخره ذلك عن القيام بزيارته المعتادة لك في موعدها ، ولما استغرب احد رجال الحاشية تصرف الملك ، وسأله عن تفضيله زيارة دافنتشي على استقبال ، النبيل اجاب :

دافنتشي : دعني اذكر جوابه ، قال : « بوسعي ان اصنع النبلاء بالعشرات ، ولكن عبقريا مثل دافنتشي فالله وحده يستطيع صنعه ! »

صوت : لقد احسن والله فرنسوى الاول صنعا وتعبيرا . . . ولكن ثمة شيئاً يحيرني ويحير الكثيرين يا سيد دافنتشي .. وهو انك على الرغم من كونك من انبغ ما انجبه الجنس البشري لم تكن تذكر شيئا ما لم تدونه في مفكرة . . .

دافنتشي : ولكن ما يحير اكثر واكثر ، هو انني كنت اذا ما دونت شيئا لاتذكره فقدت رؤوس الاقلام التي اكون قد دونتها . . .

صوت : غريب والله امرك . . والآن دعني اشير الى انك توفيت في ٢ ايار سنة ١٥١٩ بعد ان اهتممت بنفسك ، بشؤون دفنك ونفقاته .

دافنتشي : لقد دلتني الخبرة على انه ليس ثمة افضل من صاحب العلاقة ، يتولى مثل هذه الشؤون الخطيرة بنفسه . . .

صوت : صحيح . . . والمثل العربي يقول : « ما حك جلدك مثل ظفرك » . . .

دافنتشي : ويقول : « فتولَّ انت جميع أمرك ! » . . .

رفاييلو صانتي : الرسام الإلهي
(١٤٨٣ - ١٥٢٠)

صوت : غالبا ما تمطر السماء نعمها وثرواتها التي لا تحصى على واحد من البشر . مختار ، هذه النعم والثروات التي توزع عادة على فترات طويلة من الزمن وعلى افراد عديدين . وان ذلك ليصدق على رفاييلو صانتي اشهر فناني عصر النهضة الاوروبية ، الذي عُرف باسم الرسام الالهي . أبصر النور في مدينة « اوربينو » يوم الجمعة العظيمة من سنة ١٤٨٣ ، وتوفي في مثل هذا اليوم - يوم الجمعة العظيمة - من سنة ١٥٢٠ . فيكون قد عاش على الارض عمرا قصيرا ، نسبيا ، لم يتجاوز سبعا وثلاثين سنة . ولعل هذا المعلم الذي زين العالم بمواهبه العديدة يزيِّن السماء الآن بروحه الحلوة الطيبة . نحن الآن في حضرة رفاييلو صانتي شخصيا لنتعرف اليه اكثر فأكثر .

رفاييلو : على الرحب والسعة ، يا سيدي الكريم .

صوت : كان والدك جيوفاني صانتي رساما ، وشاعرا وبائع خضار وفاكهة ، كانت رسومه عادية ، وكان شعره مصطنعا ومتكلفا .

رفاييلو : ولكن خضاره وفاكهته كانت نضرة وشهية .

صوت : وكانت دوقية اوربينو الصغيرة ، حيث عاش والدك ونشأت انت ، مدينة جبلية تمتعت بالنعمة المثلثة : التربة الخصبة ، والشمس الدافئة ، والمطر الخفيف .

رفاييلو : وقد تشربت روحي تربة مسقط رأسي ، وشمسها ومطرها .

صوت : وفوق ذلك كله تشربت روحك كل مشاهدها الطبيعية الخشنة وكنوزها الفنية . وقليلة حقا هي المدن في العالم التي كانت مؤهلة لتغذية عينيّ فنان ناشىء بسحر الجمال . فقد كانت دوقية اوربينو لوحة طبيعية ممتازة ، بوديانها الخصبة وتلالها الباسمة التي تنطلق فجأة لتؤلف جبالا شاهقة . اما المدينة نفسها فكانت احدى اثمن الجواهر في تاج النهضة الذهبي ، وكانت قد حققت شهرتها كأم الفنانين عندما ابصرت نور الحياة في ٢٨ آذار سنة ١٤٨٣ . طفولتك كانت سعيدة ، الا انها قصيرة .

رفاييلو : في سن الحادية عشرة ، على ما اذكر ، فقدت امي ، كما فقدت من بعد اخا واختا . ثم فقدت والدي الذي اظهرني على اصول الرسم ومبادئه منذ نعومة اظفاري .

صوت : عندما توفي والدك وُضعت في رعاية عمك بارتولوميو صانتي ، ومن حسن طالعك ان والدك خلف لك ثروة كافية اتاحت لك دراسة الفن دون اي خوف من الجوع كما كانت الحال دائما مع سائر الفنانين .

رفاييلو : وقد غادرت مسقط رأسي في سن السادسة عشرة

واقمت في بيروجيا ، حيث درست على يدي اشهر رسامي العصر بييترو بيروجينو .

صوت : درست على يديه ردحا من الزمن وتأثرت بأسلوبه ، وقلدته تماما حتى ان الكثيرين لم يكونوا ليفرقوا بين لوحاتكما . ولكنك سرعان ما تفوقت على استاذك بفضل مواهبك الفذة ، ولما تركته في سن التاسعة عشرة كنت قد اصبحت ماهرا حقا ، واستطعت ان تضع الاساس المتين لثروة مالية قُدرت بعد سنوات بما يعادل اليوم حوالي نصف مليون دولار .

رفاييلو : ستدهش اذا قلت لك انني رسمت لوحة ذات يوم وبعثتها لقاء وجبة طعام لم تكلف ، حسب تقديري ، الا ما يساوي ربع دولار .

صوت : انها ، ولا ريب ، اللوحة المعروفة بلوحة « السيدة الجالسة » ، وهي معلقة اليوم في قصر بيتّي بفلورنسا وقد عرضتها الحكومة الايطالية سنة ١٩٣٩ في معرض نيويورك الدولي على انها تمثل اثمن الروائع الفنية ، وستدهش انت هذه المرة اذا عرفت انه لا يمكن الحصول على هذه اللوحة بأقل من مليون دولار .

رفاييلو : اصحيح ما تقول ؟ دعنا من هذا الآن ، واسمح لي ان اروي لك قصتها .

صوت : هات اسمعنا كيف رسمتها .

رفاييلو : رسمتها في احدى الامسيات الهادئة ، عندما ابصرت امًّا تحتضن طفلا ، وقد وقف بجانبها طفلها الاخر .

ولما لم يكن لدي اي قطعة قماش او اي مسند للرسم فقد عمدت الى غطاء برميل للخمر ونقلت اليه هذا المشهد الرائع .

صوت : ويقال انك ، لما فرغت من الرسم ، اعطيته لاحد اصحاب النزل لقاء عشائك .

رفاييلو : تماما ، يا سيدي .

صوت : وكانت سنة ١٥٠٤ بداية فترة حافلة من حياتك : رحلات ، وصداقات مع متمولين ونبلاء متنفذين وعمل متواصل بتكليف من هنا وهناك، واطلاع على الكنوز التاريخية والادبية والفنية الرائعة . واذا انت ، في الحادية والعشرين ، تتمتع بشهرة تحسد عليها .

رفاييلو : وفي تلك السن هبطت فلورنسا ، مدينة الازهار وعاصمة الفن الايطالي آنذاك . كنت قد سمعت بأعمال الفنانين ليوناردو دافنتشي وميكل انجيلو، فآليت على نفسي ان ادرسها .

صوت : وقد كان لدراستك اعمال هذين الجبارين ، مع اعمال الرسام ماساكيو القديمة ، والراهب فرا بارتولوميو دي سان ماركو، ابرز الاثر في تقدمك السريع في ميدان الرسم . وما لبثت ان غادرت فلورنسا الى روما بناء على دعوة البابا يوليوس الثاني لتزيين بعض حجرات القصر البابوي : الفاتيكان .

رفاييلو : أصبحت تحت رعاية هذا البابا في صيف سنة ١٥٠٨ .

وكان يُعرف بالبابا الجندي ، ويهتم بسياسة الارض اكثر من اهتمامه بامجاد السماء ، كان رجل عمل ونشاط ، وذا طموح لا يحدّ ، وكان اهتمامه بالفنون شخصيا بحتا .

صوت : هذا صحيح ، فقد شاء أن يخلّد نفسه ، بكونه راعيا للفنون سخيا ، كما شاء ان تخلد صورته على يد اشهر رسامي عصره ، الا انه كان قاسيا في معاملته للفنانين ، يعتبرهم حشرات موهوبة . كان يحصل منهم على ما يود من اعمال ثم يعمد الى سحقهم تحت قدميه .

رفاييلو : الا انه لم يكن كذلك معي ، فقد عاملني بالتقدير والحسنى .

صوت : لا عجب في ذلك ، فقد كنت تحوّل الجو الذي توجد فيه الى افضل الاجواء ، بفضل رقة حاشيتك ، ولطفك ومظهرك الملائكي حقا . ولم يخطىء والدك اذ دعاك رفاييلو ، على اسم احد رؤساء الملائكة .

رفاييلو : الواقع ، يا سيدي ، انني لما هبطت روما وجدت اكبر الفنانين فيها يعملون بحرارة في تجميلها بأمر من البابا يوليوس الثاني . ومنذ اللحظة الاولى لوصولي استغنى عن الفنانين جميعا باستثناء ميكل انجيلو وبرامنتي .

صوت : وهكذا بقيتم ، انتم الجبابرة الثلاثة ، لتصنعوا عجائب العالم الحديث الثلاث : تمثال البابا يوليوس ، وقد صنعهوميكل انجيلو وتجديد كاتدرائية القديس بطرس على يد برامنتي، وتزيينك الفاتيكان .

رفاييلو : وكنت ما ازال منهمكا في تزيين الفاتيكان عندما توفي البابا يوليوس الثاني سنة ١٥١٣ ، وخلفه البابا ليو العاشر الذي كان اشد من سلفه اهتماما بالفنون ورعاية للفنانين . ولكنه كان ، على نقيضه ، يحب الفن للفن ، ولا غرو في ذلك ، فقد ورث هذه الصفة عن والده لورنزو الجميل .

صوت : لورنزو دي ميدتشي ، اول من فهم ميكل انجيلو واعجب به وقدّره حق قدره . وتحت رعاية الابن ، وبتشجيع منه ، ازدهرت عبقريتك واصبحت واحدا من انصاف الآلهة في تلك الحقبة من تاريخ ايطاليا الزاهر .

رفاييلو : الواقع انني كنت معبود الكثيرين من طلاب فن الرسم . فكنت ، انى سرت في شوارع روما ، تتبعني حاشية من حوالي خمسين تلميذاً يسيرون خلفي خاشعين كما لو كانوا يؤدون مراسم العبادة .

صوت : يذكّرنا ذلك بما قاله لك مرة ميكل انجيلو على سبيل المزاح بشأن هذه الحاشية : « انك تسير وخلفك حاشية كما لو كنت قائدا حربيا » . فكان جوابك الفوري اللاذع : « وأنت تسير وحدك كما لو كنت جلادا » .

رفاييلو : كنت ، يا سيدي ، في بعض الاحيان لاذع القول مر اللسان . اذكر مرة ان اثنين من الكرادلة ارادا السخرية من احدى لوحاتي ، فقالا ان وجهي الرسولين بطرس وبولس شديدا الحمرة . فكان جوابي : « لقد رسمتهما

هكذا عمداً ، يا صاحبي النيافة ، وهما يحمرّان خجلا في السماء لرؤ يتهما كنيستهما في عهدة اناس مثلكما » .

صوت : يقال انك كنت تلسع بسخريتك اولئك الذين لم يكونوا في مقام يتيح لهم الحاق الاذى بك ، واما اولئك الذين كنت تعتمد عليهم في الحصول على التزامات عملية فقد كنت شديد الكياسة معهم .

رفاييلو : بالطبع ، يا سيدي ، بالطبع ، كنت معهم الفارس الكيِّس ، ذا اللسان الدافىء واليد النشيطة الماهرة .

صوت : وهكذا عملت في روما بهمة ونشاط لا يعرفان الكلل ، فتعددت منجزاتك الجليلة ، وكنت وانت في الحادية والثلاثين في اوج مجدك : المهندس المشرف على الفاتيكان ، وكاتدرائية القديس بطرس وعدد كبير من الاعمال الانشائية ، والمشرف كذلك على الحفريات في منطقة روما بأسرها ، ومنفذ الكثير من الالتزامات التي كانت تتدفق على محرفك ومصمم العديد من القصور في روما وفلورنسا .

رفاييلو : ورسام العذارى ، هذه اللوحات التي كانت شيئا جديدا في تاريخ الفن . فقد كانت حقا لآلىء جمال في اجواء السكون والسلام .

صوت : ولكن كثرة الاعمال ارهقتك ، وكانت حياتك الحافلة مأساتك . فالقدر هو ، ولا ريب ، اعظم الساخرين في العالم . فبعض ضحاياه يقضي عليهم بالاهمال المفرط ، والبعض الآخر بالمجد المفرط ، وصحيح انك

كنت تتمتع بعبقرية تفوق المستوى البشري ، الا انه لم يكن لك الا قوة بشرية ، فاذا بك تنهار تحت وطأة شعبيتك الفائقة . ففي ربيع سنة ١٥٢٠ كنت منهمكا في رسم لوحة « الصعود » ولكنك لم تنه الرسم .

رفاييلو : في اول نيسان من تلك السنة ، ١٥٢٠ ، كنت اعمل في لوحة « الصعود » بجد وجهد . وفي السادس منه وافاني الاجل المحتوم ، وكان اليوم يوم الجمعة العظيمة وهو ذكرى مولدي قبل سبع وثلاثين سنة .

صوت : لقد حار المؤرخون في تأكيد سبب وفاتك لانها كانت مفاجئة حقا . منهم من يذكر انك وقعت فريسة حمى شديدة اخطأ الاطباء في تشخيصها وعالجوك على اساس انك مصاب بزكام حاد ، ففصدوك بينما كنت في حاجة الى كل نقطة دم تقوي جسمك الذي انهكته بالعمل المضني المتواصل .

رفاييلو : سامحهم الله !

صوت : على ذكر الكرادلة ، كان لك صديق حميم منهم هو الكاردينال بيبينيا الذي كان يحثك دائما على الزواج وانت الفنان الشهير الوسيم ، وصاحب الحظوة لدى النساء . ولكنك كنت تؤجل الزواج دون ان ترفض الفكرة نفسها ، لماذا ؟

رفاييلو : الواقع انني رضيت اخيرا ، وبعد تأجيل متواصل بأن اقترن بابنة اخي الكاردينال بيبينيا ، ولكنني عدت فأجلت الزواج لسبب شريف وجيه .

صوت : وما هو، يا ترى، هذا السبب؟

رفاييلو : لقد قيل ان البابا ليو العاشر كان يود ان يكافئني على اعمالي ويقدّر مواهبي بجعلي كاردينالا .

صوت : الا ان الموت كان اسرع الى حسم الموضوع، والموت لا يعرف التأجيل . ولا ندحة عن القول انك عندما كتبت وصيتك تركت للفتاة التي كانت ستصبح شريكة حياتك مبلغا من المال تتعيش به، وقسمت املاكك بين تلاميذك .

دورر : سفير النهضة الايطالية الى الشمال
(١٤٧١ - ١٥٢٨)

صوت : خلال الفترة الاولى من الاصلاح الديني في اوروبا لم يكن في شمالي اوروبا اي مدرسة للرسم بأهمية المدرسة الالمانية ، ولم يكن هناك اي رسام بشهرة البريشت دورر . وفضلا عن منجزاته الزيتية الرائعة ، فان هذا الرسام الذي احتفل العالم الفني في سنة ١٩٧١ بذكرى مرور خمسماية سنة على ولادته ، يعتبر ربما سيد النقش والحفر على المعادن والخشب .

وكرجل وفنان يمثل دورر ابلغ تمثيل تناقضات عصره وبلاده . فقد كانت المانيا في ذلك الحين خارجة من القرون الوسطى الى النهضة ، وواعية تماما دورها في الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية . وعلى الرغم من اعتبار دورر « سفير النهضة الايطالية » الى الشمال ، فان اعماله تبرز في آن معا الحركة الانسانية والشكل الايطاليين في الفن ، والتيار المناقض للردة القوطية الاساسية بالنسبة الى التعبير .

دورر: شكراً لك يا سيدي على هذه المقدمة .

صوت : ولدت في نورنبرغ سنة ١٤٧١ - في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وهو عصر لم يكن عاديا ، اثّر فيك كما اثّرت فيه .

دورر : صحيح ما تقول . كان ذلك العصر قلقا مضطربا لانه كان عصر النهضة والاصلاح واحياء الآداب الكلاسيكية والروح الفردية والنقدية . وقد شهد العصر الكثير من التغيرات والتطورات في شتى الميادين . فيه اخترعت الطباعة ، واكتشف فاسكو دو غاما الطريق البحري الى جزر الهند الشرقية ، وتمت المحاولة الايطالية الاولى لصنع الطائرة . . .

صوت : اما في المانيا فقد ازدهر الفن وترعرع . وتطوت العلوم وخطت خطوات واسعة الى الامام . وكان مفروضا ، وقد ولدت في اسرة تتعاطى الصياغة ان تصبح صائغا كأبيك .

دورر : لقد بدأت بالفعل في تعلّم هذه الحرفة على يد والدي ، الا انني لم اكتف بذلك ، بل اتخذت الصياغة سبيلا للاتجاه نحو الفن والرسم بعد ان آنست في نفسي موهبة وميلاً إليهما. فتتلمذت على يد الفنان فولغموت وتعلمت منه القواعد الاساسية للرسم والحفر على الخشب والنقش على النحاس .

صوت : ومع انك كنت ماهرا في هذا الفن الذي كان سائدا آنذاك ، الا انك شئت ان توسع آفاقك وتتعرف على اساليب الفن العالمية ، فانتقلت الى ستراسبورغ ومنها الى كولمار .

دورر : ولا اكتمك انني عرفت الشهرة هناك ، ولكن سرعان ما انتقلت الى موطن طباعة الكتب مدينة بازل حيث قمت

بتخطيط رسائل القديس هيرونيموس ، وبعدها رجعت الى نورنبرغ سنة ١٤٩٤ حيث قررت ان اتزوج واستقر وانصرف الى العمل .

صوت : ولكن لسوء الطالع ، كانت زوجتك على جمالها ، كثيرة التذمر والشكوى مما جعل حياتك تجربة مرّة ، وشجعك على دراسة الفن في موطنه الاصلي ايطاليا .

دورر : الواقع ان مزاج زوجتي المشاكس كان له بعض الاثر في ذلك ولكن الحقيقة هي انني كنت قد وضعت ذلك الهدف لنفسي ، وهو الغرف من معين الفن الاصيل في ايطاليا . فكانت رحلتي الاولى سنة ١٤٩٥ الى مدينة البندقية حيث قضيت معظم وقتي . ورجعت الى الوطن بعد ان جمعت خبرات ثمينة من مختلف المدن الايطالية التي زرتها .

صوت : بعد رجوعك من ايطاليا ودخولك مرحلة جديدة من حياتك الفنية اسست محترفك في نورنبرغ . وكان يغلب على اعمالك الحفر على الخشب والنقش على النحاس .

دورر : وفي تلك الفترة بدأت احس بكياني الخاص ، ورحت اوقّع لوحاتي باسمي واؤرخها ، وكان الهدف من رسمي تمثيل الحقيقة كاملة ، وذلك هو تأثير الاسلوب الايطالي في فني .

صوت : وسرعان ما اتجهت الى تخطيط الاراضي والمدن ، ثم الرسم الهندسي ورسم الآثار القديمة . وتحولت بعد ذلك الى رسم الاجساد العارية على الرغم من ان ذلك الاتجاه لم يكن بعد مستساغا في شمال اوروبا .

دورر : صحيح ، فقد كان ذلك من تأثير الفترة التي قضيتها في ايطاليا .

صوت : وكما كان منتظرا بعد اتساع شهرتك واعجاب عشاق الفن باعمالك ، انهالت عليك العروض فعقدت عددا من الاتفاقيات مع امراء ونبلاء واثرياء التجار لتقديم لوحات واعمال اليهم . وما هي الا سنوات معدودة حتى عرفك القيصر فشجعك واصبح بالنسبة اليك راعي الفنون الجميلة في عصره فماذا كانت مواضيعك في تلك الفترة ؟

دورر : لقد غلبت على محفوراتي الخشبية المواضيع الدينية ، في حين كانت نقوشي على النحاس تتسم في بادىء الامر بالاتجاه الدنيوي المحض ، ثم تطورت حتى شملت مواضيع عديدة . ولا اكتمك انني كنت اكسب من بيعها الكثير ، وقد بلغت شهرة لوحاتي حدا جعل البعض يزيفونها ويبيعونها باسمي . ولكن دخلي هذا لم يكن كافيا لتمويل رحلتي الثانية الى ايطاليا سنة ١٥٠٥ فاضطررت الى اقتراض المال .

صوت : اسمح لي ، يا سيدي ، ان اشير هنا الى ان رحلتك هذه لم تكن خالصة لوجه الفن . فهناك من يعتقد انك اتخذت ذلك ذريعة هربا من وباء الطاعون الذي تفشى آنذاك في نورنبرغ .

دورر : ليعتقد المغرضون ما طاب لهم الاعتقاد ، ولكن الاستقبال الذي لقيته في ايطاليا هذه المرة من اسياد

الفن والرسم كان رائعا ومدهشا . اذ ان شهرتي كانت قد سبقتني اليهم . وقد احتفى بي بليني ، رائد عصر النهضة في البندقية آنذاك وقدمني الى المحافل الفنية حيث درست مع الرسامين الكثير من النواحي الفنية وتزودت منهم زادا كبيرا .

صوت : وعرفت منهم انه ينبغي للفنان توسيع دائرة معلوماته في الطبيعيات والرياضيات ، فانكببت على التحصيل وكنت بذلك اول فنان الماني يستخدم تلك المعلومات العلمية النظرية في فن الرسم . وعملت بالفعل على حل معضلات علم التشريح باسلوب منظم يقوم على اساس معلومات سلمية .

دورر : وهكذا رسمت جسم الانسان مراعيا النسب بين مختلف اعضائه على مستوى علمي صحيح . ولكن دراساتي في العلوم الطبيعية والرياضيات والتشريح لم تصرفني عن تأمل الطبيعة بعين واعية ثاقبة والتمتع بجمالها مع دراستها تمهيدا لتصويرها على حقيقتها .

صوت : وهكذا رسمت في هذه الفترة من حياتك ولاول مرة اروع لوحاتك الملونة التي مثلت البيوت ، والحقول الخضراء المزروعة ، ومياه البحر الزرقاء ، كل ذلك بمهارة وقدرة استحققت من اجلها لقب رائد الرسم بالالوان دون منازع ! وتعاقبت عليك الطلبات من مختلف الاوساط الراقية ، فأنتجت روائع فنية نذكر منها لوحة « تعذيب العشرة آلاف » ولوحة « المذبح » ولوحة « يوم القديسين » ، وصورتين كبيرتين بالحجم الطبيعي

للقيصر كارل الاكبر بتكليف من مدينة نورنبرغ .
وبعدها رسمت صورة للقيصر زيغسموند ، واخرى للقيصر مكسيميليان الاول سنة ١٥١٥ ، بلغت شأواً بعيداً من الجمال الفني والبراعة ، جعله يخصص لك مرتباً دائماً تقديراً لك .

دورر : الحقيقة انني لم استمتع بهذه المكافأة المالية الا اربع سنوات وحسب ، اذ توفي القيصر مكسيميليان سنة ١٥١٩ ، واعرض عني القيصر الجديد كارل الخامس . فرحلت الى هولندا بصحبة زوجتي وخادمتي حيث قضيت حقا اسعد ايام حياتي . وفي البلاد المنخفضة ، كما يسمون هولندا ، رسمت كل ما وقعت عليه عيناي بشغف ومتعة وذلك بالريشة والفرشاة والفحم والطباشير الملونة . ولما عدت الى نورنبرغ سنة ١٥٢٥ ، وكانت الفترة فترة انطلاقة الاصلاح الديني ، انصرفت الى رسم اللوحات الدينية التي تصور احداث تلك الايام القلقة ، الى جانب اهتمامي برسم الطبيعة بمناظرها وحيواناتها .

صوت : واهتممت كذلك في اواخر سني حياتك برسم لوحات الموت ورقصات الموتى ، حتى ازفت ساعتك الاخيرة سنة ١٥٢٨ . فودعت العالم الاول مخلّفا كنزا ضخما من اللوحات الفنية المتعددة المواضيع والافكار !

ميكل أنجيلو : سنوات من الصراع العنيف
(١٤٧٥ - ١٥٦٤)

صوت : يقول الفيلسوف الاميركي جورج سنتايانا في احدى قصائده ان الله ضاعف الخليقة عندما خلق شكسبير . هذا ذاته يمكن ان يقال عن ميكل انجيلو ، هذا الجبار بين الجبابرة الذي وصف بأنه « ازميل الله » ! ذلك بأن تزيين سقف كابيلا السستين في الفاتيكان هـو وحـده التكوين يُخلق من جديد . فهذا السقف يرتفع عن الارض اربعين قدما ، وتبلغ مساحته حوالي ٤٣٥٦٠ قدما مربعا ، وهو مقوس وتتخلله نوافذ .

هذا الفنان الجبار الذي قضى على الارض تسعين حولا ، وزخرت حياته بالعمل المتواصل لم يتحسر ، وهو على فراش الموت ، على انتهاء حياته بل على انتهاء نشاطه وعمله . فقد نقل الكاردينال سالفياتي اذ ذاك عنه قوله : « انني اموت وانا ما كدت بعد اجتاز مرحلة تعلّم الفباء الفن . وقـد كنت عـلى وشـك الاستعـداد لعمـلي الحقيقي ! »

لقد انتقلنا دفعة واحدة الى نهاية هذا الفنان الايطالي الاشهر ، وكان اجدر بنا ان نبدأ من البداية . وهذا ما سنقوم به الآن .

انت ابصرت النور في فلورنسا سنة ١٤٧٥ ، وترعرعت فيها ، ونشأت في اسرة لا نساء فيها ، اللهم الا والدتك .

ميكل انجيلو: تماما . . كان لي اربعة اشقاء ولم يكن لي شقيقات . وقد توفيت والدتي وانا بعد في السادسة من عمري .

صوت : وعلى ذلك لم تعرف اي حنان نسائي حتى بلغت الستين من عمرك .

ميكل انجيلو :انا لم اعرف اي حنان رجالي ـ اذا صح التعبير ـ (يقهقه) فقد كان والدي من اصل نبيل ، ولكنه كان فقيرا ، وعاطلا عن العمل في اغلب الاحيان ، الامر الذي اورثه طباعا فظة سيئة ، وجعله قاسيا معنا ـ نحن اولاده ـ لا يتورع عن اساءة معاملتنا . . .

صوت : ولعلك كنت اكثر اولاده تعرضا لقسوته بسبب تصريحاتك المتكررة عن ميلك الى الفن ، وعدم تلبية رغبته في الانصراف الى الاعمال التجارية .

ميكل انجيلو: في الواقع ان والدي كان يريد ان نصبح جميعا من رجال المال لتكون اسرتنا مثل سائر الاسر الشهيرة انذاك : آل بيتي ، وآل سفورزا ، وآل ميدتشي .

صوت : ولكن خاب فأله في ما خصك ، وعلى الرغم من استعمال الشدة معك الحجت على امتهان الفن ، فلما اسقط في يده ادخلك ، وانت في الثالثة عشرة ، محترف الاخوان غرلندايو الشهير في فلورنسا وغسل يديه منك .

ميكل انجيلو :وهناك تلقنت الدروس الاولى والوحيدة في الرسم ،

ولكنني لم استطع البقاء طويلا في محترف غرلندايو لان مهارتي الفنية ، ومواهبي اثارت الحسد والغيرة في نفس غرلندايو ، فطردني .

صوت : لعل عمله ذلك كان من تدبير العناية الالهية ، اذ انه كان نقطة تحوّل في حياتك . فقد انصرفت باكرا الى دراسة النحت على يد المثّال العجوز الشهير برتولدو الذي كان يعطي دروسه للناشئين في حديقة قصر لورنزو دي ميدتشي ، الملقب بلورنزو العظيم ، وراعي الفنون المعروف .

ميكل انجيلو :ذلك المكان كان حقا جنة عدن بالنسبة الي . ذلك بأنني تعلمت هناك العمل الذي خلق الله يدي من اجله .

صوت : وفي ذلك المكان قابلت الرجل الذي ادخلك عالم المعرفة والفن والموسيقى ، والشعر والجمال ، وخفة الروح ، وبكلمة اخرى ، كل ما كانت تتعطش اليه نفسك . فقد حدث ان شاهدك لورنزو العظيم تنحت تمثالا متقن الصنع من قطعة رخام مهملة ، فأعجب بك ، وادخلك قصره ، وعاملك مثل اولاده واجلسك الى المائدة معهم . فانفتحت مذ ذاك امامك آفاق واسعة جديدة لم تكن لتحلم بها.

ميكل انجيلو :وحول تلك المائدة يا سيدي ، وقد عرفت بمحور حضارة العصر ، كان يتحلق كبار شعراء العصر وعلمائه . وكانت القراءات القّيمة تحتل مكان الثرثرة الفارغة . وقد اطلعت في تلك المرحلة من حياتي على فلسفة افلاطون ، وشاعرية دانتي .

صوت : وقد برزت فيك هكذا موهبة جديدة ، اذ نظمت الشعر فيما بعد ، الشعر الذي يبدو في اخلاصه انه ذوب روحك الكبيرة الزاخرة بالعواطف السامية ، والرؤى السماوية .

ميكل انجيلو :اجل ، ولي ست وسبعون قصيدة . . . .

صوت : سوى ان شخصيتك الانسانية كانت نقيض روحك . فقد كنت غضوبا ، سيّىء الطبع ، مر اللسان ، وقد اورثك نقدك لاعمال زميلك في الدراسة والتدرب توريجيانو عاهة دائمة في وجهك ، اذ حطم انفك بلكمة من قبضة يده . وقد حملت الى البيت بين الموت والحياة ، فلما شفي جرحك نظرت الى المرآة فرأيت وجهك المشوه ، فحقدت على العالم ، وانطويت على نفسك .

ميكل أنجيلو: الواقع أني لم أشفَ شخصياً ولا جسدياً ولا نفسياً بشفاء جرح أنفي .

صوت : وحوالي تلك الفترة من حياتك ، سمعت الراهب السياسي الشهير سافونارولا ، يبشر ، ويهاجم بشدة وعنف وثنية حكام فلورنسا ووحشيتهم ، فكان لذلك ابلغ الاثر في نفسك ، وكدت تهجر فنك لتبتعد عن العالم اجمع .

ميكل انجيلو :لا عجب في ذلك ، فقد سبقني احد اشقائي ، تحت تأثير تعاليم سافونارولا الى دخول احد الاديرة الدومينيكية .

صوت : وقد بدأ في نفسك حينذاك صراع عنيف بين التشكيك والايمان ، بين الجمال والواجب ، بين افكار العالم القديم ، ومُثل العالم الحديث .

ميكل انجيلو :ولكن الصراع هذا توقف بعد حين ، ولعل ذلك كان من طالع فني . ذلك بأنني استطعت التوفيق بين هذين العالمين اللذين كانا في ظاهرهما ابعد ما يكونان عن التوفيق : قدسية الجمال وجمال القدسية . وقد احل هذا التوفيق بين الوثنية والمسيحية السلام في نفسي .

صوت : وفي حين كان هذا الصراع العنيف يعتمل في اعماقك توفي راعيك وسيدك لورنزو . وكان ذلك سنة ١٤٩٢ ، فغادرت فلورنسا التي كانت تغلي كالمرجل بفعل نشاط الراهب الثائر سافونارولا ، ورحت تنتقل بين المدن الايطالية حتى بلغت روما وعندما هبطت مدينة الفاتيكان كان لك من العمر احدى وعشرون سنة .

ميكل انجيلو :روما ، مدينة الايمان الخالدة ، عندما هبطتها سنة ١٤٩٦ ، كانت مدينة الموسيقى ، والاجرام ، مدينة الثقافة والجمال والمجون والفساد ، مدينة الرقص ، والقصف ، والشعر والسمر ، مدينة المعابد الجميلة وحجرات السجن البشعة ، مدينة التقوى في منازل الورعين المتواضعين والشهوة في قصور الاثرياء . ولذا الفيت نفسي طوال سنتين غريبا فيها ، وغريبا عن العالم كله . لم يكن لي اصدقاء ولم اكن بحاجة الى احد منهم ، وقد قررت الا يكون لي اصدقاء .

صوت : ولكنك ، مع ذلك كله عرفت الشهرة في تلك المدينة الغريبة ، وانت في الثالثة والعشرين . فقد صنعت تمثالا ليسوع وامه لكنيسة القديس بطرس اثر مباراة جرت من اجل ذلك ، كان الفوز فيها حليفك . ومما يذكر في هذا

الصدد انك حفرت اسمك على هذا التمثال ، وهو امر لم تكرره بعد ذلك مطلقا .

ميكل انجيلو :كانت تلك المرة الاولى والاخيرة التي استسلمت فيها الى الغرور .

صوت : الواقع يا سيد ميكل انجيلو ، ان روائعك ليست بحاجة الى حمل اي توقيع من خالقها مثلها في ذلك مثل الاشجار والجبال في الطبيعة الرحبة . حسنا ولدى بلوغك السادسة والعشرين عدت الى مسقط رأسك فلورنسا ، وهناك صنعت في حوالي ثمانية عشر شهرا تمثال داود الجبار . وقد كان هذا التمثال الذي راح الايطاليون يؤرخون به ، بداية عهد جديد في فن النحت . وقد حملتك شهرة هذا الجبار ـ او تمثال داود ـ مجددا الى روما حيث كان قداسة البابا الجديد يوليوس الثاني ، يود ان يخلد ذكراه باقامة ضريح له لا شبيه له في العالم بأسره . وقد وعدك بضعف المبلغ الذي طلبته مكافأة على عملك ، وحثك على البدء بأسرع ما يمكن .

ميكل انجيلو: وانصببت على العمل ، ولكن سوء الطالع شاء ان يعرقل عملي اذ وضع في سبيلي عدداً من المنافسين المنافقين ، وعلى رأسهم برامنتي الذي اقنع قداسة البابا ببناء كنيسة بدلا من اقامة ضريح ، لان اقامته ضريحا ، وهو بعد حي يرزق شؤم عليه .

صوت : وهكذا توقفت عن العمل ، وعدت الى فلورنسا حانقا على البشرية وحاقدا ، معتبرا الجميع ضدك ، فانعزلت عن الناس ، وكان ذلك تصرفك في كل مرة تصاب بأذى .

ومع ان البابا استدعاك غير مرة ، الا انك رفضت تلبية طلبه . فلما رجاك ان تحضر الى الفاتيكان لانك فنان ذو قيمة كبرى ، لبّيت الرجاء وقابلت البابا ، لا في روما ، بل في منتصف الطريق ، في بلدة بولونيا الايطالية .

ميكل انجيلو :وكان قداسته قد تخلى عن مشروع الضريح ، فكلفني تزيين كابيلا السستين التي ذكرتها في مقدمتك ، يا سيدي . . .

صوت : ولما توفي البابا يوليوس الثاني طلب اليك وارثوه ان تنهي الضريح بدأته في حياته وعليه وتمثاله. وعملت فيه - رغم كل الظروف السيئة والعراقيل التي اعترضت سبيلك والحسد الذي احاطك به منافسوك - فأنهيته عندما بلغت السبعين من العمر . وكنت في السادسة والستين عندما انتهيت من رسم لوحة « يوم الدينونة» على جدران كابيلا السستين ، وقد اصبحت ثريا ، وشهيرا ، وقبلة انظار جميع فناني العالم .

ميكل انجيلو :ولكنني ، مع ذلك ، كنت اتعس من اي وقت مضى . فقد اضطررت الى دفع غرامة الحياة الطويلة ، فقدت اعز اصدقائي واحدا بعد الاخر .

صوت : ولعل اعزهم على الاطلاق كانت فيتوريا كولونا ، تلك السيدة النبيلة التي كنَّت لك اكثر من الاعجاب . فقد كانت وفاتها ضربة شديدة وجهت اليك ، واصبت بانهيار عصبي ، ورقدت الاسابيع بطولها . ولكنك ما لبثت ان شفيت لان عملك لم يكن قد انتهى بعد . فقد كان عليك ان تعطي العالم رائعة اخرى ، يعتبرها الكثيرون اروع

روائعك على الاطلاق .

ميكل انجيلو :كنت في الثالثة والسبعين عندما طلب الي البابا ان اصمم القبة الجديدة لكاتدرائية القديس بطرس . فرفضت لانني اعتبرت هذا العمل الضخم غير مناسب لسني . والح البابا ، فنزلت عند الحاحه شريطة ان لا اتقاضى اي بدل على اتعابي .

صوت : ولكن ما كنت تخشاه لم يحدث . . . وبدلا من ان تموت انت في غمرة انهماكك بعملك ، مات في تلك الاثناء اربعة من البابوات ، غير البابا الذي كلفك العمل . وقد نفضت يديك منه في ست عشرة سنة . وكنت قد بلغت التاسعة والثمانين . . .

ميكل انجيلو :الا انني لم اتوقف عن النشاط كليا بعد اتمام عملي ذاك . فقد قضيت الشهور الاخيرة من حياتي في تصميم ونحت التماثيل التي شئت ان تقوم على ضريحي ، وعددها اربعة .

صوت : وفي ١٢ شباط من سنة ١٥٦٤ وقفت طوال اليوم تعمل تحت وجه السيد المسيح . وفي الرابع عشر منه امتطيت جوادا وتنزهت على صهوته تحت المطر المنهمر . وبعد ذلك بأربعة ايام فاضت روحك الى بارئها وانت في كامل وعيك .

ميكل انجيلو :وكما ذكرت في مقدمتك ، يا سيدي ، لم اتحسر ، وانا على فراش الموت ، على انتهاء حياتي ، بل تحسرت على انتهاء نشاطي ، وكنت اذ ذاك قد اجتزت مرحلة الفباء الفن ، وعلى وشك الاستعداد للبدء بالعمل .

صوت : عظيم، يا سيد ميكل انجيلو، فأنت لم تدع سانحة تمر دون أن تبدع فيها، فقرَّ عينا، وثق أن في كاتدرائية القديس بطرس التي لها أروع قبة في العالم، تتجاوب مع كل نغمة تتعالى من الأرغن أو الكورس آخر أصداء روحك الجبارة.

ميكل انجيلو :شكرا ، يا سيدي !

تشيلليني : عبقرية خلّاقة
(١٥٠٠ - ١٥٧١)

صوت : حياة هذا الفنان الايطالي الذي سنقضي معه بعض الوقت الان سلسلة متصلة الحلقات متشابكة من الخلافات والمؤامرات والعداوات والسجون ، والمصالحات ، والوقائع الغرامية ، تتوجها جميعا جواهر عبقريته الخلاقة . وان كنوز هذا الصائغ الذي عالج الحفر على المعادن الثمينة والنحت ، توجد اليوم ، او يوجد ما بقي منها في متاحف فلورنسا ولندن وباريس وفيينا . والى جانب اعماله الفنية الرائعة التي اتلف الكثير منها ، وضع تشيلليني ترجمة لحياته بدأها في فلورنسا سنة ١٥٥٨ ، يظهر فيها بمظهر الفنان الدعي ، والوغد الجذاب ، ووضع كذلك رسائل مطولة في فن الصياغة ، والنحت ، والتصميم . والآن الى الاسئلة والاجوبة في هذه المقابلة التي ارجو ان تكون ممتعة .

تشيلليني : اهلا وسهلا ، وعلى الرحب والسعة . تفضل اسأل .

صوت : انت ابصرت النور في فلورنسا في اول تشرين الثاني سنة ١٥٠٠ .

تشيلليني : اذا شئت التدقيق وضبط الامر فاسمح لي ان اذكر انني ولدت بعد ان مضى على زواج والدي بأمي عشرون سنة .

صوت : من ابيك ، وكان صانع آلات موسيقية ، ورثت المهارة في العمل اليدوي . وكنت منذ نعومة اظفارك تتسمر امام واجهات حوانيت الصاغة مأخوذا بطرقات الشواكيش الصغيرة ، ووهج النيران التي يصهر بها الصاغة المعادن .

تشيلليني : ولم اكن لأكتفي بالتسمر كما تقول امام هذه الحوانيت ، بل كنت ادخلها لارقب عن كثب كيفية العمل في الذهب وسائر المعادن الثمينة .

صوت : وما لبثت ان التحقت بأحد هذه الحوانيت للتدرب على فن النقش والصياغة ، مما اثار غضب والدك الذي كان يود ان تنصرف الى دراسة الموسيقى وعزف الناي .

تشيلليني : صحيح ان انامل المرهفة ، كان يمكن ان تجعل عيني والدي تترقرقان بالدموع عندما تعالج الناي ، الا انني لم اكن اميل الى الموسيقى لانها كانت تقتضي مني التدرب الطويل يوما بعد يوم .

صوت : ولكي تتهرب من النوتات الموسيقية التي كنت تكرهها كنت تتغيب الشهور الطوال عن المنزل فتعمل في حوانيت الصاغة في المدن المجاورة لفلورنسا لكي تكسب قوتك ومعيشتك .

تشيلليني : وفي التاسعة عشرة من عمري بلغ النزاع بيني وبين والدي الذروة فغادرت المنزل قاصدا روما سيرا على قدميّ لانني كنت قد سمعت ان قداسة البابا يغدق الاموال على الفنانين كما تغدق الينابيع الماء على العطاش .

صوت : وكان اول عمل قمت به في روما تزيين او زخرفة علبة

فضية لاحد الكرادلة ، وقد بلغ من اعتزاز الصائغ الذي كنت تعمل لديه ان عرضها على اكبر عدد ممكن من سكان المدينة .

تشيلليني : اما انا فكنت اكثر منه اعتزازا وفخرا ، بحيث انني ارسلت جزءا من اجرتي الى والدي الذي اقول بكل تواضع انني ثابرت على مساعدته ماديا ما وسعني ذلك طوال المدة التي عاشها .

صوت : الواقع ، يا سيد تشيلليني ، ان يدك كانت سخية في العطاء وسريعة ، سخاءها وسرعتها في انجاز الروائع الفنية .

تشيلليني : وما دمت قد ذكرت ذلك ، يا سيدي ، فاسمح لي ان اشير ههنا انني طوال حياتي العملية المرهقة مددت يد المعونة السخية لشقيقة لي ارملة ، كانت تعول ستة اولاد .

صوت : فضلا عن مساعدتك اسرة لا تربطك بها اي صلة رحم او نسب .

تشيلليني : ولا تنسَ انني كنت احدب على الشبان من الطلبة الفنانين والنماذج الفنية .

صوت : وفي المدينة الخالدة كسبت مالاً وفيراً في حانوت خاص بك انشأته هناك . ومن هذا المحترف الفني توالت الروائع الفنية ، من خواتم وبروشات وجواهر ومدى وخناجر واحزمة فضية للعرائس وابريق فضي لاحد الاساقفة .

تشيلليني : كما صنعت وزخرفت ، كذلك البنادق ، وبعضها

لاستعمالي الخاص في صيد البط وسط المستنقعات المحيطة بروما .

صوت : ونأتي الى مغامراتك الحربية التي بدأت سنة ١٥٢٧ عندما حاصرت روما قوات الامبراطور كارلوس الخامس النمساوي بقيادة الدوق دو بوربون الفرنسي . فقد كنت خفيرا متطوعا تقف على احد الاسوار ، فاتفق ان شاهدت من خلال الضباب العدو يقيم سلّما للصعود عليه فوق السور . فاطلقت عليه النار وجندلته بطلقة واحدة .

تشيلليني : ومن غرائب المصادفات ان هذا الذي جندلته كان الدوق دو بوربون نفسه .

صوت : يقال ، يا سيد تشيلليني ، انك ادعيت ان من قتلته كان قائد الحملة ، ولم يثبت شيء من ذلك .

تشيلليني : الذي ثبت حقا ، يا سيدي ، ان التاريخ قد سجل انه في ذلك اليوم بالذات قتل الدوق دو بوربون برصاص احد الخفراء .

صوت : وهكذا انيطت بك قيادة المدفعية المتحركة فوق سطح قلعة سانت انجيلو الجبارة .

تشيلليني : وقد جاء البابا كليمان السابع بنفسه ليشهد مهارتي في تصويب النيران الى خنادق العدو ، ولم ينقض شهر من الزمن حتى نسيت كل شيء عن فني الرفيع .

صوت : ووضعت الحرب اوزارها فعينت في ادارة سك النقود في الفاتيكان ، وقد صنعت في تلك الاثناء الكثير من المجوهرات الجميلة ، وبينها بروش تحليه الماسة يمثل عرشا

يجلس عليه الله وتحيط به الملائكة ، بناء على رغبة البابا الذي كان يقدر مواهبك حق قدرها .

تشيلليني : الا ان حياتي لم تكن كلها وقفا على العمل في خدمة الكنيسة ففي مرة القيت جانبا ادوات العمل لالحق بوجه صقلي جميل حتى مدينة نابولي .

صوت : لم يكن ذلك مستغربا عنك ، فان الفتيات اللواتي كن يعملن نماذج لك كفنان لم يكن بوسعهن مقاومتك اغرائك كرجل ، وقد عرف عنك انك كنت عنيفا في حقدك عنفك في حبك . فعندما قتل اخوك في احدى المنازعات في الشارع لم تفكر البتة في اللجوء الى العدالة .

تشيلليني : الحقيقة ان القاتل كان جنديا في فرقة الحرس في روما ، فعزمت على الثأر منه وتحصيل حقي بيدي . وظللت اراقب قاتلِ اخي كما لو كان فتاة حسناء اهيم بها حبا . واخيرا تسنى لي تنفيذ غايتي في احد الازقة المظلمة .

صوت : وتوفي البابا فضربت الفوضى اطنابها في روما في الفترة التي سبقت انتخاب البابا الجديد . وفي تلك الاثناء قام صائغ منافس لك في الفاتيكان يدعى بومبيو يبحث عنك ومعه عشرة من الرماة المسلحين .

تشيلليني : وقد اتفق ان صادفتهم في بعض الانحاء فاشتبكت معهم وطعنت بومبيو طعنة نجلاء قاتلة ، وشتَّت رجاله .

صوت : وكانت ابنة بومبيو هذا زوجة صديق بيير لويجي ، نسيب البابا ، فأوغرت عليك صدر الحبر الاعظم ، واصبحت مذ ذاك مطاردا ليل نهار .

تشيلليني : ولكنني كنت دائما انجو من مطاردي السفاحين وفي الوقت المناسب .

صوت : ولكن في سنة ١٥٣٧ القي القبض عليك بأمر بابوي ، والقي بك في احد السجون .

تشيلليني : الواقع انني احسست اذ ذاك ان نهايتي قد اقتربت لان الجميع كانوا مصممين على وضع حد لحياتي .

صوت : ولكن حدسك لم يصب لانك استطعت بمهارة فائقة ان تدبر امر فرارك من السجن بخطة جهنمية مدروسة ، ليس الآن مجال تفصيلها ، وكل ما نذكره ههنا انك حطمت ساقك في محاولة الهرب تلك ، مما اوقعك بين يدي خادم كاردينال البندقية الذي عرفك ، وحملك من فوره الى قصر سيده . ويشاء سوء طالعك ان الكاردينال كان قد طلب من البابا سيامة احد اصدقائه اسقفا فرفض طلبه وعلى ذلك تم الاتفاق بين الكاردينال والبابا على حسابك .

تشيلليني : لقد حصل كاردينال على درجة الاسقفية لصديقه ، مقابل تسليمي الى البابا الذي رمى بي في سجن مظلم عميق يقوم تحت قلعة سانت‌انجيلو حيث بقيت بضعة أيام في حالة الهذيان .

صوت : وفي تلك الاثناء ابدى ملك فرنسا فرنسوى الاول رغبته في ان يكون عنده في قصره في فونتبلو صائغ فنان من عيار بنفنوتو تشيلليني الذي سمع عنه وعن مهارته الكثير . وهكذا استخدم كاردينال آخر نافذ ، مسموع الكلمة ، وساطته مع البابا .

تشيلليني : وهكذا انتقلت من سجني الرطب المظلم الى ابهى واعظم بلاطات اوروبا ، واقمت في جناح فخم خاص ، وأُلحق بالعمل معي عدد من المعاونين ، وطلب الي صنع الكثير من الاعمال الذهبية والفضية والبرونزية .

صوت : وكان الملك والملكة والكاردينال والنبلاء غالبا ما يترددون عليك في محترفك ، وكان كل شيء بالنسبة اليك على ما يرام لولا مؤامرات عشيقة الملك ضدك .

تشيلليني : لقد ساء هذه العشيقة ان اهمل آراءها في فن النقش والصياغة .

صوت : الواقع انك ارتكبت بذلك خطأ لا يغفر مع انه عرف عنك انك كنت شديد الكياسة مع الجنس اللطيف . وهكذا انسحبت الى فلورنسا سنة ١٥٤٥ لتعمل تحت رعاية الدوق كوزيمودي ميدتشي . ولعل اروع اعمالك في تلك الفترة تمثال فرسارس، البطل الاغريقي الاسطوري الذي ذبح ميدوزا، ذلك الكائن الشرير الذي كان له جسد عذراء حسناء. وله بدل شعره افاعي ووجه يحوِّل من ينظر اليه من البشر الى حجر.

تشيلليني : لقد تحدثت مطولا عن عملي في هذه التحفة الفنية في ترجمة حياتي ، ذلك بأنه التمثال الوحيد الذي بوأني المقام الرفيع في طليعة النحاتين المشهورين فضلا عن سائر منحوتاتي ، وبينها تماثيل نصفية لشخصيات معروفة ، وتماثيل لابطال اسطوريين ، وصليب ضخم لضريحي .

صوت : وعندما تقدمت بك السن رحت تحيا حسب الانظمة

الوضعية المتعارف عليها بعد ان عشت على هواك حتى تلك اللحظة . ففي سن الرابعة والستين تزوجت مدبرة منزلك ، ورحت تربي الاطفال .

تشيلليني : وبعد ان بسطت يدي دون اي حساب عملت كما يعمل الباقون ، فاستثمرت ما جمعت من مال ، فكانت النتيجة انني اضعت كل ما املك .

صوت : وفي ١٣ شباط ١٥٧٥ انتهت مغامراتك الدنيوية . ولكنها مستمرة الى الابد بفضل ترجمة حياتك التي تجددها المطالعة جيلا بعد جيل . وتجدر الاشارة ههنا الى ان المخطوطة ظلت مفقودة حوالي قرنين .

تشيلليني : احقا ما تقول ، يا سيدي ؟

صوت : انني جاد في ما اقول . فلما ظهرت الى حيز الوجود ونشرت اجتاحت اوروبا بأسرها . وقد ترجمها الشاعر الالماني غوته ووصفها بأنها اعطته صورة عن تلك الفترة من التاريخ افضل من كتب التاريخ نفسه . وقد التهمها كذلك الروائي الفرنسي الكسندر دوما ، ثم صنع فارسه الضاحك دارتانيان رفيق الفرسان الثلاثة .

تشيلليني : شكرا لك على كل هذه المعلومات الجديدة عليّ .

تيسيانو: تاريخ للذكريات
(١٤٧٧ - ١٥٧٦)

صوت : ليس دائماً صحيحا القول ان اولئك الذين يحبهم الله يموتون في مقتبل العمر ! . . ذلك بأن الالهة احبت حتما الرسام الايطالي تيسيانو ، ومع ذلك قسمت له من السنين اكثر من نصيبه الارضي . فقد عاش في العالم الاول تسعا وتسعين سنة ، وهي فترة تعاقب فيها ثلاثة ملوك ، على الحكم ، واربعة عشر من البابوات ، واربعة عشر محافظا من محافظي مدينة البندقية ، واخيرا هلك مع من هلك سنة ١٥٧٦ بداء الطاعون الذي ذهب ضحيته اذ ذاك نصف سكان المدينة ، وكان هذا الوباء قد ضرب المدينة قبل سنة ولم يجرفه معه . . . وكان قبل اسابيع قليلة من النهاية قد اقام حفلات شراب لتكريم اصدقائه ، ومتّع نظراته المشتاقة بمرأى الفتيات البندقيات الحسان اللواتي عرف من قبل امهاتهن وجداتهن واحبهن . وطوال قرن من الزمن بدا كأن الموت لم يجد اي منفذ الى بنية هذا الرجل الخشن ، والفنان الرمادي اللحية المحب للسرور واللهو ! كان تاريخا للذكريات . ومعاصرا لكل من الملك هنري الثامن ، ومارتن لوثر ، وكالفن ، وفرنسوى الاول ، وشارل الخامس ، وقد تخطاهم في

العمر والحياة جميعا ، وكان كالسنديانة العتية العتيقة في غابة الزمن ، ومع ذلك ظل بريق حب الحياة والمرح يشع من ناظريه . وعلى الرغم من ان الشيخوخة هي موسم المأساة بالنسبة الى الكثيرين فانها لم تكن بالنسبة الى تيسيانو. فبثروته الطائلة كان محبوب زملائه الفنانين ورعاة الفنون الجميلة من الارستقراطيين في العالم اجمع . وقد سعى كل من ملك اسبانيا وعاهل الامبراطورية الرومانية المقدسة لكي يصبحا في عداد رفاقه واصدقائه . والى النهاية بقي في رعاية ابنته وابنه اللذين كانا يعبدانه . وطوال حياته لم تفارقه حيويته ، ولا نشاطه ، ولا رغباته . فالشيخوخة في نظره كانت قطعة أرض جميلة يغطيها الثلج وأشعة الشمس تنسكب فوقها بحرارة . ولم تهب اية رياح شمالية قط لتزعج هدوء سنيه الاخيرة . . . نحن الان مع الرسام المعمر تيسيانو الذي سيحدثنا في مستهل هذه المقابلة بايجاز عن نشأته قبل بدء الحوار معه . . تفضل ، يا سيدي !

تيسيانو: كما تشاء ايها السيد ، لقد ابصرت النور سنة ١٤٧٧ في بيافي دي كادوري ، وهي بلدة جبلية صغيرة تقع في شمالي إيطاليا، بين بافاريا الجنوبية والبحر الادرياتيكي . صحبني والدي في الثانية عشرة من عمري الى مدينة البندقية او فينيسيا ، هذه المدينة الكبرى في غرب ايطاليا التي كانت في تلك الفترة قد فقدت الكثير من ازدهارها وعزها ، مع احتفاظها بلقب المدينة الرئيسية في اوروبا ، ولم تكن مدينتنا لندن

وباريس في ذلك الزمن تليقان بحمل شمعة لهذه المدينة التي اشتهرت بشوارعها المائية وهياكلها المشعة . ولن اسهب في الاشادة بالنبدقية بل اكتفي بالقول انها كانت اشبه بالحجر الكريم على حافة الحذاء الايطالي !

صوت : حسنا . . . ولا بد ان تلك الزيارة لمدينة البندقية قد تركت في نفسك الفتية انطباعا كبيرا ؟

تيسيانو: بالطبع ، يا سيدي ، فبصفة كوني فنانا اصبحت النتاج المثالي لروح هذه المدينة العالمية ، التي جمعت مختلف طوائف البشر والثقافات . . . وبعد وقت قصير من زيارتي لها رحت اتدرب على يد الرسام جيوفاني بلليني ، احد الاخوين بلليني الشهيرين . وكنت ماهرا جدا في الالوان ، فمنعني المعلم من الاسترسال في ذلك واكرهني على الاهتمام بالشكل . وكنت احب تمثيل فينوس وباخوس والمناظر الضاحكة على القماش ، فحولني الى رسم العذارى والقديسين. وباختصار كنت اغلي بالحيوية ، وشديد الرغبة في رسم كل ما اراه على القماش ، فاذا ببيلليني يخنق فيّ قواي الخلاقة !

صوت : ولم تطل اقامتك في محترف بلليني كثيرا ، ذلك بأنك تعرفت هناك الى رسام كان يتعلم مثلك على يديه يدعى جيورجيوني كان كابولون في مظهره ، وكالشيطان في حديثه ، يعزف على العود فيجعل قلوب كل صبايا البندقية ترقص على انغامه الساحرة ، فضلا عن مهارته في الالوان ، ولكنه كان مغمورا كرسام مثلك تماما .

وقد عدتما ذات ليلة متأخرين عن الموعد فطردكما صاحب المحترف .

تيسيانو : وقد احسن صنعا اذ كان ذلك نقطة تحولٍ في حياتنا، على الرغم من اننا في تلك المرحلة لم نكن نملك شروى نقير . واستطعنا ان نجمع مبلغاً زهيدا من المال استأجرنا به غرفة صغيرة تطل على القنال الكبير الذي كان يعج ليلا ونهارا بالغندولات . وكان جيوجيوني شاعرا من حيث فن اللون ، وخبيرا بشؤون الحب والنساء . . . فكان المرشد لي ، وكنت انا اتبعه في كل شيء ، ونجحت. لقد كان الامل الافضل في المدرسة الفينيسية للرسم ، وقليلون هم الذين قدروا قيمة غروب الشمس في البندقية وروعته حتى جاء جيورجيوني وصفّاة عبر عينيه والتقط جوهره بالرسم. لقد كان لهذا الشاب اللمسة الفنية والخيال الكبير الذي كان للاساتذة الاغريقيين القدامى . والحقيقة انني كنت اخرّ راكعا عند قدميه اعجابا بفنه وتقديرا له .

صوت : واستطعتما مع هذا الاله الوثني ان تجدا عملا لكما لعله اول عمل يطلب اليكما القيام به . وكان تجميل احد المخازن الكبرى وقد ذهب طعمة للنيران ، ثم اعيد بناؤه . وكانت المساكن العادية كالهياكل والمعابد في تلك الفترة تزين بالرسوم على السواء .

تيسيانو : صحيح ان ذلك كان اول عمل طلب الينا انجازه . ولكنه كان اخر عمل ايضا ، اذ خلاله دبت البرودة الى صداقتنا التي سرعان ما انقطعت انقطاعا تاما . اما

السبب فهو حسد جيورجيوني وغيرته مني ، فهو لم يشأ ان يحل ثانيا في اي شيء. وبكل تواضع اقول انه مع تقدمنا في العمل في ذلك المخزن ، ايقن انني على وشك ان اتفوق عليه في فن التلوين ، وذلك ضربة مميتة تصيب كبرياءه !

وهكذا حبس نفسه في مسكنه طوال ايام ورفض مقابلتي . وعندها غادرت البندقية لاواصل السير وحدي في عالم الرسم وحدي .

صوت : وماذا حدث لجيورجيوني ؟

تيسيانو: لقد عاد جيورجيوني سيرته الاولى من الحياة الليلية الصاخبة لينسى خيبة امله ، ولم يمض طويل وقت حتى انهكته هذه الحياة الماجنة وارهقه اليأس ، فقضى في شرخ الشباب ، في الثانية والثلاثين من عمره . . .

صوت : في حين انك عشت اكثر من ثلاثة اضعاف عمر هذا المسكين !

تيسيانو : انها مشيئة الله ، يا سيدي !

صوت : وتشاء المصادفات ان تستقبل خلال تجوالك في ايطاليا بعد مغادرة البندقية في مدينة بادووى في منزل لويجي كورنارو الذي عاش اكثر من قرن من الزمن ، وكتب المسرحيات وهو في الخامسة والثمانين من العمر ، بعد ان عاش عيشة المجون واللهو حتى سن الخامسة والاربعين .

تيسيانو : الواقع ان عصر النهضة كان يعج بهؤلاء الشيوخ الذين عرفوا كيف يحيون حياة طويلة ، ويحبون بحيوية .

صوت : وفي تلك الفترة بدأ الجميع يعتبرونك في كل مكان سيدا من اسياد عصر النهضة ، واذا شئنا قول الصراحة كنت كرجل اقل حجما منك كفنان . وكنت تسعى وراء الثروة والمداهنة . ومثلك مثل المفكر الفرنسي الكبير فولتير من بعدك انحنيت امام السلطة ونعمت بدفء الابتسامة الملكية . ومثله ايضا كنت ذا مقدرة كبرى في شؤون التجارة ، ويقال انك لو لم تكن موهوبا في الرسم لكنت تاجرا ممتازا ، واخيرا مثل فولتير ، كذلك ، كنت من الناحية الدينية متشككا وشيطاناً مع بنات حواء .

تيسيانو : شكرا لك على تشبيهك لي بالمفكر الفرنسي فولتير الذي كنت اتوق الى لقائه لفرط ما كان بيننا من تشابه ، استنادا الى ما ذكرت .

صوت : وفي سن السابعة والثلاثين استدعيت الى اعظم بلاطات ايطاليا ، وهو بلاط الفرنسو،انجيلو الجبار الاكبر الاول في الثالوث البشري ، والاخ الاكبر لشكسبير وبتهوفن ، فقد كنت انت ، يا تيسيانو، الاخير بين الكهنة الوثنيين ، ورجلا يحب الاستعراض لا الصلاة ! وقد تقابلتما في مدينة البندقية ، ولكن مصادفة ودون ان تريدا ذلك .

تيسيانو : ولكن ميكل أنجيلو سرعان ما غادر البندقية ليواصل

تجواله الذي لا ينتهي ، وانتقلت انا لسكنى فيلا قضيت فيها اخر اربعين سنة من حياتي . وقد قمت خلالها ببعض الرحلات القليلة القصيرة . وفي هذه الفيلا الفخمة المحاطة بحديقة تشرف على البحر ، كنا نلتقي نحن الاربعة : المهندس سانسوفينـو ، والمؤرخ ساميتو ، واريتينو الالهي ، وانا ـ وكنا جميعا متقدمين كثيرا في السن ، فنلهو طوال الليل ، ونتبادل الاحاديث في شتى المواضيع ، ونستمع الى نكات اريتينو الاباحية ، وقد كانت وفاته وهو يضحك في احدى هذه السهرات اللطيفة التي روى فيها هذا الصديق بتأثير الشراب افضل ما كان في جعبته من نوادر .

صوت : يا لها من نهاية لفصل من فصول هذه الرواية الفاضحة التي جسدتها شخصية اريتينو هذا !

تيسيانو : وفي هذه الفيلا رسمت اكثر من الف رسم قبل ان ينقلني وباء الطاعون سنة ١٥٧٦ الى حيث الراحة الابدية !

صوت : قبل ان ننهي هذه المقابلة ، يا سيدي اود ان اتحدث قليلا عن رسومك هذه . . . ففي شيخوختك اصبحت مصابا بوسواس المرض . وكنت تشكو الى طبيبك من ان السنوات التي تثقل كاهلك تحد كثيرا من حركتك . الا ان اصابعك كانت تشتد ، مع ذلك، وتقوى لدى رؤيتك نقودا . وبسرعة هائلة كنت ترسم اللوحات الدينية ، والرسوم الشخصية ، والمناظر الطبيعية للزبائن الذين يدفعون اثمانها . وكنت تطري اسيادك

الاغنياء برسمهم ليس كما كانوا يبدون على حقيقتهم بل كما يودون ان يبدوا . وبضربات قليلة من الفرشاة كنت تزيل تجاعيد الزمن عن الوجوه النسائية . وتضع في عيونها نظرات الحب ، حتى ان صديقك اريتينو بدا كأنه لا يعرف الا مزايا فنك السطحية جدا ، فكتب الى احد اصدقائك رسالة يشيد فيها بالسهولة التي كنت تستطيع بها ان تلقي جانبا حالة من الحالات من اجل اخرى ، لكي ترسم اي شيء حسب الطلب « وليس بثمن ادنى من سعر السوق البتة ! »

تيسيانو : على اي حال ، فقد بعت انتاجي الفني الضخم بمبالغ طائلة بفضل مهارة اريتينو ومناوراته ! وبقيت حتى سن الثمانين ارسم فينوس في اروع مظاهر العري . ولعل رسم العري النسائي بلغ الذروة في روعة التعبير مع تقدمي في السن .

صوت : وفي نهاية هذه المقابلة الصريحة والممتعة حقا ، اسمح لنفسي ان اروي اخر ما حدث لك مع الرهبان الفرنسيسكان مما يدل على ان روح التجارة التي عرفت بها لم تفارقك حتى قبيل وفاتك . فلما ضرب وباء الطاعون البندقية سنة ١٥٧٥ ساورتك الافكار السوداء ، ورحت ترسم الخطط لتأمين ضريح لك لعل الموت ينزل بك كذلك في احد الايام ، فذهبت الى احدى كنائس الفرنسيسكان وساومتهم على قطعة ارض تدفن فيها لقاء رسم لوحة زيتية لتزيين الكنيسة ، وذلك توفيرا للنفقات. فلما انتهيت من رسمها رفعت

الثمن لتحصل على بضعة اشبار اخرى من الارض لكي تضمن لجسمانك مكانا اوسع ، ونجحت في عقد تلك الصفقة . وكما نعلم جميعا كانت وفاتك بالطاعون في السنة التالية عندما تفشى هذا الوباء في البندقية من جديد !

إل غريكو : بين العبقرية والجنون
(١٥٤١ - ١٦١٤)

صوت : ايها القراء الكرام ، البعض يقول ان الرسام ال غريكو كان مجنونا ، والبعض الآخر يمنحه فائدة الشك ، فيؤكد ان عمله الفني لم يكن نتيجة اختلال عقلي ، بل نتيجة ضعف في النظر . ويقولون انه رأى كل شيء مشوها لانه كان مصابا بداء في النظر .

وهناك فريق ثالث يعتقد ان ال غريكو بلا ادنى ريب كان اعظم الرسامين . اجنون ام عاهة جسمانية ، ام عبقرية ؟ ذلك السؤال كان موضوع نقاش وجدل طويلين منذ اليوم الذي استقر فيه في طليطلة ، في اسبانيا ليرسم ، حتى يومنا هذا . . . وسنحاول في هذه المقابلة ان نعرف الجواب ما امكننا اذا اظهر صاحبنا رغبة في التعاون معنا على كشف الحقيقة . . .

ال غريكو : اهلا وسهلا بك ، يا سيدي ، وثق انني سأكون عند حسن ظنك .

صوت : شكراً لك يا سيد دومينيكوس تيوتوكوبولوس!

ال غريكو: ارجوك ان تعتمد الاسم الذي عرفت به ال غريكو ، اي الاغريقي او اليوناني ، لانني من مواليد جزيرة كريت ومن اصل يوناني ، ولست اسبانيا الا بالاقامة . . .

صوت : وكانت كريت على مر العصور جزيرة الغموض ، وقد حملت انت الغموض الى كل مكان قصدته . فحياتك كلها يكتنفها الشك والغموض . وليس لدينا عنك الا قبضة صغيرة من الوقائع الصحيحة . حتى ان تاريخ ولادتك ليس معروفا . . .

ال غريكو : الواقع يا سيدي ، انني ولدت بين سنة ١٥٤١ وسنة ١٥٤٨ .

صوت : اذا سلمنا بأن هذا التاريخ غير المحدد لولادتك هو حقيقة لا يرقى اليها الشك ، نصطدم بجهلنا كل شيء عما فعلته في السنوات الخمس والعشرين الاولى من حياتك . انه سر من الاسرار !

ال غريكو : ما دام ذلك ما يزال سراً فاسمح لي بألا ابوح به الآن . (يقهقه) .

صوت : حوالي سنة ١٥٧٠ كتب كلوفيو الى كاردينال فارنيزي الايطالي رسالة ذكر فيها ان شابا من مواليد كانديا في جزيرة كريت ، وهو من تلاميذ الرسام تيسيانو، قد هبط روما مؤخرا . . . وهو يصفه بأنه رسام موهوب ، وقد رسم لنفسه صورة اثارت اعجاب الرسامين في روما . وفي الرسالة رجا كلوفيو الكاردينال ان يؤوي الرسام الشاب في قصر فارنيـزي حتى يتسنى له ان يتدبر اموره .

ال غريكو : كان كلوفيو يتحدث عني ، ايها السيد !

صوت : والحقيقة الثانية الثابتة في حياتك تظهر الى حيز الوجود

في رسالة كتبها سنة ١٥٧٦ امرؤ يدعى جيوسيبي مارتينز ويقول فيها : « دومينيكو غريكو استقر في المدينة القديمة الشهيرة طليطلة ، وادخل الى عالم الرسم فيها اسلوبا جديدا لم يُرَ له اي مثيل من قبل » .

ال غريكو : وهذا صحيح وثابت كذلك . فهل من حقائق اخرى ؟

صوت : الواقع ان هناك حقيقة ثالثة وهي التي تتعلق بخلاف جرى بينك وبين القيّم على كاتدرائية طليطلة حول ثمن لوحة للمذبح كلفت برسمها عقيب وصولك الى اسبانيا .

ال غريكو : وقد تمت تسوية ذلك الخلاف في المحكمة بعد أن عيّن احد الصاغة قاضيا للنظر في القضية .

صوت : واللوحة اليوم تعتبر واحدة من الروائع العالمية ، وهي اللوحة المعروفة باسم « سلب كساء يسوع على الجلجلة » !

ال غريكو : لست اخفي عنك ، يا سيدي ، ان الاحداث القليلة المعروفة في حياتي لها صلة وثيقة بالخلافات والمنازعات . فهناك ، مثلا ، خلافي مع ملك اسبانيا نفسه سنة ١٥٨٠ . . .

صوت : وما سبب ذلك الخلاف ؟

ال غريكو : كلفني الملك فيليب ان ارسم لقصر الاسكوريال اسطورة استشهاد القديس موريس ، فلما فرغت منها رفض الملك تعليقها في القصر ، ونصح لي باخفائها سترا للفضيحة ، وقد ادعى احد المقربين من العاهل

الاسباني وهو الاب سيغوينزا انها لم تعجب جلالته ، ولا يمكن ان تعجب احدا ، مع انها من رسم فنان يقال انه خرجت من بين يديه روائع كثيرة !

صوت : يستفاد من كل ما تقدم يا سيد ال غريكو ان حياتك كلها كانت محور جدل ونقاش ! وقد عشت في طليطلة ثمانية وثلاثين عاما ، حتى وافتك المنية ، لغزا من الالغاز بالنسبة الى معاصريك .

ال غريكو : وسأبقى بالنسبة الى الجميع لغزا من الالغاز ، وهذا حق من حقوقي اليس كذلك ؟ فلا تحاول ارجوك ان تستدرجني الآن الى حل هذا اللغز الكبير ال غريكو . (يقهقه) .

صوت : ثق انني لن افعل شيئا من ذلك ، ولكن أستميحك عذرا اذا انا اضطررت الى ايراد كل المعلومات التي وصلت الينا عنك ، على علاتها .

ال غريكو : حسنا ، لك ما تشاء .

صوت : هل كان لك زوجة ؟

ال غريكو : اذا كان هذا سؤالا موجها الي فلن تفوز مني بطائل .

صوت : عفوا ، انا لا اسألك ، بل اتساءل فحسب . قلت ، هل كان لك زوجة ؟ ولكن ليس ثمة اي سجل يذكر عقد زواج ، مع ان هناك اشارة الى ابن يدعى جورج مانويل ، اصبح فيما بعد مهندسا عاديا . ويدعي بعض مترجمي سيرتك ان سجل الزواج قد فقد ، ويدعي البعض الآخر ان ذلك الابن كان من خليلة تظهر في

العديد من لوحاتك . ولا احد يدري اذا كان لك اولاد اخرون ، او على الاقل ابنة استنتجوا وجودها من دراساتك لبعض الفتيات في بعض اللوحات ، وثمة لوحة تمثل اسرة قيل انها اسرتك .

ال غريكو : كل هذه الاقوال من قبيل الرجم بالغيب ، فما كان سرا سيبقى ، مع الاسف الشديد ، يا سيدي ، سرا !

صوت : وكما اكتنف الغموض حياتك ، كذلك اكتنف موتك ، فانت لم تترك اي وصية ، الا ان تاريخ وفاتك سجل في سجلات البلدية على انه السابع من نيسان من سنة ١٦١٤ . وقد جاء في السجلات هذه العبارة « دومينيكو ال غريكو توفي في اليوم السابع . لم يترك اية وصية . زود بالاسرار الآلهية ، ودفن في سانتو دومنغو ال أنتيغو» .

ال غريكو : ما دام الحال كذلك ، فاين السر الذي يكتنف وفاتي ؟

صوت : الواقع ان السر ليس هنا ، بل في ان جثمانك قد نقل من مثواه الاخير بعد الدفن بقليل ، ولا يعرف اليوم بالضبط اين تستريح عظامك .

ال غريكو : إذن فالسر ههنا!

صوت : هناك مجال كبير للقول انك تعمدت ان تحيا حياة الغموض في البلاد التي جعلتها وطنا لك ، وانك ازلت كل ما يمكن ان يفيد السلف في اعادة اكتشافك .

ال غريكو : انك ترى في ذلك منتهى الانانية ، اليس كذلك ؟ على اي حال انها الحقيقة !

صوت : حتما . . . وقد وقعت كل لوحاتك بالاحرف اليونانية كما لو كنت تريد ان تقول « ان العالم سيعرفني من لوحاتي وحدها . وهي تكفي لكي تحفظ لي شهرتي ! »

ال غريكو : ألم يكن ذلك صحيحاً ؟ !

صوت : لقد كان صنيعك الفني ذا شخصية خاصة محددة ، على النقيض منك . . . فقد بقيت ، كما ذكرت ، لغزا اسطوريا يدعى ال غريكو . حتى معاصروك لم يستطيعوا الاقتراب منك كثيرا ليفهموك . وهذا باتشيكو ، حمو الرسام فيلاسكيز ، يذكر انك كنت حكيما ، فيلسوفا ، ونحاتا ، ومهندسا ، كما كنت رساما ، ويضيف انك كنت مفردا في كل شيء كما كنت مفردا في رسمك !

ال غريكو : وقبل كل شيء ـ او بعد كل شيء ـ لا فرق ، كنت ناقدا قاسيا عنيدا لعملي الفني ولاعمال سواي من الفنانين .

صوت : ومما يذكر في هذا الصدد انك اشرت مرة لامام باتشيكو الى ان ميكل أنجيلو كان رجلا طيبا ولكنه لا يعرف كيف يرسم . وقد صدم قولك هذا باتشيكو الذي كان ينظر الى رسامي النهضة الايطالية على انهم آلهة . . .

ال غريكو : صحيح ، ولكني قصدت ان اقول ان ميكل أنجيلو كان

نحاتا من الدرجة الاولى ، ولم يكن ليتمتع بحساسية الالوان .

صوت : وكنت تكسب مبالغ طائلة وتنفق عن سعة وتحيا حياة بذخ وترف في منزلك الى درجة انك كنت توظف موسيقيين للعزف لك اثناء وجبات الطعام ، وكنت مهندسا قديرا ، وبليغا في الحديث والخطابة .

ال غريكو : ولكن مع ذلك لم يكن لي عدد كبير من التلاميذ ، لان احدا لم يكن يهتم بالنسج على منوالي في فن الرسم الخاص بي والملائم لي شخصيا .

صوت : وعشت في اسبانيا السنوات الثماني والثلاثين من حياتك ، الا انك لم تمتزج في اي وقت من الاوقات ، بالمجتمع الاسباني . فقد بقيت منعزلا عنه تمام الانعزال تنظر الى ابناء البلاد التي استقبلتك من عل .

ال غريكو : كنت فخورا بجنسيتي اليونانية . . . واذا كنت قد عشت عيشة منعزلة اجتماعيا فقد كنت منعزلا كذلك روحيا .

صوت : كان سائر الرسامين ينتمون الى مدارس ، وكان لهم اسلاف فنانون واتباع ، اما انت فباستثناء لوحاتك الايطالية الاولى التي يمكن الخلط بينها وبين لوحات باساني - فلم يبدُ اي اثر لاي شجرة عائلة فنية في اعمالك ، ولم يكن لك اي اتباع مباشرين . وبلغ احتقارك لكل ما هو اسباني - مع انك ابو الرسم الاسباني - الى حد انك لم تهتم بدراسة اللغة الاسبانية !

ال غريكو : كنت كلما اشتبكت في جدال مع احد ، وغالبا ما كان يحدث ذلك ، الجأ الى لغتي اليونانية الام اصب بها جام غضبي على من يكون امامي دون ان يفهم احد منهم اي كلمة مما اقول !

صوت : ونعود الى لوحاتك فنقول انها المفاتيح الوحيدة التي خلفتها لتفتح عالمك . وهي بمثابة المجلدات الكثيرة التي تتحدث عنك . وهناك عدد كبير منها مما نعتبره اليوم روائع فنية ظل مخبوءا في بيوت المؤونة طوال مئات السنين .

ال غريكو : ومتى عُرفت اذن في العالم وقد كنت غريبا مجهولا في القرن السابع عشر ؟

صوت : عُرفت في القرن العشرين وحسب ، اما لوحاتك الفنية فانها تقرأ كمثل القصة البوليسية باللون والشكل ، وهي موزعة اليوم في مختلف متاحف الفن الاوروبية والاميركية ، وتؤلف فصلا ممتعا في تاريخ الفن .

ال غريكو : شكرا لك على كل هذه المعلومات الجديدة التي كنت اجهلها .

صوت : لا شكر على واجب . وفي ختام هذه المقابلة لا يسعني الا التصريح بأنك كنت حقا عبقريا : ما كنت تصنعه جيدا لم يكن احد يستطيع ان يصنع افضل منه ، وما كنت تصنعه سيئا ، لم يكن ليُصنع اسوأ من ذلك !

روبنس : الرجل السعيد
(١٥٧٧ - ١٦٤٠)

صوت : بيتر بول روبنس ، رسام هولندا - البلاد الواطئة ، تتسم لوحاته بحرارة الرجل السعيد . بدأ بدراسة الفن في سن مبكرة ، وبعد اقامته مدة قصيرة في موطنه رحل الى ايطاليا حيث عاش ثماني سنوات كان لها اثر بعيد في حياته الفنية .

وكان دبلوماسيا الى جانب كونه فنانا كبيرا . ويبدو انه خالف القاعدة التي تقول ان العبقرية لا تخلو من شذوذ فكان بين الرسامين العظام ، اسلمهم صحة عقل . ابصر النور في بلدة زيغن الالمانية في ٢٩ حزيران من سنة ١٥٧٧ حيث كان والده يعيش هناك منفيا من مدينة كولونيا الالمانية التي نفي اليها - كذلك - من مسقط رأسه انتويرب في هولندا ، فلماذا كل هذا ، يا سيد روبنس ؟

روبنس : كان والدي دكتوراً في القانون ، واستاذاً في الحب والغرام . وفي اثناء اقامته في كولونيا اصبح المستشار الخاص الحميم للامير وليام من اسرة اورانج ، ومستشارا حميما اكثر فاكثر لزوجة الامير الصبية الحسناء . وراح افراد الحاشية يتحدثون عن فضيحة في البلاط . ولم يكن الامير وليام ليشك في شيء من

ذلك . فلما دعا داعي الجهاد قام على رأس جيشه بحملة عسكرية . . .

صوت : . . . تاركا في البلاط والدك الكريم لاستئناف حملته العاطفية . وكان امرأ وسيما ، طلق اللسان ، يجعل زئبق العاطفة لدى المرأة يرتفع درجات ودرجات عندما يتحدث .

روبنس : فلما عاد الامير من معاركه الفى زوجته الاميرة آن بين ذراعي روبنس ، الاب . وترددت الشائعات بأنها حامل من الدكتور في القانون . فزجه في السجن تحت طائلة الحكم عليه بالموت .

صوت : لا عجب في ذلك ، فالشفتان اللتان تجرأتا على تقبيل اميرة يجري في عروقها الدم الازرق ينبغي ان تعاقبا بالاسكات الابدي .

رونس : ومن سجنه كتب والدي الى الامير معتذرا عن تصرفاته . مذكرا اياه بالكثيرين من الحكام الكبار في التاريخ الذين خانتهم زوجاتهم . وختم رسالته بهذا الرأي الجريء ، اذ قال : « ولكم كان ممكنا ان تكون اهانتك افظع يا مولاي ، فيما لو كانت علاقة زوجتك مع جزار ، مثلا ، وليس مع دجون روبنس، الدكتور في القانون ، وهو امرؤ يأتي في المقام بعد البارون ! »

صوت : وماذا كان رد الفعل لدى الامير؟

روبنس : الواقع ان لسان والدي الذي ورطه تلك الورطة ، هو

الذي انقذه منها . . . فقد عفا عنه الامير وليام ، ونفاه الى زيغن حيث اقام حتى نهاية حياته دون ان يفكر يوما في فتح عينيه على شيء من الحب المحرم . . .

صوت : وبعد ولادتك بفترة قصيرة توفي والدك ، فحملتك امك ، مع اخوتك الثلاثة ، الى مسقط الرأس انتويرب ، حيث ادخلتم مدرسة خاصة ممتازة ، وكنت طويل القامة ، زرب اللسان ، كوالدك ، يقظا ، ذكيا ، فاصبحت في الثالثة عشرة من عمرك ، وصيفا في بلاط الاميرة مرغريت دولين - آرمبرغ .

روبنس : وقد بقيت في القصر حتى سن العشرين فحسب لانني احسست بأن الرسم يجتذبني اكثر من حياة القصور . وهكذا رحت ادرس اصول هذا الفن الرفيع على ايدي ثلاثة اساتذة فلمنكيين كبار . . . وما هي الا ثلاثة اعوام حتى قمت برحلتي الاولى الى ايطاليا لدراسة روائع عصر النهضة دراسة دقيقة .

صوت : وكنت تتقن اللغات اليونانية واللاتينية والفرنسية والايطالية ، واللغة الفلمنكية - طبعا لانها لغتك الام - كتابة وحديثا . وفي ايطاليا توقفت فترة من الزمن في البندقية ، واعجبت كثيرا بالالوان المشعة الدافئة التي وقعت عليها عيناك في لوحات فناني مدينة القنوات والغندولات . . .

روبنس : وقابلني في تلك الاثناء دوق مانتوى ، فنتسنزو غونزاكا ، فاعجب بي وقدم الي عملا . فقد كان من رعاة الفنون حقا ، ينفق عن سعة ، ويراكم الديون

على كاهليه من اجل جمع الكنوز الفنية . فكان يفرغ جيوبه ليملأ جدرانه . وقد اشتهر باقامة المآدب السخية المتواصلة لضيوفه .

صوت : وقد فزت بثقته التامة . وكلفك صنع سلسلة رسوم لافراد اسرته . وفي سنة ١٦٠٣ ، وبعد لقائك هذا الدوق بثلاث سنوات ، اوفدت برفقة عدد من الرسل الى ملك اسبانيا فيليب الثالث . فما كانت مهمتك ؟

روبنس : كانت مهمتي تسليم العاهل الاسباني مجموعة من الرسوم على سبيل الهدية . وقد تمت الرحلة كلها تحت المطر الغزير فابتلت الرسوم. وتلفت. وقد رفضت إجراء أي رتوش عليها رغبة مني في عدم خلط عملي بعمل أي كان مهما يكن عظيماً، إلا أنني رسمت لوحتين كاملتين بدلاً من اثنتين تلفتا تلفاً كبيراً.

صوت : وفي اسبانيا قلبت شفتيك للوحات الفنانين المحليين ورحت تبحث عن الصالة التي تعرض لوحاتك الايطالية المستوردة ، لماذا ؟

روبنس : لان الفنانين الاسبان كانوا يرسمون المشاهد الريفية المألوفة : المناظر الطبيعية ، الحيوانات ، ورسوم افراد الشعب . اما عيناي فكانتا تفتشان عن كنوز عصر النهضة ، فقد كان عقلي اشبه بمنزل تسكنه اشباح تنتوريتو ، وتيسيانو، ورفاييل .

صوت : وعلى ذلك عدت من اسبانيا الى روما . وقمت بزيارة لميلانو ، فصنعت نسخة للوحة ، « العشاء الاخير» لليوناردو دافنتشي ، ورسمت عددا من اللوحات

الدينية للآباء اليسوعيين . وكنت كثير المطامح . ولكن تنفيذك الاعمال الفنية كان يقصر عن طموحك . فلم يكن بوسعك حشد الكثير من الوجوه في مشهد واحد ، وكنت تعتمد على تأثير الاضاءة في صالات العرض لاخفاء عيوب لوحاتك . كما كنت تستخدم الظلال لتغطية الاخطاء في الوانك .

روبنس : اراك ستدخل ، يا سيدي ، في ميدان النقد الفني . فهل هذا مجاله ؟

صوت : لا ، اطمئن . . . فانا لم اردد الا شيئا معروفا عنك في اول عهدك بالرسم . وعلى اي حال انت نفسك ذكرت شيئا من هذا القبيل في بعض كتاباتك . . .

روبنس : صحيح ما تقول . . .

صوت : حسنا . . وفي سنة ١٦١٨ ، وعندما كنت مقيما في روما توفيت والدتك ، فكان ذلك ضربة شديدة توجه اليك بسبب تعلقك الشديد بها . واعتزلت الناس بضعة شهور ، ثم اشتغلت في خدمة دوق مانتوى لكي تعمل لحسابك الخاص . وعدت لتعيش في انتويرب مع شقيقك فيليب ، امين سر المجلس البلدي ، وكان متزوجا ماريا دو موى ابنة احد السياسيين .

روبنس : وكان لماريا ابنة اخ في الثامنة عشرة من عمرها ، تدعى ايزابيلا برانت ، عيناها تعكسان صفاء السماء فوقعت في حبها ، وتزوجنا في السنة التالية للقائنا . وكانت المرأة الاولى ذات المعنى الحقيقي في حياتي .

صوت : واتخذتها نموذجا في اعمالك الفنية ، وهي تظهر في العديد من لوحاتك الممتازة . وكنت إذ ذاك في الثانية والثلاثين ، الا انك ، مثل تيسيانو، كنت قد حققت نجاحا ماديا محترما ، وقد سبق لدوق مانتوى ان منحك مرتبا ضخما . واستطاع شقيقك فيليب ان يوفر لك عددا من الالتزامات الفنية من تجار انتويرب . وقد بنيت منزلا صممته تصميما ايطاليا ، وزينته بمجموعة كبيرة من الكنوز الايطالية لفرط اعجابك بالفن الايطالي الرائع . وكنت ترسم طوال النهار ، فاذا ما راخ الليل يرخي سدوله على المدينة ، كنت تمتطي جوادك وتتنزه . على طول شـاطىء نهر شيلدت متأملا ، حالما .

روبنس : كنت استرسل في تأمل الطبيعة ، الخشنة ، الصادقة ، التي كانت تتوسل لان ترسم ، فقد كانت سحب انتويرت الداكنة ، كغروب الشمس الايطالي ، تستحق ان تمثل على القماش . ومن كان اجدر مني للقيام بهذه المهمة ؟

صوت : وقد عزمت على نقل جمال بلادك العادي ، كما عزمت في الوقت نفسه على وضع نفسك على رأس المدرسة الفلمنكية في الرسم ، الا انك مع ذلك لم تستطع ان تنفصل تماما عن التقليد الفينيسي في الرسم . فحتى النهاية بقيت ، مثل تيسيانو، ملونا من طراز رفيع .

روبنس : ذلك هو الواقع ، يا سيدي ، الا ان الناقدين الفنيين ،

كما تعلم ، يؤرخون روائعي الفنية ابتداء من هذه المرحلة الثانية في حياتي الفنية .

صوت : وانهالت عليك الطلبات ، فقمت بما لم يقم به احد من قبلك : افتتحت مصنعا للرسم ـ اذا صح التعبير ـ وعبأت عددا من التلامذة مهمتهم ملء التفاصيل الثانوية في الرسوم التي تصنعها بنفسك بعد ان تكون قد وضعت التصميم العام .

روبنس : وقد ذاعت شهرتي الى حد انني رفضت اكثر من مئة طلب للعمل في مصنعي .

صوت : ولكن ، اتدري ، يا سيد روبنس، ان ثمة جدالا الى اليوم حول صحة العديد من اللوحات التي تحمل توقيعك ؟ فنحن لا نعرف ما صنعه منها التلامذة ، وما صنعه الاستاذ . . .

روبنس : لقد كان بينهم على اي حال فنانون ممتازون ، لعل في طليعتهم الرسام فان دايك الذي يأتي في المقام الثاني بعد تيسيانو وفيلاسكيز في رسم الوجوه .

صوت : ومما لا شك فيه انك كنت تاجرا . . وكنت تهتم صراحة بالناحية التجارية للرسم . وكان الفن بالنسبة اليك تجارة لا دافعا مقدسا .

روبنس : اذا شئت الحقيقة ، يا سيدي ، فاعلم ان القرن السابع عشر كان من الناحية الفكرية والفنية اشد القرون رياء ونفاقا .

صوت : وبلغت الحادية والاربعين ، وكنت من انصار السياسة

الاسبانية ، ودبلوماسيا مثلما كنت رساما . وكان بوسع الملوك والملكات استخدامك .

روبنس : كانت حالة اوروبا السياسية في ذلك العهد اسوأ الحالات من ناحية الفساد وسوء الادارة : الملكات يقامرن بمجوهراتهن ، والملوك يقامرون بشعوبهم . وكانت لعبة البوكر الوقحة التي كان يلعبها ذوو السلطان حول مائدة اوروبا تسمى الدبلوماسية .

صوت : وعلى ذلك كلفت سنة ١٦٢٧ اجراء مفاوضات من اجل عقد سلم بين انكلترا واسبانيا . وكانت الشهور التي قضيتها في مدريد من اهم فترات حياتك لانك التقيت فيها زميلك الشهير فيلاسكيز ، وقد شجعته على دراسة النهضة الايطالية كنموذج لفنه .

روبنس : ولم اكتف بذلك ، بل حثثت الملك فيليب الرابع الاسباني على ايفاد رسام قصره الشاب ، فيلاسكيز ، الى ايطاليا ليعب من منابع الفن الاصيل .

صوت : ولكن لماذا يذهب فيلاسكيز الى ايطاليا ، وماذا يمكنه ان يتعلم هناك ؟ لماذا ينقل عن الآخرين وهو مبدع خلاق ؟ . . كانت له احلامه ورؤ اه ، وكان الشعر بين انامله ، وكلها امور كانت تعوزك لانك في تلك المرحلة من حياتك الفنية كنت ما تزال استاذا في النقل او النسخ .

روبنس : على اي حال يمكنك القول انني كنت خادم العظمة ، في حين كان فيلاسكيز سيدها .

صوت : تدهشني صراحتك ، يا سيد روبنس . ولكن لن نغمطك حقك ، ففي هذه المرحلة كنت قد اصبحت ماهرا في قضية اللون التي لم يكن فيلاسكيز يدانيك فيها . وفي الوقت نفسه كنت تعمل على تحسين نفسك في ميدان الدبلوماسية الاوروبية . فذهبت الى انكلترا ممثلا التاج الاسباني ، ومنحت درجة علمية فخرية من جامعة كيمبريدج ، كما منحت رتبة فارس .

روبنس : وكلفني الملك تشارلز تزيين سقف حجرة المآدب في هوايتهول . وكان الملك تشارلز هذا قد حرم انكلترا من برلمانها . . . وكانت انكلترا على وشك حرمان تشارلز من رأسه . وقد بلغت الحالة ذروة السوء بينه وبين سيد المؤامرات الفرنسي ريشيليو ، وقد كان العاهل مستعداً لأن يغرق بلاده في حرب مع فرنسا لتحويل انظار رعاياه وتفكيرهم عن الصراع الدستوري الداخلي .

صوت : ولم تشأ ان تدخل انكلترا الحرب وخصوصا اذا كانت ستتحول الى حرب مع اسبانيا . فعمدت بحنكة الديبلوماسي ، وعبقرية الفنان ، الى رسم لوحة كبيرة رمزية تمثل فظائع الحرب ، ونعم السلام ، اهديتها الى الملك تشارلز ، وهكذا منعت بلوحة نشوب حرب لا تبقي ولا تذر . ولما عدت من انكلترا تزوجت للمرة الثانية لان زوجتك كانت قد توفيت قبل سنوات ثلاث . وكانت العروس فتاة في السادسة عشرة تدعى هيلين فورمان ، وكنت انت في الثالثة والخمسين ، وقد انجبت لك خمسة اولاد .

روبنس : كنت قد عرفتها منذ طفولتها ، وهي من انسباء زوجتي الاولى البعيدين .

صوت : وقد اتخذتها ، كزوجتك الاولى ، نموذجا للعديد من لوحاتك ، وقد رسمتها في مختلف انواع اللباس كما رسمتها عارية ، مما اثار عليك نقمة الكثيرين من النقاد .

روبنس : ولكن هؤلاء النقاد خلطوا بين الفن والاخلاق .

صوت : وهيلين نفسها كادت ترتكب الخطأ نفسه عندما فكرت في تدمير عدد من لوحاتك اثر وفاتك .

روبنس : ماذا تقول ؟

صوت : هوذا الواقع ، ولكن ريشيليو عرض عليها مبالغ طائلة . فتجاوزت اذ ذاك عن القضية الاخلاقية للاثراء الشخصي ، ولاغناء العالم اجمع . . .

روبنس : شكرا لريشيليو على عمله هذا .

صوت : وبعد زواجك عدت فانغمست مجددا في العمل السياسي ، دون ان يحول بينك وبين الدبلوماسية « داء المفاصل » ولا حسن زوجتك وجمالها . ولكنك سرعان ما احرقت اصعابك في احدى القضايا سنة ١٦٣٣ . فانسحبت الى الابد عن المسرح السياسي بعد وفاة سيدتك الارشيدوقة ايزابيلا ، وانصرفت بكليتك الى الرسم .

روبنس : ومذ ذاك لم تكن طريقي تؤدي الى القصر بل الى

القبر ، بعد ان ازداد سوء داء المفاصل الذي كنت اشكو منه .

صوت : وهكذا بلغت المرحلة الثالثة من مراحل حياتك الفنية ، فاذا بك سيد الالوان بلا منازع ، وذلك بعد كفاح استمر ثلاثين سنة لاكتشاف سر الالوان . وقد شئت قبل وفاتك ان تظهر دليلا جديدا على حسن نيتك تجاه مليكك فيليب الرابع الاسباني فارسلت اليه من مصنعك عربة محملة مئة واثنتي عشرة لوحة بينها بعض روائعك الخالدة .

روبنس : وشاء العاهل الاسباني ان يبدي شكره لي على بادرتي فكلفني بصنع عدد من اللوحات لحسابه . وقد عرف كما عرفت انها مهمة لن تتم . فقد انتزع الموت الريشة من يدي وانا بعد في اللوحة الاولى .

فيلاسكيز : ظاهرة فنية نادرة
(١٥٩٩ - ١٦٦٠)

صوت : كان الرسام الاسباني فيلاسكيز ظاهرة نادرة حقا ـ فنانا لم يجد نفسه مرة في حرب مع الحياة . انقضت ايامه في هدوء وسكينة ، وكان قانعا بما قسم له . لم يعرف الحرمان ، ولم يذق مرارة الفشل كالكثيرين من الفنانين ، ولم يستغرق نضوجه طويل وقت ، اذ بدأت حياته وانتهت في بلاط الملك فيليب الرابع الاسباني . وفي هذا البلاط كان يتحلق حول المائدة نفسها الحلاقون ، والمهرجون ، والرسامون ، وسائر الفنانين . ولم يكن فيلاسكيز ليجد اي غضاضة في ذلك . ومع انه كان يتحدر من اسرة برتغالية ارستقراطية ، الا انه لم يأبه قط لعدم اعتراف الملك بنبالته الاصيلة . واذا كنا نود ان نبحث عن المأساة لدى هذا الرسام الكبير الذي يعتبر واحدا من اسعد الناس في تاريخ الفن كله ، فانه ينبغي لنا البحث عنها في لوحاته بدلا من حياته ! . . ذلك بأنه تأمل البشرية المتألمة فسجل آلامها ، كما لو كان مشاهدا يراقب غرق احدى السفن من ملجأ امين على الشاطىء ، فلقد كان فيلاسكيز واحدا من اكثر الرسامين موضوعية .

فيلاسكيز : شكرا لك ، يا سيدي ، على هذه المقدمة الرائعة ، الجامعة المانعة كما تقولون .

صوت : لا شكر على واجب ، فتلك هي الحقيقة . والآن ، هلا سمحت بالتحدث عن حياتك وفنك بالتفصيل ؟

فيلاسكيز : كما تشاء، سلني اجبك .

صوت : أنت ابصرت النور في القسم الاول من حزيران من السنة **١٥٩٩** في مدينة اشبيلية ، وكانت المركز التجاري لاسبانيا ، والخزانة الذهبية للفن الاسباني . وقد رضعت مع الحليب خوف الله . وكنت منذ نعومة اظفارك عميق الثقة بقدرتك .

فيلاسكيز : وكنت منذ نعومة اظفاري املأ دفاتري بالاسكتشات والصور . وقد اكد لي ذكائي السريع ان لي عينا شديدة الملاحظة ، ويدا ماهرة في تسجيل ما تراه عيني . فطلبت الى والدي السماح لي بأن اصبح فنانا ، فلم يمانع .

صوت : على نقيض سائر الاباء الذين كانوا يقفون حائلا بين ابنائهم والفن . وهكذا دخلت في الثانية عشرة محترف الرسام الكبير هيريرا ، وكان اذ ذاك في ذروة مجده ، ويلقب خطأ بميكل انجيلو اشبيلية .

فيلاسكيز: وسرعان ما وجدت انني لن اتعلم شيئا كبيرا من هيريرا ، فغادرته لادرس على يد معلم آخر هو باتشيكو . وقد علمني هذا الرسام ان اتأمل الطبيعة مليا وانقلها بأمانة .

صوت : ولم يكن باتشيكو فنانا كبيرا ، حتى ان البعض لم يكونوا ليعتبروه قط رساما . ومما يذكر ان احد معاصريه نظم ابياتا من الشعر نقد فيها بخبث وذكاء لوحته « الصلب » ، قائلا : « ان هذه اللوحة تثبت ان من صلب المسيح لم يكن الجنود الرومان ، بل الرسام الاسباني » !

فيلاسكيز : الواقع ، يا سيدي ، ان هذا النقد الساخر فيه كثير من المبالغة ، ويغمط باتشيكو حقه . صحيح انه لم يكن موهوبا ، ولكنه كان رساما قديرا . . . وفضلا عن ذلك كله كان استاذا ماهرا ، له اسلوبه الخاص في التعليم ، وهو ابرز مزاياه . فلم يكن متشددا مع تلاميذه ، يُكرههم على اتباع اسلوبه في الرسم ، بل كان يترك لهم حرية التفرد في اساليبهم الشخصية .

صوت : حسنا ، ولعل هذا هو السبب الذي جعلك تبقى طالبا صبورا لدى باتشيكو طوال سنين .

فيلاسكيز : ولا اكتمك انه كان ثمة سبب آخر اكثر وجاهة ، وهو انه كان لباتشيكو ابنة جميلة هي جوانا ، فلم يمض طويل وقت حتى اصبح تلميذ باتشيكو المفضل صهره . وعقد زواجنا في سنة ١٦١٨ .

صوت : واصبحت وانت في الثالثة والعشرين ابا لابنتين هما فرنشيسكا واغناتشيا . ولكي تعيل اسرتك اضطررت الى الانصراف كليا الى الرسم ، والرسم باستمرار . وكانت مواضيع لوحاتك الاولى المشاهد الواقعية للحياة اليومية في اسبانيا .

فيلاسكيز : كانت تلك « موضة » العصر ، وكان الاسبان اذ ذاك يفضلون مثل تلك اللوحات على سواها .

صوت : وعلى ذلك كنت رساما ، ولم تكن مصلحا ، انميت نظرا ثاقبا حساسا بدلا من انماء فكر خصب خلاق . فاذا بلوحاتك تبرز جمال الاشياء العادية .

فيلاسكيز : لقد سبق لي ان رددت على مثل هذه الاشارة التي طالعني بها احد الناقدين بقولي انني افضل ان اكون الاول بين الرسامين العاديين ، على ان اكون الثاني بين الرسامين المهذبين .

صوت : الا انك اصبحت فيما بعد ، كما سنرى ، الاول بين الرسامين المهذبين والعاديين على السواء ! وعندما اعتلى الملك فيليب الرابع عرش اسبانيا قررت ان تجرب حظك في العاصمة مدريد .

فيلاسكيز : عندما يممت وجهي شطر البلاط الاسباني لتقديم اوراق اعتمادي بعد ان قيل لي ان الملك الجديد من عشاق الفنون ومقدريها، قلت بيني وبين نفسي لأرينَّ الملك رساما حقيقيا جديرا بتقديره .

صوت : وقد فعلت اوراق اعتمادك ، وخصوصا توصية عمك باتشيكو بك ، فعلها المرجو ، فقد خرجت من مقابلة الملك بعد ان تركت في نفسه افضل انطباع ، وكلفت برسم صورته .

فيلاسكيز : وقد سر فيليب الرابع ايما سرور بهذه « اللوحة الحقيقية » فأمر برفع كل صوره الاخرى عن جدران

القصر ، ووعد بأن اتولى بعد ذلك الوقت رسم جلالته .

صوت : وقد دعاك للاقامة في القصر ، ورفعك الى مرتبة المهرج ، وراح يراكم عليك الالتزامات الفنية ، ويغدق عليك النعم والاموال . ولم تمض فترة من الزمن حتى اصبحت اشهر رسام وجوه في اسبانيا . ووصفت لوحاتك بأنها تكاد تنطق لفرط حيويتها .

فيلاسكيز : حتى ان بعض الزملاء راح يشير الى انني رسام وجوه فحسب . وقد كتب احدهم يقول ان هذا النوع من الرسم ، هو مجرد نقل ، ويحط من نبل الرسم ، لانه بحد ذاته احط فروع الرسم . . . ولم يكن احد من الرسامين الكبار رسام وجوه فحسب . . . وكل ما يستطيع فيلاسكيز ان يقوم به هو رسم الرأس البشري .

صوت : ذلك كان قول منافسك ، فبمَ رددت عليه ؟

فيلاسكيز : كان ردي ان هذا الشخص يسبغ علي شرفا كبيرا ، اذ انه ينبغي له ان يعلم ان لا احد يستطيع حقا ان يرسم الرأس البشري .

صوت : وقد سنحت الفرصة حوالي تلك الفترة لكي تدلل على انك ماهر كذلك في سائر انواع الرسم عندما اعلن الملك عن مباراة لصنع لوحة تمثل خروج المغاربة من اسبانيا . وقد فزت انت بالمباراة ، وحققت لنفسك مناعة ضد هجمات منافسيك . الا انه مع الاسف

الشديد فقدت هذه اللوحة الرائعة ، ولكن بقيت لوحة لا تقل عنها روعة هي لوحة « الرماح » او « استسلام بريدا » التي يعتبرها الكثيرون من الخبراء اعظم لوحة تاريخية في العالم . ويعرف ذلك العهد بمنتصف حياتك الفنية . وفيه صنعت عددا كبيرا من الرسوم لافراد الاسرة المالكة والبلاط ، ووجوه مدريد .

فيلاسكيز: كما صنعت لوحات لحاشية الملك المؤلفة من المهرجين والاقزام ، والمجانين والبلهاء ، هؤلاء الذين كانوا مبعث متعة الملك .

صوت : الواقع ، يا سيد فيلاسكيز ، ان لوحاتك التي رسمت فيها اقزام مدريد لهي من روائعك الملهمة . وكنت من اكثر الناس قناعة في عصرك ، فرضيت بمقامك في القصر دون اي تململ .

فيلاسكيز : بالطبع ، هكذا يسير العالم . انه العالم الذي يمنحنا الخبز والزبدة والشهرة ، والتشجيع ، ويوفر لنا الوقت للقيام بعملنا. وهو في الواقع عالم لا بأس به، عالم النجاح فيه يقوم على أربعة أسس من الاطراء، والطاعة، والعمل الجدي، والقناعة بما قسم لنا.

صوت : ورحلت الى ايطاليا حيث رسمت لوحة للبابا اينوسان العاشر . ثم عدت الى مدريد لتبدأ مرحلة النضوج في عبقريتك ، وتصبح سيد التفاصيل الدقيقة . وكنت تسعى الى تمثيل الطبيعة والروح البشرية تمثيلا صادقا امينا . وفي ذات يوم من سنة ١٦٥٨ حاولت ان ترتفع

فوق مستواك الوضيع في البلاط الاسباني ، فادعيت انك من اصل نبيل . ولكن بعد تحقيق دام شهورا عدة اصدر مجلس البلاط قراره بأنك لسوء الطالع رجل من طينة عادية ، ولكنك رسام ممتاز .

فيلاسكيز : وعلى ذلك قنعت بالبقاء رساما ممتازا . وفي النهاية ، عندما بلغت الستين من عمري اصدر الملك فيليب الرابع مرسوما ملكيا يجعلني في طبقة النبلاء .

صوت : وهكذا اصبح اعظم رسام في اسبانيا نبيلا ، الا انه ، مع شديد الاسف ، لم يستطع هذا المرسوم الملكي ان يرفع النبلاء الى مستواك .

فيلاسكيز : في عالمنا السخيف يمكن الملوك ان يمنحوا الالقاب للعبقرية ، ولكنهم لا يستطيعون منح العبقرية للنبلاء . . .

صوت : وهكذا اصبح دمك في آخر ايام حياتك ازرق بدلا من ان يكون احمر . سوى ان لون عبقريتك بقي دونما تغيير . وبقيت رسومك على المستوى الرفيع ذاته للفهم البشري العالمي . وظللت ترسم روح الانسان سواء انطوى على جسد امير او جسد فقير . اتذكر ، يا سيد فيلاسكيز ، آخر لوحة كنت تعمل فيها قبيل وفاتك؟

فيلاسكيز : كانت لوحة القديس انطونيوس في زيارة للقديس بولس في كهفه الموحش . وكانا جائعين . ويرفع القديس بولس يديه بالصلاة ، فاذا بنسر طائر نحوه يحمل اليه خبزا بمنقاره .

صوت : الخبز للاجسام الجائعة ، والجمال للنفوس الجائعة ، تلك هي ، في جملة واحدة ، خلاصة شخصيتك وعبقريتك ، يا سيد فيلاسكيز !..

فيلاسكيز : شكرا لك ، يا سيدي ...

صوت : وقد كانت وفاتك وانت في ذروة مجدك ، ولك من العمر اربع وستون سنة ! وقد توفيت زوجتك بعدك بأسبوع واحد...

فيلاسكيز : ماذا تقول؟ مسكينة لم تعمر طويلا !..

صوت : وقد اقام لك الملك جنازة فخمة، ولكنه ، بعد ذلك سمح لمجلس البلاط بأن يسرق اولادك ...

فيلاسكيز : وكيف كان ذلك ؟

صوت : لقد سرقهم الف قطعة نقدية تستحق لهم لانها كانت اجرك على عمل ما !..

فلاسكيز : سامحه الله !..

موتسارت : حلم الحرية
(١٧٥٦ - ١٧٩١)

صوت : السلام على الساحر الصغير ... موتسارت !

موتسارت : وعليك السلام ، ولكن قل لي ماذا حملك على تحيتي بهذا اللقب ؟

صوت : احببت ان اردد هذا اللقب الذي اطلقه عليك الامبراطور النمساوي فرانز جوزف الثاني ، وكان اعجابه بك شديدا .

موتسارت : ان اعجابه هذا توقف عند هذا الحد ، ولم يتعده الى تكريمي باكثر من هذا اللقب ...

صوت : انك لعلى صواب ، فقد كان الانصاف يقضي على الامبراطور بأن يعينك في ارفع منصب موسيقي في البلاط الملكي نظرا لمقدرتك الفنية الفائقة وضمانا لمستقبلك .

موتسارت : حقا انه لم يفعل ، ولكن ليته اكتفى بذلك ، ولم يعمل على الاساءة اليّ والاهانة بشتى السبل بدافع من زملائي الذين كانت تتأكل نفوسهم الغيرة والحقد .

صوت : وهكذا عملت في فيينا لحسابك الخاص ، فكنت الموسيقي الشهير الوحيد الذي لم يشغل منصبا رسمياً .

موتسارت : لعل ذلك كان من حسن طالعي . وما دمنا قد اتينا على

ذكر الاباطرة فاسمع ماذا جرى بيني وبين الامبراطور فرانزجوزف الثاني . فقد قدمت اليه يوما احد مؤلفاتي الموسيقية الجديدة فتصفحها وهو يهز برأسه ثم قال : « صعبة ، صعبة ، ايها العزيز موتسارت . . . هناك عدد كبير من النوتات الموسيقية » .

صوت : وكان جوابك الفوري : «إن فيها العدد اللازم من النوتات الموسيقية ، يا صاحب الجلالة» .

صوت : لننتقل الآن الى الرؤساء بعد الاباطرة . . . ففي المهرجان الكبير الذي اقيم في سالتزبورغ سنة ١٩٥٥ احتفاء بمرور مئتي عام على مولدك قال رئيس جمهورية النمسا : « ان النمسا لن تسمح بعد اليوم بأن يعيش فيها عبقري فقيرا ، ولن تسمح كذلك بأن يموت منسيا ! »

موتسارت : ما اجمل هذا القول ، ولكنني اعتقد ان الفقر يصقل العبقرية وبخاصة عبقرية الموسيقيين .

صوت : ماذا تقول ؟ وهل يمكن ان تجتمع العبقرية والبؤس ؟

موتسارت : بالطبع يمكن ان يجتمعا . افلم تسمع ما قاله احد اساتذة الكمان الروسي ليوبولد اوار ، الذي اكتشف ودرّب العدد الاكبر من عباقرة الموسيقى في عصركم الحاضر : « ينبغي لك ان تولد فقيرا معدما اذا اردت ان تصبح موسيقيا عظيما ، فالفقر يزرع في اعمق اعماق النفس البشرية شيئا سريا جميلاً ، شيئا يولّد الشعور ، والقوة والعطف ، والرقة ! »

صوت : حسنا ، ولكن ينبغي ان يعيش الموسيقي العظيم هذا عيشة رغيدة ويموت ميسورا ، اذا لم اقل غنيا . اتدري ، يا سيدي موتسارت كيف كان رحيلك عن هذه الدنيا ؟

موتسارت : كيف ، بالله عليك ؟

صوت : كانت جنازتك بسيطة لم تكلف اكثر من ثلاثة دولارات ، وقد مشى خلف نعشك المصنوع من خشب الصنوبر ستة اشخاص لم يكملوا طريقهم الى مثواك الاخير لتساقط الامطار بغزارة .

موتسارت : يكاد قولك هذا لا يصدَّق لو لم اكن في نهاية حياتي القصيرة فقيراً بائساً كما كنت في بدايتها يوم ابصرت النور .

صوت : وفي هذا المجال دعني اشير الى ان زوجتك كانت مريضة يومها فلم تستطع الحراك من الفراش . ولكنها بعد بضعة ايام من الدفن خالفت اوامر الطبيب وراحت تبحث عن ضريحك متخاذلة ، فلم تعثر على اي دليل يساعدها في مهمتها . فمضت الى كوخ الخفير المولج بالحراسة وسألته هل باستطاعته ان يدلها على ضريح موتسارت زوجها . فكان جوابه : « موتسارت ؟ انا لم اسمع قط بهذا الاسم ! »

موتسارت : ما افدح ان يعيش المرء فقيرا ويموت مجهولا . ولكن بربك قل لي كيف عاشت زوجتي العزيزة كونستانتسة من بعدي ؟

صوت : ان القدر الساخر شاء ان تموت فقيرا غير ان زوجتك التي احببتها وذقت معها طعم السعادة وسط العسر ، فقد كانت تبكيك وتنشر موسيقاك ، وتجمع المال الوفير من هنا وهناك .

موتسارت : الحمد لله . . الآن ارتاح بالي ، واطمأنت نفسي .

صوت : والآن وقد عرفنا بعض نواحي حياتك ، دعنا نروي بعض نوادرك التي تدل على خفة الروح وسرعة البديهة .

موتسارت : شكرا لك على هذه المجاملة ، فمن اين تريد ان نبدأ ؟

صوت : اتذكر يوم قدمت اوبراك « دون جيوفاني » ؟ فقد استقبلتك الفرقة الموسيقية لدى وصولك الى المسرح بمعزوفة بالابواق على سبيل التحية كما لو كنت الامبراطور . وصاح الجمهور المحتشد : « ليعش موتسارت طويلا » . فتبسمت في سرك ، لماذا ؟

موتسارت : صحيح ، وقد رددت التحية وانا اردد بيني وبين نفسي : « انهم في الحقيقة يريدون ان يقولوا : ليجع موتسارت طويلا ! »

صوت: ومرة جاءك شاب يسألك ما ينبغي له أن يفعل لتحقيق نجاح سريع في فن التأليف الموسيقي .

موتسارت: اجل ، وقد نصحت له بان يبدأ بالدراسة المتواصلة . فلما دهش من قولي واشار الى انني بدأت اؤلف المقطوعات الموسيقية وانا في الثانية عشرة قلت له :

اجل ، ولكني لم اسأل احدا كيف ينبغي لي ان اؤلف الموسيقى .

صوت : واسمح لي الآن ان اروي هذه النادرة للقراء : في خلقة من الاصدقاء راهن موتسارت هؤلاء على ان باستطاعته ان يعزف سلّما موسيقيا متكاملا وفي وسطه نوتة واحدة ، وهي حركة موسيقية يصعب على اي كان الاتيان بها . وجلس الى البيانو ، ووضع اصابع يده اليمنى على اصابع البيانو العاجية ناحية اليمين ، واصابع يده اليسرى على اصابع البيانو ناحية اليسار : . فلما شاهده اصدقاؤه هكذا تأكدوا من انه سيفشل وسيسخر الرهان . فكيف سيتمكن من لمس النوتة الوحيدة في وسط البيانو ويداه كل منهما في ناحية ؟ اتدرون ما فعل ؟ عزف بيديه ، ولمس النوتة الوسطى بانفه !

موتسارت : اني اكاد اتخيل هذا المشهد كأنه يجري امامي الآن . . .

صوت : وكان عليك مرة ان تملأ بيانا تصرح فيه بدخلك لتستوفى منك الضريبة ، فماذا سجلت على البيان ؟

موتسارت : سجلت رقم دخلي هكذا : « ٨٠٠ فلورين بصفتي مؤلفا موسيقيا ومديرا للكابيلا . . انه مبلغ كبير بالنسبة لما اقوم به من عمل ، وقليل جدا بالنسبة لما يمكنني القيام به ! »

صوت : وأحب ان أعود قليلاً الى الوراء فقد كان موتسارت في السادسة من عمره عندما عرفت به الامبراطورة ماريا

تيريزا ، فاستدعته الى القصر ليعزف على البيانو امام الامراء ورجال الحاشية . وساعدته على النهوض ابنتها الصغيرة ماري ـ انطوانيت بعد فراغه من العزف ، عندما زلت به القدم ووقع ارضا وهو يبتعد عن البيانو ، ولكي يشكرها على مساعدتها له عرض عليها ان تتزوجه عندما يكبران . . . اتذكر تلك الحادثة ؟

موتسارت : بالطبع ، وكيف أنساها ؟ . . ولكن القدر كان يخبىء لها مصيرا اخر . فقد اقترنت المسكينة بلويس السادس عشر ملك فرنسا ، وانتهت حياتها كما يعلم الجميع ، على المقصلة زمن الثورة الفرنسية .

صوت : قبل أن أودعك شاكراً لك تلطفك بهذه المقابلة الممتعة دعني أورد لك هذا القول الذي فاتني قائله: «إذا كان باخ رياضي الموسيقى، وبتهوفن فيلسوفها، فموتسارت، ولا ريب، شاعرها!».

موتسارت : شكرا للقائل الذي نجله كلانا . . .

صوت : وما دمنا في معرض الشكر ، فلا بأس من ان نورد كذلك آراء بعض كبار الموسيقيين زملائك تقديرا لك واعترافا بفضلك . فشوبان كان متشربا بروحك وقد قال وهو على فراش الموت : « اعزفوا مقطوعات موتسارت عندما تريدون ان تذكروني ! » . وبرامز عد موتسارت جباراً بين الجبابرة. . . حتى فاغنر المتكبر كان يحني لك رأسه. وباخ، ابن الموسيقي سيباستيان باخ ، كان يقول عنك: « كثيرون من الموسيقيين لم

يكونوا ليعرفوا من اصول الموسيقى في اواخر حياتهم
مثلما كان موتسارت يعرف في طفولته ! »

موتسارت : وشكرا لهؤلاء جميعا !

صوت : وشكرا لك ايضا ، والوداع !

موتسارت : مـــع السلامـــة !

بتهوفن : عبقري بون الأصم
(١٧٧٠ - ١٨٢٧)

صوت : انت ، يا سيد بتهوفن ، مولود في بون سنة ١٧٧٠ ، وقد كانت وفاتك في آذار سنة ١٨٢٧ . . . عشت عيشة مثقلة بالهموم والاحزان ، ولقيت من عنت اسرتك الامرّين . ولعل الشقاء الذي احاط بحياتك هو الذي اظهر شخصيتك النبيلة ، واوحى اليك بتلك الاناشيد الغنائية والالحان الرائعة .

بتهوفن : ارفع صوتك قليلا ، فأنا لا اكاد اتبينّ كل كلماتك .

صوت : المعذرة ، يا شيخ الموسيقيين ، فقد نسيت انك تشكو من الصمم .

بتهوفن : اصبت في اواخر حياتي بالصمم كما يعلم الجميع ، ولكنني هنا تحسنت كثيرا ، ولا ابالغ اذا قلت انني شفيت نوعا ما . ولكنها السن . يا هذا . . . السن . . .

صوت : ما لنا ولكل هذا . انا هنا لانقل الى القراء الذين يعرفونك من موسيقاك ، بعض النواحي الطريفة في حياتك ، وبعض نوادرك مع زملائك وسواهم ، مما يجهله الكثيرون .

بتهوفن : اهلا وسهلا بك .

صوت : من هم الموسيقيون الذين فضلتهم على سواهم ؟

بتهوفن : هذا امر معروف ، ولكن لا بأس من ترديده . احببت هاندل ، وباخ ، وموتسارت من بين سائر الموسيقيين .

صوت : ومن الشعراء ، من احببت ؟

بتهوفن : من الشعراء احببت بلوتارك ، وشكسبير ، وهوميروس ، وغوته ، وشيللر .

صوت : قبل ان نبدأ برواية بعض النوادر الطريفة اسمح لي ان اذكر ، دون ان اطلب منك السبب ، انك كنت لا تضع لحنا من الحانك الا اذا صببت على رأسك كميات كبيرة من الماء البارد .

بتهوفن : صحيح هذا القول . . .

صوت : عشت ، كما ذكرت فقيرا ، فهل لك ان تروي لنا واقعة من تلك الايام السوداء ؟

بتهوفن : غبت مرة عن المقهى الذي اعتدت التردد عليه فترة غير قصيرة . فلما شاهدني صديقي سبوهر بعد هذا الغياب تساءل عما اذا كان المرض هو السبب ، فأجبته : لا ، لم يكن المرض بل الحذاء . فلم يكن لدي غير زوج واحد من الاحذية ، واضطررت الى اصلاحه ، فقد لزمت البيت في هذه الاثناء .

صوت : يقال ان اخاك يوهان الصيدلي عاش مثلك في ضيق مادي ولكنه ايسر في شيخوخته ، فاستطاع ان يبتاع

منزلا وقطعة ارض . وبلغ به سروره واعتزازه ان ارسل اليك لمناسبة رأس السنة بطاقة من بطاقات الزيارة كتب عليها :

« يوهان فون بتهوفن ـ صاحب أملاك»...

فبمَ رددت عليه ؟

بتهوفن : رددت عليه ببطاقة مذيلة بهذا التوقيع : « لودفيغ فون بتهوفن ـ صاحب دماغ » !

صوت : انه لرد بليغ حقا . هل لك الآن ان تحدثنا قليلا عن موقفك من الموسيقيين الناشئين الذين كانوا يترددون عليك .

بتهوفن : كثيرة هي مواقفي مع الناشئين . فقد جاءني مرة احدهم وعزف قطعة موسيقية على امل ان يصبح تلميذا لي . فلما انتهى من عزفه السيء قلت له : «يا بني، ينبغي لك ان تعزف طويلا قبل ان تكتشف انك تجهل كل شيء عن العزف والموسيقى » .

صوت : ولك واقعة مماثلة مع موتسارت عندما هبطت فيينا وانت فتى ، وكان موتسارت فيها ملكا غير متوج . اروها لنا ، من فضلك .

بتهوفن : حاول بعض اصدقاء موتسارت ان يحملوه على استقبالي قائلين له انني طفل عبقري . فلم يكترث موتسارت لذلك لكثرة ما سمع عن « الاطفال العباقرة » الذين لم يبرهنوا عن اي موهبة او مقدرة . وتمت الزيارة وجلست امام البيانو ، وعزفت . فلما سئل موتسارت

ان يبدي رأيه ، قال : « لا بأس ، ولكن لا تحاولوا اقناعي بأن هذا الفتى يعزف ارتجالا . فلقد حفظ عن ظهر قلب هذه المقطوعة ، وتدرب عليها طويلا » . فما كان مني الا ان طلبت اليه تحديد ما يود سماعه بنفسه . فاختار موتسارت لحنا ، فعزفته بمقدرة جعلت الموسيقي الكبير يخر راكعا مشدوها وهو يردد : « اهتموا بهذا الفتى . . فالعالم سيتحدث عنه في يوم من الايام » .

صوت : ايسمح لي سيدي بأن اروي في هذا المجال احدى نوادرك الظريفة مع غوته .

بتهوفن : لا بأس . فنوادري مع شاعرنا الكبير كثيرة ، ويشوقني ان اعرف ايها اخترت .

صوت : يروي ان بتهوفن كان في زيارة لمدينة كارلسباد ، فقام ذات يوم بنزهة في عربة مكشوفة ، برفقة الشاعر غوته . وكان المارة الذين يشاهدون العظيمين يتوقفون ويحيونهما بكل احترام . فقال غوته :
« لكم هو مزعج ان يكون المرء مشهورا . الجميع يحيونني » . فما كان من بتهوفن الا ان قال بهدوء :
«هون عليك ، يا صاحب السعادة ، ولا تبالِ . فلعل الناس يحيونني انا لا انت ! »

بتهوفن : لقد احسنت الاختيار . . .

صوت : عرف عنك ، يا سيد بتهوفن ، انك كنت حاد الطباع ، لاذع اللسان ، ولكنك ، مع ذلك ، كنت

تعرف كيف تصنع الاصدقاء . وكان الجميع يقدرون عبقريتك ويعجبون بطباعك النارية وروحك الثورية ، وزهدك في حطام الدنيا . وكنت تبدو غريبا في الاماكن التي تفرض التقاليد فيها قواعد خاصة في السلوك .

بتهوفن : انه الواقع حقا .

صوت : فهل لك إذاً أن تروي لنا حادثة جرت لك في هذا الصدد؟ . .

بتهوفن : اتفق مرة ان التقيت صديقا بعد عودتي من بلاط احد الامراء ، فبادرني بقوله : « لكم يسرني انك عرفت اصول الاتيكيت في حضرة النبالة » ، فكان ردي عليه : « كان ينبغي ان تسر اذ عرفت النبالة اصول الاتيكيت في حضرة النبوغ والعبقرية ! »

صوت : لقد افحمته بردك البليغ هذا . . . سبق ان ذكرت ان موتسارت استقبلك ببرودة لدى زيارتك الاولى له ، ثم اعترف بنبوغك . افلا تذكر انك تصرفت مثله ازاء موسيقي طفل اعترفت فيما بعد بعبقريته ، ومن هو هذا الطفل المعجزة ؟

بتهوفن : الحقيقة انني كنت حذرا في ابداء رأيي في فتى في الثانية عشرة حملني استاذه « زيرني » على الاستماع الى عزفه على البيانو لاحد اعمالي الكبرى . فقد ابيت الاعتراف بمهارة هذا الفتى ، ولكن بعد فترة من الزمن اقيمت حفلة موسيقية ودعيت اليها . وعزف ذلك الفتى نفسه بمهارة لم يسعنى معها الا الاعتراف بنبوغه . وقمت من

فوري الى المسرح لاعانق الموسيقي الطفل الذي كان يدعى فرانز ليست . . .

صوت : لقد اثر عنك انك كنت تعترف بفضل المجيدين من امثالك ، وخاصة موتسارت . ويذكر الكثيرون تلك العبارة التي رددتها لدى سماعك احد اعمال موتسارت الموسيقية الموضوعة للبيانو في حفلة موسيقية اقيمت في احدى حدائق فيينا العامة .

بتهوفن : اذكر ذلك تماما ، فقد كنت اتمشى برفقة عازف البيانو المعروف كرامر بين رياحين الحديقة وقتذاك فأخذت بسحر الألحان ورددت: «لن يتسنى لنا قط ما حيينا أن نصنع شيئاً مماثلاً».

صوت : وقبل ان نأتي على نهاية هذه المقابلة الطريفة هناك واقعتان لا تعرفهما حتما لانهما جرتا بعد ارتحالك عن الدنيا . . .

بتهوفن : هات ما عندك ، فانه ليسرني جدا سماعهما .

صوت : في احد متاحف فيينا ، كما تعلم ، بيانو كنت تعزف عليه . وذات يوم دخلت فتاة اميركية وفتحته وعزفت عليه لحنا وهي لاهية . ثم التفتت الى حارس المتحف وقالت : « الم يأتكم احد من كبار العازفين للاستمتاع بمشاهدة هذا البيانو ؟ » فقال لها : « باديريفسكي العازف البولوني العظيم زار هذه البقعة الطاهرة منذ عهد قريب » . فقالت : « ولا بد انه عزف على البيانو لحنا رائعا » . فقال الحارس : « كلا ، يا سيدتي ، ان باديريفسكي لم ير نفسه جديراً بأن يمسه بيده » .

بتهوفن : هذا حقا جديد اسمعه . فما هي الواقعة الثانية ؟

صوت : الواقعة الثانية حدثت في مأتمك . فقد ازدحم الناس يومذاك في الشوارع التي مر فيها الموكب في طريقه الى المدفن ، وفي جملتهم كبار الشخصيات ، وموسيقى الجيش التي كانت تؤدي التحية للراحل الكبير . واتفق ان فوجىء احد الاغراب بروعة هذه الجنازة ، فمال الى امرأة عجوز يسألها اي جنرال يحتفل بدفنه ، فتطلعت اليه بدهشة ، واجابته وهي تبتسم : « ينبغي ان تكون آتيا من مكان بعيد لتجهل ان من ندفن اليوم هو جنرال في الموسيقى ! »

بتهوفن : شكر لك على اطلاعي على هاتين الواقعتين ، انهما حقا في غاية الطرافة !..

صوت : العفو ، يا سيدي ، وشكرا لك على اتاحتك الفرصة الذهبية لنا للاستمتاع بهذه الطرائف المستملحة ، وطاب يومك !

بتهوفن : طاب يومك ، ومع السلامة !..

شوبرت : الشرارة المقدسة
(١٧٩٧ - ١٨٢٨)

صوت : في سنة ١٨٠٥ اجتاحت الجيوش الفرنسية بقيادة نابوليون مدينة فيينا . فهلع لذلك السكان البالغ عددهم نصف مليون الذين اعتادوا المرح والضحك اللذين يوفرهما السلام . وكان القصف شديدا والقنابل تنفجر في كل مكان . اما الطلاب الشبان في الجامعة فقد حملوا السلاح ليحاربوا تحت علم وطنهم كتائب القائد الكورسيكي . وأما التلامذة الصغار فقد حشوا آذانهم بالقطن للتخفيف من وطأة الضجيج وانزووا في غرفهم . ووقعت قنبلة في ممرات المدرسة الابتدائية التابعة للآباء اليسوعيين فحطمت النوافذ المرتفعة . وكان في ذلك الوقت صبي في الثامنة من عمره مستدير الوجه يضع على عينيه نظارتين لهما اطار فولاذي يعزف على البيانو في حجرة نومه فقفز مضطربا واتسعت حدقتاه من فرط الرعب ، فوقع ارضا واخفى رأسه بيديه فصاح المعلم : «شوبرت ، فرانز شوبرت ، هل انت بخير؟» وكان يعد رؤوس تلامذته الصغار ليرى اذا كان احد منهم قد اصيب بسوء ، فلما لمح العازف الصغير شوبرت تنفس الاستاذ الصعداء وقال : « لا يسعنا ان نفقد افضل صوت في جوقة المدرسة الدينية ،

فمن سيقوم مكانه بالانشاد ايام الاحد ؟، سيدي شوبرت ، اتذكر تلك الحادثة ؟

شوبرت : اذكر ذلك تماما ، يا سيدي ، فقد كنت وانا في المدرسة صبيا خجولا مغمورا اقضي وقت الفراغ كله في حجرتي اتأمل ولا اتعاطى مع احد . اما ما كان يميزني من سواي من التلامذة فكان صوتي السوبرانو الجميل . ولكن هذا الامتياز ما لبث ان زال عني بعد فترة قصيرة من الزمن بعد ان اصبحت رجلا اتكلم بنبرة خافتة وخشنة ، وهكذا بات على المدرسة ان تبحث عن صاحب صوت سوبرانو آخر .

صوت : وكنت تعزف على الكمان في المدرسة ، وتتميز بذلك ايضا ، وتشرف على كمانات الفرقة المدرسية ودوازنها بنفسك ، فضلا عن توزيعك الادوار على العازفين ، ووضع اوراق النوتة على المساند امامهم . وقد كنت مأخوذا بالموسيقى لا تتحدث الا عنها .

شوبرت : الا ان والدي كان يعتقد انني انفق وقتا طويلا على الموسيقى ، ويود ان يعرف لماذا رسبت في الرياضيات ، وكان هو نفسه استاذا ، وبالنسبة الى الاساتذة الارستقراطيين ، كان الموسيقيون مهددين بالجوع . ولكن ردا على تشديد والدي على نسيان التأليف الموسيقي والاكتفاء بدرس الرياضيات نظمت قصيدة في حكمة الله وجنون الانسان ومضيت في الموسيقى ، وكنت اذ ذاك في الخامسة عشرة . ولما كانت مخصصاتي المالية هزيلة هزال معلوماتي في الرياضيات فقد كنت

بين آن وآخر اقترض المال من شقيقي فرديناند .

صوت : وهكذا كنت تقضي كل وقتك في التأليف الموسيقي في هدوء حجرتك بعد ان رأى فيك الجميع ، باستثناء والدك،عبقرية موسيقية تتفتح . وكنت تؤلف الموسيقى دون استخدام البيانو وتكتفي بنقر المنضدة بأصابعك على ايقاع الالحان التي كنت تضعها . وكانت الموسيقى افضل وسائلك للاتصال بالآخرين لانك كنت تجد صعوبة في التعبير بالكلام . وكما كان والدك يكره ان تحترف الموسيقى كذلك كانت والدتك تعتقد انك لا تصلح لشيء . وقد ماتت وهي على هذا الاعتقاد وانت بعد في السابعة عشرة .

شوبرت : واخيرا تمّ لوالدي ما اراد بعد وفاة والدتي بفترة وجيزة ، فأدخلني دار المعلمين لأبدأ تدربي على التدريس والتخرج معلما . ولما حل موعد التجنيد الاجباري رُفضت بسبب فقر في الدم . وبسبب قصر نظري دعيت ثلاث مرات للفحص الطبي ، وثلاث مرات فشلت في اجتياز الامتحان! لقد كنت غير صالح للموت ، وهكذا سمح لي بالبقاء في دار المعلمين .

صوت : على ذكر قصر النظر اود ان اذكر ههنا نادرة لطيفة جرت لك يوم دخل عليك المنزل صديقك الرسام موريس فون شفيند فالفاك معتكر المزاج لانك اضعت نظارتيك ، فهوّن عليك الامر قائلا : « حسنا ينبغي البحث عنها » . عندها قلت له : « من السهل ترديد

ذلك ولكن ليس في وسعي البحث عنها الا بعد العثور عليها لانني بلا نظارتين لا استطيع البحث عن شيء » . ونعود الى موضوعنا السابق فقد كان التعليم بغيضا اليك ، كالجندية ، وكانت قاعة التدريس بمثابة سجن لك.ولكي تنجو من رتابة الحياة المدرسية لجأت إلى مصادقة الفتيات اللواتي كانت الموسيقى غرامهن كما كانت بالنسبة إليك. وكانت إحداهن تيريزا كروب ذات صوت سوبرانو ساحر فأحببتها وبتأثير منها كتبت مئة وخمسين أغنية، ولكن هذه الفتاة فضلت عليك خبازاً فتزوجته.

شوبرت : للقدر تصاريف عجيبة غريبة . . . لقد فضلت واقعية الكعك الطازج على رومنطقية الاغنية الملهمة . ولكن اذا كنت غير سعيد الطالع في الحب فقد كنت محظوظا جدا في صداقاتي ، ومثلي كان اصدقائي يهتمون بالموسيقى والفنون ، وكانوا يؤلفون جمهورا صغيرا يقدرني حق قدري ، وغالبا ما كانوا يتناقشون فيها بحماسة .

صوت : وكان نموك كموسيقي سريعا وامراً يكاد لا يصدق . ففي غضون سنتين اثنتين وضعت مئتين وخمسين اغنية وعندها قررت نهائيا ترك التعليم والانصراف بكليتك الى الموسيقى . ومع انك وضعت وانت في العشرين من عمرك ست سنفونيات ، فضلا عن مئات الاغاني ، إلا أنك لم تكن تملك شيئاً من حطام الدنيا، فلم تنشر منها أو تقدم أي مقطوعة، ولذا لم تكن الموسيقى مهنة رابحة لك.

شوبرت : ولكن كان لي اصدقاء طيبون يعبدونني وكثيرون منهم كانوا يدعونني للاقامة في منازلهم دون اي مقابل .

صوت : صحيح ، يا سيد شوبرت ، لقد كان اصدقاؤك ثروتك الحقيقة . وفي مجال العسر الشديد الذي كنت تعانيه اعود فاسمح لنفسي برواية هذه الطرفة ، فقد كنت تبيع مؤلفاتك الموسيقية فور كتابتها لناشرين اذكياء يحتفظون بكل الحقوق بما في ذلك حق تبديل العنوان . وهكذا سمعت مرة ثناء على معزوفة فالس لك اعجبت الجمهور كثيرا وعنوانها « الفالس الحزين » ، فسألت بعد ان استهجنت العنوان : « من الحمار الذي خص الحزن بهذا العنوان ؟ » فدهش الجميع ، ولما لم تستطع ان تعرف المؤلف الموسيقي قالوا : « انك انت نفسك صاحب اللحن » ، فشاركتهم ضحكهم !

شوبرت : اذكر جيدا تلك النادرة وقد اصبحت مذ ذاك حذرا في علاقاتي مع الناشرين على قلتها ، اذ لم احصّل من موسيقاي طوال حياتي اكثر من ثلاثة آلاف دولار ، ولم امنحهم بعد ذلك حق تبديل عناوين المعزوفات الراقصة التي كنت ابيعهم اياها . وكنت كلما بعث معزوفة وشدد الناشرون على الحق الذي حرموا منه رددت بعد ذلك الاختبار : « الحمار لا يحب ان يرقص على ايقاع الفالس الحزين » .

صوت : ان من اكبر السخريات في حياتك انك لم تقدر قط اين تكمن عبقريتك ولم تكن لتكترث كثيرا بانك واضع اصفى الاغاني التي عرفها العالم . كان طموحك ان

تكتب اوبرات ناجحة على غرار روسيني الذي كنت تحسده على الثروة والشهرة اللتين اكسبته اياهما عبقريته الموسيقية . ووضعت اوبرا هزلية بعنوان « التوأمان » لم تعرض سوى ست مرات فقط ، ولكن فشل هذه الاوبرا لم يمنعك من وضع اوبرا اخرى هي « القيثارة السحرية » التي لم تعرف قط الشهرة .

شوبرت : الواقع ان النقاد كانوا على حق لما كتبوا يقولون تعليقا على تجربتي في حقل الاوبرا : « ان شوبرت بحاجة الى معرفة اوثق بالمسرح . ولكن نجاحي كان في السنفونيات ، ولعل « السنفونية غير الكاملة » ، وفيها حولت حزني العميق مرة اخرى الى حب ، هي خير دليل على صحة ما اقول ، الا انني لم اسمعها تعزف بواسطة الاوركسترا ، اتصدق ذلك ؟

صوت : لقد قطفتها كزهرة من حديقة عبقريتك ورميتها بلامبالاة الى عالم غير مكترث ، وقد عثر على هذه السنفونية بعد بضع سنوات من وفاتك في درج احد اصدقائك. وكما كنت قليل الخبرة في الشؤون التجارية فلم تنجح ماديا ، كذلك كنت شهيد العناد فضيعت على نفسك فرصة شغل منصب هام في دار الاوبرا الملكية في فيينا . طلب منك القيّمون على الدار ان تبدّل بعض النوتات الموسيقية العالية في دور البريمادونا فلم توافق على تبديل نوتة واحدة ، وتركت العمل من فورك .

شوبرت : وفي مناسبة ثانية طلب مني بعض اصدقائي ان اقدم

حفلة موسيقية اكسب منها مالاً وفيراً ، وامتلأت القاعة بالناس ، ونجحت الحفلة ، ودرّت علي اكثر من مئة وخمسين دولارا ، ولكنني رفضت اقامة حفلة ثانية لما جاؤوا يلحون علي لأنني لم أكن لأُقيم وزناً كبيراً لذوق الجماهير. . .

صوت : سيدي شوبرت ، اود في هذا المجال ان اقول ان الغيرة والحسد لم يعرفا طريقهما الى نفسك ؛ فقد كنت تقر لجميع زملائك بما يتمتعون به من مواهب ، وكنت دائما تفضل سماع موسيقى سواك على سماع موسيقاك . فاذا اعجبت بعمل جيد تدفقت بالاطراء والتقريظ. من ذلك انك كنت مرة تستمع الى بعض الحانك فاذا بك تصيح وسط الجمهور : « كفى ، كفى ، هذا يبعث في نفسي الملل ، دعونا نستمع الى موسيقى موتسارت .» وهكذا استمعت الى جزء من احد اعمال موتسارت الرائعة واستعدته ثم صحت بحماسة : « ما اجمل هذه الموسيقى ، يمكنني الاستماع الساعات الطويلة الى هذه الالحان وانا واقف دون ان اشعر بالتعب ! »

شوبرت : الحقيقة ، يا سيدي ، ان الفنان ينبغي ان يتحلى بروح كبيرة ، ولي اسوة بسيد العباقرة بتهوفن الذي لم يكن في اول عهدي بالتأليف الموسيقي يكترث بي في قليل او كثير ، .ولكن عندما مرض وحمل اليه اصدقاؤه بعض الحاني اخذه العجب للوهلة الاولى لكثرة عددها . فتأملها مليا ثم صاح بدهشة : « في الحقيقة هناك شرارة مقدسة في هذا الموسيقى »

صوت : ونأتي ، يا سيد شوبرت ، الى نهاية هذه المقابلة المتعة ، وما دمنا قد ذكرنا بتهوفن ففي آذار من سنة ١٨٢٧ واثر عودتك من تشييع جثمانه دخلت مع بعض الرفاق احد المقاهي ، وكنت شديد التأثر تملأ نفسك الاوهام والوساوس التي لم تلبث ان تحققت بأسرع مما كنت تتوقع ، فرفعت كأسك مردداً : « نخب من دفناه الساعة ، ثم رفعت كأسك الثانية بعد قليل واضفت بكآبة ؛ « نخب من سيلحق به قبل سواه » .

صوت : ولم تكن تدري وقتئذ ان ذلك النخب الذي شربته مع رفاقك اذ ذاك كان نخبك انت . فبعد تسعة عشر شهرا اي في ١٩ تشرين الثاني ١٨٢٨ سجي جثمانك في ضريح على بعد بضع اقدام من ضريح عبقري بون الاصم بتهوفن .

باغانيني : رواية روكامبولية
(١٧٨٢ - ١٨٤٠)

صوت : في ايطاليا يحبون الموسيقى ، ويهيمون بها كالمجانين . لا يمكنهم الاستغناء عنها ، فهي كالاوكسجين في الهواء ، ضرورية لحياتهم ، وهي جزء لا يتجزأ من حياة المرح الحلوة . وصحيح انهم يحبون الغناء على اشكاله ، ولكنهم يؤلهون العازفين . ومن هنا كان يكفي ان تلصق على الجدران لوحة تحمل عبارة « باغانيني سيتلاعب بكمانه » حتى يدغدغ الجميع سرور عظيم لانهم سيستمعون الى سيد القوس السحرية في هذه المدينة او تلك من المدن التي سيظهر على مسارحها . فمن الوديان الى الجبال ، ومن دوقية الى مملكة جابت شهرة باغانيني وشعبيته بسرعة اطراف شبه الجزيرة الايطالية . فمن كان هذا الساحر العظيم؟ ساحر الكمان وساحر النساء على السواء ؟!

باغانيني : ولدت في مدينة جنوى سنة ١٧٨٢ في اسرة فقيرة ودعيت نيكولو باغانيني .

صوت : وكان الهيام بالموسيقى اصيلا حميما في رب الاسرة . فلم تكد تبلغ اول وعيك حتى دفع اليك والدك بمندولين ، وطفق يمرنك عليها في اوقات الفراغ . وما

لبث ان القى بين يديك كمانا الى جانب الماندولين .

باغانيني : وحذقت العزف على الكمان في وقت يسير ، وشرعت انزع منه الوتر تلو الوتر حتى لم يبق الا وتر واحد ، ومع ذلك استطعت ان استنبط من هذا الوتر وحده فوق ما كان يستنبطه سواي من الكمان وهو مكتمل الاوتار .

صوت : وذاع صيتك في مسقط رأسك . وبلغت السادسة من عمرك فأذنت لك الكنيسة بأن تشترك في حفلات العزف ايام الآحاد . فكان كل من يستمع اليك يشعر بأن عبقرية جديدة تبزغ في العالم .

باغانيني : وقد فسح لي كبار الفنانين في سنة ١٧٩٣ ، وكنت في الحادية عشرة من عمري ، المجال في اوساطهم ، فاشتركت في حفلاتهم ، وعزفت بعضا من مؤلفاتي الموسيقية . وسارع الكثيرون من المتمولين الى مد يد المعونة الي لاتم دروسي .

صوت : وهكذا توجهت بصحبة والدك الى بارما تتتلمذ على يد رولا ، مفخرة ايطاليا يومئذ في العزف على الكمان ، اتذكر تلك الواقعة ؟.

باغانيني : اذكرها جيدا ، فقد كان رولا اذ ذاك طريح الفراش ، لا يستقبل احدا ، ولا يأذن لاي كان بالدخول عليه . فلما وصلنا - ابي وانا - استقبلتنا الخادمة واجلستنا في ردهة الاستقبال ريثما تنبىء سيدها بقدومنا . ولفتت نظري قطعة موسيقية موضوعة على المنضدة ؛ فتناولت الكمان ومضيت اعزفها .

صوت : واصغى رولا بكل اهتمام مأخوذا بروعة العزف ، ثم هب من فراشه وفتح باب حجرته متسائلا من عزف قطعته .

باغانيني : فأجبته : انا يا سيدي . وبعد ان تأملني رولا قليلا ، قال لي : ليس لي ما القنك اياه ، فامضِ ، وفقك الله !

صوت : ولكنك لم تمضِ ، بل اقمت سنتين في مدينة بارما تدرس اصول العزف والتأليف . وكنت في سنة ١٧٩٠ قد قمت برفقة والدك ، بجولة موسيقية واسعة في اواسط ايطاليا وشمالها كان نجاحك فيها عظيما .

باغانيني : وكان الناس يزدحمون امام شبابيك التذاكر ، ويدفعون اثمانا مضاعفة للدخول الى المسرح وسماع عزفي . ولكم كانوا يتدافعون ، ويتنازعون الحصول على البطاقات .

صوت : لا عجب في ذلك ، فقد كنت ، يا سيد باغانيني ، بحق اعظم من داعبت انامله السحرية اطراف الكمان لتبعث منه اروع الالحان . ولم يكن لك منافسون . وكل من تحدآك مرة ، لم يكن ليجرؤ على تحديك ثانية . اما المشككون الذين لم يكن قد اتيح لهم الاستماع اليك فكانوا يكتفون بهز اكتافهم .

باغانيني : ولكم تقولوا علي ، ورددوا قصصا اشبه ما تكون بالاساطير ، وكلها سخافات حاولوا بها النيل مني دون جدوى ، ولكن شاءت الظروف ان تقام احدى حفلاتي

المنتظرة ، فبددت اذ ذاك في مدى دقائق معدودة ، الشك ، وأحلّت محله الحماسة .

صوت : وهل لك ان تروي لنا ماذا حدث في تلك الحفلة ؟

باغانيني : انها قصة معروفة طالما رويت ، وقد حدثت في سلسلة الحفلات الموسيقية التي اقمتها في بارما . فقد كان ثمة رجل يدعى بازيني ، من عشاق الموسيقى المتحمسين ، استبعد ان يكون باستطاعتي ان اعزف اي قطعة موسيقية للكمان لمجرد نظري اليها مرة واحدة فحسب . وعلى ذلك ، جاءني ذات يوم بازيني هذا الى البيت ، حاملا مخطوطة كونشرتو اجتهد في ان يجمع فيها كل الصعوبات الممكنة التي تجعل الاداء صعبا . وتقدم مني حاملا بيد المقطوعة الموسيقية ، وباليد الاخرى كمانا رائعا جديرا بأن يحتل اكبر المتاحف الفنية ، مرددا وهو يقرع الكمان بطرف المخطوطة : ـ « ان هذا الكمان لك ، ايها العزيز ، اذا استطعت ان تعزف بمهارة هذه المقطوعة الموسيقية دون ان تدرسها مسبقا ! . . » وانحنيت قليلا امامه ، ثم اجبته دون ان التفت الى الكونشرتو بقولي : « ايها السيد ، اخشى ان تكون مضطرا الى توديعه منذ الآن » .

صوت : وقد كان ، وكسبت الجولة طبعا .

باغانيني : طبعا . وكانت لي في مدينة فيرونا ، سنة ١٨١٧ جولة اخرى مماثلة مع قائد اوركسترا يدعى فالدابريني طالما حاول الهزء بي .

صوت : وماذا كان ادعاء فالدابريني هذا ؟

باغانيني : كان صاحبنا يدعي انني اتقن فحسب عزف المقطوعات التي اقدمها في الحفلات ، وليس ثمة مجال لنجاحي في مقطوعات اخرى تعطى لي . وتحداني في عزف مقطوعة من وضعه . فصممت على تلقينه درسا قاسيا لا ينساه مدى حياته . وهكذا ، في احدى الامسيات ، ظهرت على المسرح ، وسط دهشة المتفرجين ، حاملا قصبة .

صوت : اتقول انك ظهرت على المسرح وبيدك قصبة ؟ ولماذا القصبة ؟

باغانيني : حييت الجمهور كأن شيئا لم يكن ، ودون اي مقدمات اخرى ، عزفت بالقصبة تلك ، بدلا من القوس، على كماني ، الحانا مستوحاة من مقطوعة فالدابريني المسكين .

صوت : الواقع ان مهارتك الفنية كانت حقا تتجاوز القوانين البشرية . فقد كنت تحدث في جمهور مستمعيك نوعا من الافتتان الذي يقرب من السيطرة السحرية . ففي مدينة لوك ، مثلا ، عزفت كونشرتو في كنيسة احد الاديرة . فلما انتهيت من العزف كانت حماسة المتفرجين قد بلغت حدا جعلت الرهبان فجأة يغادرون اماكنهم ليمنعوا المؤمنين من التصفيق في ذلك المكان المقدس . . . ولقد كانت هذه المدينة لوك نقطة تحوّل في حياتك المثقلة بالابداع ، والالم ، والمغامرة والشرود . ففي عيد القديس مارتين في لوك احرزت ظفرا غمر نفسك بالنشوة . فقررت الا تعود الى كنف عائلتك .

وكان والدك في بادىء الامر قد عارض في مساهمتك في العزف في حفلات عيد القديس مارتين لانه لم يستطع ان يصحبك بنفسه . ولكنه ما لبث ان نزل عند رغبتك .

باغانيني : واستفزني بطر شديد من جراء الحرية التي اصبحت اتمتع بها ، ومن جراء المال الوفير الذي راح ينهمر علي انهمارا .

صوت : وهكذا انغمست في غمار الحب والشراب والقمار انغماسا دفع بك في بكرة من العمر الى براثن الداء .

باغانيني : ما لنا الان ، يا سيدي ، وهذه الذكريات الاليمة ، دعنا في المجال الفني، ففيه الكثير من الطرائف .

صوت : حسنا ، لنتحدث قليلا عما كان يحاك حولك من اساطير واكاذيب وشائعات لمحاولة النيل منك ومن فنك الرائع . فبعد ان نسبوا اليك انك تحالفت مع الشيطان ، قالوا ان شبابك كان صاعقا وصاخبا ، وعددوا الكثير من العلاقات العاطفية المشبوهة ، فضلا عن اشتراكك في قضايا غامضة من السلب والنهب .

باغانيني : وقالوا انني كنت شريرا ، وشقيا ، وانني قتلت عشيقتي بطعنة خنجر ، كما قتلت الغريم ، والقي القبض علي طبعا ، وزججت في السجن طوال سنوات ، ولكن كل ذلك كان لغوا باطلا ولغاية في نفس يعقوب .

صوت : وقد لاحقتك اسطورة الغريم المغدور ، والعشيقة المطعونة ، والاقامة في السجن ، طوال حياتك .

باغانيني : صحيح ، ولم تتوقف الشائعات ، بل قل الاساطير المحاكة ، عند هذا الحد ، بل تعدته الى القول انني عملت من احشاء عشيقتي اوتار كماني السحري . وكانوا يبررون ادعاءاتهم بالقول ان الشهقات التي كانت تنبعث منها احيانا تثبت صحة ما يذهبون اليه ، اذ ان تلك لم تكن الا نفس العشيقة السجينة تنتحب بلا امل . . .

صوت : يا للفظاعـــة !

باغانيني : اما حول اقامتي في السجن فترة من الزمن فاسمع ما كانوا يرددون . فقد ذكروا ان سجاني كان اميرا حذرا وذكيا ، فنزع من كماني ثلاثة اوتار خوفا من ان اشنق نفسي بها ، ولم يدع فيه الا وترا واحدا . ومن هنا رحت اقضي الوقت في اتقان العزف على كمان بوتر واحد فحسب .

صوت : سيدي باغانيني ، دعنا نضع النقاط على الحروف الآن . فماذا هناك من الصحة في هذه الرواية الروكامبولية ؟ وكيف ابصرت النور ؟

باغانيني : تعرف انني كنت غريب الاطوار . وقد كان يتفق لي ان اختفي عن الانظار فجأة طوال شهور ، وحتى طوال سنين .

صوت: كنت تختفي عن الانظار حقا ، ولكن هذا الغياب الغامض المتكرر كان ـ كما يروي المؤرخون ـ أما بسبب صحتك السيئة ، او بسبب علاقة غرامية جديدة .

باغانيني : تلك ، والله هي الحقيقة . فقد اختفت آثاري عن مؤرخيَّ بين سنة ١٨٠١ و ١٨٠٥ . . . وكذلك بين سنة ١٨٠٨ و ١٨١٣ . وقد ساعدت هذه الاختفاءات الغريبة بلا ريب ، على تثبيت رواية السجن ، فضلا عن اسباب اخرى . . .

صوت : في الواقع ، يبدو ان تشابها اسميا كان في اساس تلك التحرضات . فقد اسندت اليك المغامرة التي حدثت في ميلانو لبولوني يدعى دورانوفسكي ، حكم عليه بالسجن لمحاولته اغتيال كاهن بالاشتراك مع اثنين بقصد السرقة . وكان البولوني عازف كمان ايضا . ولكن لماذا اتهموك بقتل عشيقتك ؟

باغانيني : ولهذه التهمة الباطلة كذلك سبب ومبرر . فحوالي السنة ١٨١٥ ، اوقعت في غرامي صبية من جنوى ، وحملتها الى بارما ، وقد كنت ، كما تعلم زير نساء . وقد اخطأت للمرة الاولى ، مع الاسف في اختياري ، اذ لم تكن تلك الفتاة تقصد الا الشانتاج . فأوقفت واضطررت الى دفع مبلغ من المال الى والدها الذي اتهمني بالتغرير بأبنته ووعدها بالزواج ، وافرج عني في اليوم نفسه .

صوت : الآن تنجلي وتتضح كل تلك الاوقاويل . ومما يذكر انك اضطررت في مناسبتين : في فيينا سنة ١٨٢٨ ، وسنة ١٨٣١ في باريس ، الى ارسال بلاغين الى الصحافة لتكذيب الروايات المرعبة عن ظهور الشيطان وراءك على المسرح ليقود عزفك .

باغانيني : ان ذلك ليحمل على التساؤ ل عما كان يدور في رؤ وس معاصري الذين كان يمكنهم ان يتذكروا ان قداسة البابا منحني في ٢٥ نيسان من العام ١٨٢٧ وسام « المهماز الذهبي » فما قولك في ذلك ؟ ايكون البابا على خطأ ، فيمنح حليف الشيطان ذلك الانعام السامي ؟

صوت : وفوق ذلك فقد اتفق الجميع على انك كنت تشرب كل مساء كوبا من البابونج ، وهل هناك شرير او رجل سوء يستلذ مثل هذا الشراب ؟!

شيروبيني : الاول بين معاصريه الأحياء
(١٧٦٠ - ١٨٤٢)

صوت : لقاؤنا الآن مع موسيقي كبير كان بتهوفن يعتبره اكبر مؤلف موسيقي في عصره، وقد استلهم أسلوبه في أوبراه « فيديليو » التي وضع موسيقاها . وكان روبرت شومان ، كذلك ، يحله المقام الاول بعد بتهوفن . وهو القائل بعد وفاة عبقري بون : « الآن وقد ارتحل بتهوفن عن هذا العالم ، فانه ينبغي ان نعتبر شيروبيني الاول بين الموسيقيين الاحياء » .

واما فيبر فانه لم يكن ليضع الا القليل القليل من الموسيقى فوق عمل شيروبيني الشهير « اليومان » ، واما مندلسون ، في الموسيقى الكنسية ، فانه لم يقدّم شيئا على موسيقى القداس الصارخ التي وضعها شيروبيني بعنوان «Messe en fa»...

اذن الا يستحق مثل هذا الرجل لقاء لنزداد معرفة به وبأعماله ، وبروحه المرحة ؟ هوذا ما سنفعل ... ان اسمه الكامل هو ماريا - لويجي - كارلو - زينوبينو - سلفاتوري - شيروبيني ... انه خمسة اسماء ، لا اسم واحد .

شيروبيني : صدقوا او لا تصدقوا ، ذلك كان اسمي الاصلي ،

ولكن يمكنك ، يا هذا ، الاكتفاء بكنيتي : شيروبيني ، تسهيلا للامور .

صوت : انت ابصرت نور الحياة ، يا سيد شيروبيني في فلورنسا ، موطن الموسيقي لوللي في ١٤ ايلول سنة ١٧٦٠ .

شيروبيني : وعلى وجه التدقيق ، عند منتصف الليل تماما ، وكان موتسارت ، كما قيل لي فيها بعد ، في الرابعة من عمره ، اما بتهوفن فلم يأت الى الدنيا الا بعد ذلك بعشر سنين .

صوت : وكنت الابن العاشر في اسرة بلغ عدد الاولاد فيها الاثني عشر .

شيروبيني : الا تعلم يا سيدي ، ان الثمن يكون ارخص بالدزينة ؟

صوت : وكان والدك عازف كمان .

شيروبيني : وثمة من يقول انه كان قائد الاوركسترا في المسرح المتواضع المعروف بمسرح « ديللا برغولا » .

صوت : وما ان بلغت السادسة من عمرك حتى كنت قد تعلمت السولفيج ، وفي التاسعة الطباق ، وفي الثانية عشرة التأليف الموسيقي .

شيروبيني : وفي الثالثة عشرة كتبت موسيقى قداس صارخ لكنيسة الحي الذي كنا نقيم فيه ، ونوعا من « الانترميد » لمسرح المدينة . وقد اعجب بك وبمهارتك ليوبولد ،

دوق توسكانا . فاوفدك الى البندقية - او فينيسيا - لتدرس على يد الموسيقي المعلم سارتي ، الذي جعلك طوال ثلاث سنوات ، من سنة ١٧٧٧ الى سنة ١٧٨٠ تدرس حسب نظام بالسترينا القاسي ، ولم يكن ذلك امرا مألوفا عهدئذ .

شيروبيني : وقد اصبحت بفضل ذلك موسيقيا « عالميا » . . .

صوت : ولما بلغت سن العشرين تعددت اعمالك الموسيقية التي كانت تقدم في مختلف المدن الايطالية . وبين فلورنسا وليغورنا ، وبين مانتوى وفينيسيا ، اظهرت اسوأ ما يمكن من طباع . ومما يروى في هذا الصدد انك قلت مرة لاحد المغنين : « اذا انت اديت دورك على خير وجه فان هذا المبلغ من المال لك ، اما اذا انت اخطأت ، فسأعلمك بهذا المسدس » . وسحبت من وسطك المسدس الذي هددته به .

شيروبيني : ولكن ذلك الطبع السيء الذي تحدثت عنه لم يحل دون استدعاء لندن لي حيث قدمت بعض اعمالي سنة ١٧٨٥ وسنة ١٧٨٦ ، وحيث قابلت العازف الكبير فيوتي الذي قال لي انه يستحسن الا اقضي وقتي في ضباب بلاد التيمز ، وحملني معه الى باريس . . .

صوت : . . . حيث قدمك الى الملكة ماري - انطوانيت ، ثم الى مارمونتيل .

شيروبيني : واذا كانت ماري - انطوانيت لم تمنحني الا ابتسامة ، فان الكاتب مارمونتيل دفع الي المسرحية الغنائية « ديموفون » للتلحين .

صوت : ولعلك اخطأت في تلحين تلك المأساة الغنائية ، التي لم تعمّر الا مدى ثماني حفلات ، بما في ذلك حفلة الافتتاح في ٥ كانون الاول سنة ١٧٨٨. الا ان للصداقة محاسنها وفوائدها وبخاصة اذا كانت صداقة امرىء كبير . وذلك ما كان من امرك مع ليونار آنسييه الذي كان لمشطه الذهبي وحده حظ تمشيط وتصفيف شعر ملكة فرنسا الذهبي .

شيروبيني : ذلك بأن هذا الحلاق اصبح مديرا للمسرح الغنائي . وقد افتتح مسرحا في صالة قصر التويلري نافس فيها بعد مسرح « الاوبرا كوميك » . وكان فيوتي قائد الجوقة فيه . وقد قدمت عليه خمسة اعمال موسيقية لي ناجحة بين سنة ١٧٩١ و ١٨٠٠ ، ولعل افضلها كانت اوبرا « اليومان » الذي اعتبر الموسيقي فيير موسيقاها افضل ما سمع حتى ذلك الحين . . .

صوت : وتمر الايام ، وينقضي عهد الثورة الفرنسية ، ويبدأ حكم بونابرت ، ولم يكن ليطيق شيروبيني ، لماذا ؟

شيروبيني : عندما كنت مديرا لكونسرفاتوار ميلانو زارني في احد الايام الجنرال بونابرت الذي كان عهدئذ يقود حملته العسكرية الاولى في ايطاليا . وكان القائد الفرنسي معجبا بموسيقى بابيزيليو وشيماروزا من الايطاليين ، ويجد موسيقاي شديدة الجفاف . وقد اعرب لي عن رأيه هذا ، فقلت له : « سيدي الجنرال ، انت على تفاهم تام مع موسيقى المدافع ، ولكنك لا تفقه شيئا في موسيقاي ! »

صوت : واصبح القائد بونابرت امبراطورا فلم يجعل تلك العلاقات بينمكا اكثر ودا ، وفي لقاء آخر بينكما نعى امبراطور الفرنسيين عليك ان موسيقاك صاخبة جدا ، فرددت عليه بقولك : « افهم ذلك ، يا سيدي ، فأنت لا تتحمل سوى الموسيقى التي لا تحول بينك وبين التفكير في شؤون الدولة والحكم » .

شيروبيني : وهكذا عندما انشأ نابوليون وسام جوقة الشرف ، لم يظهر اسمي في لائحة المنعم عليهم بهذا الانعام الامبراطوري الرفيع . وقد هالني ذلك حقا ، وكدت اصاب بانهيار عصبي .

صوت : وعلى الرغم من حضور سيد العالم ، يومذاك ـ ولعلها مجرد مصادفة ـ محض ـ اوبراك « آخيلوس في سيرنوس » ، فان جراحك لم تلتئم ، بل كانت الدعوة الموجهة اليك من فيينا سنة ١٨٠٥ سببا في شفائك مما كنت تعانيه من الالم النفساني المكبوت .

شيروبيني : وغادرت باريس في ٢٦ حزيران سنة ١٨٠٥ الى براغ ، ثم وصلت الى المدينة الامبراطورية في ٢٧ تموز . وقد كلفني المعهد الموسيقي هناك تقديم وسام ذهبي الى الموسيقي هايدن . وسأروي الآن تفاصيل الزيارة له . فقد شاء المعلم العجوز المتأثر ان يتشكرني بعزف مقطوعة ارتجالية على البيانو . فعزف في البدء بروعة ، ثم تشوشت افكاره ، فتوقف ، وترك لدموعه العنان ـ وكانت دموعه سهلة ـ وتنهد قائلا : « خسنا ، لم يبق امامي سوى الموت » .

صوت : ولدى وفاته وضعت موسيقى قداس صارخ احياء لذكراه . ونعود الى نابوليون ، فنذكر انه دخل فيينا في ١٣ تشرين الثاني ووضع شمس اوسترليز في التاريخ في الثاني من كانون الاول ، في حين وضع بتهوفن في ٢٦ شباط اوبرا « فيديليو » في سماء الموسيقى ، واقام امبراطور الفرنسيين في قصر شونبرون ، وكلفت تنظيم « حفلاته الموسيقية » . فكانت تلك مناسبة للمصالحة بينكما .

شيروبيني : ولكنني لم اغتنم تلك المناسبة . وبعد الحرب مع بروسيا عيّن نابوليون الموسيقى « باير » مديرا للموسيقى في بلاط دريسدن حيث كان يقيم . . .

صوت : واصبحت الحسناء تيريزا كاباروس الكونتيس كارامان ، فدعتك للاقامة في املاكها الفسيحة في شيماي حيث ينبع نهر الواز . وهناك انصرفت الى الاهتمام بعالم النبات . . .

شيروبيني : . . . حتى اليوم الذي عاودني فيه الحنين الى الموسيقى .

صوت : وتعود اليك امجادك الموسيقية بعدد من المقطوعات ومن بينها « بنو سراج او امير غرناطة » وفيها اللحن المشهور ، لحن المنصور الذي يردد : « لقد انتهى كل شيء ، رأيت غرناطة تختفي » .

شيروبيني : اما انا فرأيت الامبراطورية في فرنسا تختفي ، وصحيح انني عُيِّنت فارسا في جوقة الشرف خلال فترة المئة يوم

الشهيرة ، الا ان الاوان كان قد فات ، وجاء الملك لويس الثامن عشر فعينني سنة ١٨١٦ ناظرا للكابيلا الملكية ، وفي سنة ١٨٢٢ ، اخيرا ، مديرا للكونسرفاتوار الملكي .

صوت : وكانت لك في هذه الفترة من حياتك العملية طرائف ونوادر مع الكثيرين . ويقول نيتشه ان ثلاثة نوادر تساوي رسما كاملا ، فما بالكم ، ايها القراء بأربعة من نوادر شيروبيني ؟

شيروبيني : انا من ناحيتي لا ارى اي مانع في ذلك ، وسأصغي اليها ، واستعيد معها ذكرياتي .

صوت : حسنا ، كان اسلوب شيروبيني في محادثة الناس جافا ، خشنا ، وبصفته رئيسا للجنة الكونسرفاتوار المكلفة التعاقد مع فنانين لدار الاوبرا ، وجد نفسه امام مرشح صوته رائع ، ولكنه حقير الجسم ، زري المظهر . وحارت اللجنة في امرها ، فكيف يمكنها ان تُفهم المسكين ذلك ، وتفصح عن رأيها فيه مبررة رفض قبوله ؟ فآل شيروبيني على نفسه القيام بهذه المهمة واستدعى المرشح ، وقال له بكل صراحة :
ـ ان لك صوتا رخيما رائعا ايها العزيز ، ذلك ما لا يقبل الجدل . فاذا احتاجت دار الاوبرا في يوم من الايام الى قرد فسنفكر فيك حتما .

ثم التفت شيروبيني الى زملائه قائلا باعتزاز :

ـ أرأيتم انه بقليل من اللباقة يمكن المرء مصارحة من يشاء بكل شيء ؟

صوت : في كونسرفاتوار باريس كان شيروبيني الحاكم بأمره . وكان يخشاه الاساتذة والطلاب على السواء . وكان سيد من تخلص من المآزق ، وابتدع الحيل والمبررات . وفي احد الايام توسطه احد رجال السياسة من ذوي النفوذ الكبير لابن صديق له قائلا :

- الا يمكنك ان تقبله طالبا في الكونسرفاتوار ؟

فأجابه شيروبيني :

- مستحيل ، فصفي يتألف من ثمانية طلاب . ولكن الواقع ان فيه سبعة طلاب . فقد تركت مقعدا واحدا شاغرا للطوارىء .

- حسنا ، ان مثل هذا الظرف لطارىء . فامنح من اوصي به هذا المقعد .

فكان رد شيروبيني بكل جدية :

- مستحيل ، يا سيدي العزيز . . . فاذا تخليت عن هذا المقعد الثامن ، فلن يعود تحت تصرفي .

شيروبيني : ما رأيك بهذا الرد ؟ الم يكن مفحماً ، ومحكماً ؟

صوت : انه لكذلك بلا ادنى ريب ، وهو يذكرني بمقابلة الموسيقي ليست لك ، فقد جيء اليك بطفل معجزة قبّل يديك والدموع تنهمر من عينيه . فسألته عن اسمه ، فأجابك : ليست ، يا سيدي ! فاستغربت الاسم وقلت له انه ليس فرنسيا . فأجابك : انه مجري . وعندها صحت : مجري ، مجري ! ولكن ذويك ، والسيد مترنيخ الذين كتبوا الي موصين بك

ينبغي لهم ان يعلموا ان الاجانب لا يمكنهم دخول الكونسرفاتوار في باريس . . .

شيروبيني : اذكر تلك الحادثة ولا انساها . . .

صوت : وهذه الآن النادرة الاخيرة . . . كان دومينيك غارا ، الاستاذ في كونسرفاتوار باريس ، يتأخر دائما عن مواعيد الدروس ، فلما توفي تحدد الظهر موعدا لدفنه ، ولكنك لم تحضر الا الساعة الثانية بعد الظهر . وقد قلت ساعة وصولك الى دار الفقيد : « انا اعرف غارا جيدا ، الموعد بالنسبة اليه هو الثانية عشرة ظهرا . ولن يفوتنا شيء اذا حضرنا الساعة الثانية بعد الظهر » . وفي الواقع لم يصل النعش الا في الثانية والنصف ، فالتفت الى الموجودين قائلا : « أرأيتم ؟ حتى بعد موته لا يسعه ضبط مواعيده » !

صوت : والآن ، يا سيد شيروبيني ، اسمح لي بأن اذكر تاريخ وفاتك : ١٥ آذار سنة ١٨٤٢ . وقد اقيم لك مأتم حافل حقاً بعد ذلك بثلاثة ايام . . .

شيروبيني : لا عجب في ذلك بعد ان اعتبرت من الخالدين !

صوت : ولمعلوماتك اذكر كذلك انه في سنة ١٩٤٨ ، وفي شهر تشرين الثاني ، تأسست في لندن جمعية موسيقية عرفت باسم « جمعية شيروبيني » !

شيروبيني : احقا ما تقول ؟ انه لخبر يثلج الصدر !

شوبان : مدافع تغطّيها الورود
(١٨١٠ - ١٨٤٩)

صوت : « عاش شوبان الموسيقي البولوني الاشهر ، وأحد أشهر عازفي البيانو الذين عرفهم العالم قاطبة ، عمر الزهور ، ومضى قبل أن تبرد حرارة قبلته على ثغر الوجود ، ولكنه ترك خلفه اريجاً يعطر انفاس الدنيا الى الابد » .

لست أذكر من قال هذه العبارة ، ولكنها تلخص حياة هذا الموسيقي العبقري اجمل تلخيص . وصحيح أن حياته كانت قصيرة ، ولكنها كانت مملوءة ، وقد وصف القيصر نقولا الروسي موسيقاه بقوله : « موسيقى خطرة ، انها أشبه بالمدافع تغطّيها الورود » . قال قيصر روسيا ذلك لان شوبان اتجه بموسيقاه الى ألحان الشعب البولوني وأغانيه عندما كانت بلاده ترزح تحت نير روسيا القيصرية ، فعرف قيمة ذلك في الهاب حماسة مواطنيه . . . سيدي فريدريك شوبان قبل أن نبدأ في استعراض اهم مراحل حياتك يطيب لي أن اسمعُك تردد الآن ما سبق ان كتبته مرة وانت في اسكتلندا بعيداً عن وطنك الذي كنت تعبد .

شوبان : كتبت اقول بعد ان كُتب عليَّ ان اعيش خارج بولونيا قدر ما عشت فيها ، باحثا عن اكاليل الغار في عواصم اوروبا الموسيقية : « عزيزتي بولونيا ، اراك من خلال الضباب

الكثيف بعينيّ امي ، وفمها وذقنها . . . بولونيا التي تُنشدين وتبكين . . ايتها الارض الحبيبة المسكينة ، ان قلبي لك ! »

صوت : عندما غادرت بولونيا وانت في العشرين من عمرك كان اشد ما يعذبك اعتقادك بأن عينيك لن تكتحلا بعد ذلك برؤية الوطن الحبيب ، اليس كذلك ؟

شوبان : لذلك ملأت كأسا صغيرة بتراب وطني الحبيب كنت أحملها معي أنى ذهبت.

صوت : فلما ودعت العالم الاول سنة ١٨٤٩ وانت في باريس ، ووري نعشك الثرى ، نثر اصدقاؤك محتويات الكأس الصغيرة فوق النعش . ولكن لماذا نقفز هذه القفزة . ولا نبدأ منذ البداية . فأنت مولود في ٢٢ شباط من سنة ١٨١٠ من أم بولونية واب فرنسي ، اصله من مقاطعة اللورين ، وكان يدعى نيقولا شوبان ، وقد ذهب في سن السابعة عشرة الى فرصوفيا ليدافع عن بولونيا ضد الغزو الروسي .

شوبان : ويبدو ان والدي غزا قلب الفتاة جوستينا كريجزانوفسكا فأصبحت زوجته ، اذن أمي .

صوت : وكانت امك موسيقية بارعة ، تعزف البيانو ، وكنت ، وانت بعد صغير ، تختبىء تحت البيانو وتقضي الساعات الطوال في الاستماع اليها . وهكذا رحت تعزف عندما بلغت السادسة من عمرك ، وفي الثامنة وضعت موسيقى البولونيز الاولى .

شوبان : وفي العاشرة حملت لتهدئة سورة غضب الدوق الكبير قسطنطين ، شقيق القيصر الروسي لان موسيقاي وحدها كان لها ميزة تهدئته ، كما قيل لي .

صوت : بالطبع ، فالموسيقى هي همزة الوصل بين الارض والسماء . ولما بلغت الخامسة عشرة قدمت حفلتك الموسيقية الاولى امام القيصر اسكندر ، فما كدت تنتهي حتى ضمك القيصر الى صدره ، ونزع من اصبعه خاتماً ثميناً قدّمه اليك قائلا : « لقد اردت ان أضفي شرفاً على هذا الخاتم يخلّده ، واعتقد انك عندما تضعه في اصبعك ستكتب له الخلود ! »

شوبان : أذكر ذلك جيداً ، يا سيدي ! واذكر انني بدأت حياتي الموسيقية باقامة حفلات في البلاطات . ثم قررت سنة ١٨٣٠ ان اذهب الى باريس .

صوت : دعني اذكر في هذا المجال انك قبل مغادرة فرصوفيا اقمت علاقة عاطفية مع كونستانس غلادكوفسكا ، فلما عزمت على السفر الى باريس وعدتك بأن تبقى على حبك وتنتظر عودتك للزواج ، ولكنك عرفت بزواجها وانت في باريس . اتذكر اين اقمت في العاصمة الفرنسية ؟

شوبان : بالطبع ، لقد اقمت في بولفار بواسونيير حيث التقيت الكثيرين من المهاجرين البولونيين الذين كانوا يسعون وراء كسب المال . وبعد ان قضيت فترة من الوقت بلا عمل تعرفت الى البارونة دو روتشيلد خلال حفلة موسيقية في احد الصالونات الارستقراطية ، فطلبت الي ان اعطيها دروساً في العزف على البيانو لقاء اجر ضخم .

صوت : وفي سنة ١٨٣٥ تلتقي والديك اللذين لم ترهما منذ مغادرتك وطنك في بوهيميا في منطقة المياه المعدنية في كارلسباد .

شوبان : لكم هو محزن ان يلتقي المرء ذويه بعد طول السنين وان يحتفل بهذا الحدث بشرب كوب من المياه المعدنية .

صوت : ولدى عودتك الى باريس قضيت بعض الوقت في مدينة دريسدن الالمانية مع اسرة فودجنسكي، وقد اعجبت بحسن الفتاة ماريا التي كنت تعزف واياها معا على البيانو . وعزمت على ان تخطبها من والدتها التي كانت في ذلك الحين تشكو من ألم فظيع في ضرسها .

شبان : ولكن كان ثمة صعوبة كبيرة في انتزاعها .

صوت : انتزاع ضرسها ؟

شوبان : لا ، موافقتها !

صوت : وهكذا ذهبت مسرورا يكاد قلبك يطير من الفرح الا انك بعد سنة واحدة عرفت بزواج ماريا من الكونت سكاربك الذي سرعان ما فسخ زواجه . ومن ثم كان لقاؤك سنة ١٨٣٦ بواسطة الموسيقي فرانز ليست بالكاتبة الفرنسية جورج صاند التي كانت ترتدي ملابس الرجال وتدخن لفائف التبغ بكثرة ، فوقعت في غرامها ، وذهبتما الى جزيرة مايوركا لقضاء فترة من الزمن .

شوبان : ولكن الاقامة في هذه الجزيرة كانت كارثة علي سواء من ناحية استغلال السكان ، او من ناحية المناخ الرطب ،

والمطر الذي ينهمر باستمرار . لذلك ما لبثنا ان عدنا إلى منزل جورج صاند في نوهان في فرنسا حيث عشنا ثماني سنوات كنت اقضي ثلاثة ارباع السنة طوال هذه المدة وسط الطبيعة والحيوانات التي تعيش في تلك المزرعة .

صوت : وكانت نوهان ملتقى المع الادمغة في ذلك الوقت ، بلزاك ، دولاكروى ، آراغو ، لوي بلان ، وفرانز ليست . ولكن بعد علاقتكما التي دامت ثماني سنوات تم الانفصال بينكما سنة ١٨٤٤ بعد ان اصبحت جورج صاند ممرضة لك أكثر مما هي امرأة. وكان بين المعجبات الكثيرات بك فتاة اسكوتلاندية تدعى دجين ستيرلنغ ، فدعتك لزيارة لندن وقد هامت في حبك في الوقت الذي كان داء الصدر قد بدأ ينهشك.

شوبان : وعزمت على الاقتران بي مهما كلف الامر . فلما حمل الي بعض اصدقائي هذا الخبر كان تعليقي : « ولكن يمكنها الاقتران بالموت ! » وصحيح انني ذهبت الى لندن ، الا انني لم اعتد ضبابها الدائم ، وهي المدينة المعروفة بعاصمة الضباب .

صوت : فضلاً عن ان ضباب لندن كان يذكّرك ، ولا ريب ، بجوج صاند التي كانت تكثر من التدخين ، بحيث انك كنت ، والضباب يكتنفك ، تتصور جورج صاند امامك وهي تقابلك في الشارع ولفافة التبغ بين شفتيها . ولكن قبل ان تعود الى باريس اقمت في لندن حفلات موسيقية عديدة طوال السنتين اللتين عشتهما هناك . وقد فوجئت بوفاة طبيبك الدكتور موليان .

شوبان : لقد فوجئت حقاً ودهشت في آن معاً، وتساءلت كيف يمكن للمرء أن يثق بطبيب يموت.

صوت : ولعلك ، ولا ريب ، من اجل محاسبته ، سارعت الى لقائه في ١٧ تشرين الاول من سنة ١٨٤٩ .

يوهان شتراوس ، الاب والابن : ملكا الفالس

(الاب : ١٨٠٤ - ١٨٤٩)

(الابن : ١٨٢٥ - ١٨٩٩)

صوت : من بين كل انواع الموسيقى التي الهبت اقدام الراقصين والراقصات وجعلت قدودهم تتمايل نشوى ، يبقى الفالس الذي ابصر النور منذ حوالي مئة سنة ، ملك الالحان الراقصة . ولعل شعبيته الكبيرة وانتصاره المدهش في النمسا وفي قصر الامبراطورية في فيينا في بادىء الامر ، ثم في مختلف ارجاء اوروبا ، يعود الفضل فيها الى اب وابن موسيقيين عرفا باسم يوهان شتراوس . وفي هذه المقابلة سنشذ عن القاعدة التي اتبعناها حتى الآن في استعراضنا حياة الخالدين وأعمالهم، فنستضيف الاب والابن معاً لنلم بحياتهما ، وبما قدمّا الى العالم من روائع الالحان الخالدة . . . . ونبدأ بأول هذين الموسيقيين ، يوهان شتراوس الاب ، بالطبع ، وقد ابصر النور في احد احياء فييناً الفقيرة سنة ١٨٠٤ لأبوين كانا يديران نزلا متواضعا . أليس كذلك ، يا سيد شتراوس ؟

شتراوس الأب: اجل، يا سيدي، وقد عرفت من والدتي أن والدي توفي غرقا في الدانوب قبل بلوغي السنة من عمري ، ولعله انتحر من فرط يأسه . وكانت والدتي امرأة

حازمة ، مكافحة ، فلم تستلم لليأس بل تزوجت صاحب نزل آخر ، ما لبث ان احبني على مر الايام ، كما لو كنت ابنه من لحمه ودمه . ولما لاحظ ولعي بالموسيقى ، اشترى لي كمانا لممارسة هوايتي .

صوت : الواقع انها لم تكن هواية البتة ، لانك في المدرسة كنت تحاول مداعبة اوتار آلالة الموسيقية ، وقد استمع اليك احد الاساتذة فاعجب بعزفك - ولم تكن قد درست العزف - فأخبر ذويك بأنك صاحب موهبة موسيقية تبشر بكل خير .

شتراوس الأب: إلا أن الموسيقي كان بالنسبة إليهما أمراً لا خير يرجى منه ، يتنقّل من حانة الى حانة ليعزف لحنا من الالحان ويأكل لقاءه وجبة من الطعام . ولذا اكرهت على العمل لدى صاحب حانوت لتجليد الكتب . الا انني لم امكث طويلا في هذا العمل الذي لم اخلق له ، فهربت بعد ان نلت اكثر من عقاب من صاحب العمل الذي كنت افسد كل ما كان يكلفني به .

صوت : وهكذا رحت تعزف على الكمان في فرقة موسيقية من الدرجة الثالثة ، وانت بعد في الخامسة عشرة . وبالقرب من رأسك المجلل بالشعر الاسود الاجعد ، كان يشرق اشقر الشعر الموسيقي الموهوب جوزف لانر . فلما ألّف هذا فرقة موسيقية خاصة انضممت اليه . وعرفتما الشهرة السريعة لان الحان لانر العاطفية الراقصة كانت الزي الشائع في ذلك الزمان .

شتراوس الأب: ولكن نار الغيرة تأججت في نفسي عندما عُزفت أولى مقطوعاتي الموسيقية على انها من تأليف لانر . فاستقلت من فرقته غاضبا . ومعي استقال اربعة عشر موسيقيا من افضل موسيقيي فرقة لانر هذا . وقد اصبحوا نواة اول فرقة موسيقية انشأتها.واستقللت استقلالا تاما في الميدان الموسيقي ، وتزوجت آنا شترايم الغجرية الداكنة اللون العنيدة مثلي تماما ، وشعرت بان سوط الطموح يلسعني . فرحت ادرس التأليف الموسيقي على يد صديق لبتهوفن ، ثم بدأت بكتابة الفالسات بحرية واناقة لم تعرفا من قبل . وكانت فرقتي الموسيقية مطلوبة باستمرار . وما ان بلغت السادسة والعشرين حتى كان لديّ مئتا عازف موسيقي ، وكانت افضل واجمل صالات الرقص في فيينا مسرحا لي ولجوقتي . وسرعان ما تلهفت اوروبا بأسرها لسماع فالساتي الجميلة التي تسمو بالنفوس الى اعلى الذرى .

صوت : وفي السنوات التي تلت قمت برفقة موسيقيي فرقتك بسلسلة من الجولات الناجحة في المانيا ، وهولندا ، وبلجيكا حيث جمعتم اكاليل الغار ، وخلبتم ألباب الباريسيين . وفي سنة ١٨٣٨ عبرتم القنال الانكليزي للاشتراك في احياء الاحتفالات بتتويج ملكة انكلترا الصبية فكتوريا ذات التسعة عشر ربيعا . فاهتزت انكلترا المتزمتة وترنحت طربا على ايقاع فالساتك الرائعة ، بعد ان كانت رقصة الفالس قبل سنوات شيئاً ممقوتا . وكنت كالسكران بموسيقاك والحانك فأجهدت نفسك كثيرا، وانهكتها، فساءت صحتك.

شتراوس الأب صحيح، يا سيدي، فلقد كنت مخلصاً لفني، وكم من مرة عزفت في المدن التي اؤمها وانا فريسة الحمى الشديدة. ففي كاليه بفرنسا مثلا، سقطت على المسرح ولكنني لم اشأ ان استريح. وفي مدينة لنتس الالمانية وقعت مغمى عليّ في الشارع وانا في ملابس النوم. واخيرا بلغت فيينا وانا اكاد اشرف على الموت. وهكذا اصبح منزلي وانا في طور النقاهة بمثابة السجن . . .

صوت : وفي هذا المنزل الذي اعتبرته سجنا سمعت ذات يوم لحنا من الحان الفالس يعزف على الكمان. فدهشت لانك كنت قد حرّمت على اولادك الخمسة العزف على الكمان، مع انك سمحت لهم بدراسة العزف على البيانو. فنهضت لترى من العازف، فألفيت ابنك البكر يوهان واقفا امام المرآة ومنهمكا في العزف. فثارت ثائرتك، وطلبت منه إيضاحاً، فقال لك انه جمع بعض المال من تدريسه البيانو لبعض الصغار، فدرس بذلك العزف على الكمان.

شتراوس الأب: وتملكني غضب شديد وأخفيت الكمان، ولكن والدته سربّت اليه كمانا آخر من مجموعتي الشخصية. وعندما ادخلته كرها عنه المدرسة التجارية، فعل كل ما بوسعه لحمل الادارة على طرده من المدرسة. وهكذا انقسمت اسرة شتراوس قسمين او فرقتين، اذا شئت!

صوت : وزاد في الطين بلة انك هجرت اسرتك لتعيش مع امرأة تافهة تدعى اميلي. ومع انك جمعت ثروة لا بأس

بها من حفلاتك الناجحة ، فانك لم تتمكن من الانفاق على منزلين ، فألقي حمل اعالة المنزل الاول الاساسي على ابنك البكر يوهان . ولما كان يوهان هذا قد درس الموسيقى دراسة صحيحة ، وكان ـ اذا سمحت لي بالقول ـ اكثر منك اتزانا ونظاما ، فانه كان وهو في التاسعة عشرة من عمره ، على اتم استعداد ليتولى قيادة فرقة موسيقية . وقد روجت له الصحف كثيرا ، وشدَّدت على ابراز التحدي بين الابن والاب .

شتراوس الأب: الحقيقة، يا سيدي، أنني تأثرت كثيراً من تلك الدعاية التي احيط بها ابني يوهان وحفلته الموسيقية الاولى ، حتى انني تمنيت ان اقضي قبل ان تتم الحفلة . وفي الليلة نفسها كنت كذلك اقيم حفلة كبرى . فشئت ان اعكّر جو حفلة ابني ، فاستأجرت اناسا ليحضروا حفلته ويشاغبوا عليه . ولكن النتجية كانت ان هؤلاء كانوا من اشد المتحمسين له بعد ان سحر الحضور بموسيقاه وبقيادته . وقد استعيد ظهوره على المسرح تسع عشرة مرة ـ اي اكثر مما سبق ان استعادني الجمهور في اي حفلة من حفلاتي . . .

صوت : وفجأة اشار ابنك الى افراد فرقته ، فعزفوا احد اروع فالساتك ، ولم يكن مسجلا على منهاج الحفلة ، فلما تلاشى آخر نغم منه اندفع الجمهور الى خشبة المسرح ورفعوه فوق اكتافهم مقدرين رحابة صدره وتقديره العظيم لك . وكانت تلك مناسبة ممتازة تمت بعدها المصالحة بينكما ! ولكن في سنة ١٨٤٩ ، وفي مأدبة

كبرى كنت ستعزف فيها ، أُصبت بالحمى القرمزية ، ولم يدرِ احد بذلك ، حتى كانت وفاتك في منزل خليلتك اميلي ، حيث اكتشفت زوجتك وابنك يوهان جثمانك . وسأدعك الآن لاستقبل ابنك يوهان شتراوس ... فشكراً!.

شتراوس الأب: حسناً، كما تود...

صوت : لقد سبّب ذلك للابن حزنا عميقا ورعبا شديدا من الموت اليس كذلك ، يا يوهان شتراوس الابن ؟

شتراوس الأبن: صحيح، والدليل على ذلك انني لما فقدت امي بعد بضع سنوات هجرت المدينة ، ولم اعد اليها الا بعد اتمام مراسم الدفن . والحقيقة ان هذه الظلمة في نفسي كانت نقيض المرح المشعّ في داخلي . وفي فالساتي يستطيع السامع ان يميز بوضوح ومعا النشوة العارمة والكآبة الكامنة تحتها والتي كنت احاول دائما ان اغسلها باللحن المتلألىء . وفي ذلك لم اعد كوني نموذجا اصيلا للانسان الفنـان في ذلك الزمن !

صوت : وبوفاة يوهان الاول الاب، اجتمع كل عشاق موسيقى آل شتراوس والمتحمسين لها للتصفيق لملك الفالس الجديد ، انت ، يوهان الثاني الابن . واصبحت موسيقاك عملا تجاريا ضخماً تستدعي مساعدة اكثر من شقيقيك جوزف وادوارد، من مثل عدد كبير من موزعي الموسيقى وفرق الرقص . وانهالت عليك عقود الحفلات هنا وهناك ، فكنت تنتقل من مدينة الى اخرى فتقود فرقتك في مقطوعة او مقطوعتين، ثم تكلف

احد شقيقيك اتمام الحفلة عنك . وهكذا اصبحت ذلك الشيء النادر ، موسيقيا غنيا ، وواجهتك كل مخاطر الشهرة والنجاح . ولكنك انقذت من تلك المخاطر بزواجك الحكيم من هنرييتا تريفتس .

شتراوس الابن: ذلك هو الواقع ، يا سيدي . . فقد كانت « يتي » - كما كنت ادعوها تحببا - تكبرني بعشر سنين ، ذات قلب كبير ، وعقل راجح ، تعرف بالموسيقى والعقود لانه سبق لها ان غنّت في دار الاوبرا في مدينة درسدن ، فوضعت حدا للارهاق الجسماني الذي كنت اكابده . وفي الراحة والسعادة اللتين وفرتهما لي وجدت القوة التي ازهرت في الفالسات العديدة الرائعة التي اكسبتني الشهرة على ما اعتقد .

صوت : بالطبع ، يا سيدي ، ففالساتك الشهيرة « الدانوب الازرق الجميل » ، و« حياة فنان » ، و« خمر ونساء واغنية » و« حكايات من غابات فيينا » ، و« فالسات الامبراطور » كلها عزفت ملايين المرات ، واسكرت بروعتها الملايين ، وما تزال تعزف الى اليوم وتستأثر بالاعجاب سواء من الراقصين او من جماهير المسارح الغنائية في ارجاء العالم . ولكنك لما ذهبت سنة ١٨٧٢ الى الولايات المتحدة للاشتراك في الحفلات الموسيقية الكبرى التي اقامتها بوسطن تحت شعار « يوبيل السلام العالمي » لم ترقك ضخامة الاحتفالات مع انك احزرت نجاحا كبيرا ، فعدت الى اوروبا . . .

شتراوس الابن: ذلك هو الواقع ، ففي العالم الجديد كان الاعتبار الذي

يعلو كل اعتبار آخر هو « الاضخم هو الافضل » ، ولم اكن لأستحسن ذلك . اما في العالم القديم ، في عالم اوروبا المرح ، فكنت اجد كل الظروف الملائمة لازدهار فني ، ومواصلة التأليف والعزف . وعلى اثر عودتي عملت في وضع اوبرا خفيفة هزلية بعنوان « دي فليدرماوس » فكانت في رأي النقاد « اكثر الجواهر اشعاعا في ذلك العصر الذهبي من عصور الاوبرات الخفيفة » . وقد كانت حفلة الافتتاح في الخامس من نيسان ١٨٧٤ ، ونجحت نجاحا منقطع النظير .

صوت: الحق أقول لك، يا سيد شتراوس، الابن، إن هذه الأوبرا ما زالت تلاقي النجاح نفسه حتى يومنا هذا، أينما عرضت على المسارح العالمية. ولكن المؤسف أنك وأنت في غمرة شهرتك وانتصاراتك فجعت بوفاة زوجتك المحبوبة «يتي» سنة ١٨٧٨. فرفعت يدها الباردة إلى شفتيك في قبلة أخيرة، وهربت ـ لرعبك القديم من الموت ـ من المدينة، تاركاً أخاك ادوارد لاجراء المراسم المؤلمة الأخيرة. ولكنك بعد بضعة أسابيع تزوجت من انجيليكا ديتريش التي كانت تصغرك بعدة سنوات، وكانت ذات وجه جميل، ولكنها عرفت الكثير من العذاب والقلق. وما لبث ذلك أن أثّر على صحتك فبدوت هرماً، وعلى موسيقاك ففقدت رونقها، ووضعت عدة أوبريتات فشلت فشلاً ذريعاً بسبب ما كنت تعانيه في حياتك الخاصة، ولعل أفضل

ما فعلته انجيليكا من أجلك هو أنها هربت ذات يوم مع أحد عشاقها.

شتراوس الابن: ولكنني وقعت في الحب من جديد وانا في الثامنة والخمسين ، وكان حبا صادقا كوفئت نيه مكافأة حسنة على يد اديل دويتش التي تزوجتها بعد ان طلقت انجليكا . . . وكانت اجمل منها كثيرا واكثر حكمة ومخلصة اخلاص زوجتي الاولى « يتي » . والواقع انها اعادت الي شبابي ومرحي وفني ، وبتوجيه منها عدت فعرفت الشهرة السابقة باوبريت « البارون الغجري » التي برهنت انها ذات الحان اجمل واكثر تنوعاً من اوبريت « دي فليدرماوس » . وكان جوها المجري والحانها الغجرية سببا في توحيد المملكة المزدوجة النمساوية ـ المجرية اكثر مما فعل من اجل توحيدها الامبراطور فرانز جوزف طوال سبع وثلاثين سنة من حكمه بالسيف والتجسس .

صوت : وهكذا اصبحت ، يا سيد شتراوس الابن ، لا ملك الفالس فحسب بل ملك الموسيقى الخفيفة في العالمين القديم والجديد . وفي آيار من آخر سنة من القرن التاسع عشر الباهر عرفت فيينا ان موسيقيها المحبوب مريض . وكانت الاوركسترا التي تحمل اسمك تقدّم حفلة موسيقية في الثالث من حزيران عندما صعد الى خشبة المسرح رسول سلّم قائد الجوقة بطاقة صغيرة . فقرأها المايسترو ، واوقف الموسيقيين عن العزف فجأة . ثم اشار اليهم بعزف لحن آخر اشتركوا فيه

جميعا ، وكان فالس الدانوب الازرق ، وعرفت فيينا بانها ودعت في تلك اللحظة ملك الفالس الذي رقصت البلاطات بأسرها على الحان هذه البدعة الجديدة في عالم الموسيقى .

مدام توسو : متحف الشمع
(١٨٥٠ - ١٧٦١)

صوت : المرأة ، وهي نصف الجنس البشري - وكثيرون يدعونها النصف « الافضل » - كانت لآلاف السنين مستعبدة . نقرأ في الشريعة المانوية ان « النساء ينبغي ان يقبعن ، ليل نهار ، عبدات رقيقات ، تحت سيطرة رجالهن وسلطاتهم » . وفي فرنسا القرن الثامن عشر ، كان المفكر الكبير جان - جاك روسو ينظر بارتياح الى تحرر النصف المذكـر. من البشرية ، لا النصف المؤنث . وهو القائل : « النساء خلقن لارضاء الرجال . . . ولما كن عاجزات عن اتخاذ المقررات والاحكام بأنفسهن وجب عليهن اطاعة احكـام ومقررات ابـائهن وازواجهن » . وهكذا ، حتى الجيل الحاضر ، كانت المرأة التي اعتبرت « الزوجة - نصف - الرجل » ، تعيش وسط عوائق . الا انها على الرغم من هذه العوائق ، فقد قدمت من المنجزات ما لا يقل روعة عما قدمه نصفها الجائر الباغي . ومما لا شك فيه ان مدام توسو تعتبر اشهر امرأة في زمانها . فحين كانت النسوة في عصرها لا شأن لهن ، استطاعت هي بنفسها ومهارتها ان تتخطى كل العراقيل ، وان تصنع لنفسها اسما ما لبث ان اصبح على كل شفة ولسان في مختلف

ارجاء العالم . وعندما يُذكر اسم مدام توسو يذكر معه « متحف الشمع » . . . وهذه قصة الاسمين معا .

مدام توسو : اهلا وسهلا بك يا سيدي . . .

صوت : انت ، يا سيدتي ، امرأة فذة . . . عاصرت في حياتك اشهر الاحداث الاوروبية .

مدام توسو : اجل ، فلقد شهدت وانا فتاة سقوط الملكية في فرنسا ، وولادة الجمهورية مكان حكم الارهاب .

صوت : واستطعت بحكمتك وروحك التجارية ان تفيدي من الثروات التي احدثتها الثورة الصناعية في انكلترا فأنشأت لنفسك مقرا دائما في لندن حيث أسست في شارع ماريلبون متحفك الشهير ، متحف الشمع ، الذي وهبت له حياتك . ولنبدأ قصة حياتك من الالف . فأنت من مواليد استراسبورغ سنة ١٧٦١ .

مدام توسو : اسمي الاصلي هو ماري ـ آن غروشولتز ، وانا فرنسية المولد لان استبراسبورغ كانت وقتئذ فرنسية .. وكان والدي جنديا محترفا ، هجر الجيش بعد ان اصيب بتشويه فظيع في معارك السنوات السبع .

صوت : آه ، ان ذلك لم يمنعه من الزواج من ارملة لها سبعة ابناء تدعى ماري ولتر ، كانت من اسرة عريقة ، غير ان هذا الزواج لم يعمر طويلا اذ توفي والدك جوزيف غروشولتز بعد شهرين من ولادتك انت التي كتب لك ان تصبحي من شهيرات النساء في التاريخ .

مدام توسو : وحملتني امي وانا صغيرة الى مدينة برن في سويسرا حيث كانت تقيم اسرتها وشقيقها ـ اي خالي ـ الدكتور فيليب ناتان كرتيوس .

صوت : ولكن شهرة خالك هذا كفنان طغت على شهرته كطبيب ، لانه كان في اوقات فراغه يصنع بالشمع تماثيل صغيرة لبعض المشاهير المحليين .

مدام توسو : وقد اقام بتشجيع من اصدقائه والمعجبين به اول معرض لتماثيله الشمعية تلك في ربيع سنة ١٧٥٧ ، في احدى غرف منزله .

صوت : وفي سنة ١٧٦١ حدث ان زار سويسرا زيارة رسمية الامير دي كونتي ، ابن عم الملك لويس الخامس عشر . فزار « متحف كرتيوس » الشمعي واعجب به الى درجة انه دعا الدكتور كرتيوس الى باريس لينشىء فيها محترفا يتكفل هو بكل نفقاته .

مدام توسو : وقد كان ، وانتقل خالي الى العاصمة الفرنسية حيث اقام محترفه الذي اخذ يتردد عليه كبار الشخصيات السياسية والادبية والفنية .

صوت : وبعد سنة من الزمن افتتح متحف الشمع الذي ضم تماثيل بحجم الاشخاص الممثلين فيه . وفي سنة ١٧٦٦ استدعاكما الدكتور كرتيوس، والدتك وانت ، لتؤنسا وحدته . وكنت اذاك طفلة جميلة في الخامسة من عمرك .

مدام توسو : وكنت اقضي الساعات الطوال مراقبة خالي في محترفه

وهو منهمك في صنع تماثيله باهتمام شديد .

صوت : ولاحظ اهتمامك الشديد بعمله الفني الدقيق ، وآنس منك رغبة فيه ، فصقل مواهبك حتى بت مساعدته الاولى .

مدام توسو : وازدهرت صناعته هذه ، فتبناني، ولا ابالغ اذا قلت انني كنت قد اصبحت اكثر منه مهارة في صنع تماثيل الشمع.

صوت : وعندما كلفت صنع تمثال للفمكر الفرنسي والاديب الساخر فولتير كان لك من العمر سبع عشر سنة .

مدام توسو : وكان ذلك قبل وفاة فولتير بثلاثة اشهر .

صوت : يسرني ها هنا ان اعلمك ان تمثال فولتير ما يزال يحتل مقام الشرف في متحفك الحالي الذي زودته منذ سنة ١٧٧٨ بمئات التماثيل لشخصيات التاريخ البارزة .

مدام توسو : في سنة ١٧٧٤ اعتلى عرش فرنسا الملك لويس السادس عشر وماري انطوانيت ، فرغبا في زيارة متحف الشمع الذي عرف بمتحف كرتيوس وماري . وقد ربطت الصداقة بيني وبين مدام اليزابيت ، اخت الملك ، التي دعتني الى الاقامة معها في قصر فرساي ، على ان القنها اصول هذا الفن ، واكون في الوقت نفسه امينة سرها ورفيقتها .

صوت : وفي اوقات فراغك وبعدك عنها رحت تصنعين التماثيل لافراد الاسرة المالكة وسواهم من الشخصيات .

مدام توسو : ولعل من ابرز الشخصيات التي جلست امامي في تلك الفترة بنيامين فرانكلين الذي عرف بلقب سفير الإنسانية في سنة ١٧٨٣، وكان وقتئذ اول سفير اميركي في البلاط الفرنسي.

صوت : وفي سنة ١٧٨٩ وهي سنة الثورة الفرنسية طلب اليك خالك كرتيوس ان تغادري فرساي ، فلبيت طلبه على كره منك . وكان مقتل الملك لويس السادس عشر ، وزوجته ماري انطوانيت ورفيقتك مدام اليزابيت ، على المقصلة ، والقت جيوش الثورة القبض عليك وزجتك في السجن. ثم طلب إليك دافيد الفنان الرسمي لمجلس الثورة ان تصنعي تماثيل للرؤوس الثلاثة المقطوعة تحت طائلة تهديدك بالموت على المقصلة بدورك .

مدام توسو : وصنعت، مكرهة رؤوس هؤلاء الثلاثة الذين احببتهم وعايشتهم ردحا من الزمن في قصر فرساي .

صوت : وقد افرج عنك سنة ١٧٩٤ بعد سقوط روبسبير، وحملوك في الحال الى مقبرة المادلين حيث وجدت رأس روبسبير ينزف دما .

مدام توسو : وبسقوط روبسبير عادت الي حريتي .

صوت : وفي هذه الاثناء مات خالك . ودمر متحفه ونهب فعكفت على اصلاحه واضافة تماثيل الشخصيات التي كانت تصنع الاحداث في فرنسا في ذلك الحين ، ووجدت نفسك وحيدة لا رفيق لك ولا انيس فتزوجت احد معارفك القدامى : فرنسوى توسو .

مدام توسو : ومن هنا عرفت باسم مدام توسو ، وعرف متحفي باسم متحف مدام توسو ، فقد رزقت ابنان سميتهما جوزف وفرنسيس .

صوت : وعمت البطالة فرنسا سنة ١٨٠٢ وكسدت الاعمال فاغتنمت الفرصة التي اتاحتها معاهدة اميان للسفر الى انكلترا حاملة معك ستة وثلاثين من اشهر تماثيلك .

مدام توسو : ومنذ ذلك التاريخ بقيت في انكلترا حتى نهاية حياتي . وكنت انتقل من مكان الى اخر في الجزر البريطانية حاملة تحفي لعرضها على الجماهير وكسب معيشتي .

وما اكثر الاهوال التي تعرض لها متحف الشمع المتنقل هذا فكانت اكثر التماثيل تتحطم وتتلف .

صوت : انت لم تقرري البقاء في انكلترا الا بعد ان وصلتك سنة ١٨٠٨ الانباء بأن متحفك قد حجز تسديدا للديون التي تراكمت على زوجك فرنسوى .

مدام توسو : ومذ ذاك قطعت كل صلة لي به ، الا انني رجوت ولدي ان يبرا بوالدهما بحيث يقضي بقية ايامه في راحة .

صوت : وفي سنة ١٨٤٢ قررت اعتزال العمل ، وكان آخر ما صنعته تمثالا لنفسك وانت في الحادية والثمانين من عمرك .

مدام توسو : وابتعت منزلا مقابل متحفي كنت ارقب منه بهدوء

واطمئنان سيل الناس المتدفق على متحف الشمع لرؤية هذه الاعجوبة الفنية الفريدة من نوعها .

صوت : انها حقا اعجوبة فنية فريدة في نوعها ، وقد كانت وفاتك سنة ١٨٥٠ اثر مرض لم يمهلك طويلا وبقي المتحف في عهدة ابنك فرنسيس الذي سلمه بدوره الى ابنائه الذين اكملوا هذه الرسالة الفنية الرائعة .

مدام توسو : شكرا على هذا التقدير الخالص ، وعلى هذه المعلومات المطمئنة عن متحف الشمع .

دولاكروى : شمس في رأسه وعواصف في قلبه
(١٧٩٨ - ١٨٦٣)

صوت : في ذات يوم من سنة ١٨٣٣ اقيمت حفلة صاخبة في منزل الروائي الشهير الكسندر دوما في باريس . وقد اجتمع كل اصدقائه من الرسامين لتزيين حيطان منزله بالجدرانيات . وكان اوجين دو لاكروى آخر من وصل ، ودون ان ينزع عنه معطفه ارتدى ثياب العمل وتناول قطعة فحم . وبثلاث ضربات ظهر على الجدار حصان . وبعد خمس ضربات أو ست تم إبراز منظر طبيعي ريفي فيه الكثير من الوجوه الثانوية . وأمسك الرسامون الباقون عن العمل وراحوا يتأملون . سيدي دو لاكروى هل لك أن ترسم . . .

دولاكروى : . . . المعذرة يا سيدي ، فانا ههنا قد استرحت من الرسم ، فقد كفاني ما رسمته في دنياكم .

صوت : انا لا اقصد شيئا من ذلك ، مع انه بوسعك ان ترسم لي صورة ببضع ضربات لا تتعبك ابدا .

دولاكروى : ان كنت تريد رسما لك فلا مانع لدي ، والمعذرة ثانية . . .

صوت : شكرا ، ولكن ما عنيته هو ان تقص علينا ما حدث بعد ذلك ، في منزل الكسندر دوما ، تتمة لما ذكرته في بدء هذه المقابلة .

دولاكروى : تناولت الفراشي ولوحة الالوان ، ورحت بسرعة فائقة اسكب الالوان والظلال الكاملة على الجواد المتمايل وفارسه الجريح الذي سقطت قدماه من الركابين وانحنى فوق رمحه . وما هي الا ساعتان حتى كانت هذه اللوحة التي تمثل مشهدا اسبانياً قد اكتملت . ودوى المكان بالتصفيق ونظرت مشدوها ، ذلك بأنني لم افطن الى الحشد الذي كان يحيط بي لاستغراقي في عملي .

صوت : برافو ، ولم يكن في وسعك ان ترسم بسرعة فائقة ، بل كان بوسعك ان ترسم كذلك باساليب متنوعة رائعة . وقد فتحتَ الباب للمدرسة الحديثة في فن الرسم .

دولاكروى : صحيح ، فقد هبط فان غو باريس لغاية وحيدة هي رؤ ية لوحتي « الشفقة » التي نسخها غير مرة . وفي محترف الرسام سيزان كانت نسخة عن لوحتي تلك ،اللوحة الوحيدة التي رسمها رسام سواه .

صوت : ويدين لك كل من مانيه ، ورينوار ، وماتيس ، وديغا ، ولاروو ، اما لوحة بيكاسو الشهيرة « غيرنيكا » فهي من السلالة المباشرة للرسم الذي صنعته احتجاجا على مذبحة اليونانيين في جزيرة « خيوس » التي ذهب ضحيتها عشرون الفا منهم .

دولاكروى : انها لاخبار سارة هذه التي تطالعني بها الآن .

صوت : ذلك هو الواقع ، ايها المعلم ، ولا مفر من الاعتراف بالفضل لذوي الفضل .

دولاكروى : شكرا جزيلاً ، يا سيدي .

صوت : اسمك الكامل هو فرديناند فكتور اوجين دولاكروى ، وقد ابصرت النور في احدى ضواحي باريس سنة ١٧٩٨ ، بعد الثورة الفرنسية بتسع سنين . ويؤكد معظم الذين ترجموا لك ان والدك الحقيقي هو الداهية السياسي تاليران . . .

دولاكروى : . . . . او الشيطان الاعرج ، كما لُقِّب . ولكن ما لك ولهذه الاشارة ، ما كان اغنانا عنها .

صوت : صحيح ، المعذرة . ولكن التاريخ يقتضينا الاخلاص والتدقيق التامين . على اي حال ، كان والدك الاسمي وزيرا مفوضا لفرنسا في هولندا . ويقال ان الموهبة الفنية الفذة التي تمتعت بها كانت من خصائص ذوي امك ، واخوالك .

دولاكروى : وكانت علبة للالوان في عيد ميلادي فاتحة عهدي بالرسم وسلوكي هذا السبيل .

صوت : ولما توفي والداك ، تلاشت ثروة الاسرة ، وكان لك من العمر اذ ذاك ست عشرة سنة .

دولاكروى : وقد كتبت فيما بعد مشيرا الى حالة العسر تلك : « ليس ثمة حالة اسوأ من عدم معرفة المرء اين سيأكل في الاسبوع التالي » .

صوت : كنت شديد الحساسية ، مرهف الذوق ، رأيت مرة لوحة اثارت اعجابك ، فعدوت في شوارع باريس حتى بلغت غرفتك لكي ترسم اللوحة قبل ان تتلاشى انطباعاتك . وقد ظهرت امام الجمهور لاول مرة وانت في الرابعة والعشرين ، عندما عرضت لوحتك في « صالون باريس » ، وكانت بعنوان « دانتي وفرجيل » ، وهي معروضة اليوم في متحف اللوفر !

دولاكروى : كنت فقيرا فلم استطع شراء اطار اضع فيه لوحتي التي بلغ عرضها ثماني اقدام ، ولو لم يمد الي يد المساعدة يوم ذاك احد المحسنين لما عرضت تلك اللوحة .

صوت : ويوم الافتتاح هرعت الى المعرض لتستمع الى آراء الناس في اولى لوحاتك . فهلا ذكرت لنا ما سمعت ؟

دولاكروى : بدلا من المديح الذي كنت اتوقعه اذا بي اسمع ضحكات الاستهزاء والتهكم . وقد قال احد الناقدين عني انني « رسام عديم الشكل وغير منتظم » . وصاح آخر « مشعوذ » . . .

صوت : الا انك في اليوم التالي ابتعت الصحف فوجدت في واحدة منها فحسب نقدا في مصلحتك . وقد قال ادولف تييرس الذي اصبح وزيرا للتجارة فيما بعد ، ثم رئيسا للدولة ، ان لوحتك كانت جميلة وفيها هنا وهناك تفجر عبقرية .

دولاكروى : لقد انقذ ذلك الموقف ، وما عتم الامر ان نسيت تماما النقد الجارح المعاكس .

صوت : وكانت تلك بداية حياة مبدعة خلاقة تفوق الحد . وقد

كتبت تقول : « العمل هو حبي الوحيد واي حب هو ! . . . » وكنت تستيقظ عند الفجر فتتناول كسرة من الخبز ثم تعكف على الرسم دونما انقطاع حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر .

دولاكروى : وكنت كلما اعوزني الانفعال ملت الى قراءة الشعر لتجديد قواي .

صوت : في تلك الايام ، وقبل اختراع آلة التصوير الفوتوغرافية كان الطلب على الرسامين كبيرا من اجل رسم المشاهد التاريخية . وقد لونت الكيلومترات من القماش لصفحات التاريخ ، مما جعلك خالداً بين الخالدين من الرسامين ، وأنت القائل : « ان اللوحة ينبغي ان تكون ، قبل كل شيء ، مأدبة شهية للعين ! »

دولاكروى : والواقع انني كنت طاهيا ماهرا . . .

صوت : وجعلك تخصصك هذا واسع الثراء . فقد كانت الحكومة تطلب تزيين المباني العامة . ومن الفقر ارتفعت الى قمة الغنى ، فاذا بك واحد من الرسامين الذين اثروا من فرشاتهم في العصر الحديث .

دولاكروى : لا تنسَ ، يا سيدي ، ان الرسامين في عصركم الحديث ، بمدارسهم الحديثة جدا جنوا ويجنون ثروات طائلة تتضاءل امامها ثروتي ، ولا يكاد يعتبر نقطة في بحرها ما جناه كل الرسامين الكلاسيكيين الاصيلين الخالدين .

صوت : صحيح ، ما تقول ، فللناس فيما يعشقون مذاهب ،

ومذاهب الرسم الحديث اكثر من الهم على القلب ، ولكن دعنا من هذا البحث الآن . . . لقد وصفت العبقرية بأنها قدرة لا محدودة على تحمل الآلام ، والى جانب الآلام الفنية ، كنت منذ سن الثانية والعشرين تشكو من سوء صحتك ، فالملاريا التي كانت تلازمك كأي مرض عضال ، والالم في حنجرتك ، غالبا ما الزماك الفراش .

دولاكروى : ولكن على الرغم من نحول بدني ، ومرضي ، وطيب قلبي ، ورقتي ـ وعفوا على ذكر هاتين الصفتين الاخيرتين ـ فقد رسمت مشاهد تبلغ ذروة العنف .

صوت : وكنت يا سيد دولاكروى اول من رسم المناظر الافريقية الشمالية . فقد قضيت في تلك الانحاء ستة شهور ، فلم تدع مكانا لم تزره ، حاملا دفتر الرسم ، راسما الناس والمناظر ، جامعا الافكار والوحي ذخيرة تكفيك طوال ايامك .

دولاكروى : وفي الجزائر تمكنت من الحصول على اذن خاص بدخول الحريم ـ لغايات فنية بحتة ـ فكانت لوحتي « نساء من الجزائر » حصيلة تلك الزيارة وقد اعتبرها النقاد رائعتي .

صوت : ولك ، يا سيدي ، كذلك حق بالخلود الادبي الى جانب خلودك الفني في الرسم . فقد دوَّنت مذكرات يومية مفصلة ملأى بالاحاسيس والمشاعر ، صوَّرت في ثلاث مجلدات شريطا كاملا دقيقا لحياتك ، وقد وضعت في مصاف مذكرات صموئيل بيبيس : فيها يمر ، كما في المعرض ، عظماء الرجال والنساء في ذلك العهد ،

شوبان ، جورج صاند ، فكتور هوغو ، الكسندر دوما ، وزوجة الشاعر شيللي . وكنت حسن المنظر ، ومحبوبا من النساء اللواتي كن يلاحقنك بلا هوادة ، فتسمح لنفسك احيانا بالوقاع في شراكهن .

دولاكروى : انك تخجل تواضعي ، يا سيدي ، ولكن ما دمت قد تطرقت الى الناحية العاطفية في حياتي فلا بد لي من ان اذكر ان حبي الكبير كان للبارونة جوزفين دو فورجيه التي كنت سأتزوجها لولا سوء صحتي .

صوت : ومع تقدمك في السن ازداد الم حنجرتك سوءاً على سوء ، فكنت تقضي اياما دون ان تستطيع التلفظ بكلمة .

دولاكروى : احمد الله على اني كنت رجلاً لا امرأة !

صوت : وكانت مدبرة منزلك التي خدمتك طوال ثماني وعشرين سنة كاملة تقف على باب حجرتك لتمنع الزائرين من ان يثقلوا عليك ، او يلهوك عن الرسم .

دولاكروى : الا ان جوزفين دو فورجيه وصديقي الحميم الموسيقي شوبان كانا يدخلان عليَّ ساعة يشاءان .

صوت : لكن عندما اشتدت وطأة المرض عليك اوصدت الخادمة الباب في وجه الجميع دون استثناء .

دولاكروى : بلى،باستثناء الطبيب .

صوت : وفي ١٣ آب سنة ١٨٦٣ ارتحلت من عالمنا الزائل الى هذا العالم الباقي عن خمسة وستين عاما .

دولاكروى : وكانت احدى آخر ملاحظاتي : « آه ، اذا تحسنت حالتي

فسأصنع اشياء رائعة، ان رأسي ليغلي بالافكار ! »

صوت : ويسرني في هذه المناسبة ان اذكر لك ان هذه العبارة قد ذكرت في السجل الذي اصدر سنة ١٩٦٣ لمناسبة اقامة المعرض المئوي للوحاتك . فقد وصفت بأنك واحد من امجاد فرنسا الوطنية .

آنغر : مصلح وثوري
(١٧٨٠ - ١٨٦٧)

صوت : ربما يبدو غريبا ان جان دومينيك آنغر قد اشار الى نفسه في احدى مراحل حياته على انه مصلح وثائر على التقاليد ، ذلك بأنه في سيطرته على عالم الفن الرسمي طوال فترة غير قصيرة ، كان الزعيم الطاغية والناطق بلسان المدرسة والاكاديمية الكلاسيكيتين ، وبهذه الصفة حارب التجديد والتغيير . وبالنسبة الى الكثيرين فانه يمثل نهاية مرحلة سيطر عليها جاك لوي دافيد ، ذلك الكلاسيكي العنيد الذي جاهد كثيرا ليبعث على لوحاته الزيتية الاغريق والرومان ومجد ماضيهم الغابر .

الا اننا ، من وجهة النظر التي يقدمها لنا الزمن ، يبدو واضحا ان آنغر ، من نواحي متعددة ، كان « الثائر » الفني الذي اعتبر انه كانه . ذلك بأنه ، على الرغم من تدربه القاسي في مدرسة دافيد ، فقد تحرر في النهاية من التزام او تقيد شبيه بالعبودية بالنيو - كلاسيكية المتجمدة المتحجرة ، العديمة العاطفة التي اعتنقها المتأنقون المتكلفون في القرن الثامن عشر . بعد هذه المقدمة الضرورية لوضع هذا الرسام الشهير في موضعه الصحيح من عالم الفن ، سننتقل الى حوار معه نستعرض فيه مراحل حياته الخاصة والفنية الغنية .

آنغر : أهلا بك يا سيدي ، سلني ما تشاء !

صوت : هلا حدثتنا يا سيد آنغر عن حياتك، في مستهل هذا اللقاء .

آنغر : ابصرت النور في مونتوبان في جنوب فرنسا سنة ١٧٨٠ ، الا ان الصورة العادية التي كانت معروفة عن سوء التفاهم بين الاب وابنه بسبب رغبة الابن الغريبة في امتهان الرسم لم تكن الطابع المميز في مطلع الصلة السعيدة بين السيد آنغر والفتى جان دومينيك ، أي أنا . فقد كنا نرسم سوية ، ونغني معا ، ونعزف بالكمان كذلك . وفي الثامنة من عمري عزفت امام الجمهور ، وفي التاسعة رسمت صورة اعتبرت رائعة ، ما تزال محفوظة ، كانت مستوحاة من تمثال كلاسيكي . وما ان بلغت الحادية عشرة حتى التحقت باكاديمية الفنون الجميلة في طولوز . حيث درست مبادىء الرسم بالزيت وفن صنع التماثيل .

صوت : يطيب لي في هذا المجال ان اذكر ان ثمة عبارة فرنسية هي « كمان آنغر » وتعني اهتمام المرء بعمل ثانوي على سبيل الهواية يبدع فيه ويتقنه . وامضي فاقول انك في الوقت نفسه كنت تدرس خارج الاكاديمية اصول الرسم بالقلم الرصاص ، والحبر ، والريشة ، وتنسخ باجتهاد اعمال اساطين الرسم . وعملت عازفا في احدى الفرق الموسيقية المحلية لتكسب ما يتقيم اودك ومنذ البداية رحت تكسب الجوائز على عملك المتقن الماهر حقا . وعندما غادرت طولوز حملت افضل مديح وتقريظ من اساتذتك، وقد تكهن واحد منهم بأنك ستمنح وطنك في يوم من الايام شرفا كبيرا كفنان مرموق . فمتى هبطت باريس ؟

آنغر : وصلت الى باريس سنة ١٧٩٧ فذهبت مباشرة للدراسة مع دافيد الزعيم غير المنازع للمدرسة الفرنسية الاكاديمية ، الذي كان يتذوق ميزة القوة التي يتمتع بها الديكتاتور الحقيقي ، محبوبا من البعض ، مكروها من البعض الآخر . لا ابالغ اذا قلت انني في هذه الفترة كذلك وفي مدرسة الفنون الجميلة بالعاصمة الفرنسية سرعان ما كوفئت بالجوائز والمكافآت . وكنت بعد ساعات الدراسة اتابع صفوف الاكاديمية السويسرية ، وكانت مدرسة فنية غير رسمية ، كان يجتمع فيها فيما بعد الكثيرون من الفنانين ذوي الطبيعة الثائرة .

صوت : في هذه المدرسة امكنك ان ترسم من وحي نماذج حية بدلا من التماثيل الاغريقية والرومانية الجامدة . وفي هذه الفترة بالذات ، بدأت ترسم بالقلم صورا لكل من يجلس امامك ، وكثيرون هم الذين جلسوا امامك نظرا للباقتك ولسخائك عليهم .

آنغر : وفيما بعد ، وجدت ان مثل هذه الصور او الاستكشات ، بلغتنا الفنية ، كانت مصدر دخل متواصل لا بأس به .

صوت : عندما منحت جائزة روما القيّمة التي طالما تمناها الفنانون لم تكن قادرا على السفر الى روما مباشرة ، لان الخزينة الوطنية كانت فارغة ، فاضطررت الى الانتظار خمس سنوات قبل ان تتوفر الاعتمادات الضرورية لسفرك . الا انك في هذه الاثناء واصلت عملك ، فكنت تكسب معيشتك برسم الصور ، واحيانا ببيع اسكتش الى احد الناشرين .

آنغر : اسمح لي ، يا سيدي ، ان اضع التواضع جانبا لاقول انني في سن الثالثة والعشرين بلغت شهرتي حدا جعل نابوليون العظيم يجلس امامي لارسم له صورة خصصت لمدينة « لييج ».

صوت : لا بأس ، يا سيد آنغر ، من ذكر ما ذكرت ، لانني كنت سأشير الى ذلك بنفسي ، فمن البداية كان اهتمامك الاساسي بالرسم ، وانت قلت مرة : « لو أتيح لي ان انشيء مدرسة للرسم ووضع المخططات والتصاميم ، فاني واثق من ضنع الرسامين بالالوان والزيت » .

آنغر : كنت اعتبر اللون ثانويا من حيث الاهمية ، فلا استخدمه الا لأملأء به الفراغات التي يحددها الخط المرسوم .

صوت : الحقيقة انه لم تكن لك نظريات في اللون او النسق اللوني في الصورة ، تلك النظريات التي طورت في ظل المدرسة الانطباعية . فقد التزمت وحسب باللون المحلي ، اي بالالوان الواقعية للملابس والاشياء التي عرفتها فيها . ويمكننا القول ان اسلوبك في الرسم لم يتبدل الا قليلا في حياتك المهنية .

آنغر : لم تكن هناك اي نظريات جديدة تزعجني او تأثيرات اي مدرسة من مدارس الرسم ، او تحولات دراماتيكية في السلوك والتكنيك تغير المنهج الذي سلكت . وكان بوسعي ان احتفظ بلوحة تركتها غير تامة قبل سنوات ثم انهيها دون ان يبرز فيها اي تعارض او تناقض .

صوت : وعندما وصلت الى ايطاليا كان فن رفاييل، اشهر من الآثارات الرومانية القديمة ، مما اثار اعجابك ودهشتك .

وقد تأثرت به كثيرا ، وعندما رسمت فيها بعد رسومك العارية الشهيرة ـ سواء منها الالاهات ، او النساء ، فانك استلهمت آلهة رفاييل الرائعة .

آنغر : وواصلت العمل في ايطاليا ، وفي سنة ١٨١٣ فكر اصدقائي بأنه ينبغي لي ان اتخذ شريكة لحياتي ، فأوفدوا الي فتاة جذابة لم ارها من قبل هي مادلين شابيل .

صوت : فتزوجتها في الحال ، وعشتها في سعادة وارفة حتى وافاها الاجل سنة ١٨٤٩ اثر مرض لم يهملها سوى بضعة شهور ، تاركة اياك محطها لا معين لك .

آنغر : تلك هي الحقيقة ، فلم اعد استطيع الرسم ، وقمت بسلسلة من الرحلات ، وعدت الى باريس في خريف سنة ١٨٥٠ .

صوت: ولكن لنعد قليلاً إلى الوراء فقط اضطررنا أن نستبق الأحداث عندما ذكرنا خبر زواجك، فما رأيك؟

آنغر : كما تشاء ، يا سيدي . فمن ايطاليا ، حيث اقمت ردحا من الزمن ، كنت ارسل رسوما للعرض في المعرض المعروف بالصالون ، وكان في جملة ما ارسمه في ذلك العهد مشاهد تاريخية وصورا كثيرة للشخصيات . فكانت تدر علي بعض الدخل المادي .

صوت : ويؤسفني ان اذكر ههنا ان حالتك المادية كانت سيئة الى درجة ان زوجتك اعترفت ذات مرة بأنكما بتما بلا خبز ، ولم يعد اصحاب الافران يسمحون ببيعكما الخبز بالدين .

آنغر : الا ان التكريم والشهرة ما لبثا ان عاوداني سنة ١٨٢٥

عندما انتخبت عضوا في اكاديمية الفنون الجميلة ، مما حمل الي طلبات للرسم لقاء بدلات قيّمة. وكنت قد عدت الى باريس في تلك السنة بالذات ، وافتتحت مدرسة للرسم خاصة، وعملت مدرساً في مدرسة الفنون الجميلة، ثم أصبحت مديراً لها سنة ١٨٢٩. وهكذا ولت إلى الأبد أيام العسر والضيق والعوز. . .

صوت : . . . ولكن لم تولِّ معها المرارة التي كانت تصيبك من جراء المؤامرات ، والعداوات ، وبخاصة من الرسامين الناشئين . وقد كنت حاد الطباع ، وعاطفيا ، فاصبحت متكبرا ، مغرورا ، واحيانا كثيرة قاسيا . ولم تكن لتسمح بأي نقد او منافسة ، وكان الناس يخشونك ، ويخشون لسانك اللاذع ، ونوبات غضبك .

آنغر : صحيح فقد كان ذلك من مساوئي ، وانا اعترف صراحة بهذا الخطأ في سلوكي الذي لم اكن استطيع ان اتحكم به .

صوت : وفي سنة ١٨٥٢ ، وعندما بلغت الثانية والسبعين من عمرك ، تعرفت الى امرأة اصغر منك بثلاثين سنة ، عقدت قرانك عليها ، وعدت بحماسة الشباب ترسم بشغف وقوة كالسابق . حتى ان « المعرض الكوني» الذي اقيم سنة ١٨٥٥ عرض لك حوالي سبعين من لوحاتك في قاعة منفردة عرفت باسم « قاعة آنغر » فكانت تلك القاعة ابرز اجنحة المعرض .

آنغر : وفي سنة ١٨٥٦ رسمت « الينبوع » ، ولعلها من اجمل لوحاتي واحبها الى القلوب .

صوت : وتشير الرسائل التي تركتها الى انك كنت سعيدا في عملك الفني اكثر مما كنت سعيدا في اي فترة اخرى من حياتك . وفي سنة ١٨٦٢ عينك نابوليون الثالث عضوا في مجلس الشيوخ في الامبراطورية . وهكذا شارفت حياتك المليئة الغنية على الانتهاء ، ولم يعد مركزك الرفيع موضع شك او تساؤل ، فلطفت من سلوكك مع الآخرين ولا سيما خصومك . وكان دولاكروى « الشاب » قد مات ، فوجدت مجالا في نفسك لمدحه ومدح فنه .

آنغر : الحقيقة انني كنت اقدر على اظهار التواضع والتقدير للمعلمين القدامى . وقبيل موتي دهش احد زائريَّ عندما رآني أنسخ لوحة من لوحات الرسام جيوتو من اشهر رسامي القرن الرابع عشر . فلما سألني لماذا ، وانا المعلم الشهير ، أهتم برسم لوحة منسوخة عن اخرى ، اجبته بكل بساطة ، « لكي أتعلم ! »

صوت : رائع حقا هذا الجواب ، وهو خير دليل على تقديسك اساطين الفن . وكانت وفاتك في ١٤ كانون الثاني من سنة ١٨٦٧ ، عن سبعة وثمانين عاما !

دوميه : ينبغي للمرء ان يكون ابن عصره
(١٨٠٨ - ١٨٧٩)

صوت : ان العبارة التي تردد غالباً عندما يشار الى فن الرسام أونوريه دومييه ، او حياته هي تلك التي سكّها بنفسه وطالما كان يرددها : « ينبغي للمرء ان يكون ابن عصره » . من خلال ترجمة هذه العبارة ينبغي ان نقرأ المعنى الذي شاءه ذلك الرسام لنفسه ولا ريب . واني لعلى يقين ان الفنان ينبغي ان يهتم بالناس ، بالاحداث ، بالجو السياسي والادبي معا ، بعصره ، بمعرفته وبالملاحظات التي يستقيها بنفسه من معينها . فدومييه رسم بالزيت ، وصوّر بالقلم المجتمع الذي عرف ، ولكن فنه لا يتقيد بزمن كسائر الفنون التي وصلت الينا .

دوميه : بالطبع ، يا سيدي ! وحسب ملابس شخصيات اللوحات التي رسمت فتجد امامك ملاحظات حول التصرف البشري الذي ينطبق على اجيال من قبلي ومن بعدي . ادرس بدقة رسومي الكاريكاتورية السياسية والتعليقات اللاذعة التي ترافقها تجد فيها جردة لاحداث الأمس ، واليوم ، وبالطبع احداث الغد كذلك .

صوت : حقا ما تقول ، ذلك بانك رأيت في البشرية ـ وهي الشيء الوحيد الذي استأثر باهتمامك ـ تلك الخصال التي هي

ازلية ، او على الاقل تكرر باستمرار والى الابد . ولكن ، لم يكن بد من هذه المقدمة لوضع القراء في جو الحوار بيننا ، وفيه سنعرّفهم بدقائق حياتك واعمالك . . .

ولدت يا سيدي في جنوب فرنسا ، وبالضبط في مدينة مرسيليا في شباط من سنة ١٨٠٨ . وكان والدك زجّاجا ، ولكنه كان يحلم بمهنة مختلفة بالنسبة اليك . فلما نشرت له قصيدة في صحيفة محلية شجعه ذلك على الانتقال بأسرته الى باريس حيث كان واثقا من ان جمهورا اكبر ينتظره .

دومييه : ولكن ، لا بد من الاشارة الى ان النجاح الذي كان يتوقعه والدي لم يكن كبيراً ، ومع انه نجح في طبع ديوان شعري ، الا انه لم ينل منه لا مجدا ادبيا كبيرا ولا كسبا ماديا . وفي هذه الاثناء ، كانت تجارته في الزجاج قد اصيبت بخسارة مما جعلني ، وانا بعدُ فتى ، أقوم بأي عمل يدر علينا اي دخل ممكن متواضع ، وهكذا كان أول عمل قمت به هو عمل مساعد مأمور التنفيذ في المحكمة .

صوت : وهكذا كان اتصالك المبكر بالمحاكم والقضاة والمحامين ومختلف فئات الناس الذين يترددون عادة الى هذا الوسط . ولكنك سرعان ما انتقلت الى العمل كمعاون في احدى مكتبات باريس . الا ان الحافز على الرسم يبدو انه كان يحدوك منذ البداية ، فلما فاتحت والدك بشأن امتهان الرسم وجعله محور حياتك ، لم تلق منه رغبة او اذناً صاغية .

دومييه : الا ان والدي وافق ، مع ذلك ، على حمل نماذج من استكشاتي المصورة الى الكسندر لونوار الذي كان في ذلك

الحين مشرفا على متحف الآثار الفرنسية . وقد بلغ اعجاب لونوار بما عرض عليه الى درجة جعلته يقنع والديّ بان احتراف الرسم يمكن ان يكون امراً حسناً بالنسبة الى ابنهما - اي بالنسبة الي .

صوت : ولكنك ، كتلميذ ناشىء ، كنت تتعب بسرعة من التمارين التي لا نهاية لها على رسم الانوف والآذان والعيون وسائر اجزاء الجسم البشري . وقلما كنت تتردد على قاعة الدرس ، ممضياً وقتك في ممرات متحف اللوفر ، ومتجولاً في شوارع باريس وقد علّمك صديق لك يدعى رامليه فن الطبع الحجري ، مما اتاح لك ان تكسب بعض المال من اجل الانفاق على الاعمال التجارية التي اوكلت اليك .

دومييه : وفي سن الحادية والعشرين اتفق ان نشرت عددا من الرسوم الكاريكاتورية السياسية الطابع ، لفتت نظر شارل فيليبان الزعيم المعارض العنيف لحكومة الملك شارل العاشر البغيضة. فلما اعتلى الملك لوي فيليب العرش بعد ذلك بقليل ، راح فيليبان يحارب كل ما كان يمثله « الملك المواطن » . وفي هذا الصراع ، كنت اداة مفيدة ، فحملت صحيفتان رسومي السياسيةوملاحظاتي الى الجمهور ، هما مجلة « كاريكاتور » الاسبوعية ، وجريدة « شاريفاري » اليومية .

صوت : وقد سببت لك صورة كاريكاتورية بعنوان « غرغنتاوى » غضب الحكومة بحيث حُكمت بدفع غرامة وبالسجن ستة اشهر . وعاشت مجلة « كاريكاتور » خمس سنوات

فحسب ، اذ اوقفتها الحكومة سنة ١٨٣٥ . ومع ان جريدة « شاريفاري » سمح لها بالاستمرار في الصدور ، فان السخرية والهجاء فيها كانا من نوع اخف ، وموجها الى الشعب ـ كانت نقاط الضعف في الخلق والسلوك الحياتي اليومي للشعب الموضوع الرئيسي لهذه الكوميديا المصورة من العادات والتصرفات .

دوميه : وعلى ذلك ، اصبحت حياتي في تلك المرحلة ضمن ذلك الاطار الذي لم يتغير الا لماما طوال فترة ثلاث عشرة سنة . فكنت انتج الآف الرسوم في الصحف اليومية ، ثم اقضي اوقات فراغي من ذلك العمل بصحبة رسامين بدأوا ينظرون نظرة اهتمام وتقدير لفني . حتى ان الرسام الكبير دولاكروى كان ينصرف غالبا عن عمله الابداعي لينسخ اسكتشاتي التي تصور المستحمين لفرط اعجابه بمهارتي ودقتي في تصوير الجسم البشري .

صوت : هناك ، يا سيد دوميه ، نوادر تروي انك كنت شخصية ملونة . كنت ترسم مع اصدقائك الفنانين خلال النهار وتجتمع بهم ليلا في المقاهي التي يترددون عليها . وكنت تحسن الاصغاء ، ولكن قلما كنت تتحدث او تفتح موضوعا للكلام . واعذرني ههنا اذا انا قلت ، امانة للتاريخ ، انك بعد احتساء بضع كؤوس من الشراب كنت تصبح صبيانيا ، ثقيل الظل نوعا ، ولكن من الانصاف ، ينبغي ان اضيف ان لك عددا لا بأس به من الاقوال الذكية الظريفة . وفي سنة ١٨٤٦ ، تزوجت فتاة في الرابعة والعشرين ، عشت معها حياة سعيدة في منزل يقوم في اقدم احياء باريس .

دوميبه : وبقيت على عادتي اذرع واتمشى على ضفاف نهر السين واعود الى البيت حاملا الذكريات عن الاماكن والاشخاص لاحولها الى رسوم حجرية ولوحات . وسرعان ما اتسعت حلقة اصدقائي من الفنانين الممتازين الذين كانوا غالبا ما يزورونني في منزلي المتواضع المشرف على السين لتناول البيرة . واذكر لك بعض هؤلاء الرسامين امثال باري ، ودولاكروى ، ودوبينيي ، وكورو .

صوت : على ذكر كورو ، لا بد من الاشارة الى انه لما ساءت ظروفك المادية ، وبت تشكو كثيرا من ضعف بصرك ، خف كورو لمساعدتك ، فأهداك منزلا كان يملكه ، مرفقا هديته برسالة لطيفة لكي لا يجرح شعور زميله ، قال فيها انه يفعل ذلك لانه لا يدري ما يفعل بذلك البيت .

دوميبه : لقد كانت بالفعل لفتة كريمة منه ، واذكر انه لما زارني بعد فترة قصيرة ، عانقته بحرارة قائلا له : « آه ، يا كورو ، انت الانسان الوحيد الذي يمكنني ان اتقبل منه مثل هذه الهدية دون ان اشعر بالحرج والاذلال .

صوت : نعود الى نشاطك الفني ، فنذكر انه في سنة ١٨٤٨ ، كانت الجماهير الثائرة تجوب شوارع باريس وكنت ترسم صورك السياسية الساخرة للصحف ، ولكن ، دون ان تضع فيها قلبك ، لانك كنت تود استخدام وقتك في رسم اللوحات الفنية لتتحرر نهائيا من عمل روتيني اصبحت تمقته .

دوميبه : ولكم قضيت من الليالي ارسم بالزيت لوحات لم يقدرها

الا القليلون ، ولم يشترها احد . وقد عرفت العسر طوال اربع سنوات من جراء ذلك ومن جراء استغناء ناشري صحيفة «شاريفاري» عن خدماتي الكاريكاتورية .

صوت : ولكن في اواخر سنة ١٨٦٣ ، اعادتك تلك الصحيفة الى هيئة تحريرها ، فوافقت لحاجتك الى المال ، وكانت لوحاتك ما تزال مجهولة وغير مقدرة الا من فئة قليلة ، وبالطبع غير مباعة . الا ان الشهرة اصابتك لعملك في الرسم الصحفي . وانعم عليك بوسام صليب جوقة الشرف ، فرفضته وكانت قد بقيت امامك بضع سنوات من الحياة ، كان فيها بصرك يضعف باستمرار وفي شباط من سنة ١٨٧٩ ، اصبت بنوبة وغادرت العالم الاول بعد ذلك بيومين ، ودفنت في مقبرة صغيرة في بلدة فالموندوى ، ثم نقل جثمانك فيما بعد الى مقبرة بيرلاشيز حيث يرقد الكثيرون من الفنانين والكتّاب الفرنسيين ، وفي مماتك جاورت كورو الذي احبك في حياتك . وكان لك نعم الصديق والمعين .

دومييه : أصحيح ما تقول ، يا سيدي ؟ لقد سرتني معرفة هذه المعلومات . فلعمري ان مجاورة كورو حياً وميتاً ، يمكن ان تعتبر مأثرة من الذين فكروا فيها !

فاغنر : مجدّد في كل شيء
(١٨١٣ - ١٨٨٣)

صوت : رتشارد فاغنر ، كنت موسيقيا ، وأديباً ، وشاعراً ، وناقدا فنيا ، وقد جددت في كل هذه الميادين ، وحاولت ان تقلب رأسا على عقب القيم الفنية كلها . حتى انك كنت تتفاءل بالرقم ١٣ الذي يتشاءم منه معظم البشر .

فاغنر : صحيح ذلك ، فاسمي يتألف من ١٣ حرفا ، وقد ولدت سنة ١٨١٣ التي تجمع اعدادها ١٣ ، وتركت المدرسة في السنة الثالثة عشرة . وضعت ١٣ اوبرا ، واحببت ١٣ امرأة ، وكان اسم امي يتكون من ١٣ حرفا . اما المنصب الذي شغلته ويدعى بالالمانية « كابلمايستر » فيتألف من ١٣ حرفا . وقد توفيت في ١٣ شباط سنة ١٨٨٣ . . .

صوت : ما دمت قد ذكرت انك احببت ثلاث عشرة امرأة ، فانني اود القول ، ههنا ان المقطوعات الموسيقية التي وضعتها لهي اروع الاناشيد التي رفعها موسيقي للمرأة والحب .

فاغنر : شكرا لك على هذا التقدير ، ولو ان نيتشه ، ابن وطني ، وصفني بأنني موسيقى الانحلال والنذير بانحطاط اوروبا وافول نجمها .

صوت : لندع كل ذلك جانبا الآن ، ولنشرع في ما جئت من اجله لمقابلتك . نود ان نتعرف اليك من نوادرك الظريفة .

فاغنر: على الرحب والسعة ، فان ذلك لمما يغبطني جدا . في باريس تعرفت الى الموسيقي اوبير فقال لي : « لقد انقضت ثلاثون سنة من عمري قبل أن اتبين اني، في الأساس، لست املك موهبة موسيقية » . فسألته وقد تملكتني الدهشة : « هل توقفت عن التأليف اذ ذاك ؟ » فاجابني مبتسما : « لا ، فقد اصبحت ، في هذه الاثناء مشهورا ! »

صوت : ارى اننا نستهل هذه المقابلة على احسن وجه ممكن ، تذكر ولا ريب ، يا سيد فاغنر ، ان ادوار هانسليك كان ناقدا موسيقيا نمسويا شهيرا ولاذعا . ولم يكن يحب موسيقاك . وقد سئل رأيه في اوبرا « تريستان وايزولت » بعد تقديمها للمرة الاولى ، فبم ، اجاب :

فاغنر: قال : « لا بأس بها نوعا » . فسئل : « وما الذي لم يعجبك فيها ؟ » فابتسم بخبث وردّ : « الموسيقى ! . . »

صوت : ايام كنت ما تزال تتابع دروسك الموسيقية كنت دائم السعي وراء المال لضيق ذات اليد . فاشير عليك باللجوء الى تاجر موسر ولكنه بخيل نوعا . قل لنا ماذا حدث وقتذاك .

فاغنر: حملت اليه احد اعمالي الموسيقية على امل الحصول لقاءه على مبلغ من المال على سبيل الهبة . فسر التاجر من هذه

البادرة اللطيفة وقدّم الي رسمه الفوتوغرافي . وبينما انا اتأمل الرسم بيأس ، سألني التاجر: «هه، ما رأيك في الرسم ؟ » فكان جوابي : «أنه شديد الشبه بك».

صوت : كان ديبوسي ينقد اعمال زملائه الموسيقيين باخلاص ، لا يؤثر في نقده موقفه الشخصي منهم ، وسواء أأحبهم ام لم يحبهم . ولم يكن ليقرّك يا فاغنر على غطرستك ، وكان يرى في صخب موسيقاك وعنفها وكأنك تريد ان تقول فيها : « انا اعظم الموسيقيين » . الا انه مع ذلك لخص تقديره الكبير لك بهذه العبارة :

« لو كان فاغنر اكثر انسانية لكان حقا سماويا » .

فاغنر: شكرا له على اي حال .

صوت : يذكر المؤرخون ان اول لقاء بينك وبين شومان استغرق ساعة كاملة . فماذا كان رأي كل واحد منكما في الآخر ؟

فاغنر: قلت اصف زميلي : « انه امرؤ محترم كثيرا شوبان هذا ، فهو يصمت دائما . اما شوبان فكان هذا انطابعه عني : « لقد اعجبني فاغنر كثيرا . بيد ان علته هي انه يتحدث بلا انقطاع ! » .

صوت : اتذكر ما جرى بينك وبين بسمارك ، مستشار الحديد والنار ، كما يلقبونه ؟

فاغنر: بالطبع ، اذكر جيدا انه لم يكن يفهم فني ، في حين كنت من اشد المعجبين به كرجل دولة جرماني . وفي خلال لقائنا الوحيد قلت له ، وقد كنت اطمع الى توسيع حقل عملي ، فأتخطى حدود مسقط رأسي بايروت ، الى

برلين ، حيث هو . . . « ان أغلى امنية لدي هي ان يتاح لي العمل سنتين اثنتين ، على الاقل ، بالقرب من سعادتك » ، فاجابني بسمارك بكل احترام : « من سوء طالعي انه ليس ثمة اي أمل بنقلي الى بايروت ! »

صوت : عرفت ، يا سيدي ، بشذوذك عندما بنيت في حديقة لك ، غير بعيدة عن منزلك ، ضريحا كنت تزوره يوميا ، ولم تكن لتتورع عن التحدث عن الموت والضريح لمن يكونون مدعوين الى مآدبك .

فاغنر : وكنت احملهم كذلك على مرافقتي لزيارة هذا الضريح . ولكم قطعت حديثا يدور بيننا لاقول لهم : « ايها الصحاب ، نحن اقرب ما نكون من الموت حتى عندما تضحك لنا الدنيا . والآن سأريكم ضريحي » . .

صوت : انها ، كما يبدو ، فلسفة خاصة في الحياة والموت لا مجال للجدال فيها في هذا المقام .

فاغنر : احسنت .

صوت : اذكر لنا ما كتبته يوما لزميلك الفرنسي هكتور برليوز .

فاغنر : كتبت اليه اقول : « كفاني ان اكون الالماني الوحيد الذي لم يتح قط له سماع اوبرا « لوهنغرين » التي وضعتها . » فردَّ علي برليوز بقوله : « ان طالعي لأسوأ . فأنا الفرنسي الوحيد الذي يعرف شيئا عن اوبرا « الطرواديون » . وهذه الاوبرا من وضع برليوز ! . . .

صوت : على ذكر الاوبرات تحضرني تلك النادرة المتعلقة باوبرا تانهاوزر الصاخبة ، وقد جرت على لسان احدهم خلال

المادب التي اقيمت على شرفك . فقد سمع على حين غرة خارج القاعة صوت تحطم بعض الآنية . فصمت الموجودون لحظة ، ثم سمع صوت يقول : « من يعزف في الخارج اوبرا تانهاوزر » ؟

فاغنر: ثق ان مطلق تلك النكتة كان ظريفا للغاية .

صوت : والآن ، اتسمح لي برواية نادرة نختتم بها هذه المقابلة التي استمتع بها ولا ريب ، قراؤنا الكرام ؟

فاغنر: تفضل . . سأصغي اليك مع القراء الكرام . . .

صوت : كان شاعر الرمزية الفرنسية شارل بودلير، اول من اعترف بعبقرية فاغنر في بلاد السين . وقد زاره يوما في بيته فألفاه مرتديا « روب دي شامبر » رائعا اصفر اللون . وجلس امام البيانو وعزف قطعة وجدها بودلير رائعة . ثم نهض ، وانسحب الى غرفته وعاد منها مرتديا روب دو شامبر اخضر . وقعد يعزف عملا آخر من اعماله الموسيقية . واعاد الكرة ، وخرج هذه المرة من غرفته وعليه روب دو شامبر احمر . وعزف مقطوعة ثالثة لبودلير الذي ما لبث ان قال له : « لاحظت جيدا انك ارتديت هذا العدد من « الروبات » لتعزف ثلاث مقطوعات مختلفة ، وذلك لا ريب ، لتبرز رمزياً اختلاف المقطوعات الثلاث في مضمونها » .

فنظر فاغنر الى الشاعر بدهشة ثم انفجر ضاحكا مردداً : « اذا كنت قد بدّلت ثلاث مرات الروب دو شامبر فذلك لانني تصببت عرقا اثناء العزف ، ولم اشاء ان ابقيها علي وهي مبللة » .

فاغنر: ان هذه الحادثة لم تفارق ذاكرتي مطلقا ، اتصدق ذلك ؟

صوت : لم يبقَ لي ، يا سيد فاغز ، الا ان اشكرك على تلطفك بهذه الدقائق الثمينة عن وقتك . لقد كانت حقا مقابلة ممتعة .

فاغنر: لا شكر على واجب ، يا هذا !

مانيه : كان اعظم كثيراً من رأي زملائه
(١٨٣٢ - ١٨٨٣)

صوت : « لن تكون ابدا اكثر من دومييه زمنك ! » تلك كانت العبارة التي حكم بها الرسام ومعلم الرسم توما كوتور على ادوار مانيه الشاب عندما عرض عليه بعض رسومه ، وكانت تختلف اختلافا بينا في الموضوع والاسلوب الفني عن كلاسيكية كوتور وبعض تلاميذه الاقل ثورية فنية. وطوال فترة غير قصيرة في حياته القصيرة نسبيا كان قدر مانيه ان يكون هدف النقد العنيف الحقود احيانا ، سواء من معاصريه الفنانين والنقاد ، وعامة الشعب . ولكن عندما دفن في مقبرة باسي الصغيرة ، قال عنه الرسام ديغا الذي عرف باقتصاده الكثير في المجالات عن مانيه : « كان مانيه اعظم جدا مما اعتقدنا ».فالى استعراض وقائع حياة هذا الرسام الفرنسي الكبير واعماله.

انت ابصرت النور في باريس في كانون الثاني سنة ١٨٣٢ في اسرة ميسورة الحال . وادخلت كلية رولان في العاشرة من عمرك . ولكنك كنت قليل الاهتمام بالدرس وشارد الذهن وبليدا .

مانيه : كنت مثل الرسام تولوز ـ لوتريك الذي جاء بعدي ، اقضي الوقت وانا في الصف بتسويد صفحات دفاتري

وهوامشها بالصور والاسكتشات . وكان ايام الاحد يرافقني عمي مع صديقي انطونان بروست الى متحف اللوفر حيث كنا ندهش لدى التأمل في الروائع الفنية ، ونعود الى المدرسة لنعاود سيرتنا الاولى في الخربشة على الدفاتر المدرسية .

صوت : ولكن والدك حذرك من هذه المهنة السخيفة ـ الرسم ـ وطلب اليك الاقلاع عنها لدراسة القانون او الالتحاق بالبحرية . وذلك على غرار معظم الوالدين الذين وقفوا في سبيل ابنائهم الميالين الى الفنون باعتبار ان الفن لا يطعم خبزا ولا مستقبل له .

مانيه : ذلك هو الواقع ، ولكن عندما تقدمت الى الامتحان لدخول الخدمة البحرية فشلت فشلا ذريعا . ومع ذلك ، ولكي اجهز نفسي للتقدم ثانية الى الامتحان ، قمت برحلة بحرية الى الريو في اميركا الجنوبية استغرقت سبعة اشهر ، وذلك سنة ١٨٤٨ ، عندما كنت في السادسة عشر من عمري .

صوت : ومما لا ريب فيه ان تلك الرحلة كانت خيرا عليك ، اذ ولّدت فيك حب البحر الذي اظهرته رسومك المائية الشعرية والمحفورات الكثيرة التي كنت تنتجها بين ان واخر خلال حياتك .

مانيه : وتلك الرحلة كذلك اظهرت لوالدي انني لم اخلق لاكون بحّارا، فوافق بتردد على دخولي محترف الفنان المعلم توماس كوتور حيث انضم الي رفيق الطفولة انطونان بروست . وطوال ست سنوات كاملة اضطررت الى تحمل

دروس هذا الرجل الاناني الوصولي المغرور ، كوتور الذي لم اكن احبه .

صوت : ولكن مع ذلك فقد افدت من قساوة التدريس لدى كوتور واستوعبت الكثير مما كان مفيدا لك في السنوات التالية . وعندما غادرت المحترف نهائيا كنت قد اصبحت ماهرا وقديرا في استعمال ادوات الرسم . ثم دخلت الاكاديمية السويسرية حيث لم يكن ثمة وجود للتعليم العادي ، بل كان تلامذة الرسم يدفعون اجرا معينا بسيطا ليرسموا نماذج كانت توضع امامهم . وفي تلك الفترة سنحت لك الفرصة لزيارة اللوفر باستمرار .

مانيه : الحقيقة ان الدروس الفنية الحقيقية كانت تستوحى من هذه الزيارات للمتحف الذي يضم روائع اساطين الرسم في مختلف العصور ، ومن مختلف المدارس . وكنت اتأمل وانسخ اعمال الايطاليين الاوائل ، واسياد عصر النهضة وبخاصة الاسبانيين منهم .

صوت : وامانة للتاريخ اسمح لنفسي بأن اذكر انك لما كنت تدرس في محترف توما كوتور تعرفت الى فتاة هولندية حسناء سوزان لينهوف ، فربطت بينكما علاقة عاطفية اثمرت طفلا ، اعتقد ذووها بسذاجة ان بالامكان ايهام الناس بأن هذا الطفل هو شقيق سوزان الاصغر .

مانيه : ولكن ذويَّ ، على ما يبدو، كانوا اقل سذاجة من ذوي سوزان ، فأمدوني ، في تلك الفترة ، بالمال الكافي للقيام بعدد من الرحلات الى الخارج . فزرت هولندا ، والمانيا وايطاليا ، مما اتاح لي فرصة دراسة معلمي الرسم القدامى

في بلدانهم الاصلية ، فلما عدت من احدى رحلاتي استأجرت محترفا سرعان ما اصبح ملتقى رسامي تلك الفترة من الفنانين الاكثر تحررا . وهنا رسمت لوحتي « الطفل والكرز » ، « والطفل والغنم » .

صوت : ولكن الكثير من هيئات التحكيم التابعة لمعرض الصالون استمروا في رفض اعمالك ، وقد اعُتبرتم « مجانين » ! . . . هكذا بكل بساطة . ولكن في احدى صالات البولفار الباريسية عرضت بعض تلك اللوحات على الجمهور للمرة الاولى .

مانيه : وهكذا اتيح لرجل الشارع ان يبدي هزءه وسخريته .

وطوال حياتك هيمنت فكرة واحدة وتكررت في أعمالك الفنية، إلا وهي الموضوع الأسباني، بعد أن تأثرت كثيراً بالرسامين الكبار ريبيرا وغويا وفيلاسكيز. وفي سنة ١٨٦١ قبلت لوحتك «المغنية الأسبانية» في معرض «الصالون» وحظيت بتقريظ الناقد الكاتب تيوفيل غوتييه. والآن أود أن تحدثنا عن معرض اللوحات المرفوضة.

مانيه : لقد روى قصة هذا الصالون الشهير « معرض اللوحات المرفوضة،تكرارا العديدون من مؤرخي الفن وكتّاب المذكرات واليوميات . وقد اقترنت قصتها باسمي اكثر منها بأي فنان اخر . ذلك بأنه في سنة ١٨٦٣ اصبحت احدى لوحاتي « قضية مشهورة » بعد ان زار الامبراطور نابوليون الثالث برفقة الامبراطورة اوجيني « الصالون » الاساسي قبيل افتتاحه.فقد طلب ان تعرض عليه كل

اللوحات التي رفضتها هيئة التحكيم ، فوجدها جديرة بالعرض . وامر من فوره بانشاء معرض للوحات المرفوضة في القصر الصناعي المجاور للمعرض التقليدي . ولن نذكر هنا ما كان من امر اللوحتين ـ الفضيحتين « الغداء فوق العشب » و « اولمبيا » اللتين هزتا المجتمع للجرأة التي اعتبرها الجمهور متجلية فيهما .

صوت : حسنا تفعل ، فلا اهمية للدخول في التفاصيل . ولكن لوحة « اولمبيا » معلقةءاليوم في اللوفر . . .ولننتقل الان الى اثر المقهى الباريسي في تلك الفترة على الرسامين والكتّاب .

مانيه : ماذا تود معرفته عن موضوع المقهى الباريسي وتأثيره علي وعلى سواي من الفنانين والكتّاب؟ ففي القرن التاسع عشر لعب المقهى الباريسي دورا مهما جدا في تاريخ الفنون والآداب بحيث لم يهمل ذكره احد من المؤرخين او كتّاب اليوميات .. ولقد كانت تلك المؤسسة النبيلة كما اسميها بلا اي تردد او تحفظ ـ في الواقع منافسة للجامعة والاكاديمية كوسط او مركز للتعليم ، وكينبوع للوحي والالهام . وكمكان لتبادل الافكار الجديدة والقديمة على السواء.فيها كانت تصطرع المعارك الجمالية وحول موائدها الرخامية كانت تنشد القصائد للمرة الاولى ، وتعرض وتناقش النظريات الجديدة وقد ارتبطت بحركات فكرية معينة، إذ كانت مجموعات متنافسة تختار شرفات مقاه مختلفة كحصون لها، مستقطبة أنصاراً لخوض معارك القلم واللسان.

صوت : شكرا لك على هذا التعريف بأثر المقهى الباريسي الذي

كنت تجتمع فيه بزملائك وانت في ذورة مجدك الفني سنة ١٨٦٥ ، وكان الموضوع الرئيسي لمناقشاتكم في ذلك الزمن المدرسة الاسبانية في الرسم. وسنة ١٨٦٧ اقيم معرض للرسوم كبير ، ولكنك بنيت عمارة على حسابك الخاص ، وعرضت فيها لوحاتك ، وكان ما يزال هناك بعض الناقدين ، والقليل من المدافعين عن فنك ، وبينهم اميل زولا الذي كان ابرزهم .

مانيه : وفي المقهى الباريسي سنة ١٨٧٤ ـ ١٨٧٥ ، تعرفت على الرسامين الكبار كلود مونيه ، ورينوار ، وسيسلي ، وبيسارو وفيه اصغيت اكثر فاكثر الى ما كان يتحدث به المجددون في الرسم حول مبادىء المدرسة التأثرية او الانطباعية . وفيه كذلك خففت الواني واستخدمت الطبيعة مصدر وحي والهام لي ، وموضوعا ، ورحت اقلل من رسم الشخصيات والهيئات ذات الخلفيات القاتمة التي شاء بعضهم ان يسخر منها فدعاها ، « ورق اللعب » او « الشدة »! . . .

صوت : وبعد سنة ١٨٨٠ اصابك اول اعراض الداء الذي كانت به وفاتك وعذابك طوال بضع سنين . وقد انتقلت للعيش في الريف حيث رسمت الأزهار والطبيعة الجامدة وصورا لكثيرات من الحسان اللواتي كن يجلسن امامك لتخلدهن بريشتك بعد ان اصبحت مشهورا .

مانيه : صحيح ، الان وقد شارفت على النهاية اصبحت قبلة الانظار ، وهدف المديح والتقريظ ، ومستحقا للجوائز والانعامات . وفي سنة ١٨٨١ رسمت اللوحة الشهيرة

« بار الفولي برجير » وكان صديق طفولتي انطونان بروست وزيرا للفنون الجميلة فمنحني في سنة ١٨٨٢ نجمة فارس من وسام جوقة الشرف .

صوت : ولكن الالم هدك فلم يعد باستطاعتك الرسم فرحت تستعمل اقلام التلوين المائي بدلا من الفرشاة ، وفي النهاية سمحت للاطباء ببتر قدمك اليسرى على امل ان تبقيك تلك العملية في قيد الحياة . ولكنك غادرت العالم الأول في ٣٠ نيسان سنة ١٨٨٣، وأنت في أوج شهرتك الفنية!

إركل : رمز للنضال في كل زمان ومكان
(١٨١٠ - ١٨٩٣)

صوت : ليس فيرينك إركل موسيقياً مكافحاً مناضلاً فحسب ، اقتحم بفنه معركة عنيدة ضد الظلم والطغيان ، وأفنى كيانه وكيان فنه من أجل انتصار بلاده على العدوان ، بل هو رمز للكفاح والنضال في كل زمان ومكان .

أرّخ إركل بموسيقاه نضال شعبه المجري الذي انتفض ولم يبال بالحديد والنار في سبيل الوصول الى شاطىء السلامة ، وقاد هذا الشعب الى مشارف النور . . .

في نفسه التقت آلام الشعب المجري ومحنه التي جرّها عليه الاستعمار النمساوي فكافح بموسيقاه التي كان يسبغها على كلمات صديقه المؤلف بنيامين ايغرشي لدفع هذه الآلام والمحن كأنه هو وحده الشعب المغلوب على امره ، فيلهب بهذه الموسيقى الحماسة في النفوس .

وقام الشعب المجري بالانتفاضة الوطنية ضد مستعبديه سنة ١٨٤٨ ، وكان الشاعر المتحرر بيتوفي يلقي بنفسه من على المسرح المجري ، وفي الشوارع والطرقات ، وفي كل مكان ، قصيدته الخالدة : « انهضوا يا ابناء المجر ، لقد دقت الساعة ، فلتضعوا الحد الفاصل بين الحرية

والعبودية ، اقسموا بالله العظيم أن تكافحوا ولا تُستعبدوا بعد اليوم » .

ـ معنا الآن إركل الذي سنتحدث معه عن مراحل حياته ونضاله الموسيقي الوطني . ماذا عن سنواتك الاولى ، يا سيدي ؟

إركل : أبصرت النور في ٧ تشرين الثاني من سنة ١٨١٠ ، في الجزء الجنوبي من المجر . وكان والدي مشرفا على املاك اسرة هولندية قطنت تلك المنطقة منذ زمن بعيد ، ولا اغالي اذا قلت انه كان موسيقيا ممتازا ، مع كونه كان هاويا ، وقد كان استاذي الاول في الموسيقى دون ان يشاء مع ذلك ان اصبح محترفاً ، ذلك بأنه كانت له بعض المآخذ على امتهان الموسيقى . . .

صوت : لقد كانت تلك المآخذ على احتراف الموسيقى مشتركة وعامة في تلك الفترة.

إركل : صحيح ، ولذا اوفدني في بادىء الامر الى الكلية في ناغيفاياد ، ثم الى بورزوني حيث كان عليّ ان ادرس الحقوق ، وكانت تلك العادة المتبعة في ذلك الزمان . كان ينبغي لي في الدرجة الاولى ان اصبح محاميا . وقد نلت شهادة الحقوق وانا بعد في سن العشرين .

صوت : انها سن مبكرة جدا ، ولكن لعل الامتحانات كانت سهلة .

إركل : لماذا لا تقول ، يا سيدي ، انني كنت ذكيا ومجتهدا ؟

(يقهقهان) ! على اي حال اصبحت الشهادة في جيبي ، كما شاء والدي، ولكنني لم أهمل الموسيقى، ولم اهجرها. فقد كان في بورزوني ، في تلك الفترة ، مسرح الماني تُقدَّم فيه الاوبرات . وهكذا شرعت في دراسة علم الطباق والتأليف الموسيقيين على يد الاستاذ الشهير هاينريش كلاين ، رئيس الكابيلا في الكاتدرائية ، والموسيقي لويس تورانيي . فأتقنت العزف على البيانو في المدرسة التي كانت تدّرس مبادىء هوميل . حتى انني لفت نظر الكثيرين من هواة الموسيقى ، وعلى رأسهم الكونت كولمان جاكي الذي طلب اليَّ مغادرة مدينة بورزوني الى كولوجفار ، حيث يمكنني ممارسة فني بعيدا عن التأثير الالماني .

صوت : وهكذا كان ، وبخاصة عندما وافق والدك في النهاية على ان تعتنق الموسيقى وتمتهنها .

إركل : الحقيقة يا سيدي ، ان ذلك القرار الذي اتخذه اذ ذاك والدي كان ـ ربما ـ بتأثير من النجاح الهائل الذي كان يحققه الموسيقي المجري فرانز ليست ، وهو بعد صغير السن ، في بورزوني . وكان ليست بحق اشهر من داعبت انامله الرهيفة الطيعة اصابع البيانو العاجية . . .

صوت : وهكذا اذن انتقلت الى كولوجفار ، تلك المدينة التي كان كل ما فيها مجريا قلبا وروحا وقالبا ، حتى طبقة النبلاء العليا . وفيها ، في سنة ١٨٢١ خلقت التجربة الاولى في تأليف الاوبرا المجرية ، وكانت اوبرا « هرب بيلا » لجوزف زوجييسكا ، وكان قائدا عسكريا سابقا . . أليس كذلك ؟

إركل : الواقع انها ، كعمل موسيقي ، لم تكن اوبرا « هرب بيلا » ذات قيمة كبيرة ، ولكنها كانت مستقاة من التاريخ المجري ، وذلك ما يجعل لها بعض الاثر . . . وكان هناك فرقة موسيقية فلهارمونية توليت قيادتها قبل ان اتولى قيادة الموسيقى المسرحية وهكذا اتقنت مهنتيّ القيادة الموسيقية والمسرحية ، فضلا عن تعرفي الى الكاتب المعروف براساي . الا انني ، يا سيدي ، كنت اهدف الى ابعد من ذلك . كان حلمي ان انشىء في مدينة بست ، العاصمة ، دارا للاوبرا المجرية ، الى جانب دار الاوبرا الالمانية ، الا ان في مدينة بست كانت طبقة المجتمع العليا من مناصري الالمان .

صوت : ولذا رحت تنتظر ان تأزف الساعة لتحقيق حلمك . فقبلت ، في هذه الاثناء ، منصب القائد الثاني لاوركسترا المسرح ، وبين سنة ١٨٣٥ و ١٨٣٧ راح يرتسم مشروع انشاء مسرح وطني مجري . وقد دشنت الصالة في اواخر سنة ١٨٣٧ .

إركل : ولكن الصعوبات بدأت اذ ذاك . فقد كانت الحاجة تدعو الى توفير عدد من الموسيقيين ودفع الاجور لهم ، فضلا عن توفير الممثلين كذلك . وكان المسرح الالماني يشكل منافسا خطيرا للمسرح المجري . وكان علينا مع ذلك تقديم المسرحيات الهزلية والتراجيدية ، والاوبرات . وفي تلك الفترة بالذات قدّمت على المسرح الالماني عزفا على البيانو كان رائعا بشهادة الكثيرين من العارفين .

صوت : ولكن هيهات ، يا سيد إركل ، فما ان فتح المسرح الوطني

المجري ابوابه حتى اضطر الى اغلاقها مدة شهر كامل . ذلك بأنه من ١٣ اذار حتى ١٦ نيسان من العام ١٨٣٨ ، طافت مياه نهر الدانوب فغطت العاصمة بست ، فكان ذلك كارثة لم يعرف لها مثيل من قبل . فيهرع فرانز ليست ويقدم في فيينا حفلة موسيقية كبرى يرصد ريعها لاغاثة المنكوبين من ابناء وطنه . وقد جمعت تلك الحفلة مبلغا ضخما جدا . وقد جاء الى بست في السنة التالية فاستقبل استقبالا رسميا وشعبيا رائعا .

إركل : وفي تلك المناسبة تم اللقاء بيني وبين ليست وتم تعارفنا وتقدير واحدنا للآخر . وقد شجعني ليست وسواه من مقدّري الموسيقى على المضي في التأليف واستغلال موسيقاي لبث معاني البطولة والتضحية والاقدام في النفوس ليهب المجريون لمقارعة الاستعمار النمساوي ، فوضعت اول اوبرا لي وهي « ماريا باتوري » التي قدّمت على المسرح في ٨ آب سنة ١٨٤٠ ، وصحيح انها كانت مجرد تجربة اولية ، الا انها لاقت نجاحا كبيرا لان الجمهور احس بالروح الوطنية تنتفض بين ايقاعات تلك الموسيقى وألحانها .

صوت : ولكن البعض ، يا سيد إركل ، يأخذون عليك لجوءك الى السهولة ، والاهمال في التوزيع الموسيقي او التطور وقد اخذت بهذه الانتقادات وتحاشيتها في ثانية اوبراتك ، « هنيدي لاجلو » فجاءت عملا موسيقيا ممتازا .

إركل : هنا تنبغي الاشارة الى انني بين الاوبرا الاولى والثانية اللتين الفتهما قدّمت على مسرح دار الاوبرا المجرية اوبرا « حلاق

اشبيليـــة » لـــروسيني ، و« فيـــديليـــو » لبتهـــوفن ، و « فرايشوتس » لفيبر ، و « دون جوان » لموتسارت، وسواها من الاعمال الرائعة التي شكلت في الواقع منافسة جدية للمسرح الالماني .

صوت : ونعود الى اوبرا « هنيدي لاجلو » التي منع النمساويون عرضها بعد انتفاضة سنة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ ، التي قام بها المجريون ضد النمساويين المحتلين للتخلص من نيرهـم . ذلك بأن الكفاح البطولي الذي استمر اكثر من عام انتهى مع الاسف الشديد بالهزيمة . وبدأ عهد جديد من الظلم والطغيان اشـد ارهابـا من السابق . فـطعنت في الصميم ، ولم تعد تستطيع العمل .

إركل : يطيب لي في هذه المناسبة ان اذكر ان فرانز ليست نفسه قوبل في فيينا بالصفير من الحضور لانه كان يعزف على البيانو افتتاحية اوبرا « هنيدي لاجلو » ولكن الغريب في الامر ان الماريشال « هاينو » النمساوي ، لما شاء سنة ١٨٥٠ ان يجمع تبرعات لصندوق اغاثة ارامل الضباط النمساويين وامر بأن تقدم على مختلف المسارح حفلات خيرية اختار اوبرا « هنيدي لاجلو » لانها كانت تدر المبالغ الـطائلة . ولكن ، بالـطبع ، اجـريت عليها بعض التعديلات .

صوت : وفي سنة ١٨٥٣ ، لم تعد لديك الرغبة في التأليف ، فأسست الجمعية الفيلهرمونية ، وقدمت الحفلة الاولى في ٢٠ تشرين الثاني من تلك السنة ، وكان المنهاج يتضمن في جملة ما يتضمن « السنفونية السابعة » لبيتهوفن ومارش

« حلم ليلة صيف » لمندلسون ، ومقطعا من « دون جوان » لموتسارت.ولمناسبة مرور خمسين سنة على توليك قيادة الاوركسترا الفيلهرمونيـة المجريـة ، اقيمت في ١٦ و ١٧ كانون الاول سنة ١٨٨٨ حفلة كبرى القيت فيها الخطب البليغة وقدمت اليك الجوائز .

إركِل : واذكر ههنا انني ، قبل تقاعدي سنة ١٨٨٧ ، كنت قد وضعت افتتاحية لتدشين المسرح الغنائي ، وفي سنة ١٨٩٠ ولمناسبة بلوغي الثمانين ، قدمت حفلتي الموسيقية الوداعية مع الفرقة الفيلهرمونية .

صوت : ولكنك منذ ١٣ ايار ١٨٩٣ ، تنسحب متعبا زاهدا الى جبل بودا حيث تقضي بداء ذات الرئة في ليلة الثاني والثالث من حزيران ، محاطا باولادك ، وتقام لك جنازة ضخمة ، وتنشر الزهور على نعشك وضريحك . وتلقى الخطب الرنانة ، ويعزف المارش الجنائزي من اوبرا « هنيدي » ولكن المعلم ، الموسيقي المجري ، لم يكن اذاك على رأس العازفين .

وقبل ان نفترق اود ان أعود قليلاً الى الوراء . ... كان فرانز ليست من اصدقائك ، فاشار عليك ان تطوف واياه ارجاء اوروبا داعيا لقضية المجر بموسيقاك . ووافقته على الفكرة ، وكدتما تبدآن الرحلة لو لم يعترض سبيلك حادث كان نقطة التحول في حياتك . فهل لنا ان نعرف ماذا جرى ؟

اركل : كان النمساويون يرحّلون الوطنيين الابرياء ، منتزعينهم من ذويهم واسرهم وابنائهم . وقد رأيت مشهدا تقشعر له

الابدان : وطني هارب يقتل امام عينيّ فتبكيه امه بدموع حرّى . فتوقفت في مكاني ولم اتقدم قيد خطوة والتفت الى ليست ، قائلا : سأبقى هنا .. في بلادي .. ارحل وحدك !

تشايكوفسكي : أغرب علاقة عاطفية
(١٨٤٠ - ١٨٩٣)

صوت : كان رجلا جذابا ، لطيف المعشر ، لا يبالي بالشهرة . وقد اعتاد ان يسافر متنكرا ، ليتجنب المعجبين به وبفنه ، وكان وسيماً ، لا يسعُ النساء الا الوقوع في حُبه لدى التعرف اليه . رعته احدى سيدات المجتمع الروسي الثريات طوال ثلاث عشرة سنة ، فلا بد والحالة هذه ان يكون امرأً نموذجيا لكي ينعم بعطف وتقدير احدى اكثر نساء موسكو ثراء . كان يتحدث بطلاقة ، ويشرب بكثرة، ولكن لم يره احد قط يشرب . كان بكلمة اخرى ، مثال الرجل الجنتلمان ، واذا كان هناك انسان يستحق ان يحسد من الآخرين - على حد قول اصدقائه - فتشايكوفسكي ، بيوتر تشايكوفسكي ، كان ذلك الانسان .

تشايكوفسكي :شكرا على كل هذا الأطراء ، واسمح لي ان اقول انني مع ذلك كله لم اكن سعيدا .

صوت : عجيب امرك ، فلقد كانت الدوقات الروسيات ، والحسان الاميركيات من الفنانات يتنافسن في تكريمك وغمرك بحبهن ، بل بعبادتهن .

تشايكوفسكي :ولكن ثق بأنه لم يخامرني قط اي شعور بالغرور ، ولم تدخل نفسي اي نفحة عاطفية .

صوت : لقد جعلت الحانك الجميع يرقصون .

تشايكوفسكي :صحيح ، ولكنها لم ترقصني انا شخصيا .

صوت : اسمح لي ، يا سيد تشايكوفسكي ، ان اصارحك بما كان يردده الناس في هذا الصدد من انك كنت تخاف من الحب ، والصداقة ، وتخشى كل اتصال بشري . ويروى انك كنت في حفلاتك الموسيقية تنزوي في المقصورة العليا ولم يكن احد يستطيع ان يتعرف فيها اليك .

تشايكوفسكي :وهل تعجب ، يا سيدي ، ان يتذمر امرؤ احرز الشهرة من القدر . حسنا ، اعلم اذن ان الشهرة لا يمكن البتة ان تعوض الالم .

صوت : لقد كنت وحيدا الى درجة كبيرة لانك كنت عظيما جدا . كنت كالتمثال المثبت فوق قاعدة عالية ، يمكنك ان تنظر من فوق رؤ وس الجماهير ، ولكن لا يسعك ان تمد يدك لتلمس حرارة يد بشرية . التمثال يمكن ان يوحي بالتعبد ، ولكنه لا يستدعي الحب ، ومع ذلك كانت لك علاقة حميمة مع سيدة واحدة هي ناديبجدا فون مك .

تشايكوفسكي :ولكنها كانت علاقة بالرسائل . فنحن لم نلتقِ قط ، مع انه اتفق احيانا كثيرة ان كنا نقيم غير بعيد الواحد منا عن الآخر .

صوت : كانت ناديبجدا فون مك ارملة غنية ، لها اولاد ، محافظة ، ولها ولع شديد بالموسيقى ، سمعت ذات مرة

توزيعا على البيانو لافتتاحيتك « العاصفة » فصاحت مرددة : « يا للموسيقى النبيلة ! » وصحيح ان تلك المعزوفة كانت كئيبة ، الا انها كانت تلائم مزاجها الكئيب . فرجتك ان تواصل التأليف . ولم تكن تعرف اي شيء عن حياتك باستثناء ما كنت تخبرها به في رسائلك .

تشايكوفسكي :ذلك هو الواقع ، فقد اخبرتها انني كنت ابن مهندس ، ودرست الحقوق، وعملت فترة قصيرة في وزارة العدل قبل ان اعتزل عملي الحكومي لالتحق بالمعهد الموسيقي في بطرسبرج ، على يد الموسيقي انطون روبنشتاين الذي لم يقدّر مطلقا مواهبي الفنية . ولكن القدر يشاء ان يكتشف مواهبي نيقولا روبنشتاين ، شقيق انطون ، فعزّ عليه ان يراني في معهد موسيقي لا يقدرني . وهكذا انتقلت الى معهد موسكو الموسيقي الجديد حيث تعلمت ودرست الموسيقى ، وكنت لدى تعرفي بناييجدا فون ملك في السادسة والثلاثين من عمري اتيه على صفحة بحر الموسيقى دون ان يكون امامي اي ميناء امين .

صوت : وقد تولت صديقتك الارملة الغنية مدك بالمساعدات المالية المستمرة لتؤمن وصولك الى ميناء السلامة . وكنت في هذه الاثناء قد شرعت في وضع الالحان والسنفونيات الرائعة التي بوأتك المقام المرموق بين كبار الموسيقيين ، واكسبتك الشهرة الذائعة دون ان تقترن هذه الشهرة بالسعادة المفروض ان تقترن بها . فمن الناحية الصحية كنت تشكو من تقلصات في القلب ، ومن صداع أليم ،

ومن عسر هضم دائم . بحيث انك كنت تحمل دائما في جيبك كمية من الكربونات لتساعدك على الهضم .

تشايكوفسكي :اذكر في هذا المجال انه لما وصف لي تناول الكربونات للمرة الاولى اخطأت في قراءة التعليمات ، فوضعت نصف ملعقة من الماء في كوب من الكربونات . . ولكنني لم اخطىء بعد ذلك بسبب النتائج المؤلمة التي تسبب بها ذلك الخطأ .

صوت : اما من الناحية العائلية ، فقد عملت بنصيحة اخيك وتزوجت انطونينا ميلوكوفا ، وكانت جذابة ولكن عصبية المزاج وعدوانية السلوك ، وكنت قد قابلتها في المعهد الموسيقي ولكنك لم تكترث لها .

تشايكوفسكي :الواقع ، يا سيدي ، انني كنت احاول العثور على الزوجة المناسبة لما وجدتني هي . وحدث كل شيء على نقيض قول يوليوس قيصر المأثور : « جئت ، ورأيت . . ولكن هي التي احتلت ! » وستدهش اذا قلت لك انها هددتني بالانتحار اذا لم اتزوجها ، فاستسلمت اليها عن ضعف ، ولكنني صارحتها بأنني لا احبها ، فضلا عن انني فقير ، وصعب المراس ، ولا اعاشر . ولكن ذلك كله لم يثنها عن عزمها . وتزوجنا وشعرت لفترة قصيرة من الزمن انني في حياتي الجديدة على ما يرام . ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد افترقت عنها بعد بضعة شهور ، وهجرت المنزل ، وذهبت للاستشفاء على ضفاف بحيرة جنيف في سويسرا .

صوت : وعرفت صديقتك المعجبة الارملة الغنية بما حدث فأمدتك

بمبلغ من المال تستعين به على تدبر شؤونك وكتبت اليك تقول : « بعون الله يا بيوتر ، ستشفى مما انت فيه ، وستعود الموسيقى تملأ عليك حياتك ، وتجذبك اليها لتبدع فيها كالسابق ، وستستأنف عملك في سنفونيتك الجديدة سنفونيتنا نحن الاثنين . . . » وعلى سبيل الشكران والاعتراف بالجميل كنت قد اخبرت نادييجدا انك تهديها تلك السنفونية الجديدة .

تشايكوفسكي :اجل ، وكانت تلك السنفونية الرابعة التي تعمدت بالحزن ، وقد كتبت اليها اقول : « لعلي مخطىء ، ايتها العزيزة نادييجدا ، ولكنني اعتقد ان هذه السنفونية شيء غير عادي ، ولعلها افضل ما وضعت من موسيقى حتى الآن . » وقد ارسلت الي مبلغا من المال لتسديد نفقات طبع الموسيقى ، وابدت استعدادها للسفر خارج روسيا لكي تنشر شهرتها في طول اوروبا وعرضها . وقد كان ، وقدمت السنفونية الرابعة في موسكو للمرة الاولى وانا بعيد في فلورنسا . ولولم تكتب نادييجدا وتزف الي بشرى نجاح السنفونية الرابعة لبقيت مضطربا ، وفي حيرة من مصيرها .

صوت : واستمرت الصداقة العجيبة بينك وبين المرأة التي لم تكن قد رأت وجهك وشكلك الخارجي الا بالصور التي ارسلتها اليها ، ومع ذلك كانت تعرف جيدا خبيئة نفسك وافكارك الحميمة ، وبلباقتها الفائقة ولطفها النسائي كسبت نادييجدا ثقتك التامة ، فهي لم تحاول قط ان تعرف عنك اكثر مما كنت مستعدا لمنحها ، وقد حاولت دائما ان

تبعد الذئب عن بابك.ويقيني انه لم يكن بوسع اي امرأة ان تنجح في مدك بالمال ، انت الرجل الفخور الشديد الحساسية . ولانك كنت كريما في معاملاتك المالية مع الآخرين تقبلت دون حرج مساعدة ناديجدا لك .

تشايكوفسكي :الحقيقة ، يا سيدي ، ان ذلك هو الواقع ، فضلا عن ان ناديجدا كانت تكلفني كتابة الموسيقى لها ، وكانت ـ على حد تعبيرها ـ تدفع بدل هذا التكليف . ولذا لم اكن لأبالي بغرابة علاقتنا . لقد كانت علاقة الأم بابنها ، والصلة التي كانت تشد احدنا الى الآخر كانت الموسيقى . ولكن كان علينا الا نلتقي البتة ، والا حلت محل الصداقة الموسيقية علاقة مادية بحت ، مادية بحيث تقضي على استمرار تلك الصداقة .

صوت : ولذا ، عندما غادرت ناديجدا منزلها للقيام برحلة في اوروبا ، طلبت اليك ان تزور المنزل في اثناء غيابها ، وتقلب صفحات الكتب التي لديها، وتتأمل اللوحات الزيتية التي تزين الجدران، بحيث أنها لدى عودتها تستطيع أن تحس بالجو الذي خلفته شخصيتك في منزلها. ويروى كذلك أنها في شتاء سنة ١٨٧٨ قدمت إليك من فلورنسا حيث كانت تقضي عطلتها طلباً أكثر غرابة من الطلب الأول. دعتك إلى فلورنسا والاقامة في مسكن صغير تجهزه لك على بضعة كيلومترات من مسكنها. وهكذا كان، ورحتما تتبادلان الرسائل باستمرار عبر السهل الصغير الفاصل بينكما.

تشايكوفسكي :واليك ما هو اغرب من ذلك كله . كنت مرة ضيفها في

املاكها في اوكرانيا ، وكنت اصدر الاوامر الى خدمها ، واستقل العربة التي خصصتها لي . وفي كل يوم كنت اسير الى القرية لأضع رسائلي بالبريد ، فأمرّ من امام منزلها واسمع صوت اولادها ، ومع ذلك لم نلتق قط . والواقع انها لم تشأ ان تحاول التدخل في حياتي الخاصة ، كما لم اشأ انا ان انقض ذلك الاتفاق الغريب الذي قامت عليه اغرب علاقة بين رجل وامرأة على الاطلاق !

صوت : حقا ما تقول ، الا انه حدث ذات يوم ما لم يكن بد من حدوثه ، فعلى الرغم من تنظيم مواعيدكما بحث لا يتفق مطلقا ان تلتقيا ، حصل خطأ في الحسابات ، فاذا بكما خارج منزليكما في الوقت نفسه . واقتربت عربتكما ، الواحدة من الاخرى في الشارع . وتلاقات نظراتكما لبضع ثوان ، فأحنيت لها رأسك وبادلتك هي التحية الرسمية ، وابتعدت العربتان بكما . فلما عدت الى المنزل ارسلت اليها بطاقة تقول فيها : « اغفري لي اهمالي الاحمق يا ناديبجدا فيلاريتوفنا » . وكان ردها وهي التي سرتها تلك المقابلة : « لقد اقنعني ذلك اللقاء بحقيقة وجودك قريبا جدا من منزلي » . وهكذا كان ذلك اللقاء الخاطف اللقاء الشخصي الحميم طوال علاقتكما التي دامت ثلاث عشرة سنة . ونعود الى حياتك الموسيقية وعملك المتواصل الذي حقق لك الشهرة العريضة . فكانت سنة ١٨٨٠ تمثل الذروة ، ولكن ملامحك المرحة كانت في سن الاربعين ، وقلبك الكئيب يبدو اكثر سنا .

تشايكوفسكي :لقد اصبحت في الواقع موسيقيا شهيرا على الرغم من خجلي وخوفي من الناس ، فانا كما تعلم تألمت طوال حياتي

من العلاقات الاجتماعية ، ولكن مع ذلك انتشرت سنفونياتي وافتتاحياتي في الاوساط الموسيقية الاوروبية بأسرها . حتى انها تجاوزتها الى العالم الجديد . وكنت اتنقل بين مختلف البلدان الاوروبية واقابل بترحاب شديد عندما اقود مؤلفاتي الموسيقية بنفسي . فبعد انتصاراتي الفنية في لندن ودريسدن وباريس وجنيف وبرلين وهامبورغ وبراغ ولايبزيغ دعيت للقيام بجولة موسيقية في ست من المدن الاميركية الكبرى .

صوت : ولكن المجد لم يهزك ، فكتبت الى ناديجدا تقول : « انت المخلوقة الوحيدة في العالم التي يمكنها ان تجعلني اسعد مخلوق . وارجو من اعماق نفسي ، مهما يكن مصدر عواطفك نحوي ، ان لا يتبدل ، لان مثل هذه الخسارة لن استطيع تحملها » . وعندما كنت تتأهب للسفر الى الولايات المتحدة الاميركية اصابتك صدمة مفاجئة . فقد كتبت اليك ناديجدا رسالة تخبرك فيها باسلوب لم تستعمله من قبل ان ثروتها على وشك ان تنضب . ولذا فانها منذ تلك اللحظة ستنقطع عن مدك بالمساعدات المالية ـ كما لو كان ذلك يؤثر على بيوتر تشايكوفسكي . . .

تشايكوفسكي :. . . صحيح ، ولكن الصدمة الحقيقية كانت مصارحتها اياي بأن علاقتنا يجب ان تنقطع منذ تلك اللحظة . وقد جاء في خاتمة رسالتها بعض الكلمات العادية الخالية من الحرارة ، اذ قالت : « لا تنس ، وفكر فيَّ احيانا » . وكان ردي السريع رجائي اليها الا تقلق على حالتي المادية بعد ان اصبحت مواردي متعددة المصادر . وقلت لها بالحرف

الواحد : « ولكن الكلمات الاخيرة في رسالتك « لا تنس ، وفكر فيَّ دائما » قد اثرت في تأثيرا عميقا . امن الممكن ان تفكري فيّ انني لا استطيع ان اتذكرك الا عندما استخدم مالك ؟ ااستطيع لحظة واحدة ان انسى كل ما فعلته من اجلي ، وكل ما كان لصداقتك من معنى واهمية لي ولموسيقاي ؟! »

صوت : وقبل أن تسافر إلى العالم الجديد رجوت أن يتبدل موقف نادييجدا منك، ورحت تنتظر رسالة منها يوماً بعد يوم، ولكن الرسالة لم تأت. ورحلت إلى أميركا حيث استقبلت أعظم استقبال، وأصبحت معبود العالم الجديد: أصحاب الملايين، سيدات المجتمع الراقي، المربون، الصحافيون، سائقو العربات، كل هؤلاء كانوا ينحنون إجلالاً لك.

تشايكوفسكي: إلا ان كل ذلك كان مجدا فارغا ، وكنت ارضى بكل سرور ان استبدل به كلمة واحدة من نادييجدا ، وكنت على الرغم من سني الخمسين ابدو رجلا هرما . وعدت الى موسكو ، وكانت قد مرت ثمانية اشهر على كتابتي اليها . فوصلتني رسالة من صديق لنا مشترك يقول فيها : « انها مريضة ومضطربة كثيرا ولن تستطيع ان تكتب اليك كما في السابق » .

صوت : وهكذا تنتهي علاقتكما . الا ان القدر خبّأ مكافآته العظيمة لك حتى هذه السنوات الاخيرة الكئيبة من حياتك . فانتخبت عضوا في الاكاديمية الفرنسية . وذهبت الى انكلترا وتسلمت شهادة فخرية من جامعة

كمبردج ، وواصلت تقديم الحفلات الموسيقية الكبرى بكل اندفاع وقوة ، وكتبت سنفونيتك السادسة التي وجدت صعوبة في تسميتها قبل ان يقترح عليك اخوك موديا ان تسميها « السنفونية المؤثرة » ـ وكانت آخر اعمالك الموسيقية ـ كانت الوصية التي منحت العالم بها شرارة عبقريتك وجمال حزنك . ولكن القدر الغاشم شاء ان يتفشى وباء الكوليرا في روسيا في تلك الفترة من حياتك ، فلما شربت كأساً من الماء الملوث اصبت بهذا الوباء ، فعانيت الآلام المبرحة اربعة ايام ، ثم وجدت الراحة في اليوم الخامس . فكانت نهاية غريبة لحياة غريبة . بيوتر تشايكوفسكي عبقري منحه القدر هبات اله وحرمه قدره انسان !

تولوز ـ لوتريك : الدون جوان الأحدب
(١٨٦٤ ـ ١٩٠١)

صوت : مرحبا ، يا صغيري !

تولوز لوتريك : ماذا تقول ؟ الا تعرف من انا ؟

صوت : وكيف لا اعرف من انت ؟ لقد قصدت التحبب اليك بعبارة يا صغيري ، نظرا لضآلة حجمك بالنسبة الى ضخامة اسمك ، ايها الرسام العبقري ، كان اولى بي ان اخاطبك بالدون جوان الاحدب او الوحش الصغير .

تولوز لوتريك: شكرا ، يا هذا ، اراك تكثر من اغداق الالقاب عليّ بلا حساب .

صوت : انت ابصرت النور في البي سنة ١٨٦٤ وبدأت ترسم وانت بعد طفل. وكنت صبيا طبيعيا حتى الرابعة عشرة من عمرك .

تولوز لوتريك : عندي صورة رسمتها بنفسي في تلك الفترة من حياتي اظهر فيها طبيعيا كسائر الاولاد في مثل سني .

صوت : ولكن ، في سنة ١٨٧٨ ونتيجة لسقطتين متتاليتين اصيبت رجلاك بالتشوه ، وبقيت طوال حياتك اشبه بالاقزام .

تولوز لوتريك : لقد ذكرتني بقولك هذا الوصف الذي اطلقه عليّ البعض

من الذين يمتهنون الترفيه وهو انني « قزم من اقزام فيلاسكيز » .

صوت : ولكن لعل هذا التشويه والعجز الجسديين كان لهما اكبر الاثر في حياتك ونفسيتك وفنك . ولا ننسى انك كنت انسانا مرحا لاذع السخرية . قسمت حياتك بين اشياء ثلاثة : الرسم والخمر والمجون ، ولكن فلنتحدث عن الرسم قبل اي شيء اخر ، فنذكر يوم حملت لتشهد عمادة اخ لك طفل وكنت في الثالثة من عمرك . فلما وقع الشهود على السجل الخاص صحت انت : « اريد ان اوقّع كذلك . . . » فلما قيل لك انك لا تستطيع الكتابة ، كان ردك : « اذن ، سأرسم ثورا » !

تولوز لوتريك: كان الرسم يملك عليّ كل مشاعري . يشهد على ذلك المتحف الذي يحمل اسمي في بلدة ألبي، والذي يضم دفاتري من ايام التلمذة ، وقد ملأت هوامشها بالرسوم وجملها تمثل الحيوانات كالكلاب والجياد والدجاج الخ . .

صوت : ومن غريب المصادفات ان اساتذتك في فن الرسم كانوا من اشهر رسامي الحيوانات في عصرهم ونذكر منهم الرسامين رينه برانستو ، ودجون لويس براون ، وعندما اثبت قدرتك على التلاعب الماهر بالريشة والالوان والفرشاة دخلت محترف الرسام بونان ، ومن ثم محترف الرسام فرنان كورمون حيث التقيت الرسام فان غو . . .

تولوز لوتريك: ولكني لم ابقَ طويلا في هذا المحترف الاخير لخلافي الفني مع كورمون . فانتقلت وانا في العشرين من عمري الى

مونمارتر حيث اقمت ، ورسمت مخلداً مونمارتر ، وروحها وشخصياتها وحياتها الليلية الصاخبة .

صوت : لقد صدق من قال ان مونمارتر بمقاهيها ومسارحها الغنائية ، وسيركاتها ، وحاناتها هي التي صنعتك حقا . ولقد رسمت ما كانت تقع عليه عيناك دون ان تحاول الوعظ ، او تدل باصبع الاتهام وتقول على غرار بلزاك او زولا او غونكور : « هذا عالم حقير دنيء ، ونحن نظهره لكم على سبيل التحذير » .

تولوز لوتريك: كنت اشعر انني لست غريبا عن ذلك الجو ، فقد احببت وفهمت الشخصيات التي يعج بها .

صوت : وكان فضولك الغريب يحملك الى المسارح ، وقاعات المحاكمة ، والمستشفيات ، وميادين السباق ، والملاعب الرياضية لتسجيل حركات الناس هناك وتعبيراتهم بكل دقة ومهارة . وعندما افتتح ملهى الطاحونة الحمراء ـ المولان روج ـ الذي يقترن اسمه باسمك ، اصبحت من زبائنه اليوميين الدائمين ، وصديقا لراقصاته الشهيرات اللواتي لم تتعب من تأملهن ورسمهن ، ولما رسمت اعلانا لهذا الملهى الشهير سنة ١٨٩١ ذاعت شهرتك كرسام اعلانات .

تولوز لوتريك: ومن هنا اعتبرت ابا الاعلان المتقن ، وقد تركت تراثا اعلانيا مبتكرا ، الى جانب المئات من اللوحات ، واللوحات الليتوغرافية ، والالآف من الرسوم .

صوت : من حيث الخمر كان بوسعك التمييز ، وانت مغمض العينين ، بين مختلف انواع الانبذة مع تحديد السنة التي

عتقت فيها . وكان من عادتك ان تقول : « الماء سائل مؤذ تكفي نقطة واحدة منه لتعكير كأس شراب » .

تولوز لوتريك: ولكن، سرعان ما تبين لي ان الخمرة كانت مؤذية ، اذ تدهورت صحتي سنة ١٨٩٨ ، ونقلت الى احد المصحات للمعالجة من الادمان .

صوت : وكانت اقامتك في المصح سبيلا لانتاج سلسلة ضخمة من الرسوم المائية حول مواضيع السيرك، وقد صنعتها جميعاً من الذاكرة ودعنا الآن نشير الى ان حياتك الماجنة اثرت كذلك في صحتك كالخمرة تماما . ونذكر نادرتك مع الراقصة الشهيرة في ملهى الطاحونة الحمراء التي صدّتك بأنفة وكبر دون ان تؤثر عليها بلقبك الكونت دو تولوز- لوتريك - فقد كان جوابها الفوري : « يا عزيزي السخيف ، انا افضل رجلين عاديين على رجل واحد يحمل لقبا من القاب النبالة ! » .

تولوز لوتريك: ما زلت اذكر ذلك جيدا ، كما اذكر ان كثيرين كانوا يدعونني « السيد الكونت الذي لا يزيد عن حجم الذراع » .

صوت : ونأتي الى خفة روحك ، فهل لك انتسمعنابعض آرائك الطريفة اللطيفة واقوالك اللاذعة ؟

تولوز لوتريك: إسمع بعضها : « اكثر الرسامين اليوم يجهدون انفسهم لتقليد لوحات سيزان ، تزييفها ، في حين ان سيزان نفسه كان يرسم لوحاته الحقيقية بكل سهولة ، وكما نتنفس » .

صوت : عظيم .

تولوز لوتريك: اني لاتنازل عن رسومي كلها لاكون طوال ساعة واحدة من الزمن ملازما وسيما ابله تماما في فرقة الحرس الوطني » .

صوت : رائع .

تولوز لوتريك: إذا ابتلعت سمكة فانك تحس بألم شديد ، ولكن انظر الى السمك فهو مملوء حسكا ولكنه لا يبدو انه يتألم منه » .

صوت : ولم تنج انت من تهكمك على نفسك . . افلست القائل « انا نصف قنينة ؟ » . وكنت تشير الى قلمك قائلا : « وهذه عصاي ! » .

تولوز لوتريك: وأنا القائل كذلك متهكماً على نفسي : « انا حسن الطالع لانني استطيع ان اشرب ، ما شئت من الخمر ، لانني اذا وقعت ارضا فلن اقع من مكان مرتفع » .

صوت : الا انك، على غرار سيرانو دوبرجوراك لم تكن تطيق سماع مثل هذه الحقائق من احد سواك. ويروى ان المنشد الشهير اريستيد برويان، وكان عملاقا رآك مرة تقف على رؤوس اصابع قدميك محاولا عبثاً الوصول الى قبعتك المعلقة على المشجب فأستأذنك بأن يطولها لأنه أكبر منك فكان جوابك :«تريد ان تقول أطول لا أكبر ! » .

تولوز لوتريك: لم أكن على حق في قولي ؟

صوت : بلا ريب وفي شتاء سنة ١٩٠١ شعرت بأن اجلك قد دنا فأحرقت لوحاتك وابقيت على اللوحات الجيدة ، واوصيت ببعض المال لصديقاتك واصدقائك الحميمين ،

وعدت الى قصر اجدادك في مالروميه ، بالقرب من تولوز ، لتلفظ فيه انفاسك . .

تولوز لوتريك: رحمات الله عليّ . . .

غوغان : عبقري أسيء فهمه
(١٨٤٨ - ١٩٠٣)

صوت : ان كل لوحة فنية هي فصل من حياة الفنان الرسام .

ولكي نتذوق عملاً فنياً ونقدره حق قدره ينبغي لنا أن نعرف قصة الفنان. فلكي نفهم الكآبة في عيون شخصيات رسام ما، ينبغي لنا، أولاً، فهم الكآبة في حياة هذا الرسام. فنحن لا نرى إلا نصف اللوحة عندما لا نكون على معرفة بالرسام. وما أشبه ذلك بمشاهدة مسرحية بلغة لا نفهمها. فمن خلال شخصية الفنان، فحسب، يمكننا فهم لغة فنه. ونعني بالشخصية الرجل كله، الصورة الحميمة: وقائع حياته الخارجية، ومطامح نفسه الداخلية الخالدة.

والرسامون اناس مثلنا ، شاطرونا مشاكلنا ، ومسراتنا ، وافراحنا ومعتقداتنا وشكوكنا وآمالنا وخيبة آمالنا ، وجوعنا ، وبكلمة اخرى ، مصيرنا البشري العادي ، الا انهم اختلفوا عنا ، وتميزوا من جهة واحدة : فقد كانوا ارهف احساسا ، واجلى رؤية ، فأغنونا بروائعهم الخالدة ، واتاحوا لنا ، كذلك ، ان نشاطرهم خلودهم .

ولا ندحة عن القول ان الفن العظيم ينبثق من الالم الكبير . فاولئك الذين يعيشون بقوة ، وحدهم ، يمكنهم ان يخلقوا اشياء جميلة . ومن هؤلاء سنقابل الان واحدا

كانت حياته مغامرة حقا ، مغامرة نصف رومنطقية ، ونصف مأساوية . . . انه بول غوغان ! . . .

غوغان : الواقع انك اصبت في هذا الوصف . فقد كانت حياتي كما ذكرت بعد ان التهمني فني .

صوت : تعود بي الذاكرة الى اليوم الذي بيعت فيه كمية من لوحاتك بعد وفاتك في جزر المركيز . وذلك لتسديد الديون التي تراكمت عليك .

غوغان : انك تثير فضولي ، ايها السيد ، فماذا جرى اذ ذاك ؟

صوت : وقف المكلف باجراء المزاد وراء المنضدة وحمل لوحة من اللوحات التي وجدت في كوخك الحقير ، وقال ضاحكا بعد ان وصف لوحاتك بأنها تبعث على الضحك حقا : « انظروا هذه شلالات نياغارا » .

غوغان : لا بد انه امسك بتلك اللوحة بالمقلوب ، اي رأسا على عقب - (مقهقها) .

صوت : ذلك ما فعل تماما ، ثم قرع المنضدة بمطرقته وباعها بخمسة عشر فرنكا . وواصل عملية المزاد فباع سبع لوحات اخرى بخمس فرنكات كل لوحة . اما اللوحة الثامنة فلم تحصل فرنكين اثنين .

غوغان : اهذا كل ما بيع من اللوحات التي تركتها في ذلك الكوخ ؟

صوت : اجل ، ذلك ما بيع لان ذلك ما بقي منها . فقد اتفق ان اكتشف احد الصيادين ثلاث حقائب ملأى باللوحات الزيتية ولكنه لم يكلف نفسه عناء بيعها ، فألقاها في اليم .

وما يزالون في جـزر المركيز يتحدثون الى اليوم عن ذلك الخطأ الفظيع الذي كلف مليون دولار .

غوغان: بدهشة ماذا تقول؟ أقلت مليون دولار؟ .

صوت : ان هذا التقدير ، يا سيد غوغان ، لا اثر للمبالغة فيه . ففي سنة ١٩٥٩ ، وفي مزاد علني جرى في لندن بيعت لوحة واحدة من لوحاتك الى التجار بمبلغ ١٣٠ الف ليرة استرلينية . اما سائر لوحاتك الرائعة فلا تقدر بثمن .

غوغان : يا لسخرية الاقدار ! . فان كل ما حصلته من لوحاتي وفني طوال حياتي ، لا يساوي في مقداره ثمن ربع لوحة . فضلا عن انني ذقت الامرين في سبيل فن الرسم الذي كرست له حياتي .

صوت : لم تكن الراحة والطمأنينة تعنيان كثيرا بالنسبة اليك . لانك وضعت كل قيمة في الهدف الذي سعيت اليه . هجرت حياة الجاه والفخفخة ، وانتهيت بهجر المجتمع المتحضر لتنصرف بكليتك الى الرسم . وانك لتعتبر اليوم واحدا من اشهر الرسامين الحديثين . سماك فان غو « المعلم » ، وبيكاسو اليوم يعترف صراحة بما يدين به اليك .

غوغان : الواقع انني فتحت امام رسامي العالم آفاقا جديدة سواء من ناحية القوة السحرية للون او من ناحية الرمزية في الاشكال ، واعتقد ان الجميع عبوا من هذا الينبوع .

صوت : الامر كما تقول تماما . والان لنعد الى استعراض وقائع حياتك . فأنت من مواليد باريس في سنة ١٨٤٨ .

غوغان : وكان والدي صحافيا مغمورا ، ووالدتي من اسرة عريقة من الاسر الاسبانية .

صوت: عندما بلغت السابعة عشرة من عمرك تركت دروسك وأهملتها لتلتحق بعمارة بحرية تجارية وطفت على ظهرها البحار مدة ستة أشهر.

غوغان : لقد كانت هذه الرحلة البحرية نعمة علي . فبعد ان كنت مراهقا هزيل البنية اصبحت رجلا خشنا نتيجة الحياة على السفينة . فضلا عن ان هذه الرحلة كان مصدر الحلم الذي قيض له تبديل مجرى حياتي بكاملها . فقد كانت اقوال القبطان في وصف الحياة في اوقيانيا تحفر في نفسي بعمق ورسوخ .

صوت: علام كانت تدور هذه الأقوال؟

غوغان : ما زلت اذكر بعضها من مثل : النساء فاتنات، والثمار تتساقط من الاشجار، والشمس تشرق كل يوم على مدار السنة، والليالي رائعة كليالي الجنة.

صوت: ومع ذلك كله اكتشفت في نفسك لدى عودتك إلى باريس موهبة قلما توجد لدى الفنانين، وهي جمع المال في البورصة.

غوغان: وهكذا عملت لدى أحد الصرافين، وأثريت بسرعة واستثمرت أرباحي في مشاريع كسبت منها الكثير حتى أن دخلي السنوي بلغ في ذلك العصر مئتي ألف فرنك.

صوت: وكنت مثال البورجوازيين المنعمين، تعتمر قبعة عالية، وتذهب كل صباح إلى مكتبك في عربة مكشوفة فخمة، وتتردد على أكبر المطاعم.

غوغان : ولتتويج هذه الحياة البورجوازية المثالية تزوجت ابنة أحد الموظفين الدانمركيين، وكانت تدعى ميتي صوفي غاد.

صوت : وكانت زوجتك هذه شقراء تتأنق في ملابسها وتقيم حفلات الشاي المتقنة. وقد أنجبت لك خمسة أولاد ولكنك قبل ولادة الطفل الأول، اكتشفت الرسم.

غوغان : في بادىء الأمر رأت زوجتي في الرسم هواية تتفق وميولي، ولا بأس من أن أمارسه أيام الأحد. ولكنها لم تفهم مزاجي الخاص. فبعد أن عرضت إحدى لوحاتي وقد دعوتها «دراسة في العري» ـ وكانت النموذج الخادمة ـ صرح أحد النقاد الفنيين أن لوحتي هي أجمل لوحة عارية رسمت بعد رامبرانت مما شجعني على إهمال أعمالي التجارية أكثر فأكثر.

صوت : وهكذا لم تبلغ الخامسة والثلاثين حتى هجرت منصبك لدى الصراف لتكرس كل جهودك لفن الرسم.

غوغان : وفي أقل من سنة، أصبحت خالي الوفاض، فبيع منزلي العائلي، بما فيه من رياش فخم ثمين وسجاجيد وعادت زوجتي إلى الدانمارك حيث كان بإمكان ذويها أن يطعموها. ولحقت بها ولكن الدانمركيين سخروا مني ومن فني، وساءهم أن أكون عالة على زوجتي مما دفعني إلى العودة إلى باريس وحيداً والاستمرار في الرسم.

صوت : الواقع، يا سيد غوغان، أن الكثيرين انحوا باللائمة عليك لتركك زوجتك وأولادك، في حين أن زوجتك في الواقع، هي التي هجرتك.

غوغان : والدليل على ذلك أنني طالما رجوتها في رسائل عاطفية رقيقة أن

تعود إليّ برفقة الأولاد. وقد تتالت رسائلي حتى آخر نفس من أنفاسي، ولكن ميتي لم تعد إلي.

صوت: ومنذ عودتك إلى باريس تؤرخ بدء أسطورتك، أسطورة غوغان. فقد كنت تقيم في بيوت المؤونة الخاوية، الباردة تتدثر بالثياب البالية، وتكاد لا تأكل كل يوم.

غوغان: وكان يتفق لي احيانا ان اقوم بلصق بعض الاعلانات على الجدران لقاء بضعة فرنكات يوميا. وما زلت كذلك حتى انتقلت الى بلدة آرل لاعيش مع صديقي وزميلي فان غو. وقد مول هذه الرحلة شقيق الرسام تيو الذي كان تاجر لوحات فنية على امل ان يكون وجودي بركة على شقيقه فانسانت البائس، نصف المجنون.

صوت: في باديء الامر كانت الحال على ما يرام بينكما، فكنت انت تهتم بتدبير شؤون المنزل وتقوم بالطهي وتجبر فانسانت فان غو على الرسم في اوقات منتظمة.

غوغان: ولكن مزاجينا كانا متناقضين، وانتهت اقامتي معه ذات يوم. والجميع يعرفون انه تبعني ذات ليلة وبيده مدية، فلما تنبهت له وقاومته عاد الى المنزل وقطع احدى اذنيه، وقد نقل بعد ذلك الى مستشفى للمعتوهين حيث بقي سنة، وبعد خروجه منه بشهرين انتحر بطلقة نارية في صدره.

صوت: وهكذا انتقلت الى منطقة بريتانيا في شمال فرنسا. حيث راح يتجمع حولك نفر من الشبان الموهوبين. وما يزال الرسامون الحديثون يرددون نصائحك القائلة: «لا

تنسخوا الطبيعة ، الفن رمز ، خذوا الرمز من الطبيعة وانتم تحلمون ، وفكروا بالخلق اكثر من تفكيركم بالنتيجة . . . . البشع يمكن ان يكون جميلا ، اما الجميل فلا يمكن ان يكون كذلك مطلقا » . وكانت حيويتك عارمة بحيث انك كنت بعد يوم عادي من العمل ، تنصرف الى النحت مستعملا الخشب آنا ، والرخام آنا آخر .

غوغان : ولكن على الرغم من تشجيع بعض النقاد لي فقد كانت نظرة الجمهور الى لوحاتي نظرته الى أشياء غريبة ، وكنت وانا في الثانية والاربعين من عمري ما ازال في غمرة البؤس .

صوت : وعندها اعلنت عن سفرك الى بولينيزيا لكي تعيش هناك وترسم كأنسان بدائي . فقد آن اخيرا لحلم حياتك الكبير ان يتحقق . وعبثا حاول اصدقاؤك ثنيك عن عزمك .

غوغان : واقمت مزادا علنيا للوحاتي جمعت منه المال الكافي للرحلة . وفي تاهيتي - سنة ١٨٩١ - توغلت بعيدا في داخل البلاد واستأجرت كوخا يشرف على بحيرة صغيرة .

صوت : وعدت الى فرنسا بعد ثمانية وعشرين شهرا حاملا مجموعة من اللوحات الرائعة .

غوغان : عرضت منها اربعين لوحة فاشترى القليل منها فحسب بعض اصدقائي القدامى بمبلغ اجمالي لم يزد عن ٥٠٠ فرنك من عملة ذلك العصر .

صوت : وقد قسا عليك يومذاك احد النقاد وابكاك بهذه العبارة

الخبيثة : « اذا شئتم تسلية اولادكم فاصحبوهم الى معرض غوغان » .

غوغان : وهكذا عدت في السابعة والاربعين من عمري حزينا الى اوقيانيا لأعيش فيها آخر ايام حياتي ، في تاهيتي اولا ، ثم في جزيرة دومينيك البعيدة التي تتألف منها مجموعة جزر المركيز .

صوت : وكنت مصابا بداء خبيث حال دون شفاء جرح عند مستوى كاحلك ، وكان الملك شديدا . وساقاك لا تسعفاك على الحركة بفعل المرض .

غوغان : تصور ، يا سيدي ، غوغان ذلك الرجل النظيف المنظم وقد بات اعجز من ان يعتني بنفسه ! . .

صوت : ومت وحيدا سنة ١٩٠٣ في كوخ حقير الى جانب لوحتك الاخيرة « قرية بريتانية تحت الثلج » .

غوغان : انه لموضوع غريب للوحة مرسومة في البحار الجنوبية الساحرة ، اليس كذلك ؟

صوت : وما هي الا بضع سنوات ، بعد وفاتك ، حتى بات اسمك اسطوريا ، مثل اسم زميلك البائس فان غو ، واشتد الطلب على لوحاتك التي كان يجدها الجامعيون في كل مكان تقريبا : في الحانات ، وفي النـزل ، وفي المطاعم ، حيث كنت تقايضها لقاء المأوى ، او الوجبة ، او زجاجة النبيذ ، والغريب في الامر ان اصحاب هذه الاماكن كانوا يخفونها في بيوت المؤونة او مخازن زجاجات

الخمر لانهم لم يقدروا قيمتها ، واعتبروها غير جديرة بالتعليق على الجدران .

غوغان : اذكر في هذه المناسبة انني قبل نهاية ايامي ، وقد نفد مني القوت والقوى ، كتبت رسالة الى احد اصدقائي قلت فيها : « انا لا ارغب الا في الحصول على الصمت ولا شيء غير الصمت ، دعوني امت هادئا منسيا . واذا ما عشت فدعوني كذلك اكثر هدوءا ونسيانا . واذا كنت قد صنعت اشياء جميلة فلا شيء يمكن ان يطمسها » .

صوت : ولقد صدق حدسك ، يا سيد غوغان ، واصبحت خالدا بلوحاتك !

سيزان : « اود ان أموت وأنا ارسم ! »
(١٨٣٩ - ١٩٠٦)

صوت : كان هدف بول سيزان ، الرسام الفرنسي الشهير الملقب بأبي الفن الحديث ، الجمع بين المدرسة التأثيرية الانطباعية في الرسم والفن القديم . وقد كانت لوحاته الاولى تتميز بابراز سمو عواطفه الخاصة اكثر مما تمتاز بالالوان . الا ان اتصاله بالرسام التأثري كميل بيارو ساعده كثيرا على الاحساس بعلم الالوان .. وقد برع سيزان برسم الاشياء الجامدة التي لاحياة فيها واشهرها « الساعة الرخامية السوداء وصحن الفواكه » . كما رسم الشخصيات وعددا من الرسوم الشخصية ، والمناظر الطبيعية . ومن روائعه في سنواته الاخيرة لوحة « لاعبو الورق » . . .

والآن ، يا سيد سيزان ، دعنا نتناول تفاصيل حياتك في سؤال وجواب .

سيزان : كما تشاء ، يا سيدي ، فأنا من مواليد مدينة ايكس - اون - بروفانس سنة ١٨٣٩ .

صوت : وكنت طويل القامة ، نحيل الجسم ، وذا عضلات ، ولحية كثة ، وعينين سوداوين حادتين ، كما انت الان تماما .

سيزان : كنت اشبه ما اكون بالرواد .

صوت : وكان شكلك الخارجي يلفت الانظار من بعيد : قبعة عتيقة على هيئة لوزة الهند . وسترة زرقاء فاتحة ، وصدرية بيضاء تزركشها لطخات من الطلاء المختلفة الالوان . وبكلمة اخرى كان العنف البدائي الذي يتجلى في شخصيتك واضحا جليا .

سيزان : ولم اكن قد جاوزت التاسعة عشرة عندما قال عني رفيقي في الدراسة اميل زولا : « انت لست من هذا القرن الذي نعيش فيه . . . ولو لم يكن الحب اختراعا قديما لاخترعته انت ! . . . » .

صوت : وكانت النار التي تشعّ من عينيك تفضح العواطف الجمة التي تعتمل في نفسك ، وقد ابصرت النور في عصر عادي ، يكاد يكون مبتذلا ، ولم تعرف طفولتك اي حدث له ادنى اهمية .

سيزان : ومع ذلك كان زولا على حق ، فأنا لم اكن من القرن التاسع عشر في شيء ، بل كنت المبشر بفن القرن العشرين في الرسم .

صوت : تلك هي الحقيقة التي لا تقبل الجدل . . . فان تأثيرك البعيد المدى على الفنانين الحديثين اتمال بيكاسو ، وماتيس ، وبراك ، لاكبر دليل على انه اذا كان لنا ان نطلق لقب « ابي الفن الحديث » على امرىء واحد ، لما استحق هذا اللقب احد سواك ! . . .

سيزان : شكرا لك ، يا سيدي ، على هذا اللقب ، ولكن ثق ان

فن الرسم لم يكن امراً سهلا بالنسبة الي . فقد كان علي بادىء ذي بدء تلطيف عنف مزاجي لان الرسم يتطلب من الثبات ورباط الجأش بقدر ما يتطلب من حرارة الوحي والالهام .

صوت : الواقع انك كنت ، يا سيد سيزان ، عصبي المزاج ، متفجرا عاطفيا ، وعنيدا ، وقد بذلت جهودا كبيرة في سبيل تهدئة ردود فعلك العاطفية لكي يتاح لك امتلاك الاصول الضرورية لصنع اللوحة الفنية .

سيزان : في صباي كان يتفق لي ان امزق اربا اربا اللوحة التي تكون بين يدي عندما لا تعجبني ، او ان ارميها في الحقول . وفي اواخر حياتي ، وعندما كانت لوحاتي تباع بأثمان لا بأس بها . وكنت قد صرت على اكبر جانب من الهدوء والرزانة ، لفت نظر التاجر الذي كان يتولى شراء لوحاتي شيء يتأرجح فوق شجرة امام محترفي : فقد كانت لوحة لم اتم رسمها ، وقد القيت بها من النافذة في احدى سورات الغضب . . .

صوت : منذ البدء احاطت بك المصاعب من كل جانب . فوالدك الذي اصبح اول صاحب مصرف في اكس ، لم يكن موافقا على امتهانك الفن ، وقد اجبرك على دراسة القانون .

سيزان : ولما ايقنت ان لا مجال للحصول على موافقة والدي اضطررت الى تسلّم وظيفة في مصرف ابي .

صوت : ولكنك عندما بلغت الرابعة والعشرين حصلت على الاذن

بالذهاب الى باريس لدراسة فن الرسم ، فبدأت مذ ذاك كفاحا مريرا .

سيزان : كنت اعمل بجد واجتهاد ، الا ان الدروس الفنية الرسمية لم ترق لي ، فضلا عن انها كانت مجموعة من التقاليد المتحجرة ، البالية .

صوت : وعلى ذلك ، وبالرغم من قضاء سنتين ونصف السنة في الدراسة والعمل ، فقد فشلت في امتحانات الدخول الى معهد الفنون الجميلة .

سيزان : وطوال ثلاثين عاما ، على اقل تعديل ، رفض استقبال رسومي ولوحاتي في معرض باريس ، وكان هذا المعرض في ذلك العهد وبالنسبة الى الفنان ، السبيل الوحيد لانطلاقه ، وتثبيت دعائم شهرته الفنية .

صوت : ولم تبق ابواب المعرض ـ او « صالون باريس » ـ مقفلة في وجهك ، بل بقيت شخصاً مغمورا ومنسيا .

سيزان : وهكذا لم اقم معرضا خاصا بي الا سنة ١٨٦٥ ، وكنت قد اصبحت في حوالي العقد السادس من العمر .

صوت : وكنت تعيش مغمورا ، مجهولا الا من نفر قليل من الرسامين أمثال رينوار ، وديغا ، ومونيه ، وبيسارو، وغوغان .

سيزان : على ان الشهرة التي كان يتمتع بها هؤلاء الرسامون لم تكن ذات فائدة لي لان النظرة العامة اليهم لم تكن افضل من النظرة الي .

صوت : وقليلون هم الذين قدروك حق قدرك . حتى انك كتبت مرة الى احد اصدقائك المخلصين ، من فرط يأسك : « ماذا بقي امامي ان افعل في مثل حالتي غير الخضوع والتذلل . . . » وطوال حياتك العملية حاربك النقاد بقسوة ومرارة .

سيزان : تصور ان احدهم كتب ذات يوم يقول : « ان الاطفال الذين يلهون بالورق والالوان يصنعون افضل مما يصنع سيزان » .

صوت : وكان اخبث من هذا الناقد الذي تحدث عن لوحة لك حاولت فيها ان تلتقط وهج الشمس ، فنصح للقراء بألا يتوقفوا طويلا امام لوحاتك ، وبخاصة اذا كانوا برفقة امـرأة حامـل خوفـاً من ان يصاب الجنين بالحمى الصفراء .

سيزان : كان جيراني ، وحتى اصدقائي ، ينظرون الي نظرتهم الى امرىء فاشل في هذه الحياة ، حتى ان ولدي نفسه كان يعتبرني طفلا كبيرا ، فيعمد الى فض رسائلي . اما سكان مسقط رأسي ايكس فكانوا يعتبرونني غريب الاطوار ، ومعظم الفنانين كانوا يعاملونني كما لو كنت اخرق . ولا عجب في ذلك عندما تعرف يا سيدي ، ان افضل اصدقائي اميل زولا ، بعد صداقة ثلاثين سنة ، كان يتحدث عني فيصفني بالعبقري الطرح الذي يبعث على التأثر والشفقة .

صوت : ولاحقتك العزلة الاجبارية في حياتك العاطفية ، ففي

الثلاثين همت حبا بفتاة تدعى اورتانس فيكيه ، كانت تعمل نموذجا لك . وقد وضعت بعد سنة طفلا اعترفت به من فورك واحببته طوال حياتك . ولكن بسبب الظروف الطارئة انقضت سنوات عدة قبل ان تقترن بأورتانس ، وكنت تفترق عنها احيانا الشهور المتواصلة .

سيزان : لعل هذه القدرة على الانفراد والانعزال عندما تقضي الضرورة هي مقياس العبقرية . وثق انني لم افقد الثقة بنفسي ابدا على الرغم من ساعات اليأس والخيبة والعزلة التي عشتها . ولقد توصلت الى الرسم بدقة وبطر شديدين .

صوت : ولقد كان فنك الدقيق يضطرك الى تكريس كل نشاطك وتفكيرك وروحك وكل حياتك لتفهم دقائق الحياة الظاهرة والمخفية في كل ما يحيط بك من اشياء . وكنت تجتهد ـ كما قلت انت نفسك ـ في ان تجسد بالرسم احساساتك امام الطبيعة . لقد كنت تجد اشكالك في الطبيعة وليس في الهندسة . ولوحاتك تمثل دائما الاشياء الحقيقية : الكائنات الحية ، والمناظر الطبيعية ، والطبيعة الميتة ، كالتفاح والاباريق وزهور الجيرانيوم ، ولم يكن هدفك في يوم من الايام الفن الرمزي الذي عرفه العصر الحديث .

سيزان : وبلغت الخمسين من عمري دون ان ابيع اي لوحة . فقد قبل احد اصحاب الحوانيت ان اسدد فاتورة حسابه بلوحة من صنعي . وكان بائع الالوان يتقاضى مني ثمن ما اشتريه من انابيب الالوان لوحات كذلك . وقد باعت ارملة هذا التاجر ، بعد وفاته ، عددا من هذه اللوحات

بثمن راوح بين خمسة واربعين فرنكا ومئتين وخمسة عشر فرنكا .

صوت : واخيرا بدأ تجار اللوحات الفنية يطلقونك ، فسجلت لوحاتك اثمانا مرتفعة وما هي الا عشر سنين حتى بيعت اثنتان وثلاثون لوحة لك بمبلغ واحد وخمسين الف فرنك . ومذ ذاك راحت اثمان لوحاتك ترتفع بسرعة مدهشة .

سيزان : ولكن لسوء الطالع لم اعمر طويلا لكي اشهد ذلك .

صوت : اما اليوم ، يا سيد سيزان ، فان شهرتك كاملة . واعلم انه لا يمكن تصنيف متحف من المتاحف في الدرجة الاولى اذا لم يضم لوحة جيدة من لوحاتك على الاقل . واعود فأكرر ما سبق ان قلته من ان معظم الرسامين الكبار في عصرنا هذا ينظرون اليك على انك رائد الفن الحديث .

سيزان : . . . وابوه كذلك ! . . .

صوت : والآن ، قبل ان استأذنك بالانصراف ، يطيب لي ان اردد عليك ما قاله عنك في سنة ١٩٦٣ احد النقّاد الفنيين الانكليز في الكاتالوغ الخاص بالمعرض الذي اقيم للوحاتك في احد المعارض الانكليزية : « ان سيزان بالنسبة الينا هو المحك . انه اشبه بالقديس الحامي . وكل من لا يحس بقوة فنه ، وفضيلته البطولية ، ليس فحسب من ابناء عصره ، بل انه لا يقف على عتبة تقدير ما هو الثمين في هذا القرن العشرين » .

سيزان : شكرا جزيلا على هذه الاشارة ، يا سيدي فقد اثلجت

صدري حقا ، وسماعي اياها يجعلني اردد ان لانبـي في وطنه ، ولا في عصره!. . .

صوت : لا شكر على واجب يا سيد سيزان . . . ويبدو ان الحال هي كذلك في اغلب الاحيان .

هنري روسو: رائد السوبر - واقعية في الرسم
(١٨٤٤ - ١٩١٠)

صوت : كان هنري روسو واثقا تماما من ان مقامه في عالم الفن كان مقاما على جانب كبير من الاهمية ، وان مساهمته في تاريخ فن الرسم ستكون بعيدة المدى وخالدة . وقد اعلن ذات يوم للرسام بيكاسو قائلا : « نحن اعظم رسامين في عصرنا انت في الاسلوب القوطي ، وانا في الاسلوب الحديث » . الا انه طوال فترة غير قصيرة كان مجرد التلفظ باسمه يثير الضحك ، الذي غالبا ما كانت تعقبه رواية نادرة عنه تترك السامعين على علم بحساسيات ذلك الرسام ، ولكن دون اطلاعهم على مزيد من قدرته كفنان . ولكني اسارع الى القول وضعا للامور في نصابها وتطميناً لك يا سيدي روسو ، انه في الآونة الاخيرة - وبالطبع بعد وفاتك . ولانك غادرت العالم الاول سنة ١٩٠١ - بذلت الجهود لأعادة تقييمك كرسام ، واعتبارك اقل سذاجة وبدائية ، واكثر معرفة ومهارة فنية كانتا عاملين جـوهريـين في خلق بعض الحركـات الفنيـة والاتجاهات فيما بعد . كان هنري روسو واحدا من اوائل الرسامين في القرن التاسع عشر ، مع الرسام روادن ، ممن عالجوا موضوع الاحلام والهلوسة ، متخطيا بسنوات عدة اهتمام السوبر واقعية « بالصور الطبيعية للعقل » .

فضلا عن اقامة مبكرة في المكسيك انقضت حياته في محترفات باريس المقفلة حيث كانت احلام اليقظة تحل محل التنقلات والنزهات الحقيقية ، والنباتات والحيوانات الغريبة التي ملأت لوحاته ، واوحتها اليه زياراته الى الحدائق العامة وحدائق الحيوان ، او مطالعة الصحف التي كانت تصف الاماكن النائية الساحرة . والآن تفضل يا سيدي ، وعرفنا بنفسك . . .

روسو : اسمي الكامل هنري جوليان فيليكس روسو ، ابصرت النور في بلدة لافال في شمال غربي فرنسا سنة ١٨٤٤ ، وكان والدي تاجر أواني معدنية ، وكانت والدتي من اصل يتبجح بان اجداده ابلوا احسن البلاء في الجيش الفرنسي . وقد عملت ، وانا في الثامنة عشرة ، مع فرقة موسيقية عسكرية ، واوفدت الى المكسيك لاكون في خدمة الامبراطور ماكسيميليان .

صوت : ولما عدت الى فرنسا عملت فترة قصيرة في مكتب احد المحامين ، وخلال حرب سنة ١٨٧٠ ، كنت رقيبا في الجيش ، وحسب روايتك ، اديت مهماتك ببراعة ، وبعد انتهاء الحرب ، عينت ضابطا ثانويا في محطة جمركية في بلدة تقع في ضواحي باريس . وقد رسمت بالقلم والالوان دون دراسة رسمية منذ كنت فتى صغيرا .

روسو : صحيح ، وعندما بلغت الاربعين ، تلقيت راتبا تقاعديا متواضعاً ، مكنني من تكريس كل وقتي لامتهان فن الرسم . والحقيقة انني لم اكن قط يوما من الغنى بحيث استطيع ان ادرس في اي مدرسة او اكاديمية فنية ، وكانت

رسومي الاولى تتمشى على التقليد الفني الشعبي ، وما لبثت ان تتلمذت على يدي الرسام جيروم عدو مانيه اللدود ، والاستاذ في مدرسة الفنون الجميلة .

صوت : وفي معرض المستقلين الذي اقيم سنة ١٨٨٦ ، عرضت لوحة جميلة بعنوان « امسية كارنفال » وقد كانت تلك اللوحة اشبه بانشودة من موسيقى « روسيتي » ، نظرا الى صورها الخيالية ، والسهولة في رسمها، وسلاسة تصميمها التي قلما تقترن باسمك .

روسو : صحيح ، فان الاشكال القاسية ، المبسطة ، الجامدة جاءت فيما بعد وليس في بداية احترافي الرسم كما هو متوقع .

صوت : وكنت تعيش في احياء باريس المتواضعة ، وتضطر الى زيادة مرتبك التقاعدي بالقيام باعمال عادية ، منها اشرافك على بيع احدى الصحف ، ومنحك النصح القانوني لعامة الشعب الذين يقيمون بجوارك وفي حيّك ، واسمح لي ههنا ان اتساءل كم كان صحيحا ذلك النصح على ضوء السذاجة التي اظهرتها فيما بعد عندما خدعت اسوأ خدعة ، وكدت تزج في السجن .

روسو : وكنت كذلك اعطي دروسا في الموسيقى والرسم بالقلم وبالزيت . وبين آن وآخر كنت ابيع لوحة يكلفني برسمها احد الجيران . وكنت قد تزوجت للمرة الثانية امرأة كانت تدير حانوتا لبيع القرطاسية حيث كانت لوحاتي معروضة باستمرار .

صوت : وكان هناك دائما لوحة تحمل توقيعك معلقة او مخبأة في مكان مظلم في معارض الرسامين المستقلين . ومن الغريب حقا ان يكون رسام في المرحلة التي عشت فيها قد تعرض لمثل ما تعرضت اليه من الجمهور ومن الناقدين على السواء .

روسو : ذلك هو الواقع ، وقد حفظت مفكرة بكل اهاناتهم ، وكنت اكتب اليهم الرسائل الطوال اضمنها الاحتجاج والشرح والتوضيح . وغالبا ما كان بعض الناقدين يتأثر من ذلك فيرسل الي الاعتذار ، فارفقه بالقصاصة التي حملت الي نقده اللاذع وتهكمه .

صوت : ولكنك مع ذلك ، بدأت تحظى باعتراف وتقدير الرسامين المتقدمين في تلك الفترة ، ومنهم غوغان وديغا ورودان ، وطولوز ـ لوتريك الذين قدروك حق قدرك ودافعوا عنك ، انت الرسام ، والموظف الجمركي السابق . وهكذا بات لك عدد كبير من الاصدقاء الذين احبوك لشخصك ولفنك ، واعتبروك واحدا من جماعتهم . والآن ، يا سيد روسو ، اين كنت تجد المادة للوحاتك الفنية ؟

روسو : كنت اجدها في مكانين اثنين : الشوارع والحدائق والبساتين المحيطة بباريس ، والغابات الغريبة التي اتخيلها في احلامي الخاصة . وهذه الاخيرة هي ربما الاختبارات التي علقت بذاكرتي من رحلتي الى المكسيك ، وزياراتي المتواصلة الى خدائق الحيوان المحلية حيث كانت تراقب الاسود والنمرة والقردة وتفحص بدقة وتنقل الى مجاهلي

التي لم تكن فيها النباتات والحيوانات شبيهة بأي شيء يعيش على وجه البسيطة .

صوت : ولكن عندما اكتشفت لجنة معارض المستقلين ان بعض رسومك المعروضة كانت تحمل على الضحك اكثر مما تحمل على الاعجاب ، رأت انه يستحسن سحبها لمصلحة سائر الرسامين العارضين .

روسو : ووافقت على الفور ، على ذلك القرار ولكن في الحقيقة لم احلم قط بأن اعمالي الفنية كانت موضوع نقاش للابعاد عن المعرض . وقد انهمكت في تلك الفترة بالذات في وضع ترجمة موجزة لي لتنشر في مجلد كان يحضرّه احد كبار الناقدين في ذلك الزمن .

صوت : ونتجاوز الدعوى التي اقيمت ضدك واتهمت فيها ، سنة ١٩٠٩ وانت في الخامسة والستين ، بالغش وسوء الائتمان ، ولكن حكم هيئة المحلفين بأنك مذنب عُلّق ، لنذكر انك في ايامك الاخيرة وقعت في حب ارملة تصغرك بعشر سنين ، بعد توددك اليها طويلا ، وكتابة الرسائل العاطفية وتقديم الهدايا الثمينة اليها من المال الوفير الذي جمعته في النهاية من بيع لوحاتك . . .

روسو : حتى انني فكرت في جعلها وارثتي الوحيدة لما تبقّى من لوحاتي الفنية . فاعتبرتني مع اسرتها مجنونا مغرورا مدعيا ، ورساما سيئا ، بلا اخلاق ما دامت المحكمة قد وجدتني مذنبا في تلك القضية التي اقسم انني كنت بريئا منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ـ كما يقولون . وهكذا لم تحصل مدام ليوني ، وكان ذلك اسم محبوبتي الارملة ،

على شيء من ممتلكاتي لحسن الطالع ، لانني لم اوقع قط الوصية .

صوت : وفي سنة ١٩١٠ ، وهي سنة وفاتك ، عرضت اعظم لوحاتك واروعها « الحلم » التي اعتبرها ، الكثيرون تصعيداً لمغامرتك العاطفية الاخيرة مع ذكريات حب قديمة عادت فاستيقظت في نفسك كانت بطلتها وانت شاب فتاة بولونية تدعى ياديفيغا .

روسو : لهذه الصورة نظمت قصيدة يبرز فيها اسمها ، كما جعلتها شخصية في مسرحية من خمسة فصول وضعتها وجعلت لها هذا العنوان « انتقام يتيم روسي » .

صوت : وكانت وفاتك بسبب التهاب كان نتيجة اهمالك اصابتك بجرح في ساقك . وكان معظم اصدقائك خارج باريس اذ ذاك ، فلم يحضر جنازتك الا سبعة اشخاص فحسب ، فلما عادوا اقاموا لك نصبا تذكاريا لائقا فوق ضريحك ، ونظم الشاعر ابولينير ابياتا مؤثرة نقشت على بلاطة ضريحك .

روسو : شكراً له ولجميع الاصدقاء الذين تنادوا لتكريمي بعد وفاتي ، واود ههنا ان اذكر انني قبيل وفاتي كنت قد كتبت الى الشاعر الصديق ابولينير ما يلي : « لقد ارسلت الآن لوحتي الكبيرة ، الجميع معجبون بها ، وآمل ان تستخدم مهارتك الادبية لتثأر لي من كل الاهانات والآلام التي كنت هدفاً لها ! » .

صوت : اطمئن ، فقد نسيت تماما ومنذ زمن بعيد كل تلك

الاهانات والآلام التي اصابوك بها . فقد ثأرت بنفسك بريشتك ، ومقامك اليوم لا يُنازع في قائمة رسامي القرن التاسع عشر .

رمسكي - كورساكوف : مخيلة الاطفال الخصبة

(١٨٤٤ - ١٩٠٨)

صوت : لعل افضل مصدر ثقة لتعريفنا على سيرة الموسيقي الروسي رمسكي - كورساكوف ، هو رمسكي كورساكوف نفسه! فترجمته هي واحدة من الظواهر النادرة - انه كتاب نجح فيه مؤلفه في النظر الى نفسه بامانة مطلقة وبعيدة عن التحيز . وهو القائل في نهاية سيرته : « ان قصة حياتي الموسيقية هي بلا انتظام ، ومكتوبة باسلوب رث ، وغالبا ما هي على جانب كبير من الجفاف ، ومشوشة التفاصيل . . . ولكنها ، على سبيل التعويض لا تحتوي على أي شيء غير الصدق! »
ونحن في متابعتنا سيرة رمسكي - كورساكوف ، سنكتشف رجلا لم يكن متواضعا ولا متعجرفا ، لا بسيطا ولا متبجحا ، ولكنه رجل في اكثر اموره وفي جميع الظروف ، صادق . وعندما كان يحب عملا من أعماله لم يكن ليتردد في مناقشة حسناته ، وعندما كان يكرهه لم يكن ليتردد في الاشارة إلى عيوبه! ففي كل حالة وكل قضية كان ينظر إلى نفسه بموضوعية تماماً كما ينظر إلى أصدقائه . حتى خصومه كان ينظر إليهم بتجرد علمي ، وبلا أدنى ضغينة شخصية . وكان سلوكه ، كموسيقاه ، فيه الكثير من الاتقان العلمي بدلاً من الميل الفني . . .

كموسيقاه ، فيه الكثير من الاتقان العلمي بدلا من الميل الفني . . .

كورساكوف : ولكن ، اسمح لي ، يا سيدي ، ان اقول ههنا انه من الغريب ، مع ذلك ، انني كنت في الاساس موسيقيا هاويا اكثر مني موسيقيا محترفا . والحقيقة انني لم اكن واي احد من اولئك الذين عرفوا بلقب « الموسيقيون الخمسة الكبار » في روسيا ، مؤلفا موسيقيا محترفا !

صوت : هل لك ان تعرفنا بهؤلاء الموسيقيين الروس الخمسة الكبار الذين تحدثت عنهم ؟

كورساكوف : جماعة الخمسة هؤلاء هي التي خلقت بحق الموسيقى الروسية الحديثة . وكان يتزعمها بالاكيريف ، ثم ما لبثت ان تزعمتها شخصيا وانا بعد في بزتي العسكرية البحرية . وكان من اعضائها موسورغسكي ، وبورودين وكوي . . . وجميعهم كانوا يعملون في الادارات الحكومية لتحصيل معيشتهم . أنا كنت ضابطا صغيرا في البحرية الروسية . . . بالاكيريف كان في ادارة السكة الحديدية الامبراطورية . موسورغسكي موظفا في دائرة الاحراج . وبورودين استاذا للكيمياء في اكاديمية الطب الامبراطوري ، وكوي مهندسا تابعا للجيش القيصري . فلقد كانت اسرة رومانوف الحاكمة ترعى الفن والفنانين وتلك مأثرة تسجل لها .

صوت : اذا شئنا قول الصراحة كنتم ، يا جماعة الخمسة ، تلعبون بالموسيقى ، لا تلعبونها ، اذا صح هذا التعبير ، ففنكم كان نوعا من الاسترخاء ، او نوعا من

الحلوى الطيبة في لائحة الطعام المتنوعة الاصناف في حياتكم اليومية .

كورساكوف : يمكنك قول ذلك حقا ، يا سيدي !

صوت : الواقع انك ، يانيقولاي اندرييفتش رمسكي - كورساكوف ، كنت منذ طفولتك تحضر لكي تصبح بحارا روسيا . فقد كان شقيقك البكر ملازما في البحرية ، وكان والدك الموظف الحكومي المتقاعد يرغب في ان تصبح مثل شقيقك . وكنت بعد في الثانية عشرة من عمرك في تموز سنة ١٨٥٦ عندما سجلك والدك في الاكاديمية البحرية في سان بطرسبرج . . . وكانت الحياة اليومية التي تسير على وتيرة واحدة في هذه الاكاديمية ترتدي ليلة السبت من كل اسبوع طابع الحيوية بسبب الجلد الذي كان ينزل بالطلاب الذين يرسبون في اي موضوع خلال الاسبوع . . .

كورساكوف : وقد نلت حصتي المقررة من هذه الجلدات الاسبوعية ! فلم اكن لابدي اي اهتمام بدروسي . . .

صوت : . . . ولم تكن كذلك لتبدي اي اهتمام بالموسيقى . فأيام الاحد ، وبالحاح من والديك ، كنت تدرس العزف على البيانو ، ولكنك لم تصبح قط عازفا جيدا . ولكن ذات يوم من تشرين الثاني من سنة ١٨٦١ ، واتفق ان كان يوم احد ، صحبك استاذك في الموسيقى لزيارة بالاكيريف . وفي ذلك اليوم بدأ اهتمامك الحقيقي بالتأليف الموسيقي . فماذا كان انطباعك عن هذا الموسيقي ؟

كورساكوف : كان تأثيره علي عظيما . فقد كان عازف بيانو ماهرا ، يعزف كل شيء من الذاكرة ، وله مبادىء حازمة ، وافكار جديدة جريئة . واخيرا وليس آخرا ، كان موهوبا من ناحية التأليف الموسيقي ، الامر الذي شدني اليه اكثر فأكثر ، وفضلا عن ذلك ، كان ناقدا رائعا ، وبخاصة ناقدا تكنيكيا . وبالاختصار نصب نفسه دكتاتورا موسيقيا للجيل الجديد في روسيا ، كان يطاع بلا مناقشة لقوة سحر شخصيته . وكان تأثيره يشبه قوة مغنطيسية . بالنسبة اليه لم يكن في سماء الموسيقى غير اله واحد هو يوهان سيباستيان باخ ، وبالاكيريف كان رسوله . وقد اوثقت عرى اتصالي به ، واصبحت من تلاميذه المتحمسين ، كما رضيت به ناصحا ، وناقدا ، وناشرا ، ومعلما !.. ولعل صداقتي لبالاكيريف كانت خيرا علي لجهة انها شجعتني على ان اعتبر الموسيقى اكثر من مجرد الهية وهواية .

[illegible] : صحيح ان صداقتك لبالاكيريف حولت طالبا لا مباليا في الاكاديمية البحرية الى مؤلف موسيقى جدي ، الا انه في ناحية مهمة واحدة كان توجيه بالاكيريف سيئا بالنسبة اليك والى سائر تلاميذه . فقد حول تلاميذه الى اقمار تدور في فلكه ، واكرههم على ان يعكسوا النور الخاص لعبقريته . ولما لم يكن هو شخصيا قد تلقى اي تدريب مدرسي ، فقد رأى ان مثل هذا التدريب غير ضروري لسائر الموسيقيين ، وكان يشدد على ان معرفة الهارموني لا اهمية لها .

كورساكوف : كان يقول لنا : « ينبغي لكم ان تغوصوا بقوة وشجاعة في بحر التأليف ، وتتعلموا ، فاما تغرقوا او تسبحوا . فاذا كانت لديكم مهارة في السباحة فذلك خير لكم . ولكن اذا كنتم غير محظوظين ، وغرقتم ، فذلك خير للعالم » . وقد طبّق مبدأ « السباحة او الغرق » هذا علي . فكان اول درس عينه لي هو كتابة سنفونية . فلم اجادله طويلا ، فكانت النتيجة ان سنفونيتي جاءت طبق الاصل عن احدى سنفونياته المعروفة « الملك لير » . ومع كل شيء كنت اعبد بالاكيريف واطيع اوامره كلها .

صوت : وبعد تأليف تلك السنفونية امرت بالقيام برحلة بحرية طويلة كجزء من تدريبك العسكري في البحرية الروسية . وحملتك تلك الرحلة الى انكلترا ، والولايات المتحدة الاميركية ، واميركا الجنوبية .

كورساكوف : وقد اوحت الي المشاهد الليلية للسماء في تلك البقاع الجنوبية واحدا من المقاطع الشعرية القليلة في سيرة حياتي . وقد استغرقت هذه الجولة حول العالم ثلاث سنوات ، عدت بعدها الى سان بطرسبرج حيث وقعت من جديد تحت تأثير بالاكيريف ، واستأنفت احلامي المنقطعة ، وخلال احدى زياراتي الاولى لهذا الموسيقي قابلت موسيقيا جديدا جاء ينضم الى الحلقة هو الكيماوي الموسيقي الموهوب والغريب الاطوار ، بورودين . . .

صوت : هل لك ان تعرفنا بهذه الشخصية التي قيل فيها انها

تشبه بعض شخصيات الروائي المعروف تورغنيف ؟

كورساكوف : اكثر من اي شيء في العالم كان بورودين يحب الاختبار القاسي والبيانو ، الا انه على ولعه الشديد بهما كان يهملهما معا . ذلك بأنه كانت له اهتمامات كثيرة اخرى فضلا عن هذين الاهتمامين الرئيسيين . من ذلك انه حاول تعليم الفتيات الطب ، واشترك في العديد من الجمعيات التي تهتم بمساعدة الطلاب المحتاجين ، وكان يسمح بأن يحضر كل اجتماع يقام لاي غاية او قضية ، ويؤوي كل متسول يلجأ اليه ويطعمه بحيث ان مسكنه المؤلف من أربع حجرات كان دائما يعج بالضيوف النائمين . . . هذا عن انسانيته ، اما عن شخصيته بحد ذاتها فأقول انه كان ذا قوة بدنية قل نظيرها ، يأكل بشراهة وبلا انتظام . كان بامكانه ان يتغدى مرتين في اليوم الواحد ، او يبقى بلا غداء البتة ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك . فاذا اتفق ان زار صديقا وقت الغداء ودعاه هذا الى مشاطرته الطعام ، فانه كان يقبل من فوره مرددا : « ما دمت قد تغديت قبل قليل ، فقد كونت عادة ، ولذا فأنا لا امانع في الغداء مرة ثانية ! » ومن ناحية اخرى كانت تمر ايام ينسى ان يتغدى فيها ويعود في ساعة متأخرة الى البيت فيشارك افراد اسرته في تناول الشاي . فاذا ما سألته زوجته : « اين تغديت اليوم ؟ » يتذكر فجأة فيقول : « يا الله ! انا لم اتغد البتة اليوم ! » .

صوت : لطيف جدا بورودين هذا ! ولكن ماذا عن موسيقاه الآن ؟

كورساكوف : على الرغم من كل اهتماماته الانسانية ومحاضراته الكيماوية واختباراته كان يعمل في التأليف الموسيقي اكثر من اي موسيقي آخر من معارفه ، ولكن هذا الوقت الذي كان يخصصه للتأليف كان قليلا نسبيا ، ذلك بأن زوجته كانت مصابة بالربو ، وكثيرا ما كان يستيقظ في الليل ولا ينام الا قليلا . ومن هنا كان أصدقاؤه يرددون أنه عبقرية كبرى ضائعة ، وهو القائل : «لا يمكنني التأليف إلا عندما لا أكون على ما يرام لالقاء محاضراتي . لذا قلبوا التقليد المتبع وراحوا يقولون لي : نرجو ان تكون مريضا ، بدلا من نرجو ان تكون على خير ما يرام من الصحة ! » والحقيقة انني اعجبت ببورودين الموسيقي مثل اعجابي ببالاكيريف . وهكذا تفتحت مهارتي في الموسيقى ، وقل اهتمامي بالبحرية وبدأت اضع الاناشيد والاغاني والافتتاحيات ، ومن ثم ، ومع استمرار جهلي بمبادىء التوزيع الموسيقي، ألفت أول عمل مهم هو الصورة السنفونية «سادكو».

صوت : الا انك تعترف صراحة في ترجمتك بأنها جاءت تقلد بشكل واسع ، وتذكر في بعض مقاطعها بالموسيقيين ليست ، وغلنكا ، وبالاكيريف ، ودارغوميجكي . . .

كورساكوف : ومن هنا يتضح لك انني لم اكن اعرف شيئا عن القضايا التكنيكية للتوزيع الموسيقي عندما وضعت ذلك العمل ! فلما عينت استاذا للتأليف الموسيقي التطبيقي في المعهد الموسيقي في سان بطرسبرج اعتبرت قبولي

بذلك المنصب امرا غير شريف نظرا لجهلي الفاضح .
ولكنني عكفت مذ ذاك على تثقيف نفسي ودرست
دراسة وافية علم الايقاع ، وفن مزج الالحان ،
وتعرفت الى مختلف الآلات الموسيقية النافخة والوترية .
وهكذا اصبحت افضل الاساتذة في المعهد . . .

صوت : . . . وافضل التلامذة ايضا في ذلك المعهد ، كما شئت
ان تعبر عن ذلك في ترجمتك على سبيل المزاح ! ولم
تمض بضع سنين حتى اصبحت تعتبر بين ابرع العاملين
في حقل التوزيع الموسيقي من الموسيقيين الروس في
ايامك .

كورساكوف : وعلى ذلك عينت بصورة غير رسمية منفذا للتوزيع
الموسيقي لكل صنيع موسيقي كبير تركه صاحبه غير
مكتمل بسبب وفاته . . .

صوت : وهكذا اصبحت في الواقع المالك الجزئي ، لانك
الخالق الجزئي ، للكثير من الثروة الموسيقية في روسيا
بفضل هذه المساهمة الكبرى .

كورساكوف : يمكنك ان تقول ذلك ، يا سيدي ! شكرا !

صوت : وحملت اليك السنة ١٨٧٢ حدثين سعيدين هما :
النجاح الذي لاقته اول اوبرا لك « بسكوف » ،
وزواجك الموفق من نادييجدا نيقولايفنا بورغولد ،
وكانت ذات حسن كبير ، وموسيقية موهوبة مثلك .

كورساكوف : وفي السنة التالية عينت في منصب المراقب للفرق
الموسيقية التابعة للبحرية الروسية . فكنت اقوم

بـزيـارات الى مختلف الفـرق المـوسيقيـة ، والقي المحاضرات في المعهد ، واقضي فصول الشتاء في سان بطرسبرج ، والصيف في مناطق البحيرات والصنوبر في روسيا ، واعلم اولادي ، واؤلف المقطوعات الموسيقية الجميلة . وكانت حياتي هادئة ، وسمحة . فاستطعت ان ارعى صاحب كل موهبة موسيقية من الشبان . ورويدا رويدا فقدت كل اهتمام بالبحرية ، وبالسياسة بوجه عام ، واغرقت نفسي اكثر فاكثر في الموسيقى فأنتجت في هذه الفترة من حياتي الكثير من المؤلفات من مثل : اللحن الاسباني ، وعذراء الثلج ، وملادا ، وليلة الميلاد ، وشهرزاد . .

صوت : وطوال حياتك بقيت طفلا ، وبقيت لك مخيلة الاطفال الخصبة ، ولكن غير الواقعية . وفي مناسبات قليلة حطمت حقائق الحياة المرة احلام طفولتك السعيدة . فقد كانت وفاة ولديك ماشا وسلافشيك ضربة قاسية عليك صعب عليك احتمالها لانك لم تكن معتادا على الالم . وكان صرفك من المعهد الموسيقي بمثابة نسف الدعائم من تحت قدميك . ذلك بأنه اظهر لك عالما لم تكن طوال سنوات وسنوات متنبها الى وجوده ، فكيف جرى صرفك من المعهد ؟

كورساكوف : في سنة ١٩٠٥ خلال الثورة الفاشلة التي قامت بها طبقة الانتليجانسيا الروسية ، اشترك طلاب المعهد في هذه الثورة ، وكنت اجهل كل شيء عن السياسة ولا اهتم الا بمطامح الشباب ، فطلبت الى التلامذة ان

يعددوا مطالبهم وشكاويهم ، التي وجدت انه محقون فيها ، فكانت النتيجة ان اغلقت ابواب المعهد ، وطرد اكثر من مئة تلميذ ، وفصلت انا من سلك الاساتذة ، وهاج التلامذة وماجوا لصرفي ، فحضروا حفلة موسيقية من موسيقاي ، اقتحمها رجال الشرطة وتدفقت علي من مختلف ارجاء روسيا الرسائل التي تنطوي على العطف والتقدير ، وتشيد بي ، وتنعتني بالبطل ، والثائر ، والمنقذ ، الامر الذي لم يجر علي سوى الارتباك المتزايد انا الحالم المحافظ ، البعيد كل البعد عن الثورة . كل ما كنت اهتم به هو العدالة لا العصيان . كنت اريد عالما يستطيع فيه الموسيقيون امثالي ان ينموا فيه فنهم ، ويشجعوا على ذلك زملاءهم الموسيقيين ، ومن حسن الطالع ان غضب الشرطة كان قصير الامد ، فسرعان ما اعدت الى منصبي في المعهد ، مما أتاح لي مجددا ان اعود الى عالم الاحلام بعد ذلك الغوص المخيف في كابوس الحقيقة والواقع .

صوت : وهكذا وضعت وانت تحلم واحدة من مؤلفاتك الاسطورية : اوبرا « الديك الذهبي » ثم في سن الرابعة والستين ، استسلمت الى رقادك الاخير ، ذلك الرقاد الذي لا احلام فيه !

ديغا : رسام الحياة
(١٨٣٤ - ١٩١٧)

صوت : عندما كان ديغا على فراش الموت ، كان الرسام الشهير فوران بين الحاضرين فالتفت اليه ديغا ، وقد ايقن انه لم يبق امامه في هذه الدنيا سوى بضع ساعات وقال له : « انا لا اريد ان يكون هناك ايُ خطب » ، ولكنه بعد لحظة بدّل رأيه واضاف « اجل ، يا فوران ، انت ستلقي كلمة وتقول فيها : كان يُحبُّ الرسم كثيرا » . . .

ديغا : الحقيقة ، يا سيدي ، انني طوال حياتي لم يشغلني الا الرسم ، ولكم رسمت من اسكتشات بالقلم تمهيدا لرسم لوحاتي بالزيت . ولقد جمعت نماذج من اسياد فن الرسم القدامى والمحدثين على السواء . ولا اتردد في القول انني عبدت الرسام آنغر لمهارته الفائقة في هذا المجال ، وواصلت في معظم اعمالي التقليد الذي رسمه آنغر ، وهو التركيز على الصورة كعنصر رئيسي ، مستخدما اللون كتكملة لتلك الصورة ! .

صوت : كان لا بد من هذا التقديم ، يا سيد ديغا ، والتوضيح الذي عرضتَهُ عن فنك ، قبل ان ندخل في تفاصيل حياتك وعملك الفني القيّم ولنستمتـع قليلا ببعض موسيقى الباليه ، هذه الرقصة التي تركتَ لنا لوحة شهيرة

عنها فضلا عن لوحات كثيرة تمثل الراقصات الباريسيات في عصرك ! والآن ، ادغار ديغا ، انت ابصرت النور في باريس سنة ١٨٣٤ ، في اسرة ، كانت كأسرة زميلك الرسام مانيه ، ميسورة الحال ، فلم تضطر في اي فترة من حياتك ان تعرف طعم العوز او التشرد كالكثيرين من الفنانين .

ديغا : لم تكن حياتي ، في الواقع ، حياة البوهيميين المعروفة ، لان والدي كان من هواة الفنون ويجمع الكثير من اللوحات . الا انه لما لم أشأ ان اوافقه على دراسة الحقوق لكي أنصرف الى دراسة الرسم حرمني من المال ، وجعلني اغادر منزلي المريح لاحيا واعمل في العلّيات الباريسية التقليدية . فكان تلك المرة الوحيدة في حياتي التي خبرتُ فيها شظف الحياة بسبب الفقر .

صوت : لقد ذكرت ذلك فيما بعد ، وشكوت من انك طالما عضك البرد بنابه ، وان اضطراب نظرك والضعف الذي عذبك حتى وفاتك ، بدأ في تلك الفترة . ونعود الى والدك فنذكر انه كان يعيش في ايطاليا حيث قابل امرأة فرنسية خلاسية وتزوجها ثم انتقلا للاقامة في باريس حيث وُلدتْ . وقد كتب عنك مؤخراً احد أنسبائك يصفك بانك كنت طفلا شديد الحساسية ، اظهرت في سن مبكّرة اهتماما بالقراءة والموسيقى واستعمال الالوان .

ديغا : ثق ، يا سيدي ، انه لم يبالغ في ما كتب . فقد كنت من البداية طالبا مجتهداً ومواظبا في كلية لويس الكبير ، اظهرت اهتماما شديدا باللغتين اليونانية واللاتينية . وقد

لازمني هذا الحب للكلاسيكيات طوال حياتي . وقد ذكرت قبلا انني وددت ان اكون رساما ، في حين ان الاسرة كانت ترغب في ان اصبح محاميا .

صوت : وهكذا هجرت دراسة الحقوق بعد تجربة قصيرة والتحقت سنة ١٨٥٥ بمدرسة الفنون الجميلة . ولم تكن تشارك زملاءك الطلبة في نشاطاتهم الاقل جدية من الدرس والتحصيل . وتجاهلت الفتيات تجاهلاً يكاد يكون تاما . والتهمت الكتب عن تاريخ الفن ، وتقنية الرسم ، ورائعة دانتي الكوميديا الالهية .

ديغا : وهكذا لما علم والدي بالحياة التي كنت احياها رقّ قلبه عليَّ فزوّدني بما يتيح لي الاقامة في مسكن متواضع في شارع لافال ، وكنت اذهب يوميا الى متحف اللوفر لاتأمل وانسخ لوحات اساطين الرسم مانتينيا ، كلوويه ، وبوسان ، وسواهم . في سنة ١٨٥٦ رحلتُ الى ايطاليا حيث زرت المدن التاريخية وهياكل الفن الرائعة ، ثم اقمت ثلاث سنوات كاملة ومتواصلة في روما التي كانت مصدر وحي لي لما فيها من اثار الفن المسيحي الاول ، والنحت والموازييك اللذين اشتهرت بهما القرون الوسطى ، ثم في عصر النهضة الاول والمتأخر . وفي روما كذلك وجدت الكثير من الامثلة لواحد من آلهتي الفنية : رفاييل السماوي .

صوت : وعدت الى باريس سنة ١٨٦١ ، وكنت في السابعة والعشرين ، وعلى اتم استعداد لتجهيز لوحات لتعرض في المعرض الشهير المعروف « الصالون » وفي هذه المدينة

تعرفت الى الرسام مانيه الذي شعرت بقرابة روحية بالنسبة اليه .

ديغا : وفيها كذلك استمعت الى شرح النظريات الحديثة في الرسم ، وبدأت اميل عن المواضيع الكلاسيكية والاكاديمية ، لامثّل جوانب الحياة التي كنت احياها في تلك الايام ، وتلك المدينة ، فكنت اذهب الى ميدان سباق الخيل حيث كان يفتنني اللون والحركة ، وكانت حصيلة ذلك لوحات عديدة شهيرة في ذلك الموضوع .

صوت : وفي سنة ١٨٦٥ قابلت معبودك الرسام آنغر للمرة الاولى ، وكان المعلم اذ ذاك في الخامسة والثمانين من عمره . ودعاك الى مرسمه حيث ردد العبارة النصيحة التي طالما استشهد بها الكثيرون : « ارسم خطوطا ، وخطوطا اكثر ايضا ، مستوحيا الطبيعة ، او من الذاكرة ـ فتصبح رساما ممتازا » !!!

ديغا : صحيح . . . والواقع ان اعجابي بآنغر لم يتضاءل قط يوماً . اسمع هذه النادرة . ففي ذات يوم كنت اتبعه وهو يتسلق سُلما شديد الانحدار عندما زلت به القدم ووقع الى الوراء ، فالتقطته وحِلْتُ بينه وبين السقوط المّروع . ومذ ذاك وانا اتبجّح وافخر بقولي : « لقد احتضنت آنغر بذراعي ! » .

صوت : وفي الحرب الفرنسية ـ البروسية سنة ١٨٧٠ خدمت في الحرس الوطني وخرجت منها سليما ، ولله الحمد . وما هي الا سنتان حتى زار باريس شقيقك رينه وكان يعمل في تجارة القطن في نيو اورليانز في الولايات المتحدة

الاميركية ، فلما شاء العودة الى العالم الجديد وذهبت لوداعه على الباخرة بقيتَ برفقته وسافرتما معا دون ان تكون قد صمّمتَ على ذلك .

ديغا : ذلك هو الواقع ، يا سيدي . وقد كتبت في احدى رسائلي الى والدي ما يلي : « لقد اعتادت اذني منذ الآن اللغة الانكليزية لان الباخرة بريطانية ، ولن تمضي ايام قلائل حتى يصبح بامكاني الاشتراك في الاحاديث ! » .

صوت : ولعل اغنى مراحل انتاجك الفني كانت بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٨٣ . وقد اصبحت مواضيعك كثيرة التنوع . فكنت تزور السيركات ، والمقاهي ، والمسارح ، وميدان السباق ، ودار الاوبرا خلال اجراء التمرينات وفي حفلات الافتتاح ، لتستقي منها مواضيع حية للوحاتك الفنية . وكنت ، كما سبق وذكرنا ، تسجل رؤوس اقلام عن كل ما تشاهده لتعود الى مرسمك فتكمل اللوحة المطلوبة .

ديغا : وكالكثيرين من معاصريَّ ادهشني ابتكار الرسوم الفوتوغرافية فكنت استخدمها لمساعدتي على تخطيط اعمالي الفنية . وقد ساعدني اهتمامي المستمر بالادب على التعبير عن نفسي في محاولات لنظم الشعر ، ولكم اعانني الشاعر الكبير ستيفان مالارمه في مراجعة قصائدي .

صوت : لقد اصابتك الشهرة ، يا سيد ديغا ، في وقت مبكر ، ولم تلق شيئا من النقد العنيف القاسي الذي تعرَّض له زميلك مانيه . ومنذ المعرض الاول الذي اقمته للوحاتك

استقبلت بحفاوة وتقدير وشهرة . اكسبتك جميعا تاجرا ناجحا كان يتولى بيع لوحاتك او اهداءها . ولكنك بعد ان جاوزت حد الاربعين شرعت تتحدث عن سوء صحتك . ولعل شكواك المتواصلة كانت من ضعف بصرك . ونحن اليوم ندعو من يكون في مثل حالتك مصابا بوسواس المرض .

ديغا : ولكن لماذا تقول ذلك ، يا سيدي ؟

صوت : لانك في الحقيقة عشت حتى بلغت من العمر عتيا . فقد قضيت في العالم الاول ثلاثاً وسبعين سنة ، وكنت شديد الشبه من حيث المزاج بالنحات الاشهر ميكل آنج : كلاكما كان منتجا ضخما ، وعاش حياة العزوبة ، واعتُبِرَ نَفُوراً من الناس في عرف الكثيرين ، وفوق ذلك كله كان كل منكما يتوقَّع ان يكون عمره على الارض قصيرا ، فاذا بكما تعيشان طويلا وتنتجان كثيرا من الروائع !

ديغا : واسمح لي ههنا ان اضيف ان كُلًّا منا ايضا كان يجد متعة ومتنفسا في الادب والفلسفة وقرض الشعر . ولا اكتمك في هذا المجال ان تشاؤمي بلغ بي حدا ، وانا في الخمسين من عمري عبرت عنه بقولي : « انا اتدحرج عن الاكمة بسرعة ، اتدحرج دون اي هدف ، لست ادري الى اين سأصل ، وقد لُففت بلوحات مائية كما يُلَفُّ الشيُّ بورق الصرّ ! »

صوت : كثيرون من مؤرخي حياتك تحدثوا عن لسانك اللاذع ، وليس هنا مجال الخوض في ذلك ، ولكن لا بأس من القول ان الرسام الاميركي الشهير ويسلر الذي لم يكن يقلّ عنك

لذعا وحدة لسان كان شديد الخوف منك دائما ويتجنبك ، وفضلا عن ذلك اثر عنك انك كنت كثير التنقل ، والحركة الدائمة . وكم بدلت من مساكن ، وهمت في شوارع باريس الساعات الطوال لتعود الى مرسمك بافكار واسكتشات تكون قد جمعتها وحفرت في ذاكرتك ، وكانت هوايتك المفضلة والرئيسية ، في تلك الفترة جمع النماذج الرائعة من اعمال الرسامين القدامى والمعاصرين .

ديغا : ولكنني في سنة ١٨٨٩ اقمت في منزل في شارع فكتور ماسيه حيث كنت راغبا في البقاء فيه بقية حياتي . وفي تلك المرحلة كذلك قمت بتجارب فنية عديدة ، بمختلف الوسائل حفرت الكليشهات ، وقمت بالحفر بالابرة على الصفائح المعدنية ، وعملت في الطباعة الحجرية ، وبالمونوتيب ، ووضعت نماذج بالشمع للراقصات والخيول .

صوت : ومع انك بعد سنة ١٨٩٢ اصبحت أمرءاً غنيا ، نسبيا الا انك كنت بخيلا ، لا تنفق الا القليل على ترفك الشخصي ، باستثناء ما كنت تنفقه على مجموعتك الفنية المتزايدة مع الزمن ، وبينها لوحات من اعمال غوغان ومانيه ودولاكروى واسكتشات لمعبودك آنغر . وكنت تقيم وجدك مع مدبّرة منزلك ، واود ههنا ان اورد ما كتبه غرامون في مذكراته اذ قال عنك انك علّقت في حجرة نومك لوحة رائعة للرسام إل غريكو كنت تعلّق فوقها ملابسك قبل النوم .

ديغا : ولكنني في اواخر حياتي ، اصبحت انا ، من لم يكن رجلا مرحا حزينا ، مثيرا للشفقة وازددت رغبة في حياة العزلة ، منصرفاً عن الناس ، مطلقا الملاحظات اللاذعة المرة .

صوت : وعندما كان زائروك يتحدثون عن الرسوم ، كنت تقاطعهم بقولك : « الرسم ؟ ذلك لم يعد يهمني ابدا » .

ديغا : لقد سئمت نفسي من التفكير في ان تجار اللوحات الفنية كانوا يجنون كثيرا من بيع لوحاتي . واشرت في هذا الصدد الى نفسي لقولي انني « الجواد الذي كسب السباق ، ولكنه لم يُعط كمية اكبر من الشعير تقديرا لانتصاره » !

صوت : وفي هذه المرحلة قلما كنت تلازم المنزل لانك كنت تهيم بلا هدف وباستمرار عبر شوارع باريس . ولما هُدم منزلك القديم في شارع فكتور ماسيه سنة ١٩١٢ ، اصبحت روحا متشردة ، واقمت اخيرا في بولفار كليشي الذي لم تعتبره ابدا منزلا حقيقيا لك . وقد عشت لتشهد بداية الحرب العالمية الاولى . وكانت وفاتك في ايلول من سنة ١٩١٧ .

ديغا : دعني في نهاية هذه المقابلة اوجه شكرا الى الكاتب القصصي المعروف غي دو موباسان لنقد بليغ بارع الايجاز حول فني ورد في مجموعة قصص له احتفظ بالنسخة الاولى منها وهي بعنوان « بيير وجان » وقد كتب المؤلف عبارة الاهداء هذه بخط يده : الى ادغار ديغا الذي يرسم الحياة كما كنت احب ان يكون باستطاعتي ان ارسمها » !!!

رينوار : الارض هي جنة الآلهة
(١٨٤١ - ١٩١٩)

صوت : كان قصير القامة ، حييا ، وخجولا غائر الوجنتين ، متجعد الملامح ، هزيلها ، وجهه كله كان ما يمكن المرء ان يتوقعه من رسام عجوز في الثامنة والسبعين ـ باستثناء عينيه . فقد كانتا واسعتين براقتين ، تشعان باشراق شديد مستبعد من عيني رجل على عتبة الثمانين . كانت اقرب ما تكونان الى عيني طفل ، لا يبدو انهما ستنطفئان ابدا عندما تحين الساعة الاخيرة ، لكأنهما ستعودان للتردد على العالم ولفترة طويلة ، بعد ان يكون الجسم قد استراح في مثواه الاخير !

في تلك السن المتقدمة كان بيير اوغوست رينوار يلازم مقعدا متنقلا على عجلات بسبب اصابته بداء الروماتيزم الحاد الذي اقعده ، ولم تنجح معه العمليات الجراحية العديدة التي خضع لها في قدميه ، وساقيه وذراعيه . فقد كانت يداه معوجتين ونحيلتين ، واشبه بجذور السنديانة العجوز الهرمة . وكذلك كانت اصابعه المشوهة العديمة الفائدة . ومع ذلك كانت فرشاة الرسم تستريح بين الابهام والسبابة من اليد اليمنى التي كان يحرّكها الفنان بألم شديد فوق القماش ليرسم بالقوة التي تدفعها العينان في

اليد ، مسجلا على القماش الكثير مما رآه وتألم منه !

رينوار : الواقع ، يا سيدي ، انني عانيت الكثير من الالم . لقد رأيت ولديَّ الاثنين جان وبيير يذهبان الى الحرب ضد القيصر الالماني . وقد جرحا في احد المستشفيات في جبهة القتال . وقبل ذلك بقليل القيت نظرة الوداع على الطف الزوجات وارقهن . بعبارة اخرى عرفت سر الموت وبؤس الحياة . واخيرا ، وبعد سنوات طوال من التفتيش والحزن تسللت الى قلب الطبيعة .

صوت : وقد قبضت على قبس من الحقيقة ـ وحدة المشهد البشري فوق المسرح ، وتوجيه الله من وراء الستائر . وبينما كان جسدك ـ جسد الفنان ـ يضعف ويتشوه يوما بعد يوم ، كان القسم الخالد منه ـ العين الثاقبة النظر ، المراقبة الذكية ، قد نفذت عبر زجاج نافذة وحيها الملّون الى كاتدرائية الخلود الجبارة . وقد وجدت هناك ما كانت تتوقع دائما ان تراه ، ذلك بأنه كان هناك امام المذبح طفل راكع يصلّي .

رينوار : حقا ، فلقد كان مزاجي الروحي طوال حياتي مزاج طفل سئلت مرة كيف يتسنى لي ان ابدع الواني الرائعة ، فأجبت : لا ادري ، انا احضر موضوعي كما اريد ، ثم ابدأ بالرسم ـ كالطفل تماما ، اذ شئت ذلك ! » .

صوت : ومع انه كان هناك اسلوب محدد لجنونك الفني ، فانه لم يكن هناك مبدأ صارم تماما كما انه ليس هناك مبدأ صارم لتعبير الطفل عن سعادته . كنت ترسم لوحاتك كما يصب الطفل ضحكة ، من روح مرحة سليمة فياضة ، وبعبارة

اخرى كان فنك تلقائيا كتكون الكسفة الثلجية ونمو الزهرة ، وزقزقة العصفور ! فهات حدثنا الآن قليلا عن حياتك .

رينوار : ولدت في ليموج في ٢٥ شباط سنة ١٨٤١ . فلما بلغت الرابعة من عمري ، انتقل والدي ، وكان خياطا ، بالاسرة الى باريس . وفي المدرسة كان احد اساتذتي ، الموسيقي شارل غونو الذي اكتشف فيَّ موهبة موسيقية فشجعني على ان اصبح موسيقيا ، ونصح بذلك.

صوت : ولكن مهارتك في الرسم كانت اكبر من مهارتك الموسيقية ، فلما بلغت الثالثة عشرة كانت قوى مغنطيسية معينة قد حركت بوصلة عبقريتك . ونظرا الى فقر ذويك اضطررت الى العمل لدى صانع اوان زجاجية وخزفية مطلية . فكنت تزيّن الفناجين والصحون بالرسوم الملونة التي تمثل سيدات ارستقراطيات ورجالا متأنقين ، لحجرات طعام الاسر البورجوازية الفرنسية .

رينوار : فن مبهرج لمخلوقات مبهرجة ! ولكن مع ذلك فان اختباري كرسام على البورسلين ساعدني على اكتساب مزيتين هامتين كان لهما ان يميزا فني فيما بعد وهما : ميلي الى اللون الشفاف ، وقدرتي على استعمال القماش ، كالبورسلين ، كخلفية زخرفية لرسومي !

صوت : وقد صرفت على حين غرة من عملك كرسام على البورسلين ، وذلك عندما تملك الجمهور فجأة جنون جمع اواني المائدة التي تزخرفها الآلة بدلا من تلك التي تزخرفها

اليد البشرية الماهرة . فاضطررت الى الاتجاه وجهة اخرى لكي تكسب معيشتك . فماذا فعلت ؟

رينوار : انصرفت الى رسم التصاميم الدقيقة الجميلة لمراوح السيدات ، والى تزيين سقوف المطاعم باللوحات الجصية والى رسم المواضيع الدينية على الاقمشة القطنية للمبشرين الذين كانوا يضعونها على اعمدة اربعة وينقلونها اينما ذهبوا للتبشير بحيث يجعلون الوثنيين يعتبرون انهم انما يصلون في الكنيسة . ثم جاء وقت تركت فيه كل هذه الاعمال وذخلت محترف احد الرسامين لكي اتعلم كيف ارسم لوحات حقيقية . وكنت وسائر التلاميذ تقضي الساعات الطوال، في تقليد الرسم القديم . وفي ذات يوم انحنى المعلم فوق كتفي ليرى مدى تقدمي . وبعد ان راقبني دقيقة واحدة . ربت على ذراعي بفارغ صبر وسألني : « الا تلاحظ ان ابهام قدم جرمانيكوس ينبغي ان يكون اضخم من ابهام قدم البائع العادي في زاوية الطريق ؟ لا تنسى انك ترسم ابهام قدم جرمانيكوس » . قال ذلك وهو ينصرف عني .

صوت : ولكن هذا التقصير من جانبك في عدم تقديرك حجم ابهام تلك الشخصية التاريخية لم يمنعك من عرض لوحة لك في المعرض الفني (المعروف بالصالون) وانت بعد في الثانية والعشرين وهو امر لم يستطع ان يفعله الرسام بول سيزان طوال حياته .

رينوار : كثيرون من رسامي المدرسة الحديثة رفض عرض رسومهم في « الصالون » في تلك السنة ١٨٦٣ . فرفعوا اصواتهم

بالاحتجاج . وتوصل بعضهم الى حمل الامبراطور المغامر لويس ـ نابوليون على افتتاح معرض للوحات المرفوضة خاص بهم ، يمكنهم فيه ان يعرضوا نتاجهم الفني على الجمهور . وهكذا ازدحمت هذه الصالة الثانوية بلوحات رسامي المدرسة الانطباعية .

صوت : على ذكر هذه المدرسة الانطباعية في الرسم فانك ، يا سيد رينوار ، تعتبر في عداد الرسامين الانطباعيين لانك عرضت بعض لوحاتك في صالاتهم فضلا عن انك كنت شابا مرحا طائشا مرخى له العنان . ولم يكن بد ، والحالة هذه ، الا ان تكون رساما انطباعيا !

صوت : عندما نشبت الحرب الفرنسية ـ الروسية سنة ١٨٧٠ ، التحقت بفرقة الخيالة في الجيش الفرنسي ، وقضيت الشتاء في المناورات التي كانت تجري على الثلوج حول مدينة بوردو . فلما اعلن السلام القيت ببندقيتك جانبا وحملت فرشاة الرسم والمسند ، وانتقلت الى ضفة نهر السين اليسرى ، لتعيش وتعمل مع الفنانين البوهيميين والمثاليين المفلسين . ولم تكن قد فقدت الرغبة المتقدة لخلق شيء جميل في مجموعة الالوان المختلطة على فرشاتك وكانت نفسك هادئة بالرغم من ان العالم كان مضطربا .

رينوار : ذلك هو الواقع ، يا سيدي ، لقد كانت فرنسا في غليان زمن كومونة باريس المعروفة ، ولكنني لزمت البيت لانني لم اكن معرضا لاي خطر شخصي ، ولم اكن لاطمع باصلاح العالم .

صوت : الحقيقة انك لم تكن مصلحا بقدر ما كنت كاهنا نذر نفسه

لممارسة الفن القديم العريق ، واقام مذبحا للجمال الذي كرست كل حواسك لتأمله . ومن هنا لم تكن رساما مجددا بل كنت رساما تقليديا للحظة الجميلة في التدفق الازلي للاشياء . ولعل لوحتك والتي رسمتها وانت في الثامنة والعشرين ، التي تمثل فتاة فرنسية تحمل مظلة واسميتها « ليزا » هي التي جعلت الجمهور يكتشفك .

رينوار : صحيح ، ولوحتي « ليزا » هي التي جعلتني ابيع لوحاتي بحق وحقيق وبعد ان كان الناس الذين ابتاعوها من قبل على سبيل الصداقة قد اخفوها في الخزائن ، اذا بهم بعد نجاح « ليزا » يعتزون بتعليق تلك اللوحات على جدران صالوناتهم .

صوت : وفتح المجتمع ابوابه لك ، واستقبلتك في صالوناتها مدام شاربنتييه ، زوجة الناشر الشهير ، كما كانت تستقبل المشاهير من رجال ذلك العصر أمثال اميل زولا ودودي ، وغامبيتا ، وموباسان . وكان كل من يُقبل عضوا في هذه المجموعة الممتازة يعتبر انه قد وصل ، وحقق الشهرة .

رينوار : الحمد لله ، يا سيدي ، على انني اعتبرت جديرا برفقة اولئك الذين ذكرت من الشخصيات الفرنسية المرموقة .

صوت : وبعد ان اختبرت مختلف التأثيرات بالالوان ، بدأت تبتعد عما عرف بالمدرسة الحديثة . ورحت تنتقل بين صالات العرض الفنية الرئيسية في ايطاليا واسبانيا حيث متعت ناظرك بروائع الكلاسيكيين واقتنعت بأن الشكل في الرسم لا يقل اهمية عن اللون !

رينوار : بالنسبة الي ، كما هو بالنسبة الى الرسام الاسباني فيلاسكيز الذي تعلمت منه سر الغبطة الذي يشع من فرشاة الفنان ، فان اللوحة هي حية كالمرأة تماما بتمام . ولكم اود ان امر بالقرب من لوحة وآخذها . بين يدي ! وصدقني ليس يكفي الفنان ان يكون صانعا ماهرا ، ينبغي له ان يحب مداعبة او ملاطفة لوحاته كذلك !!!

صوت : ومع انك كنت من اشهر رسامي النساء العاريات في العصر الحديث ، فانك كنت صاحب روح تنسكية الى ابعد الحدود . وحتى اللحظات الاخيرة من حياتك بقيت عيناك تبحثان عن الجمال ، وحتى بعد ان اصاب الشلل يديك ، ولم يعد باستطاعتهما العمل . وفي سنيك الاخيرة كنت تجلس في كرسيك المتنقل مستقيما ، فريسة للالم الممض . ولكن ابتسامة غريبة مريحة كانت تلتمع على وجهك .

رينوار : اتدري ما كنت اقوله لاصدقائي ؟ اسمع : كنت اقول لهم « انني حقا امروء سعيد الطالع لانني مسمر في مكان واحد ، ذلك بأنه ليس بامكاني ان اعمل شيئا غير الرسم . ولا حاجة بالمرء الى يدين لكي يرسم » !

صوت : وظللت تقوم بعملك في خلق الجمال على الرغم من آلامك حتى اليوم الاخير من حياتك ففي ١٧ كانون الاول من سنة ١٩١٩ ، نهضت من فراش المرض بعد اسبوعين من ملازمته بسبب داء الرئة . وجلست امام مسند الرسم وتأهبت لرسم صورة اناء للزهور . وطلبت قلما من خادمك . فذهب الى الحجرة المجاورة لاحضاره ، ولما عاد

كنت قـد اغمضت عينيك ورحلت عن العـالم الارضي !!!

باديرفسكي : « يا لهذا السقوط ! »
(١٨٦٠ - ١٩٤١)

صوت : ذات يوم قال قيصر روسيا نقولا الثاني وهو يدعو الموسيقي باديرفسكي لاقامة حفلة موسيقية : « ان صاحب الجلالة الامبراطورية يسره ان يكون اشهر موسيقي في العالم روسياً » . فكان جواب الموسيقي باديرفكسي المتطرف في وطنيته « ان صاحب الجلالة مخطىء ، فأنا بولوني ! » .

ففي سنة ١٨٦٠ كانت بولونيا ترزح تحت نير طغيان روسيا القيصرية . وفي السادس من تشرين الثاني من تلك السنة ابصر ايناس يان باديرفسكي النور . . . ومع تنفسه اول انفاس الحياة تنشق حب الحرية . . .

باديرفسكي : . . . وحب الموسيقى ، يا سيدي .

صوت : وكما ان لكل حياة ايقاعها الخاص ، كذلك كان لحياتك في صباك ايقاع سريع وقوي .

باديرفسكي : تماما كايقاع رقصات الفالس والمازوركا التي كانت تعبر اوضح تعبير عن آمال الشعب الذي اعتاد المأساة .

صوت : في الثالثة من عمرك شاهدت والدك يؤسر عندما احرق القوزاق بولوديا ، وقتلوا معظم سكانها .

بادير فسكي: ولم تمح مذ ذاك ذكرى ذلك اليوم المشؤوم من خاطري .

صوت : بدأت دراستك على يد معلممتجوللم تلبث ان اخذت عنه كل ما يمكنك اخذه من معرفة .

بادير فسكي: وقد اخذت عنه ما هو افضل من المعرفة . . . اخذت عنه الجد ، والجلد على العمل ، والانضباط .

صوت : وفي الثانية عشرة كنت قد عرفت جيدا ما تود عمله في حياتك .

بادير فسكي : كانت الموسيقى مبرر وجودي ، والبيانو آلتي الموسيقية المفضلة .

صوت : الا انك منيت بخيبة امل لدى دخولك المعهد الموسيقي في فرصوفيا . فقد قيل لك ان يديك الصغيرتين لا تصلحان لمعالجة اصابع البيانو ، ونصحوا لك بتعلم العزف بالناي الذي تساعدك عليه رئتاك القويتان .

بادير فسكي : ولقد أصغيت باهتمام وتهذيب لنصيحتهم ولكني لم أتخل عن البيانو . ورحت اتمرن واتمرن بلا هوادة حتى تغلبت على العائق بسبب صغر حجم يدي .

صوت : وكنت حقا فتى عبقريا في الموسيقى ، وفي العزف . وقد اكسبتك شخصيتك المحببة وطبيعتك الممتازة حب الكثيرين واعجابهم . وكان في طليعة هؤلاء كيرنتوف صديق الاسرة واحد رعاة الفنون ، فحملك الى منزله

لتقيم في رعايته . وفي صحبته دخلت عالم الموسيقى من بابه العريض . وكنت اذ ذاك في السادسة عشرة من عمرك .

باديرفسكي : وكان المناخ شديد العدوى . فقد تملكني الطموح فقمت برفقة صديق عازف كمان يدعى بان ، مثلي ، بجولة موسيقية في المناطق البولونية مخالفين انظمة المعهد الموسيقي ، وقد كسبنا من هذه المغامرة مبلغا من المال ، والكثير من التجارب والاختبارات . وايقنا ان ثمة شيئا كثيرا ينبغي لنا ان نتعلمه بعد فعدنا الى الكونسرفاتوار نجد ونجتهد .

صوت : وكانت سنتك الثامنة عشرة مناسبة هامة في حياتك فقد وقعت في الحب وكانت الفتاة تدعى انطونينا كورساك، زميلتك في الدراسة الموسيقية ، فلما عينت استاذا في المعهد الموسيقي تزوجتها. ومع ان دخلكما كان ضئيلا ومنزلكما يتألف من حجرة واحدة فقد رفضت المال الذي قدمه اليك ذووها على سبيل البائنة، وكانت حياتكما مع ذلك كله في غاية السعادة .

باديرفسكي : الا انني كنت في قرارة نفسي ، اخشى الا تدوم تلك السعادة لفرط ما كانت كاملة . فقد كان ايمان انطونينا كبيرا في عبقريتي لا يعادله الا حبها الكبير ، ومساعدتها المتواصلة لي على بلوغ ما بلغت وانا بعد في ميعة الصبا .

صوت : وقد صدق حدسك ، فقضت انطونينا المسكينة وهي تضع مولودها الاول . وقد رجتك وهي على فراش الموت ان تقبل البائنة التي قدمها اليك ذووها من اجل

المولود الجديد ، قائلة انه ينبغي لك ان تكمل دروسك وبوسعك في يوم من الايام ان تسدد ذلك المبلغ اضعافا مضاعفة .

باديرفسكي : صحيح ، وتابعت دراستي الموسيقية ، وانا القائل ان الموسيقى هي الفن الوحيد الذي يعيش فهبطت برلين ودرست فيها سنة كاملة . وبعد ان قضيت فترة من الزمن في جبال تاترا ، يممت شطر فيينا كعبة الموسيقيين لادرس على يد الاستاذ العظيم لتشيتتسكي ، وكان لي ما اردت .

صوت : وفوجئت بدعوتك الى التدريس في المعهد الموسيقي في استراسبورغ لانك كنت ما تزال تنظر الى نفسك على انك تلميذ بعد . فلم تقض هناك سوى سنة واحدة عدت بعدها الى استاذك لتشيتتسكي تبذل اقصى ما في طاقتك البشرية من جهود حتى تسنى له اخيرا ان يقدمك الى الجمهور : « اينياس يان باديرفسكي في السادسة والعشرين معجزة الرسالة التي كهربت العالم الموسيقي . وعرفت ذروة الشهرة والنجاح في فرصوفيا ، ثم في باريس ، ولكن الانكليز كانوا ابطأ من سواهم في تقدير عبقريتك .

باديرفسكي : ولكن لندن ما لبثت ان شاطرت باريس اعجابها بي ، فبت في نظر الانكليز معبودا صغيرا . واستقبلتني الملكة وكرمني النبلاء ، وحاصرني جامعو التواقيع .

صوت : ودعيت للعزف في العالم الجديد في قاعة كارنيغي الفسيحة التي غصت بالحضور . وقد حاصرك

الحاضرون في نهاية الحفلة والحوا عليك باعادة العزف مرارا مهددين بعدم مغادرة القاعة ان لم تلب طلبهم .

باديرفسكي: وقد فعلت وكان ذلك فاتحة عهد إعادة العزف في نهاية كل حفلة من حفلاتي طوال السنوات الأربعين التي اعتليت فيها خشبة المسارح.

صوت : وبقدر ما كنت تكره الاطراء الزائف الذي كنت تقابل به في كل مكان ، كنت تحب التقدير المخلص لعزفك ولو جاء من اناس قلت ثقافتهم الموسيقية . وكنت تحسن معاملة الآخرين وتطالب الآخرين بأن يكونوا منصفين بالنسبة اليك .

باديرفسكي : العين بالعين والسن بالسن ، اليس كذلك ؟ (يقهقهان) .

صوت : يروى انك عندما قمت بجولة في الولايات المتحدة الاميركية وطلب اليك شابان متحمسان ان تقيم حفلة في بلدة صغيرة ، وضمنوا لك دخلا قدره الفا دولار . ولكن الحفلة لم تدر هذا المبلغ ، فقابلك الشابان في نهايتها وهما في حيرة من امر ورطتها معك ، وانتظرا حكمك عليهما ، فاتخذت منهما موقفا جديا وذكرتهما بالمسؤولية التي ينبغي لهما تحملها واقترحت عليهما طريقة عملية للخروج من ذلك المأزق .

باديرفسكي : طلبت اليهما دفع كل النفقات ، ثم حسمت نسبة مئوية لقاء اتعابهما ، من المبلغ وما تبقى اعطياني اياه .

صوت : ان هذه العدالة المقرونة بالرحمة اكسبتك في ذلك الوقت

صديقين واكسبت بولونيا صديقا كبيرا . ذلك بأن واحدا من هذين الشابين كان هربرت هوفر الذي اغاث بعد سنوات وسنوات ، الملايين من البولونيين الجياع قبيل نهاية الحرب العالمية الاولى .

باديرفسكي : وتوالت الجولات الموسيقية ، والحفلات الناجحة ، والانتصارات الفنية ولكن ذلك كله كسفه مرض ابني الذي ولد سقيما ، وقد توفي في التاسعة عشرة من عمره فخلف ذلك في نفسي فراغا كبيرا حملني على الانتقال الى سويسرا ، والاقامة في مدينة مورج الجميلة ، والانصراف الى الموسيقى والتأمل برفقة زوجتي الثانية البارونة روزن او مدام غورسكا التي كانت تعتبر ابني العليل بمثابة ابنها .

صوت : ولعلك لم تختر عن عبث سويسرا للاقامة فيها فقد كانت وما تزال ، موطن الحرية . ولم يمض على وجودك فيها سنتان حتى ارسلت نداءك الاول الخطير الى الشعب البولوني فكان دعوة مبطنة الى الثورة والعصيان . وقد وزع من النداء الاف النسخ على الرغم من سهر الشرطة القيصرية على منع تداوله . وقد اعتبرك مواطنوك في طول بولونيا وعرضها نبيهم الجديد .

باديرفسكي : اجل كنت نبيا على البيانو واتقنت بكل تواضع اللغتين اللتين اعربتا معا عن اماني القلب البشري : الخلاص والغناء . وقد كرست حياتي لبولونيا حرة ومنشدة ولعالم حر ومنشد . . .

صوت : وتكررت الجولات الموسيقية والمحاضرات وتعددت

المؤلفات فانهكك التعب ولكنك مع ذلك كله كنت توجه نار روحك نحو النضال في وطنك الام . فلما انطلقت الرصاصة في سيراجيفو واشعلت نيران الحرب العالمية الاولى ، وخرق الحياد البولوني والبلجيكي تحولت كليا الى النضال السياسي على الرغم من شدة حبك للبيانو والموسيقى ، وطلبت العون من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية لمواطنيك اللاجئين المغلوبين على امرهم .

بادير فسكي : واهتممت الى جانب ذلك ، بانتزاع الاعتراف ببولونيا ووحدتها من الحلفاء . وما عتمت خطبي السياسية ان قوبلت بما كانت تقابل به حفلاتي الموسيقية من التقدير والاهتمام ، وفي سنة ١٩١٧ وفي السادس من تشرين الثاني، وهو يوم مولدي اعلنت من المانيا استقلال بولونيا. واصبحت بذلك دولة عالمية. وعندها وددت ان اعود الى الموسيقى .

صوت : ولكنك لم تستطع ان تتمتع باجازة موسيقية طويلة اذ ان بولونيا ، وقد اصبحت حقا دولة ، كانت تغلي كالمرجل بالمنازعات الداخلية . ولم يكن ثمة احد سواك لكي يصهر كل الفئات المتنازعة في بوتقة الوحدة الوطنية . وقد استطعت وانت المحافظ ان تضم السياسي الراديكالي بلسودسكي وانصاره في حكومة ائتلافية وذلك سنة ١٩١٩ . وقد توليت فيها منصب الرئاسة ووزارة الخارجية .

بادير فسكي : في هذا المجال اسمح لي ان اروي لك نادرة حدثت في

مؤتمر الصلح في فرساي حيث قابلت للمرة الاولى رئيس وزراء فرنسا جورج كلمنصو وكان يلقب بالنمر .

صوت : حسنا ، اروها لنا ، يا سيد باديرفسكي .

باديرفسكي : قال لي كليمنصو اذ ذاك : « يا سيد باديرفسكي ، أأنت باديرفسكي نفسه الذي يؤكدون انه اول عازف بيانو في العالم اليوم ؟ فأجبته بالايجاب . فاردف يقول : « والآن انت وزير خارجية بولونيا ؟ فقلت له : « طبعا » فقطب النمر ما بين حاجبيه وغامت اساريره وتمتم : « يا لهذا السقوط » !

صوت : وبعد ان حققت لبولونيا ما كنت ترغب لها سياسيا ، عدت الى حقل نشاطك الأول الموسيقى حيث حققت ، كذلك الانتصارات الرائعة ، في العالمين الجديد والقديم ، وكنت في العقد السابع من العمر . . . وفي سنة **١٩٣٣** منحتك جامعة نيويورك درجة الدكتوراه في الموسيقى ، فلما زارتك اللجنة الرسمية الفتك طريح الفراش ، ولكنك لم تدع المناسبة تمر دون اطلاق نكتة . اتذكرها ؟

باديرفسكي : وكيف انسها ؟ قلت للذين جاؤوا يحملون الي الانعام السامي : « ايها السادة ، لقد جئتم رجلا مريضا لتجعلوا منه دكتورا » !

صوت : وأبللت من مرضك . ولكن الموت الذي مر ببابك ، انتزع للمرة الثالثة احب الناس اليك : زوجتك وقد كانت رفيقة عمرك وجهادك المخلصة طوال خمس وثلاثين

سنة . والفيت نفسك وحيدا ومرهقا ، فشددت الرحال الى سويسرا ، مرددا بينك وبين نفسك ان الاوان قد آن للاخلاد الى الراحة .

باديرفسكي : الا ان مغامرة واحدة كانت تنتظرني ـ الدور الرئيسي في فيلم سينمائي بريطاني بعنوان « سوناتا ضوء القمر » .

صوت: ومن سويسرا أذعت تحذيرك لبني قومك في بولونيا: «حذار من تفاقم خطر الفاشستية!» وقد رجوتهم أن يقاوموا حتى النهاية عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية وراحت الدماء البولونية الزكية تهرق من أجل الممر البولوني الشهير. وقد اضطررت إلى مغادرة أوروبا ومراراً من الأخطبوط النازي الذي امتدت أصابعه إلى كل ركن من أركان القارة الأوروبية.

باديرفسكي: لم أُمنح تأشيرة دخول أسبانية، وبعد متاعب وأخطار جمة وصلت إلى لشبونة في البرتغال، ومنها رحلت إلى الولايات المتحدة الأميركية برفقة شقيقتي وسكرتيرتي.

صوت: وقد قضيت آخر أيامك في نيويورك حيث كنت تُغرق دوي المدافع الألمانية عبر البحار والمحيطات في الاستماع إلى الموسيقى في قاعة كارنيغي.

باديرفسكي: الواقع أن الموسيقى كانت تهدىء نفسي وتبعث في قلبي المتألم أملاً جديداً.

صوت: وكانت وفاتك في سنة ١٩٤١.

باديرفسكي: تماماً، يا سيدي.

ديبوسي : أبو الموسيقى الحديثة
(١٨٦٢ - ١٩١٨)

صوت : السلام على ابي الموسيقى الحديثة . . .

ديبوسي : قبل ان ارد عليك السلام دعني اوضح انني صحيح ابو الموسيقى الحديثة - كما نعتني - ولكني بقيت الى آخر ايامي ابا فقيرا معدما .

صوت : وعلى ذكر الموسيقى الحديثة وتجديدك في الموسيقى وذلك « الجنون الثوري » الذي كنت تتحلى به اسمح لي ان اسألك - كما فعل الكثيرون - لماذا لم تسع الى كسب العيش والشهرة كأي موسيقي عاقل عادي ، فتؤلف موسيقى بسيطة مثل ماسينيه ، مثلا ؟

ديبوسي : سأرد عليك كما رددت على جميع الذين سألوني هذا السؤال في حياتي ، ونصحوا لي بترك ما تدعوه « الجنون الثوري » . . آسف كثيرا ولكني اجد صعوبة كبيرة في وضع الموسيقى البسيطة .

صوت : حسناً، يا سيد ديبوسي، والآن لنتحدث قليلاً عن حياتك . فأنت أبصرت النور في سان جرمان، سنة ١٨٦١ ، ودرست الموسيقى كسائر موسيقيي بلادك في كونسرفاتوار باريس ، واشتركت في المباراة للحصول على جائزة روما الكبرى التي نلتها باغنية « الطفل العبقري » وبعد ان اقمت سنة واحدة في ايطاليا قمت

بزيارة روسيا حيث تشربت الكثير من الموسيقى الشعبية وبخاصة موسيقى موسورغسكي .

ديبوسي : ولكن شهرتي كانت بطيئة في الذيوع ، ولي اوبرا واحدة هي « بيلياس وميليساند » لم تفهم على حقيقتها .

صوت : ولكن سنفونيتك « البحر » اشهر من نار على علم ـ كما تقول ـ وقد ضمنتها اروع ما يمكن من تصوير وايحاء وجمال وقوة .

ديبوسي : لا عجب في ذلك ، فقد كنت من عشاق البحر الى حد انني التحقت بالبحرية في فترة من فترات حياتي .

صوت : وتبقى ، يا سيدي ، محرر الموسيقى الفرنسية من كل قيد تقليدي ، ومشجع الابتكار فيها وخصوصا في اختيار المواضيع و . . .

ديبوسي : شكرا . . .

صوت : لم تدعني اكمل ، فموسيقاك كالرسوم التأثرية رقيقة دقيقة وسريعة العطب .

ديبوسي : وشكرا كذلك . . .

صوت : بصفتك موسيقيا كنت تنقد اعمال زملائك باخلاص ، لا يؤثر في نقدك موقفك الشخصي منهم وسواء أأحببتهم ام لم تحبهم ، ولم تكن لتقر فاغنر على غطرسته وتكبره ، فكنت ترى في صخب موسيقاه وعنفها وكأن هذا الموسيقي الالماني يريد ان يقول فيها : « انا اعظم الموسيقيين » !

ديبوسي : ولكن لا تنسَ انني لخصت تقديري الكبير لفاغنر الكبير بهذه العبارة : « لو كان فاغنر اكثر انسانية لكان حقا سماويا » .

صوت : صحيح ، وذلك يؤيد صحة قولي انك كنت ناقدا مخلصا ، في نقدك ، وما دمنا في مجال النقد الموسيقي فدعنا نسمع آراءك الجريئة في بعض الموسيقيين وفي بعض أنواع الموسيقى .

ديبوسي : موسيقى فاغنر تبدو كأنها اوزة تقفز من مكان الى آخر ، وعلى رأسها خوذة حديدية . وجول ماسينيه اشبه ما يكون بصانع عطور وموسيقاه طيبة الاريج ولكنها اصطناعية . اما الموسيقى الاميركية فآلية الى ابعد الحدود ، ضعوا طفلا في آلة فتحصلوا على موسيقى في غضون خمس دقائق .

صوت : رائع ، رائع ، يقال انك لم تكن تتوقع اي مكافأة مباشرة على اعمالك .

ديبوسي : ذلك كان الواقع ، ولطالما رددت ان الفنان في الحضارة الحديثة سيبقى مخلوقا لا يعرف قدره ونفعه الا بعد وفاته .

صوت : مع الاسف الشديد ، والذين يعرف قدرهم في حياتهم هم انصاف اذا لم نقل ارباع ـ الفنانين !

ديبوسي : ورائع تعبيرك هذا ، يا هذا ! . .

صوت : ويؤثر عنك انك كنت تكره الدعاية كرها لا مزيد عليه في ميدان الفن .

ديبوسي : ولا تنسَ انني القائل : « ينبغي الابتعاد بالفن عن التجارة . . ففكرة بيع عمل موسيقي كما يباع برميل بيرة او صفيحة شحم خنزير هي بالنسبة لي فكرة محزنة وسخيفة في آن معا . » . وقد رددت مرة على واحد جاء يقنعني بالدعاية لموسيقاي بقولي : « اني ارفض ذلك فانا لست بائع صحف في الشارع أنادي بملء فمي على الصحيفة التي احملها » .

صوت : ولست كالراقصين الذين ينحنون امام الجمهور بعد ختام الحفلة . اتذكر انه لما قدمت اوبراك « بيلياس وميليساند » في لندن وحازت ذلك النجاح الكبير ظلت الصالة تضج بالتصفيق ربع ساعة كاملة والحضور يطالبون برؤ يتك على خشبة المسرح ؟ . .

ديبوسي : اذكر ذلك جيدا ، فلقد كنت اثناءها في الفندق مستغرقا في مطالعة كتاب ، ولم اشأ ان اقف ـ كما قلت ـ كالراقصين بعد نهاية الحفلة لانحني امام الجمهور .

صوت : وهكذا نبذت حطام الدنيا وازدريت مادياتها وابتعدت عن صحبة رجال المال والاعمال ، وحتى غالبية الرجال .

ديبوسي : الا انني لم ابتعد عن صحبة النساء ، وكانت تلك نقطة الضعف فيّ .

صوت : لماذا لا تعتبرها نقطة القوة فيك ؟

ديبوسي : عرفت متعة الحب ولم اعرف واجب الاخلاص .

وكثيرات هن اللواتي دخلن حياتي وخرجن منها كما دخلن .

صوت : وكنت تجد لذة وفائدة عظيمتين في الاجتماع الى اصدقائك من ادباء وشعراء وموسيقيين كبار ! من دون سائر ابناء آدم ـ ليلة السبت من كل اسبوع .

ديبوسي : وكان اولئك الذين اجتمع اليهم في بيتي من الذين كرهوا القديم وراحوا يجددون في نتاجهم ـ مثلي تماما ـ ومنهم فرلين ، ولالو وشوسون ، ورينييه ، ومالارمه ، وبيير لوي ، وسواهم . وكنت اجلس لدى اقدامهم مأخوذا بعقيدتهم الفكرية الجديدة كالتلميذ المتواضع .

لا عجب في ذلك يا سيد ديبوسي، لأنك كنت تتوق إلىٰ تعويض ما فاتك من دراسة أيام التلمذة.

ديبوسي: صحيح ما تقول، وكنت كلما سنحت لي الفرصة أعكف على تقليب صفحات القاموس ومطالعته من دون سائر الكتب.

صوت : وكنت شديد الحياء والخجل ، من ذلك ان صديقك الشاعر بيير لوي حملك يوما على زيارة الاديب البلجيكي موريس مترلنك للحصول منه على حقوق تلحين مسرحيته « بيلياس وميليساند » فقضيتما طوال فترة الزيارة في تبادل المجاملات ولم تشيرا بشيء الى الغاية من الرحلة التي قمت بها الى بلجيكا .

ديبوسي : حقا ، ولكن في نهاية الزيارة تسلَّم الشاعر بيير لوي زمام الحديث فقال : « اترى ايها العزيز ديبوسي ، ان

مترلنك يمنحـك بكل سـرور الحق الذي جئت من اجله ؟ » وهكذا انتهت القضية موضوع الزيارة .

صوت : وكنت تصرح امام اصدقائك على سبيل المزاح بانك لن تقبل في حياتك اي لقب او وسام . ولكن تشاء الاقدار ان تمنح بعد ذلك بستة اشهر وسام جوقة الشرف ، فاعتززت به كثيرا . لماذا ؟

ديبوسي : الواقع ان سبب اعتزازي هو ان ذويَّ الذين يقيمون في ضواحي باريس كانوا يائسين من مستقبلي . فالموسيقى كانت في عرفهم مهنة العاطلين عن العمل ، والفاشلين وكانت الثروة والاوسمة بالنسبة اليهم الدليل على المجد والشهرة ، وهكذا سارعت لدى حصولي على الوسام الى تزيين عروة سترتي بالشريطة الجديدة وزيارة والديّ اللذين طارا من شدة الفرح .

صوت : وقد علقت فيها بعد على ذلك بقولك : « في تلك اللحظة بالذات احسست بالفخر حقا لانني اصلح للقيام بعمل في هذه الحياة » .

ديبوسي : اجل .

صوت : في نهاية هذه المقابلة الممتعة ، يا سيدي ، دعني اورد نادرة لطيفة جرت لك مع احد الشعراء تدليلا على خفة الروح التي كنت تتحلى بها .

ديبوسي : شكرا لك على هذا التقريظ، وهات اسمعنا النادرة .

صوت : بسم الحظ لاحد الشعراء ودانت له الثروة فتملّكـه الغرور وكتب ذات يوم مسرحية شعرية بعنوان « ابنة

باسيفايي» توهم انها تستحق ان تلحن ، ولكن حار في امر الملحن الذي يليق بهذه المهمة . واخيرا قر رأيه على مراجعتك فحمل اليك مخطوطته قائلا بنبرة ادعاء ظاهر : « سيدي ديبوسي ، اني اعرض عليك نصف شهرتي » .

ديبوسي : فحدجت الشاعر بنظرة ثم تأملت مخطوطته قليلا وقلت له : « سيدي ، احتفظ بشهرتك لنفسك ! »

موديلياني : شاعر بالقلم وبضربات الفرشاة
(١٨٨٤ - ١٩٢٠)

صوت : اميديو موديلياني ، او مودي - كما كان اصدقاؤه ينادونه - كان مثل الرسام الفرنسي هنري دو طولوز - لوتريك ، عليلا ، سقيما ، دائم الشكوى من سوء صحته خلال زمن الصبا السعيدة عادة . ولعله مثله كذلك ، كان لديه حدس بأنه سيقضي في شرخ الشباب ، ومن هنا انمى في نفسه ، حتى قبل لوتريك حماسة جنونية ليعيش الفترة القصيرة من الحياة المكتوبة له باثارة ، ومغامرة ، وحب شديد لعمله الفني ، وهو في ذلك يمثل النموذج الممتاز للفنان البوهيمي ، كما تصوره عادة الاسطورة لقد كان لموديلياني مزاج الشاعر الذي لم يكن يعبر عن نفسه بالقوافي التقليدية المألوفة ، بل بالخطوط القلمية وضربات الفرشاة . ولعله كان شاعرا منحطا - على حد تعبير الناس في وصف تلك الارواح التي انهمكت بالخمر والمرأة والاغنية ، وكثيرة هي النوادر التي تروى عن هذا الرسام الايطالي الذي عاش في باريس وقضى فيها بعد ان اقام لنفسه مجدا فنيا عظيما ، وسنأتي على ذكر بعضها في سياق هذا الحوار الذي سنجريه معه بعد قليل لنتعرف اليه والى فنه ونوفيه بعض حقه . ولكن قبل ذلك اود ان اضيف

ان الذين عرفوه لم ينسوا قط مظهره الارستقراطي ، وملامحه الكلاسيكية الوسيمة ، وكبرياءه وعزة نفسه اللذين بلغا حد الهوس ، ويذكر الفنان جاك لبشتز الذي كتب الكثير عنه ، انه لما قابله للمرة الاولى في باريس الفاه ينشد مقاطع من ملحمة الكوميديا الالهية لدانتي . وسواه من الكتاب ذكروا عنه هذه العادة ، وهي انه ظل حتى ايامه الاخيرة يظهر حبا شديدا لشعر مواطنيه الايطاليين رغم عيشه في باريس . . .

موديلياني : اشكرك وافر الشكر على هذه المقدمة الوافية ، ولا عجب ان انا بقيت ايطاليا في مشاعري على الرغم من اقامتي اربع عشرة سنة متواصلة من حياتي في العاصمة الفرنسية . فانا ايطالي المولد ، ابصرت النور في ليفورنا سنة ١٨٨٤ ، ولم اهبط باريس الا سنة ١٩٠٦ ، وبقيت فيها إيطاليا ، مع انني احسب في عداد الرسامين الفرنسيين .

صوت : اذن فالتأثيرات الفنية الاولى كانت ايطالية ، وكانت اعمال اساطين الفن في عصر النهضة مصدر وحي والهام ودراسة لك . وقد كانت دروسك الاولى في الرسم وانت بعد في الرابعة عشرة ، عندما تعلمت على الطريقة الاكاديمية لدى الرسام ميشيلي ، كنت في تلك الفترة من حياتك تشكو من داء الصدر . . .

موديلياني : وقد اوفدت في مطلع القرن العشرين الى جنوبي ايطاليا للاستشفاء والنقاهة ، فلما تعافيت نوعا وقويت صحتي بفعل المناخ الجيد ، رحلت شمالا لزيارة روما

وفلورنسا ، وفينيسيا (البندقية) . وهناك ، بالطبع ، شاهدت الكثير من الروائع الفنية الايطالية الشهيرة من جميع العصور . ولعل ذلك انمى فيَّ حب الرسم الذي لازمني حتى نهاية ايامي .

صوت : قلت انك هبطت باريس سنة ١٩٠٦ ، حيث كانت تصطرع مختلف التيارات الفنية التي لا بد انها تؤثر في نفس فتى مثلك في الثانية والعشرين من عمره . وهناك شاهدت اعمال الرسام هنري طولوز دو لوتريك الذي كان قد توفي قبل بضع سنوات . وكذلك اعمال الرسام ستاينلن ، وهما فنانان كانا يفضلان الخطوط الحساسة والاقتصاد السريع بالرسم الكاريكاتوري العظيم ، وكانت ما تزال في الجو تقاليد الرسامين الانطباعيين والانقساميين ، وبالطبع تأثير المعلم سيزان الخالد .

موديلياني : وقد تأثرت لفترة لا بأس بها من الزمن بهذا الرسام الشهير سيزان، ولكن لعل التأثيرات التي سيطرت علي حقا وقولبتني كانت منحوتات انكوزي والمحفورات الافريقية الصنع التي راحت تظهر في عالم باريس الفني . وبسبب برانكوزي تحولت الى النحت مدة من الزمن ، وظاهرة وجلية اثار الوحي والالهام التي كانت للمحفورات البدائية الافريقية في فني التصويري .

صوت : وفي سنة ١٩٠٩ بدأت تتصرف التصرف الذي جعلك تصبح اسطورة في حي مونمارتر ، وفيما بعد في احياء مونبارناس في باريس ، وكان داء الصدر قد اشتد عليك وراح ينهش جسدك . ومع ذلك ظللت تدمن

الشراب وتعاطي المخدرات على مختلف انواعها ، وكنت دائما مفلسا ، تنام حيث يتسنى لك العثور على مكان للرقاد . سواء في ذلك مسكن احد الاصدقاء ، او احيانا في الشوارع وكنت تعيش وتعمل في المقاهي .

موديلياني : وقد اكرهني بؤسي وحرماني على بيع اعمالي الفنية بما اسد به رمقي . ولكنن لم اكن لأشك يوما في انني فريسة ذلك الداء الوبيل الذي كانت به نهايتي !

صوت : وبأسلوب صاحب الملايين كنت تقدم رسومك كما لو كانت اوراقا نقدية تسديدا لوجبة طعام تناولتها او ثمنا لكأس ويسكي احتسيته او قدمها اليك احد اصدقائك . ومما يروى انك رسمت ذات يوم صورة لسائحة اميركية جلست قبالك في احد المقاهي ، فلما قدمتها بكل لطف اليها الحت عليك بأن تضع توقيعك على الرسم لكي يصبح ذا قيمة اكبر ، فاستعدت الرسم بغضب وكتبت اسمك باحرف كبيرة فوق الملامح التي رسمتها للسائحة .

موديلياني : ويروي الرسام فلامنك ، في كتاب له فيه مذكراته ويومياته ، نادرة عني تدل على مدى كبريائي واعتزازي بنفسي وفني - اذا صح ان اقول ذلك عن نفسي ، ولكنه الواقع صدقني - كما تظهر شدة غضبي عندما يحاول البعض استغلال ظروفي القاسية وما كان يعترضني من عسر وضيق ماديين . من ذلك انني في احدى المناسبات عرضت مجموعة عن رسومي على احد الباعة فلم يعجبه الثمن المنخفض الذي طلبته لقاءها ،

عندها قدمتها اليه بدون اي مقابل ، ولكن بعد ان ثقبتها جميعا من وسطها ، وادخلت فيها خيطا وسارعت الى تعليقها في الحمام ، في مؤخر حانوت البائع !!

صوت : لقد عرفت رسميا ، يا سيد موديلياني كرسام عندما عرضت اعمالك في ـ معرض المستقلين ـ سنة ١٩١٠ ، ثم مرة ثانية سنة ١٩١١ ولكن قبل ذلك بزمن طويل احتضنك سكان الحي اللاتيني ، واحبوك كفنان وكرجل ، وقدروك حق قدرك .

موديلياني : ولعل من اهم الاحداث في حياتي لقائي البائع البولوني ليوبولد جبورفسكي ، وكان شاعرا مجيدا ، فقد كان رفيقي الدائم ، المخلص في مغامراتي الباريسية ، وقد تركت عددا من الرسوم له ولافراد اسرته . وهو الذي ساعدني في بيع لوحاتي باثمان محترمة ، وفي سنة ١٩١٧ نظم لي اول معرض لفنان واحد في قاعة برت فايل .

صوت : على ذكر هذا المعرض اود ان اشير ههنا الى ان رجال الشرطة سرعان ما اقفلت ابوابه بأمر من السلطة التي صدمتها رسومك العارية الجريئة لبعض النساء ـ وقد عرفت الكثيرات ـ وكانت لك علاقات عاطفية بهن ، انتهت بزواجك من احداهن ، هي جان ايبوتيرن .

موديلياني : ولعل تلك الصراحة في رسومي العارية ابعدت الكثير من لوحاتي عن المتاحف ردحا من الزمن .

صوت : وعندما نظم سنة ١٩٢٢ معرض لمناسبة مهرجان مدينة البندقية الثاني عشر ، بعد وفاتك بسنتين اثنتين ، كتب

احد كبار النقاد الفنيين في ذلك الوقت ، يقول في وصف لوحاتك ـ انها اثنتا عشرة لوحة بشعة ذات رؤ وس مشوهة ، بامكان طفل في الخامسة من عمره ان يرسم مثلها ـ . وفي نهاية هذه المقابلة اذكر ان الرسام كبزلنغ هو الذي حمل الى مونبارناس نبأ وفاتك بداء السحايا ، وكنت قد نقلت قبل يومين الى المستشفى . ويؤسفني ان اضيف ان زوجتك جان ايبوتيرن بعد ان القت بنفسها فوق جثمانك وغمرته بقبلاتها قد عادت الى بيت والدها لتلقي بنفسها من النافذة ، او من فوق السطح ـ ذلك ان الرواة يختلفون في تحديد مكان الانتحار .

موديلياني : ولكن هل لك ان تحدثني كيف كان مأتمي ، فاود ان يكون لي علم بكل ما اكتنف حياتي ومماتي ؟

صوت : مما يسر حقا ـ ولو كان المجال مجال الكلام عن الموت والمأتم ـ ان مونبارناس ، يوم جنازتك ، افرغت تماما من الفنانين الذين مشوا في موكبك الاخير عبر باريس ليشاهدوا صديقهم يرقد رقاده الاخير في مقبرة بير لاشيز الشهيرة . وكان ذلك في كانون الثاني من سنة ١٩٢٠ ، وانت بعد لم تكمل سنتك السادسة والثلاثين !

موديلياني : لقد طالما رددت امام صديقي الفنان والكاتب جاك لبشتز ـ واظن انه ذكرها في كتابه الذي اورد فيه الكثير من اخباري ونوادري ـ انني اود ان احيا حياة قصيرة ولكن مليئة ! . . .

صوت :   وذلك ، بالفعل ، ما قام به صديقك الفنان والكاتب
لبشتز .

سيبيليوس : باخ القرن العشرين
(١٨٦٥ - ١٩٥٧)

صوت : كان والده طبيبا في تافستيهوس ، وهي قرية في داخلية فنلندا، وكان من اصل يغلب عليه الطابع الآسوجي ، الا ان سيكولوجية اسرة سيبيليوس كانت سيكولوجية الطبقات الوسطى الفنلندية .

ابصر هذا الموسيقي النور في الثامن من كانون الاول سنة ١٨٦٥ . وبعد ذلك بثلاث سنوات توفي والده وهو يقوم بعمله الطبي ، وكان من اكثر اهل القرية لطفا وانسا وطيب معشر . فلقد اصيب بجرثومة داء التيفوس اثناء معالجة مرضاه ، فكانت بها نهايته . ومذ ذاك عني باطفال الاسرة واولادها - وكانوا صبيين وفتاة - امهما وجدتاهما . وصحيح ان هذه البيئة النسائية كان لها بعض الاثر في تربيتهم المدللة الا انهم كبروا دون ان يكون لتدليلهم اثر في افسادهم .

اما احد الصبيين ، وهو موضوع حلقتنا هذه ومعنا الآن ، فهو الموسيقي الفنلندي الاشهر الذي عرف بلقب « باخ القرن العشرين » . . .

سيبيليوس : مع انني اذكر بتهوفن اكثر مما اذكر بسواه من الموسيقيين ، وخصوصا في السنفونيات .

صوت : وقد دعيت يوهان يوليوس كريستيان سيبيليوس . ولكنك لما بلغت مبلغ الرجال ، سميت نفسك جان سيبيليوس . هل لنا ان نعرف لماذا غيرت اسمك ؟

سيبيليوس : لقد دفعني الى تغيير اسمي من يوهان يوليوس كريستيان سيبيليوس ، الى جان سيبيليوس انه كان لي عم مغامر ركب البحر وتوفي بداء الحمى الصفراء في هافانا في المحيط الهادىء وكنت احب البحر مثله حبا شديدا ، فأتاحت لي طفولتي السعيدة مع ذويَّ من النساء قضاء معظم وقتنا على شاطىء البحر .

صوت : في ذلك الزمن كانت فنلندا تحت سيطرة القيصر الروسي . وكان الجنود الروس يعسكرون في تلك البلاد ويقيمون صلات ود مع السكان ، بغض النظر عن وجود ذلك الاحتلال الاجنبي . حتى انت في صغرك كنت صديقا حميماً لابن كولونيل روسي يدعى كوستيا .

سيبيليوس : صحيح ما تقوله ، يا سيدي ، ولكنني مع سائر الاولاد في فنلندا ، ربينا على كره الروح الروسية دون ان نكره الروس انفسهم . وفي سني طفولتي تلك تشبعت بروح ذلك النشيد الحماسي الذي وضعته فيما بعد لدى اعلان استقلال وطني ، وكان عنوانه : فنلنديا .

صوت : الواقع انك اظهرت منذ صغرك مهارة موسيقية ولكنها لم تكن على شيء كبير من النضج .

سيبيليوس : في الخامسة من عمري كانت اصابعي تداعب اصابع

البيانو العاجية والسوداء بحثا عن انغام والحان جديدة . ولكن تعلّقي بالبيانو لم يدم طويلا . فقد كان الكمان آلتي المفضلة . وطوال حياتي ظلت هذه الآلة الموسيقية المسيطرة في موسيقاي .

صوت : وكنت بالاشتراك مع شقيقك وشقيقتك ، تؤلفون ثلاثيا عائليا ممتازا .

سيبيليوس : وغالبا ما كنا نزور بيوت اصدقائنا الذين كان بوسعنا ان نعزف معهم ، فنؤلف اذ ذاك رباعياً . وكان حفظي عن ظهر قلب للمعزوفات الرباعية التي وضعها كل من موتسارت وهايدن يساعدني في تقديم تلك الحفلات الموسيقية البيتية . ولكن لم يمض طويل وقت حتى اخذت اؤلف موسيقاي الخاصة ، تلك الموسيقى الحُجرية المعدة لتعزف امام جمهور محدود مثل جمهور تلك الحفلات العائلية . ثم حدث نوع من المعجزة . ففي مدى سنتين ، ودونما تدرب رسمي بدأت اعبر عن نفسي بلغة موسيقية خاصة . فقد نبذت تأثير الكلاسيكيين ، وطورت لنفسي تعبيرا جديدا . اوَ قل تعبيراً فرديا وشخصيا عن طبيعة بلادي الشمالية بما فيها من امواج البحر وزبده، وجبال ، وغابات .

صوت : وكان هناك كذلك ، حتى في هذه الموسيقى المبكرة ، طابعا خاصا هو حبك للحرية ، وقد نسميه بكل صدق التعشق السيبيلي للحرية . وقد بلغ حبك للموسيقى في تلك المرحلة من عمرك ، فضلا عن استغراقك في احلامك الكبرى ، حدا جعلك تهمل دراستك

سيبيليوس : صحيح ، فلكم كان الاستاذ يردد وهو يتنهد عندما يسألني سؤالا ويتلقى عليه جوابا يدل على غيابي عن جو الصف والدرس : « ليتبارك الرب ، فسيبيليوس الآن في عالم آخر » .

صوت : صحيح ، يا سيدي سيبيليوس ، انك كنت في عالم يبعد عدة فراسخ من الخيال عن عالم الدرس.على اي حال ينبغي لنا في هذا المجال التوقف قليلا عند مرحلة الدراسة هذه ، فقد كنت مثل تشايكوفسكي وشومان مقدارا لك ان تدرس الحقوق. ولكي ترضي ذويك التحقت بجامعة هلسنغفورس ، او هلسنكي كما نسميها نحن ـ وهي عاصمة فنلندا .

سيبيليوس : ولأرُضي نفسي في الوقت ذاته التحقت بالاكاديمية الموسيقية في هلسنغفورس كذلك ، بصفة طالب خاص ، واذا سألتني ماذا درست في الجامعة فاجيبك ، كما كنت قد اجبت بعد ذلك بعدة سنين وانا مرتاح الضمير : « انني لم ادرس شيئا على الاطلاق » . ففي احدى المناسبات سئمت من احد الكتب المقررة مطالعتها ففتحته ووضعته على حافة احدى النوافذ التي تقع تحت اشعة الشمس ونسيت كل شيء عنه . وبقي الكتاب هكذا شهرا بعد شهر حتى اصفرَّت صفحاته من شدة الحرارة ، واخيرا جاء احد اعمامي لزيارتنا ليطلع على سير دراستي عن كثب ، وتقدم من النافذة ففوجىء بالكتاب الذي كادت تمّحي سطوره ، فردد متنهدا : « الحقيقة ، يا جان ، انه يستحسن من اجل

مصلحتك ، ان تكرس كل وقتك للموسيقى ! . . »

صوت : انه واقعي وعملي عمك هذا . وهكذا غادرت الجامعة لتلقي بنفسك قلبا وروحا في موسيقاك . وخلال فترة دراستك في الاكاديمية الموسيقية كان من حسن طالعك انك تتلمذت على يد معلم لم يكن عبقريا ولا متحذلقا ، وهو مارتن فيغيليوس ، وكان موسيقيا شريفا يرفض وضع النظام قبل المهارة ، او المهارة قبل النظام ، وكان يعرف حدود الشخصية ، فلم يحاول ان يجعلك تدور في فلكه .

سيبيليوس : ومع انه كان ولوعا بفاغنر وذا ميل شديد الى هذا العبقري الالماني الاشهر ، الا انه لم يحاول فرض ولعه به علي ، وعلى عقلي المتحرر ، ولم يفعل شيئا ليقضي على تذوقي الشخصي.وهكذا قضيت ثلاث سنوات مع استاذي فيغيليوس ، فوجدت فيه مساعدا كبيرا لي ، ولكني مع الاسف لم اجده ملهماً في شيء . ولما كان صفّه جافا وروتينيا عاديا ، فقد كنت اؤلف افضل مقطوعاتي في السر ، في غرفتي ، مستخدما اسلوبي الخاص وطرقي الشخصية التي ترضي نفسي .

صوت : ان تطورك البطيء والسليم في آن معا تميز بانتاجك الضئيل حتى بلغت سن الرابعة والعشرين . فكثيرون من معاصريك كانوا قد ألفوا من الموسيقى اكثر مما ألفت انت في الفترة نفسها .

سيبيليوس : ولكن القليل من مؤلفاتهم ، يا سيدي يستحق الذكر اليوم على ما اعتقد،فقد كانوا ولا ريب ، يلبون حاجة

تلك الفترة من حياتهم . ولم يكن في موسيقاهم شيء
يذكر من الوحدة الفنية او الكمال الحيوي في محاولاتهم
تحقيق ما كانوا يسمونه الموسيقى المتطورة او الحديثة. اما
فيما خصني فقد كان نمو الروح بطيئا ولكنه كان قويا
وعضويا وحيا . . .

صوت : على ذكر الانتاج الموسيقي اسمح لنفسي في هذا المجال
ان اذكر انك في مستهل حياتك كنت فقيرا . ويروى
انك بعت مرة احد مؤلفاتك الموسيقية بدولارين اثنين
فقط .

سيبيليوس : صحيح ما تقول يا سيدي ، ولكنني فيما بعد منحت مئة
الف مارك ، وهو اضخم مبلغ دفع الى مواطن فنلندي
باستثناء رؤساء الجمهورية بالطبع !

صوت : ما دمنا قد ابتعدنا قليلا عن التسلسل في استعراض
مراحل حياتك فانني اسارع الى القول ههنا انك خلال
الحرب الروسية الفنلندية خبئت واحطت بالحماية كما لو
كنت كنزا وطنيا . والواقع انك لم تسمع ما وصفك به
اشهر مايسترو بريطاني معاصر هو السر مالكوم
سارجنت . . . قال عندما رحلت عن هذا العالم :
« ملك راحل ، ملك لم يخلّف وارثا . . . » وكثيرة
كانت الاصداء القوية التي أثارتها وفاتك .

سيبيليوس : هل لي ان اسمع بعضا منها ، فانه لفخر لي ان اطلع
على آراء الآخرين في موسيقاي بعد وفاتي ، كما كنت
اطلع على نقدهم وآرائهم في حياتي .

صوت : لدى وفاتك سنة ١٩٥٧ نعتك الصحافة العالمية ابلغ نعي ، وكتبت تقول عنك : « لقد خسر العالم رجلا عظيما » . وكذلك قالت : « انه احد الاصوات الصادقة التي افصحت عن افضل ما في نفوس البشر » . واخيرا اسمع هذا القول : « كان سيبيليوس موسيقيا كلاسيكيا ، ولم يكن اعظم المؤلفين الموسيقيين المعاصرين ، بل من اعظم مؤلفي الموسيقى في التاريخ » . . .

سيبيليوس : شكرا لهم على انصافهم لي اولا ، ولك ، يا سيدي ، لنقلك إليّ هذه الآراء التي تثلج الصدر حقا. ماذا عندك بعد من أسئلة؟

صوت : قبل العودة الى الاسئلة والاجوبة احب ان اذكر نادرة لطيفة تدل على ذكاء وخفة روح ، لا ريب انك تتذكرها . ففي ذات يوم كنت في حديقة منزلك ومعك ناقد موسيقي جاء لزيارتك . وسمعت زقزقة عصفور ، فقال الناقد : « ايها المعلم ، هذا روح الموسيقى » . وفي اللحظة نفسها حط الطير الذي يعرف باسم الزاغ ، وهو منكر الصوت ، على غصن شجرة كانت تظللكما ، فملت الى الناقد قائل له : « وهذا ايها العزيز روح النقد ! »

سيبيليوس : اذكر ذلك جيدا ، ولكن تلك الملاحظة كانت على سبيل النكتة وقد تقبّلها الناقد اذ ذاك بكل رحابة صدر .

صوت : ان القسم الاكبر من الموسيقى التي وضعتها يقوم على

الاناشيد الشعبية ـ الفولكلور ـ والاساطير . واعمالك الكبيرة كثيرة ، ومن اشهرها السنفونيات السبع المعروفة التي سنعطي فكرة سريعة عنها بعد قليل . ولعل من اعمالك الصغيرة ـ اذا صح التعبير ـ « الفالس الحزين » ، الذي نعرفه جميعا في مختلف ارجاء العالم ونستسيغه . وصحيح انك كنت وطنيا متحمسا ، ولكنك لم تكن اقليميا ، كنت فنلنديا ، وانت اليوم خالد مع الخالدين !

سيبيليوس : شكراً لك!ودعني الآن أذكر لك أنني رحلت إلى كل من برلين وفيينا للاستزادة من المعرفة الموسيقية وقضيت فترة من الزمن ولكنني لم اكن استطيع الحياة الا في فنلندا ، بلاد البحيرات الالف ، كما يلقبونها ، ففيها وحدها ، في جوها القاسي ، وسمواتها المشعة المتلالئة ، كان بامكاني ان ابدع الموسيقى الجيدة . ففنلندا كانت دمي ، ونخاع عظامي ، وقلبي نفسه ـ اذا شئت الاختصار .

صوت : وفي ذروة شهرتك تزوجت ابنة جنرال فنلندي تدعى آينو يارنيفيلت ، وقضيتما شهر العسل في البرزخ الكاريلي . وهو افضل مكان كان بالنسبة اليك لدراسة لغة الموسيقى الاصيلة ، وللتعرف اكثر فاكثر على فولكلور موطنك القديم . ولما عدت الى العاصمة هلسنكي توليت منصب استاذ في الاكاديمية الموسيقية ، ومنصبا مناسبا في مدرسة الاوركسترا التابعة للجمعية الفلهرمونية .

سيبيليوس : الواقع ان تلك الاوركسترا وضعت بتصرفي ، وكانت مختبرا قيما للتجارب الموسيقية ، ذلك لانني قضيت طوال حياتي اصارع مشاكل الاوركسترا وقضاياها ، وكم مرة رددت على اصدقائي هذه العبارة : « ينبغي ان تحكموا علي بأعمالي الخاصة بالاوركسترا . . . صحيح انني اؤلف مقطوعات للبيانو في اوقات فراغي واسترخائي ، ولكن الواقع ان البيانو لا تهمني كثيراً فهي لا تستطيع الغناء . والاغنية التامة يمكن ان تُغنى وحسب بواسطة الاوركسترا » .

صوت : وعلى ذلك ، راحت اغاني الاوركسترا تنهمر انهمارا من قلمك : اناشيد وطنية،اناشيد كفاح من اجل التحرر وعندها ، اي في صيف ١٨٩٧ ، كافأتك الحكومة الفنلندية اجزل مكافأة مادية . وما ان اصبحت ميسورا بعد عسر حتى ابتعدت عن العاصمة لتحيا في الريف قريبا من الطبيعة حيث يمكنك ان تحقق احلامك بسهولة اكثر .

سيبيليوس : وفي الريف وضعت اروع فصول في تجربتي الموسيقية ، عنيت بذلك السنفونيات السبع . كانت السنفونية الاولى وانا في السادسة والثلاثين وكنت قد اتقنت مختلف اشكال الموسيقى . وهي سنفونية تتمشى على الخطوط الكلاسيكية بما في ذلك الحركات الاربع . اما السنفونية الثانية فكانت نقطة انطلاق نحو اسلوب جديد في التأليف . واسمح لي يا سيدي ، ان استرسل في تعداد السنفونيات الباقية ، لانك وعدت القراء بتلخيص هذه الاعمال في سياق هذه المقابلة .

صوت : ارجوك ، استمر في حديثك هذا !

سيبيليوس : اما السنفونية الثالثة فهي خطوة اخرى في تجربتي وكانت مؤلفة من ثلاث حركات . والسنفونية الرابعة تعتبر كذلك غريبة في حد ذاتها ، حتى ان لا احد يمكنه ان يصدق ان من وضع السنفونيات الثلاث الاولى هو نفسه مؤلف السنفونية الرابعة . ومع ذلك ، وبكل تواضع اقول انه لم يكن بامكان سواي ان يضعها ، ذلك لانه تعبير شخصي عميق وفريد في نوعه ، وقد الفتها سنة ١٩١٠ . وعندما استأنفت وضع باقي السنفونيات كانت قد انقضت خمس سنوات عرفت خلالها التكريم في مختلف ارجاء اوروبا ، وخلال رحلة موفقة الى العالم الجديد . ثم نشبت الحرب العالمية الاولى فهزت تفكير الكثيرين وزعزعت ايمانهم . ولكن الغريب في الامر ان تلك الحرب اعادت اليّ ايماني بالحضارة ، انا الذي كنت قد صدمت صدمة عميقة من جراء معاملة الانسان للانسان معاملة لا انسانية فيها . وكانت فلسفتي اذ ذاك ان الحضارة قوة وليست ضعفا . انظر الى الامم الاوروبية الكبرى وما قاست منه . ليس هناك اي شعب متوحش كان بامكانه ان يحتمل الآلام والويلات التي احتملتها اوروبا . انها حضارة اوروبا هي التي اعطت دولها تلك الحيوية الشجاعة . ونعود الى السنفونيات ، والى الخامسة منها التي اعتبرها عودة الى الانتصار ، انها سنفونية اولمبية ، شبيهة بسنفونية بتهوفن الخامسة . ووضعت السادسة في

سنة ١٩٢٤ ، والسابعة في السنة التي تلتها . وتوقفت عند هذا الرقم السحري : ٧ !

صوت : اعود فاشبهك ببتهوفن ، من حيث انك كنت متعدد الجوانب والبراعة ، وكما هي الحالة مع بتهوفن وشكسبير نجد انفسنا امام هذا السؤال : افي وسع عقل بشري واحد ان ينطوي على مثل هذا التنوع في التفكير ؟! الا انك في تنوعك الغريب نجد وحدة في الهدف قلَّ مثيلها .

سيبيليوس : شكراً لك على هذه الخاتمة المنصفة !

سترافنسكي : انفصال عن تقاليد الماضي الموسيقية
(١٨٨٢ - ١٩٧١)

صوت : معنا الآن الموسيقي الروسي الاصل الذي اصبح فيما بعد فرنسيا ، ثم اميركيا ، ثم ملكا للانسانية جمعاء . صاحب باليه « عصفور النار » و « بتروشكا » ، و « تتويج الربيع » . ولكأن الموسيقي الكبير كان قد ارتحل في الربيع بعد ان توج اعماله بالكثير من الروائع في حياته التي امتدت ثمانية وثمانين عاما . وقبل ان نتحاور معا ، اسمح لنفسي بهذه المقدمة التي لا بد منها .

سترافنسكي : اهلا بك ، يا سيدي ، وهات ما عندك ، قبل ان نبدأ المحاورة كما تقول .

صوت : الحقيقة ، يا سيد سترافنسكي ، انك لم تكن مؤلفا موسيقيا كبيرا ، بل بائعا ماهر الانتاج غريباً ، لنوع جديد من الموسيقى غير الموسيقية - اذا صح التعبير - ولهارمونية من التنافر او النشاز غير تقليدية مثيرة ، واذن آسرة . ففي موسيقى سترافنسكي تم التزاوج العجيب بين الاصوات الاكثر اختلافا . ولقد كنت الكاهن الاكبر للغريب والشاذ . مع انه لم يكن ثمة شيء غريب في الاصوات التي سمعتها وانت صغير :

الاغاني البسيطة العادية التي كانت الفلاحات يرددنها وهن عائدات من الحقول ، وصفير احـد المتشردين الذي كان يسلي الاطفال بتهريجه وسلوكه الغريب ، وزقزقة العصافير على الاغصان .

سترافنسكي : وفضلا عن ذلك ، فقد كان بـطلي الموسيقي الاول تشـايكوفسكي الكـلاسيكي الذي كـانت سنفـونيتـه المعروفة « السنفونية المؤثـرة » (الباتيتيـك) الانجيل الموسيقي في اوساط المجتمع الراقي خلال طفولتي .

صوت : لقد ابصرت النـور في ١٧ حزيـران سنة ١٨٨٢ ، ونشأت في جو من الموسيقى التقليدية ، اذ كان والدك المغني ذو الصوت الباس ، او الجهير مشهورا في دار الاوبرا في سان بطرسبرج ، اليس كذلك يـا سيد ايغور ؟

سترافنسكي : صحيح ما تقول ، وفوق ذلك كله كنت ادرس باهتمام ادوار والدي الغنائية في مكتبه في البيت حتى حفظت عن ظهر قلب تقريبا كل اغانيه . ثم اصبحت عازفا ماهرا على البيانو ، واكملت دراسة الحقوق ، وما لبثت ان استقلت من وظيفة حكومية لامتهن الموسيقى .

صوت : وحملت بعض مؤلفاتك الموسيقية الى الموسيقي رمسكي - كـورسـاكـوف ، ولكن الحائـك الاكبر للهـارمونيـة الاوركسترالية لم يتأثر بها . الا انه مع ذلك اعجب بشخصيتك وعرض ان يعطيك دروسا في مبادىء توزيع الالحان الموسيقية على الاوركسترا .

سترافنسكي : وهكذا اصبحت ، انا الموسيقي الشاب ،وكورساكوف الموسيقي الكبير صديقين حميمين ، ولدى وفاته سنة ١٩٠٨ وضعت موسيقى « نشيد جنائزي » تكريما له . فكانت بشهادة الكثيرين قطعة موسيقية تصويرية ذكية . واود ههنا ان اقول ان كل الآلات الموسيقية المنفردة كانت تمر امام ضريح المعلم بالتتابع واضعة كل منها لحنها بمثابة اكليل . . . وذلك على خلفية من الهمسات الاهتزازية التي كانت تثير ترددات الاصوات الجهيرة التي تغنّي في الكورس .

صوت : وكان رأسك يضج بالمؤثرات الموسيقية : ايقاعات جديدة ، تآليف نغمية وصوتية جديدة . ومثل هذه المهارة ما كان يمكن ان تبقى مجهولة مدة طويلة . وكان اول من عرفها واعترف بها سنة ١٩١٠ دياغيليف ذلك المزيج الروسي الفريد من التصوف والواقعية ، الشاعر السياسي ذو الرؤيا الذهبية في رأسه ، والوعود الذهبية على لسانه .

سترافنسكي : لقد كان دياغيليف رجلا غريبا حقا ، موعودا لمهمة غريبة . وكان مديرا لفرقة الباليه الروسي الشهيرة . وكان فن الباليه قد حل محل الاوبرا كمهرجان موسيقي روسي اسمى . وكم كان جميلا ورائعا رؤية الصبايا ينسجن الموسيقى باقدامهن والشبان بأجسام ابولون يقلدون حركات الاله « فون » احد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان .

صوت : لقد طغت موسيقى الرقص الصامت الحالمة المسكرة على

الاوساط الفنية بسرعة . ذلك بأن ديكور الباليه كان غنيا ، والمشاهدين اغنياء .

سترافنسكي : وقد اصبح مديرو فرق الباليه اغنياء كذلك بفضل هذا الفن الجديد . وكان دياغيليف مستعدا لدفع اعلى الاجور لافضل فناني الباليه ، بعد ان اصبح فن الباليه حقا نوعا جميلا من الفن ، وكانت غايته المزج بين فنين لخلق وحدة اكبر . وهكذا اخذ شاعرية الحركة ، وشاعرية الصوت ، وحقن بهما ذلك الشكل الرائع من الفن ، فرقة الباليه الروسية الامبراطورية .

صوت : وما لبث دياغيليف ان آنس فيك مؤلفا موسيقيا غريب الافكار ، باستطاعته ان يمهر الباليه بالموسيقى الاخاذة التي تحتاج اليها . فكلفك وضع الموسيقى للباليه الشهيرة « عصفور النار » .

لقد كنت انت بطل شاعرية الصوت ، وكان الراقص فاسلاف نيجنسكي بطل شاعرية الحركة ، الذي ما لبث ان اصبح معبود الجماهير في روسيا . فلقد احتضنه سيد الباليه ورفعه الى ذروة الشهرة العالمية وظلله بجناحيه طوال حياته ، وكان شديد الغيرة عليه .

سترافنسكي : وقد بلغ من شدة محافظة دياغيليف صاحب العقل القوي المسيطر على نيجنسكي ذي النزعة الطفولية ، ان منعه من الاختلاط بالصبايا الروسيات اللواتي اسرهن جميعا بمهارته في الرقص . ولم يكن عقل الطفل في ذلك

الجسم المشيق ليحتج على تصرفات من اخذ بيده وجعله يتسلق سلم المجد .

صوت : ونتنقل الى باليه « تتويج الربيع » التي انتجت في ٢٨ ايار سنة ١٩١٣ ، وما وصل منها الى اسماع الجمهور في تلك المناسبة كان قد وصل الى آذان الناس مرارا بعد ذلك . ولكن الصدمة الاولى دائما هي الاعظم . وقد قال احد الناقدين في هذا الصدد : اذا كان سترافنسكي قد اعتبر موسيقيا قبل ذلك التاريخ فانه لم يعد بعد موسيقيا ، فقد وضع على عاتقه واجبات طبيب ساحر في ميدان الصوت .

سترافنسكي : اما البعض فلم يكونوا من رأي ذلك الناقد ، فالتهبت اكفهم بالتصفيق لدى العرض الاول ، والبعض الآخر في لحظة اصبحوا مناصرين متحمسين لهذا النوع الجديد من الموسيقى التي نعتت بأنها لون جديد في مستوى الحدث ، ورفعوا قبضات ايديهم في وجه المعارضين .

صوت : وسرعان ما انفصلت نهائيا عن تقاليد الماضي الموسيقية ، فلقد مات ملوك الموسيقى القديمة ، فلتحيى موسيقى الحاضر طويلا . وانت القائل ان الناس يخطئون عندما يتوقعون من الموسيقى ان تعبّر عن شيء . الموسيقى لا ينبغي حقا ان تثير اية احاسيس على الاطلاق ، ان كل انفعال هو وهم . والميزة الوحيدة للموسيقى هي هيكلها الفكري . والمفروض في الموسيقى ان تكون موضع اعجاب لا ان تكون وسيلة للمتعة .

سترافنسكي : وبهذا التفكير انكببت على اتقان اسلوبي الموسيقي ورحلت الى ايطاليا حيث درست آلات البيانو الميكانيكية واوركسترات الشوارع الصغيرة من اجل الحانها الغريبة الاطوار ، غير المتوقعة .

صوت : وقابلت بيكاسو فتوطدت بين المؤلف الموسيقي التكعيبي والرسام التكعيبي اواصر صداقة سريعة ومودة . ذلك ان كليكما كان يحمل الشعار الجمالي نفسه ـ من الشكل عبر اللاشكل الى الشكل . وفي هذه المناسبة يطيب لي ان اروي نادرة عنكما . فقد رسم بيكاسو صورة لك ذات مرة عندما كنت في ضيافته في روما . وقد صادرتها السلطات الجمركية على الحدود الايطالية لانها ، بما تحتويه من خطوط متعرجة وزوايا ، كانت تبدو كأنها خريطة رسمها جاسوس لاحد الاهداف العسكرية .

سترافنسكي : وصدقني اني عبثا حاولت اقناع المسؤولين بأنها خريطة وجهي ، ولا علاقة لها بأي هدف عسكري او تحصينات . واضطررت للاستنجاد باحد المراجع العليا في روما لحل المشكلة . ومن حسن حظي ان احد كبار المسؤولين هناك كان مطلعا على فن بيكاسو الجديد .

صوت : وفي تلك الفترة وقعت تحت تأثير موسيقى الجاز ، هذه الموسيقى التي ايقنت ان فرصها الايقاعية في هذا الحقل الموسيقي الغريب كثيرة ، مع انها فشلت في اكتساب احترام المتحذلقين .

سترافنسكي : ولكنها كانت تروق عواطف البشرية البدائية ، ولكنني بأصالة مميزة نفذت الى لب شكل الجاز ونبذت القشور . . ذلك بان الخصائص العاطفية التي كانت تجعل الحضور تتمايل لم تكن لي ، وقد سبق ان اعتنقت المبدأ القائل ان الموسيقى ينبغي ان تكون فكرية اكثر منها عاطفية !

صوت : وفي سنة ١٩٣٠ طلب اليك سيرج كوسيفتسكي ان تكتب سنفونية لمناسبة اليوبيل الذهبي لتأسيس اوركسترا بوسطن السنفونية . فشذذت في وضعها عن الشكل الذي ورثناه في القرن التاسع عشر ، لان همك كان دائما وابدا ان تنتج شيئا مختلفا . واغلبية محبي الموسيقى لم يجدوا في عملك هذا اي رسالة ، او معنى ، او فهم ، لانهم كانوا يعتقدون انك تصبح استاذا اكثر فاكثر واقل شاعرية مضحيا بفنك في سبيل الغرابة وبقلبك في سبيل فكرك وعقلك .

سترافنسكي : بالنسبة لهذه التهمة اقر واعترف بأنني مذنب. فالموسيقى العظيمة كما مر معنا في سياق هذه المقابلة ينبغي ان تروق العقل لا القلب ، والحقيقة انني في كل الفنون ارى حربا ازلية وابدية بين مبدأين : ابولون وديونيسيوس ، او بين العقل والعاطفة . وطوال حياتي الموسيقية التي ناهزت التاسعة والثمانين طبقت العبارة التي اطلقتها : « لنا واجب تجاه الموسيقى ، وهو ان نخترعها ». !

صوت : وكما بدأت هذه المقابلة بمقدمة اود ان انهيها بخاتمة تليق

بك ، يا سيد سترافنسكي وتنصفك في آن معا .
فبالنسبة الى الكثيرين من عشاق الموسيقى ، فان اول
اعمالك الفنية يبقى افضلها : ونذكر ههنا انك في
مطلع حياتك رأيت رؤيا بطلتها دمية في احد المعارض
تدب فيها الحياة على حين غرة . ولفترة وجيزة رقصت
تلك الدمية ، وعرفت مباهج الحياة واشجانه . ثم
ماتت كسائر المخلوقات البشرية . وكانت موسيقاك عن
هذه الدمية ملونة ، وساخرة ومثقلة بالعاطفة والتأثر .
بتروشكا ، الدمية التي تألمت كما يتألم الانسان الزائل .
ولعل هذه الباليه هي الذروة في موسيقاك ، يا سيد
سترافنسكي، ذلك انك في هذه البالية تحدثت بلغة فعالة ،
مختلفة ، اصيلة ومبتكرة ، ومع ذلك واضحة تماما
لتُفهم، ويحس بها . فالدمية الميكانيكية قد نفخت فيها
الحياة للحظات كهربائية معدودة في موكب المعرض
المتلألىء، ورقصت ، واحبت بعاطفة حارة وشديدة ثم -
يا للسخرية، قضت من فرط الشعور والاحساس
البشريين. وكذلك موسيقى سترافنسكي ، الميكانيكية
بطبيعتها ، اكتسبت لبضع لحظات قلبا ، وسكبت
موسيقى الشعور البشري . ولكن القلب سرعان ما
قضى من فرط تأثره نفسه . وهكذا اصبحت
الاهة الوحي لديك دمية ميكانيكية ذكية دون قلب !

سترافنسكي : اراك قد حللت جيدا موسيقاي ، يا سيدي ، واحسنت
التعبير ، فشكرا .

صوت : وفي ختام حوارنا هذا اود ان اوجر للقارىء ما تبقّى من

مراجل حياتك حتى وفاتك عن ٨٨ سنة في نيسان من سنة ١٩٧١.

سترافنسكي : لا بأس بذلك استكمالا للصورة التي رسمتها عني حتى الآن ، ولكن اسمح لي قبل ذلك ان اورد هذه النادرة . . . فقد اراد مؤلف موسيقى الجاز الاميركي جورج غرشوين الذي توفي سنة ١٩٣٧ ، ذات يوم ان يتلقى دروسا على يدي . وفي خلال الحديث الذي جرى بيننا سألت زميلي كم يبلغ كسبه من الموسيقى ، فأجابني : « حوالي عشرة آلاف دولار في السنة ! » عندها قلت له : «يستحسن ان اتلقى انا الدروس على يديك ! »

صوت : حسنا ، ولنقل الان بسرعة انك منحت الجوائز القيّمة الكثيرة تقديرا لك على اعمالك الموسيقية المختلفة والمنوعة ، وفي جملتها مدالية سيبيليوس الذهبية التي تعتبر بمثابة جائزة نوبل في الموسيقى ، وذلك سنة ١٩٥٥ . وفي مطلع الحرب العالمية الثانية انتقلت الى الولايات المتحدة الاميركية حيث تجنست اميركيا ، الا انك واصلت تقديم حفلاتك في مختلف ارجاء المعمورة .

سترافنسكي : سوى ان هذا النشاط المستمر الدائب توقف بسبب اصابتي بداء الكريب سنة ١٩٦٦ . وقد قضيت سني حياتي الاخيرة في دارتي الجميلة في لوس انجلوس ، وسط كتبي وزهوري .

صوت : وفي الثمانين من عمرك كرمّك الرئيس كنيدي الذي

اغتيل فيها بعد قبل ان يكمل مدة رئاسته ، باقامة مأدبة عشاء كبرى على شرفك . ومع انك كنت بلغت الثمانين فقد واصلت التأليف الموسيقي وكنت تقضي خمس ساعات احيانا في ذلك . وفي الخامسة والثمانين وافقت على قيادة الاوركسترا وانت جالس ، لاول مرة في حياتك ، وفي تاريخ قادة الاوركسترات (المايسترو) .

سترافنسكي : في السنة نفسها اصبت باحتقان في الدماغ ، فافقدني نعمة النظر بعيني اليسرى . وقبيل وفاتي كنت اسير متوكأ على عصا .

صوت : ولكنك عشت ثمانية وثمانين عاما ملأى ، حافلة يتمنى اي انسان ان يكون له نصفها ويخلّف من التراث الفني نصف ما خلّفت . وشكرا .

سترافنسكي : الشكر لك اولا واخرا ، يا سيدي !

بيكاسو : عالمٌ مدهش
(١٨٨١ - ١٩٧٣)

صوت : في ٩ نيسان ١٩٧٣ ومع مطلع الربيع توفي عن اثنتين وتسعين سنة اشهر رسام معاصر ، هو بابلو بيكاسو الذي عرف بأنه اسطورة حية . فمن هو بيكاسو هذا ، وماذا كان تأثيره في فن الرسم الحديث ، وكيف سيطر عليه قرابة نصف قرن ؟ هذا ما سنتحاور فيه معه عما قليل بعد ان اصبح في دنيا الخلود .

بيكاسو : اهلاً وسهلاً بك ، أراك لم تضع وقتاً فتبعتني الى هذا العالم بسرعة فائقة .

صوت : طالما رددت العبارة « تعدد الجوانب » لوصفك يا سيدي ، او بالحري ميزتك تلك التي ادت الى اشكال التعبير الكثيرة التي اقترن بها اسمك وباتت تماثلك وتطابقك .

بيكاسو : وربما كان امرا هاما ذا شأن ومغزى ، يا سيدي ، ان يطلق هذا التعبير نفسه على ليوناردو دا فنتشي ، ساحر عصر النهضة ، الذي في بحثه المتواصل عن الحقيقة لم يدع مكاناً إلا فتش فيه عنها ، هادراً الكثير من نشاطه وطاقته في أبحاثه المختلفة بحيث أنه كفنان خلّف لنا القليل من النتاج - بضع لوحات فنية فحسب - أشهرها الموناليزا

والعشاء السري ، وبعض الاسكتشات وعدداً لا بأس به من الرسوم لتزيين ما كان يكتبه.

صوت : على نقيضك تماما اذ انك تركت الالاف المؤلفة من اللوحات التي لا تقدر اليوم بثمن . . . ولكن لا يظنن احد اننا نقصد اي مساس عندما نذكر اسمك واسم دافنتشي معا . فعلى الرغم من انك لم تكن عالميا بقدر ما كان زميلك الفلورانسي ، الا انك تبقى الفنان الاكثر فضولا في المسائل التي تهم الرأي العام في عصرنا الحاضر .

بيكاسو : على نقيض ساحر النهضة التزمت بالفن ، وبالفن وحده ، ونادرا ما غامرت بالابتعاد عنه . ولقد رفضت التحدث مطولا حول هذا الموضوع . الا انني مع ذلك كنت اردد عبارتين تبدوان مناسبتين في هذا المقام ، أتريد سماعهما ؟

صوت : بالطبع ، هات اسمعني اياهما .

بيكاسو : ان الناس الذين يحاولون شرح الصور والرسوم غالبا ما يخطئون القصد . هذه عبارة . والعبارة الاخرى هي تعريف لوظيفة الفنان ، فأقول : الرسام يرسم لكي يتحرر من عبء مشاعره ورؤاه .

صوت : وهكذا في سلسلة متعاقبة من « المشاعر » «والرؤى» نتابع السلسلة الطويلة من التغيرات والتحولات التي طرأت على فنك منذ ان عرضت رسومك لاول مرة وانت بعد في السادسة عشرة ، حتى يومنا هذا .

بيكاسو : لقد رفضت وما زلت ارفض ان افكر في ان هذه التغيرات والتحولات يمكن ان تمثل تطورا ، وهي ليست الا « طرقي المتعددة » فعندما كان لدي شيء اقوله ، كنت اقوله بالطريقة التي احسست انه ينبغي ان يقال بها .

صوت : حسنا . طريقتك الاولى التي عبرت عن نفسها بالاسلوبين الشهيرين الازرق والوردي تمثل ما كانت نظرتك كفنان اسباني المولد الى العالم والبشرية . فكانت مواضيع هذه الرسوم ضحايا الظلم والاضطهاد ، وسيئي التغذية ، ولاعبي السيرك المهزولين الشديدي النحول ، والمتسولين الجوابين ، والمشعوذين الدجالين .

بيكاسو : لم اكن ارسم صور هؤلاء الاشخاص - فهم ليسوا افرادا يمكن التعرف اليهم مثل شخصيات الرسام هنري دو تولوز - لوتريك . ولكنهم يظهرون كرموز للجنس الذي يمثلونه - رجال ونساء واطفال حزانى بائسون منسحقو القلب. . .

صوت : . . . . حتى انه عندما كان كلب ما او حصان ما من افراد هذه الجماعة فانه كان يعكس رائحة الحزن والاهمال نفسهما . وفي هذه الاعمال المبكرة ينعكس شعورك نحو البشرية ، فتبقى في اغلبها وطوال سنين احب لوحاتك الى قلبك مظهرة اياك في ادق حالاتك وامزجتك .

بيكاسو : الواقع انني لم اذهب يوما الى الماضي بروح عالم الآثار او المؤرخ . لقد بحثت عن الوحي والالهام بدلا من

بحثي عن الاعلام . وهكذا وجدت نفسي محثوثا على سلوك طريق جديد والمغامرة عندما تعرفت على المنحوتات البدائية الافريقية التي تدشن ما تواضع العالم على تسميته « مرحلتي الزنجية » .

صوت : وفي سنة ١٩٠٧ التقيت الرسام جورج براك الفرنسي ، وهو مثلك من مواليد سنة ١٨٨١ ، ولكنه توفي - كما تعلم - قبل عشر سنوات من وفاتك . وكان بينكما اشياء كثيرة مشتركة . فمعا تعتبران شريكين في ابتكار المدرسة التكعيبية في الرسم ، هذه المدرسة التي اغناها كل منكما بروائعه المرسومة بأسلوبه الخاص .

بيكاسو : ولكنني حوالي ١٩١٥ عدت الى مبدأ اكثر واقعية ، منتجا بعض الرسوم الطبيعية . ثم ذهبت في الفترة التالية الى روما لتصميم ملابس ومناظر لباليه « الاستعراض » (باراد) ، التي اخرجها استاذ الرقص الشهير دياغيليف وفي سنة ١٩١٨ تزوجت من الباليرينا الشهيرة اولغا كوكلوفا .

صوت : الواقع ان اساليبك الفنية او طرقك لم تتبع بعضها بعضا في تقسيمات محددة . فحوالي سنة ١٩٣٠ ، بدأ اسلوبك المعروف بالنيوكلاسيكي ، برسوم نسائية عارية ورؤوس نساء اكبر حجما من الحجم الطبيعي . الا انك كنت دائم العودة الى بعض نواحي اسلوبك التكعيبي . وهنا اود ان اقول ان المرأة هي المرأة بالنسبة الى التاريخ ، ولكن بالنسبة اليك كانت المرأة شيئا آخر : مجموعة مؤلفة من الخطوط والاشكال فجئت

تبدل هذه المجموعة لتلائم حالاتك النفسية ومزاجك ، فتكون النتيجة ابعد ما تكون شبها بحواء .

بيكاسو : وما الغرابة في ذلك فالمرأة يمكن ان تكون لها اذنا فيل ، وتكون حولاء العينين ، لها انفان ، وثديان حيث ينبغي ان تكون عنقها وسرتها . . .

صوت : . . . لقد رحت باسم الفن تغير المظاهر الطبيعية ، اما الذين لم يحبوا الفن الجديد غير التقليدي فكانوا يقولون انك تسخر من الرأي العام ، وان الرأي العام نفسه احيانا كان يسخر من اعمالك الفنية ، فما قولك بذلك ؟

بيكاسو : ان الكثيرين من الرسامين الذين يحذون اليوم حذوي يعتقدون انني حررت الفن من التقاليد الكلاسيكية القديمة . وانا شخصيا اعتقد ان الفن والمظهر الطبيعي شيئان مختلفان . واود ههنا القول انه كان باستطاعتي ان ارسم حسب الاصول الكلاسيكية ، وكان بامكاني ان ارسم حواء ساحرة تشبه حواء عندما ارغب في ذلك . الا انني في فترة المراهقة ، وبعد ان رسمت الكثير من الصور الواقعية ، بدأت اشعر انني انما اقلد الطبيعة .

صوت : وفي غضون بضع سنين ابدعت ما يمكن ان يبدعه القلة من الفنانين : اسلوبا شخصيا خاصا . والى جانب ذلك كنت نحاتا وحفار كليشيات وخزافا وحرفيا ماهرا في مختلف الفنون التخطيطية (الغرافيكية) . ففي سنة ١٩٣٠ زينت بالرسوم كتاب « التحولات » للشاعر

اوفيد ، فأنتجت سلسلة من الصور الميتولوجية الزائفة تعرف احيانا باسم « المسوخ » . ولا يسع المرء الا ان ينسب تلك الصور الى صفحة الرسام الاسباني غويا الافتتاحية المعروفة باسم « كابـريكوس » لمجموعة الحفر المائي . . .

بيكاسو : . . . تلك طريقة في النقش على الصفائح النحاسية بـواسـطة الاحماض تستهـدف حفـر الفسحـات لا الخطوط ، وتمكّن عند الطباعة من الحصول على صور شبيهة بالرسوم المعدة بالالوان المائية .

صوت : في الواقع ان بعض اعمالك التصويرية في ذلك العهد توحي باعجابك الشـديد بمـواطنك الشهـير غويـا . وحوالي سنة ١٩٣٥ بدأت بكتابة الشعر على الطريقة السوريالية وقد اصبح في هذه الاثناء الكاتب جايم ساباريتس امين سرك . وقد وضع كتابا فيه صورة حميمة لك تلقي الضوء الساطع عليك وعلى فنك يمكننا ان نلجأ اليها للحصول على المادة الاولية عنك .

بيكاسو : ولكن ، مع الاسف ، فان هذا الكتاب لا يتعدى في مضمونه احداث حياتي العام ١٩٤١ .

صوت : ومع ذلك ، فنحن مدينون له بالكثير من النوادر التي هي نتيجة احاديث كنتما تتبادلانها لتزجية الـوقت ، عندما كان يوحي احد الاسماء او احدى العبارات اليك بالعودة الى الماضي والتوغل بالتذكار . من هذه النوادر والطرف نعرف مدى العلاقة الرائعة التي كانت بينك وبين والدك ، وكان استاذا في الرسم ، وعلاقتك بأمك

التي كانت على يقين من انه مقدر لك ان تصبح عظيما . . .

بيكاسو : . . . . على الرغم من انني كنت تلميذا عاديا . اما والدي الذي لم يكن متساهلا ومتسامحا ازاء كسلي في المدرسة ، فانه لم يكن ليقلّ عن والدتي تنبها الى مهارتي في الرسم ، لانه بصفته استاذا كان بامكانه تقدير قيمة الرسوم التي كنت ارسمها وانا في سن الثانية عشرة .

صوت : وفي الرابعة عشرة دخلت مدرسة الفنون الجميلة في برشلونة حيث انجزت في يوم واحد وحسب عملا فنيا كان يسمح للمرشح بوضعه في غضون شهر كامل . وفي السادسة عشرة احرزت تنويها من معرض مدريد للفنون الجميلة، وحزت في السابعة عشرة على ميدالية ذهبية من معرض اقيم في مدينة مالاقه ـ مسقط رأسك .

بيكاسو : وكان ايمان والدي بمهارتي الفنية كبيرا ، بحيث انه حوّل الي المبلغ الضئيل الذي ادخره من المال ليتيح لي سنة ١٩٠٠ ـ وكنت في التاسعة عشرة ـ الذهاب الى باريس مهد الفن في العالم .

صوت : وفي باريس عشت وسط الحرمان طوال السنوات العشر التالية .

بيكاسو : في وقت من الاوقات كنت اتناوب في النوم على سرير واحد مع الكاتب ماكس جاكوب. كنت اعمل طوال الليل بينما ينام الكاتب، ثم انام طوال النهار بينما يعمل الكاتب .

صوت : ولكي تطرد البرد القارس ذات ليلة اضطررت الى حرق كل الرسوم التي صنعتها طوال تلك السنة . وهي رسوم كان يمكن ان تباع فيما بعد بالآلاف المؤلفة من الفرنكات .

بيكاسو : وخلال سنواتي الخمس الاولى في باريس رسمت مئتي لوحة زيتية . . .

صوت : . . . اي بقدر ما يرسم بعض الفنانين مدى حياتهم . ومع ان بعض هذه اللوحات عرض على الجمهور ، فان القليل منها كان يباع حتى سنوات خلت بأثمان بخسة .

بيكاسو : كنت اردد انني اود ان اصبح غنيا واعيش فقيرا ، فتحققت امنيتي فاصبحت من اصحاب الملايين من حيث الثروة المادية والثروة الفنية على السواء .

صوت : وسيصبح ورثتك اليوم بعد وفاتك من اصحاب الملايين بفضل المجموعات الضخمة من الرسوم التي تركتها .

بيكاسو : على ذكر المجموعات الفنية اود القول انني اوصيت بمجموعتي الخاصة التي تضم حوالي ٨٠٠ لوحة بريشة رسامين عالميين بينهم موديلياني وسيزان ورينوار وماتيس وسواهم لمتحف اللوفر في باريس ، مستثنيا تلك التي رسمتها بنفسي .

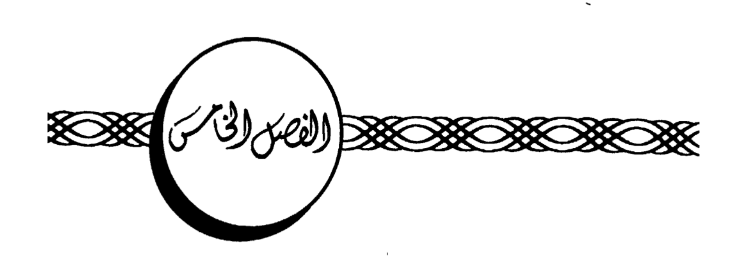
صوت : اود قبل انهاء هذه المقابلة ان اسجل محادثة بينك وبين كريستيان زرفوس ، ناشر دفاتر الفن ، وقد جرت سنة ١٩٣٥ : « كم من الناس اليوم قرأوا هوميروس

بالفعل ؟ ولكن مع ذلك ، فان العالم اجمع يتحدث عنه ، وبذلك تخلق الاسطورة الهوميرية ، واسطورة في هذا المعنى تحدث دافعا قيما وثمينا . ان الحماسة هي ما نحتاج اليه اكثر من اي شيء اخر نحن والجيل الاصغر سنا .»

بيكاسو : حقا ، يا هذا ، فالحماسة ورحابة الفكر هما ما نحتاج اليه اكثر من اي شيء آخر نحن والاجيال المقبلة .

صوت : واسمح لي ان اقول في ختام هذا اللقاء الرائع ما يلي :

ان رسوم بيكاسو الحديثة لعالم متغير قد اثرت في الالاف من الفنانين الآخرين . اما اذا كانت هذه الرسوم ستروق للاجيال المقبلة فان الزمن وحده - وهو الناقد الفني الاكبر - هو الذي سيقرر ذلك . وفي هذه الاثناء يبقى بيكاسو المدهش المهيمن الاول على الفن الحديث منذ نصف قرن من الزمن ، ولو غاب ! . .



٦ من أعلام الفكر

سقراط : علّمنا كيف نفكر

افلاطون : ماذا يقول ؟

ارسطو : المعلم الاول

ابيقور : فيلسوف كُرِّم وأسيء فهمه كثيراً

ماركوس اوريليوس : الملك الفيلسوف

لايبنتس : الفيلسوف الموسوعي

سقراط: علّمنا كيف نفكر

(٤٧٠ ق. م- ٣٩٩ ق.م)

صوت: في القرن الخامس قبل الميلاد وفي اثينا، كان يتجمع حول سقراط الحكيم جمهور من الناس معظمهم من الشبان يتحاورون معه ويساعدونه على خلق الفلسفة الاوروبية. كان بينهم شبان اغنياء مثل افلاطون والسيبياديس الذين كانوا يستمتعون بتحليله الساخر للديمقراطية الاثينية. وكان بينهم اشتراكيون مثل انتستنيس الذين كانوا يحبون فقر المعلم ويجعلون منه دينا. حتى انه كان هناك فوضوي او اثنان بينهم، مثل اريستيب الذي كان ينشد عالما لا يكون فيه اسياد ولا عبيد، ويكون فيه الجميع متحررين من الخوف كسقراط نفسه. وبكلمة اخرى فان كل المشاكل التي تهز المجتمع البشري اليوم، وتقدم مادة لمناقشات لا نهاية لها، كانت تهز كذلك تلك الفئة القليلة من المفكرين والمحدِّثين الذين شعروا مثل معلمهم ان الحياة بلا جدال ونقاش لا تليق بالانسان. وكل مدرسة من مدارس التفكير الاجتماعي كان لها هناك ممثلها، ولعله كان لها مصدرها ومعينها. معنا الان المعلم سقراط.

سقراط: اهلا وسهلا بك، وشكرا لك على التقديم الذي اسهبت فيه في الاشادة بي فانا لا استحق كل ذلك.

صوت: اراك، يا سيدي، تلجأ الى السخرية التي عرفت بها، تلك السخرية التي كانت تنزع سلاح كل سخرية بالتحسب لها وتوقعها. ولا ننس انك مع عبقريتك وشدة ذكائك وتفوقك على اقرانك كنت تمثل نفسك في كل الاجتماعات اكثر الموجودين بلادة وحماقة. وكنت اطهرهم اخلاقا، ولكنك طالما اردت ان تبدو عبدا لشهواتك.

سقراط: حسنا، وشكراً على هذا ايضا.

صوت: وعلى وفرة مواهبك كنت تردد دائما: «انا لا اعرف شيئا، وانا لست حكيما. انا اعرف شيئا واحدا هو انني لا اعرف شيئا». وعلى الرغم من انك لم تخلّف اية مؤلفات مكتوبة الا انك تعتبر احد كبار مفكري العالم قاطبة. وكانت كتابات تلميذك افلاطون الاداة الرئيسية التي نقلت الى العالم الحديث تأثيرك الفكري، يضاف الى ذلك ما كتبه عنك وعن اعمالك رفيقك المؤرخ الاغريقي زينوفون.

سقراط: حسنا، وماذا بعد؟ اتستطيع ان تقول لي ما الغاية من كل ذلك؟ ومن هذا الاستجواب؟

صوت: صحيح، لقد سها عن بالي ان اذكر لك سبب هذه المقابلة انها محاولة جديدة لتعريف الناس بك. فانت ابصرت النور في اثينا حوالي سنة ٤٧٠ قبل الميلاد، وينبغي ان تكون قد اصبحت وجها بارزا لان الروائيين الساخرين ارسطوفانيس واميبسياس جعلا منك موضوعا لبعض مسرحياتها الهزلية. ولما كان هذان

الروائيان قد اشارا الى فقرك وحاجتك فانك ولا ريب، كنت فريسة البؤس والضيق في تلك المرحلة من عمرك.

سقراط: لقد تميزت مختلف مراحل حياتي بالفقر والبؤس. ويقيني ان افلاطون في كتاب «الاعتذار» من سلسلة محاوراته اشار الى فقري فقال انني لم اجمع ثروة لانهماكي في اداء رسالتي الى البشرية.

صوت: ولعل اكبر دليل على فقرك المدقع انك كنت تقترض الدجاج بين آن وآن لتأكل. وقبل ان تتجرع السم اثر محاكمتك الشهيرة التي سنأتي على ذكرها في سياق هذه المقابلة، تذكرت انك لم تدفع ثمن ديك اكلته، فكانت آخر عبارة نطقت بها ان طلبت الى صديقك اقريطون ان يسدد ثمن ذلك الديك.

سقراط: ولا افضح سرا اذا قلت لك انني ما كنت آكل الا عندما كان تلاميذي يدعونني الى مآدبهم، لانهم كانوا يحبون رفقتي وحديثي.

صوت: ولم يكن وجودك في البيت مرحبا به لانك كنت تهمل زوجتك واولادك، وكنت في نظر زوجتك زانتيب رجلا لا خير يرجى منه، جلب لاسرته من الصيت الرديء اكثر مما جلب اليها خبزا.

سقراط: الواقع انني تزوجت في سن متأخرة ورزقت ثلاثة اولاد. وكانت زوجتي شرسة الطباع سليطة اللسان، اما الاولاد فلم يصبحوا شيئا يذكر.

صوت: (مقاطعا) . . . بل كانوا تافهين - حسب تعبير ارسطو.

وما دمنا قد تحدثنا عن الزواج، فلك رأي خاص فيه، هل لنا ان نسمعه ؟

سقراط: « لا يصح ان تتزوج اذا كنت شابا، ولا اذا كنت متقدما في السن . فأنت حزين على الحالين ، اتزوجت ام لم تتزوج . »

صوت: اراني سألجأ الى اسلوبك الحواري لايضاح المواضيع والقضايا الحيوية ، فهل لك ان تسمعنا رأيك الآخر في الزواج . ؟

سقراط: « الشباب الذين يتهافتون على الزواج كالسمك الذي يسبح فوق شبكة الصياد ، فانه يتهافت عليها في حين ان السمك العالق بها يتخبط بلا جدوى للتخلص منها ».

صوت: وما هو الجمال؟

سقراط: الجمال استبداد موقف!

صوت: وماذا عن الذكاء والجمال معا؟

سقراط : « الذكاء يحوّل القبح جمالا، في حين لا يستطيع الجمال اصلاح الجهل او القضاء عليه . »

صوت: ما احلى هدية قدّمها الله الى الانسان، في رأيك؟

سقراط: ستعجب اذا قلت لك انها المرأة.

صوت: اهناك تشابه بين المرأة والحرب؟

سقراط: « المرأة الكاملة كالجندي الصالح . كلاهما يخوض معركة الحياة في سبيل هدف سام ومثل عليا رائعة . . وكلاهما

لا يطالب بثمن التضحية التي بذلها في سبيل هذه المثل. »

صوت : ومع انك كنت مناضلا ممتازا ومحاربا ، وعرفت بقوة جلدك وجرأتك. واقدامك ، فانك لم تشترك قط في السياسة او الحياة العامة ، باستثناء اشتراكك مرة في مجلس الخمسمئة.

سقراط : لقد عرفت - كما قلت لقضاتي عند موتي - ان السياسة تعرّض مبادئي للخطر والشبهة .

صوت : واسمح لي ان اقول انك كنت ، خارجيا ، دميما : كنت بدينا قصير القامة ، جاحظ العينين ، افطس الانف ، كبير الفم ، غليظ الشفتين . . .

سقراط : كنت بدمامتي شبيها باديبكم الكبير الجاحظ الذي سمي كذلك لجحوظ عينيه.

صوت : ولكنك، داخليا ، كنت مجيدا جليلا ، والى ذلك كله كنت اكثر رجال العصر صلاحا واستقامة . وكانت سيطرتك على نفسك وقوتك على المقاومة نموذجيتين.

سقراط : ولقد دربت نفسي على الاعتدال بحيث كانت مواردي ووسائلي الضئيلة تسد كل حاجاتي.

صوت : وانقضت كل حياتك في الهواء الطلق : في الشوارع ، والاسواق ، وساحات البيع ، والميادين ، والملاعب الرياضية ، حيث كنت تجتمع بالصغار والكبار ، بالفقراء والاغنياء ، بالاصدقاء وغير الاصدقاء ، للتحدث والمحاورة واستخلاص الاستنتاجات

الفلسفية ، واقرار المبادىء الازلية.

سقراط : ذلك كان الاسلوب السقراطي في البحث والتفكير.

صوت : صيفا وشتاء كان يكسو جسدك رداء لا يتبدل . وكنت تسير حافيا ، ولا ترتدي اي قميص تحت ردائك.

سقراط : وعلى ذلك عرفت بالفيلسوف الحافي.

صوت : ويحضرني في هذا المجال قول للسفسطائي آنتيغون : « لو ان عبداً رقيقاً أُكره على العيش هكذا ، لكان اطلق ساقيه للريح ! »

سقراط : صحيح ما تقول ـ او ما يقول آنتيغون ـ ولكن هذه الحياة الخشنة اخذتها بنفسي وفرضتها على نفسي ، ولعلها كانت ثمن استقلالي الروحي والفكري.

صوت : نأتي الآن الى قضية موتك . لم تكن اثينا مكانا امينا لفيلسوف ان يحيا فيه.

سقراط : وخاصة لفيلسوف كانت له الجرأة على الالحاح على حريته في التعبير عن رأيه وفكره.

صوت : وهكذا ذات صباح ، ولدى وصولك الى الساحة العامة ، ابصرت هذا الاتهام ضدك معلقا : « سقراط متهم بثلاث تهم هي : انكار الالهة ، والدعوة الى الهة جديدة ، وافساد الشباب ، ولذا فهو يستحق عقاب الموت . »

سقراط : لقد عرفت ان ثلاثة من اصدقائي ، على رأسهم آنيتس ، تقدموا ضدي بهذه التهم التي لا تستند الى اي اساس من الصحة والواقع.

صوت : الجميع يعرفون ذلك . ولو انه كان من اثر في نفوس الشباب فانما كان اثر التهذيب والاصلاح.

سقراط : اتعلم ان آنيتس كان تاجر جلود، وكان يحقد علي لانني اقنعت ابنه بترك مهنة الدباغة وتجارة الجلود ، والانصراف الى دراسة الفلسفة ؟ !

صوت : الواقع ان قضيتك كانت قضية الجلود ضد المعرفة ، وقد انتصرت قضية الجلود . . .

سقراط : مع الاسف الشديد .

صوت : وقضي عليك بالموت بتجرع السم ، فقضيت شهرا في سجنك تنتظر اليوم الاخير غير مبال باغراء اصدقائك لك بالفرار ـ وكان امرا سهلا ميسورا ـ وغير مبال باستعطاف القضاة الذين حكموا عليك بتجرع السم.

سقراط : ولم الاهتمام بالموت ؟ انه ليستحسن ان يموت المرء وهو بكامل قوته وسلامة عقله ، على ان يعيش ليبلغ ارذل العمر ! لنواجه الموت كما واجهنا الحياة بشجاعة . . . وقد قلت لرفاقي : « قولوا عندما تدفنونني تحت التراب ، انكم تدفنون جسدي وحسب ، لا روحي . »

صوت : رائع قولك يا سيدي ! وبموتك تلك الميتة الكبيرة عشت ، بل خلدت على مدى الدهور !

سقراط : شكرا ، يا هذا ، والدليل على ذلك انك ههنا في زيارتي .

افلاطون : ماذا يقول ؟

(٤٢٨ ق. م. - ٣٤٧ أو ٣٤٨ ق. م.)

صوت : يقول المفكر والاديب الفرنسي لاروشفوكو : « القليلون يعرفون كيف يصبحون شيوخا وافلاطون عرف كيف يتعلم كصولون ، ويعلِّم كسقراط ، ويقود الشباب عشاق المعرفة ويرشدهم ، وكيف يحظى بحب رفاقه الفكري . ذلك بأن تلاميذه احبوه كما احبهم ، فكان صديقهم كما كان فيلسوفهم ودليلهم . »

ويقول عن افلاطون المفكر والفيلسوف الاميركي الافلاطوني النزعة والعقيدة امرسون : « افلاطون هو الفلسفة ، والفلسفة هي افلاطون . . . » اما كتابه الجمهورية فيصفه بالعبارة التي وصف بها عمر بن الخطاب القرآن الكريم فيقول : «احرقوا كل المكتبات فقيمتها هي في هذا الكتاب . » ويقول اخيرا : « عن افلاطون صدرت كل الامور التي ما تزال تكتب وتناقش بين رجال الفكر » . ولقاء اليوم هو مع افلاطون ، الفيلسوف - الملك ، وملك الفلاسفة .

افلاطون : اهلا بك وسهلا ، الى اكاديميتي ، فكما اسست الاكاديمية في بلاد الاغريق ، تراني ها هنا ما ازال اواصل ادارتها فأرجو ان تكون من محبي الرياضيات والهندسة .

صوت : اني في الحقيقة لكذلك ، والا ما كنت رأيتني اقف على باب هذه الاكاديمية التي نقشت على مدخلها هذه العبارة : « لن يدخل هذا المكان من كان جاهلا الهندسة . » فالرياضيات هي بالنسبة اليك المقدمة اللازمة والضرورية للفلسفة ، وهي اعلى اشكالها واسماها .

افلاطون : صحيح! وعلى ذلك اهلا بك وسهلا مجددا .

صوت : سيدي افلاطون ، كان اللقاء بينك وبين سقراط نقطة التحول في حياتك . سميت افلاطون ـ كما يقال ـ لعرض كتفيك ، وقد اشتهرت كجندي ، وكسبت مرتين جوائز الالعاب الرياضية ، وكنت شابا وسيم الطلعة قوي البنية .

افلاطون : وقد احببت كذلك ، ومارست « لعبة سقراط الديالكتيكية » كما احببت المصارعة ، تلك اللعبة الرياضية الخشنة .

صوت : وبتوجيه من سقراط الذي كان يسمي نفسه «ذبابة الدواب » انتقلت من ميدان الجدل البحت الى التحليل الدقيق والمناقشة المثمرة . وبت محبا للحكمة ولاستاذك .

افلاطون : احمد الله على انني ولدت اغريقيا لا بربريا ، وانسانا حرا لا عبدا رقيقا ، ورجلا لا امرأة ، وفوق ذلك كله ، احمد الله على انني ولدت في عصر سقراط .

صوت : اسمح لي ، يا سيد افلاطون ، ان اشير ها هنا الى انك قسوت كثيرا على المرأة . ولا ننسَ انك القائل :

« الادنياء والظالمون يتحولون عند ولادتهم الثانية الى نساء . »

افلاطون : وانا ، القائل كذلك : « عندما يولد الرجل الجبان مرة اخرى في هذا العالم ، تتقمص روحه جسد بهيمة او جسد امرأة . »

صوت : وكنت في الثامنة والعشرين عندما توفي المعلم. فتركت هذه النهاية المأسوية للحياة الهادئة التي كان يحياها سقراط اثرها في كل جانب من جوانب تفكيرك. وملأت نفسك بالحقد على الديمقراطية الاغريقية ، وجعلتك تقرر ان الديمقراطية ينبغي ان تحطم ، ويحل محلها حكم الافضل والاكثر حكمة .

افلاطون : بكل تأكيد، وهكذا بات شغلي الشاغل طوال حياتي ايجاد الطريقة التي استطيع بها اكتشاف الافضل والاكثر حكمة من البشر ، ثم اتاحة المجال لهم للحكم بعد اقناعهم بتسلم ذلك الحكم.

صوت : وعلى ذلك لم تعد تطيق البقاء في اثينا فبدأت سنة ٣٩٩ قبل الميلاد جولة حول العالم.

افلاطون : او ما كان معروفا من العالم انذاك من مثل ايطاليا ، وصقلية ، ومصر ، وضفاف نهر الغانج في الهند وسوى ذلك من اقطار الشرق .

صوت : وفي ايطاليا تعرفت الى فلسفة فيثاغوراس الصوفية ، وفيثاغوراس هذا هو مؤسس علم الرياضيات ، وابو الموسيقى . واذا كنت لم تزر شخصيا هذه البلدان كلها

فانك ، ولا ريب ، قد زرتها بفكرك . ذلك بانك بعد جولة استغرقت اثنتي عشرة سنة عدت الى اثينا وانت في الاربعين وقد اختزنت كنزا من حكمة العالم . ولكن سقراط بقي استاذك الاسمى ، فكرست حياتك منذ ذلك الحين لتعليم الحقائق السقراطية .

افلاطون : وتحقيقا لهذه الغاية افتتحت كلية للفلسفة في الحديقة العامة في اثينا عرفت باسم الاكاديمية ، وكانت مكانا ساحرا وسط الاشجار ، مزينا بالهياكل والتماثيل .

صوت : وجمعت الفن الى المعرفة ، ذلك بأن الفيلسوف والشاعر عاشا مرة في نفس واحدة . وابتدعت طريقة خاصة للتعبير يجد فيها المجال للبروز كل من الجمال والحقيقة ، الا وهي طريقة المحاورة . ولكن الصعوبة في فهم فلسفتك تكمن بالذات في هذا المزج المخدر بين الفلسفة والشعر ، بين العلم والفن . فنحن لا ندري دائما بواسطة اي شخصية في الحوار تتحدث ولا بأي اسلوب او شكل ، وهل انت تتكلم حرفيا ، او ترمز رمزا ؟ وهل انت مازح ام جاد ؟ ان كل ما بوسعنا قوله ان افلاطون لم يعلمنا الا بالامثال .

افلاطون : ولعل طريقة التعليم بالامثال هي افضل الطرق لتعلم الفلسفة .

صوت : ولدي ملاحظة اخرى في هذا الصدد وهي انك في محاوراتك الفلسفية انطقت سقراط ، فبتنا في حيرة من امر من يتكلم منكما : متى يتوقف تفكير سقراط ، ومتى يبدأ تفكيرك انت ! ولكن ما نعرفه جيدا هو انه بالنسبة

اليك ، كما هو بالنسبة الى سقراط ، معنى كل فلسفة ورسالتها يكمنان في توطيد العدالة بين البشر . فالعدالة هي السعادة الحقيقية الوحيدة .

افلاطون : ولكي اؤكد طبيعة العدالة وضعت محاوراتي .

صوت : محاوراتك هذه تبقى ـ مع كل ما يمكن ان يؤخذ عليها ـ احد اثمن الكنوز الفكرية في العالم . ولعل افضلها كتابك « الجمهورية » . وفيه تلخص فلسفتك الميتافيزيقية ، ولاهوتك ، واخلاقياتك ، وسيكولوجيتك ، وسياستك ، وتربيتك ، ونظرياتك في الفن .

افلاطون : وانك لتجد ، في الجمهورية ، معظم المبادىء الفلسفية التي عرفها العالم فيما بعد على ايدي الكثيرين من المفكرين امثال نيتشه ، وبرغسون ، وفرويد ، وجان ـ جاك روسو وسواهم . فالجمهورية هي في الواقع وليمة شهية للنخبة .

صوت : لنعترف ، يا سيد افلاطون ، انه كانت لك وفرة من الخلال والميزات التي كنت تنعاها على سواك . فأنت تندد بالشعراء واساطيرهم ونراك تسعى الى اضافة شاعر الى ما هنالك من شعراء ، ومئات من الاساطير الى الاساطير الموجودة . تشكو من الكهنة الذين يبشرون ويكرزون ، وانت ، في الواقع، كاهن ، ولاهوتي ، ومبشر ، وواعظ . تعترف على الطريقة الشكسبيرية ان التشابيه زلقة ، ولكنك تنتقل من تشبيه الى اخر ، فآخر . . . تنعى على السفسطائيين انهم في جدلهم

ومناقشتهم تجار كلام ، وكنت انت نفسك في احيان كثيرة لا ترتفع عن مستواهم عندما تعالج قضايا المنطق .

افلاطون : هل من دليل على ما تقول ، مع موافقتك على ان في كلامك الكثير من الصحة ؟

صوت : الناقد الفرنسي اميل فاغي يرسم لنا في كتابه « لكي نقرأ افلاطون » صورة تهكمية عن اسلوبك في المحاورات ، فيقول : « الكل اكبر من الجزء ؟ ـ بكل تأكيد . ـ والجزء اقل من الكل ؟ ـ اجل . . . اذاً ، بكل وضوح ، الفلاسفة ينبغي ان يحكموا الدولة ! ما هذا ؟ ـ ان ذلك جلي وبيِّن ، دعونا نقم بالمراجعة مجددا . » (يقهقهان).

صوت : سيدي افلاطون ، ليس هنا مجال الخوض في فلسفتك ، بل شئت ان اعرِّف المستمعين بك . فأنت الكاهن الاكبر في دين الجمال . كان لك حلم فلسفي كبير فلم تقنع بخلقه فحسب ، بل حاولت كالفيلسوف الصيني كونفوشيوس ان تقرن القول بالعمل فتضع نظرياتك الفلسفية موضع التنفيذ . فلما تلقيت دعوة من ديونيسيوس ملك سرقسطه حاولت ان تعلِّم هذا الملك كيف يحكم بلاده بحكمة .

افلاطون : ولكن ديونيسيوس مع الاسف ، كان ملكا ولم يكن فيلسوفا .

صوت : فقد خشي بعض آرائك المتطرفة وهددك بالموت ، ولكنه حوَّلك الى سوق النخاسة بدلا من تحويلك الى العالم الآخر اثر تدخُّل بعض اصدقائك .

افلاطون : وهكذا ، بدلا من ان احول ديونيسيوس الى فيلسوف ملك ، حولني الى فيلسوف عبد رقيق .

صوت : ولكن لحسن الطالع كان من اشتراك لتربية اولاده رجلا محبا للحكمة ومحبا للعدالة فأطلقك من وثاقك وسمح لك بالعودة الى اثينا . ولدى هبوطك عاصمة الفكر القديمة تلقيت رسالة اعتذار من الملك ديونيسيوس يرجوك فيها ان تسامحه ولا تحقد عليه .

افلاطون : صحيح ، وكان ردي على رسالته انني مشغول بفلسفتي الى درجة لا استطيع ان اهدر معها وقتي في التفكير بديونيسيوس .

صوت : وهكذا واصلت محاوراتك الفلسفية الهادئة في حديقة اكاديميتك . وفي ذات يوم وكنت في الحادية والثمانين من عمرك حضرت حفلة زفاف احد اصدقائك الشباب . فلما ازعجتك الجلبة انسحبت الى احدى الغرف لتستريح قليلا . . .

افلاطون : وكانت تلك الاستراحة استراحتي الاخيرة .

صوت : صحيح ، اذ ان العريس لما افتقدك هرع الى الغرفة التي انسحبت اليها فألفاك ترقد رقادك الاخير ، اذ انك دعيت لدخول جمهورية الموت الهادئة .

ارسطو : المعلم الأول

(٣٨٤ ق . م . ـ ٣٢٢ ق . م .)

صوت : في يوم من ايام صيف سنة ٣٦٦ قبل الميلاد التحق بأكاديمية افلاطون شاب من مدينة اسطاغيرا التي كانت تعتبر الغرب المتوحش في العالم الاثيني ، غير أنه لم يكن ثمة شيء في ذلك الشاب الانيق الاستقراطي يذّكر برعاة البقر ، ذلك بأنه نشأ في جو مثقف . كان والده نيكوماخوس ، صديقا لملك مقدونيا امينتاس ، وطبيبه الخاص ، وامينتاس هذا كان جد الاسكندر الكبير المعروف بذي القرنين . وكان هذا الشاب الذي هبط اثينا لغرف العلم والفلسفة يدعى ارسطو او ارسطوطاليس .

ارسطو : صحيح انني نشأت على رائحة الدواء ، كما نشأ بعدي الفلاسفة على رائحة الطهارة ، ولكنني لم اشتغل بالطب . فقد كنت متأهبا عقليا وفكريا لاصبح مؤسس علم ، او فلسفة .

صوت : لنبدأ من البداية ، يا سيد ارسطو .

انت ابصرت النور سنة ٣٨٤ قبل الميلاد في تلك المدينة المقدونية الباعدة حوالي مئتي ميل الى الشمال من اثينا . وهناك روايات متعددة عن صباك . احداها تمثلك وانت تعيش عيشة صاخبة ، ثم تلتحق بالجيش هربا

من الجوع، ثم تعود الى مسقط رأسك اسطاغيرا لممارسة الطب. وفي سن الثلاثين تهبط اثينا لدراسة الفلسفة على يد افلاطون .

ارسطو : هذه رواية ، فما هي الرواية الثانية ، مع العلم انني اكدت لك عدم اشتغالي بالطب على الرغم من كوني ابن طبيب.

صوت : الرواية الثانية اكثر احتراما لك . فهي تقودك الى اثينا في سن الثامنة عشرة ، وتضعك مباشرة في عهدة المعلم ، في الاكاديمية ، ولكن ، حتى في هذه الرواية المعقولة هناك صدى لحياة غير منتظمة ، وتكاد تكون ماجنة .

ارسطو : ولكن السامع المشدوه يمكنه ان يعرف ان مركبي - على اي حال - قد القى المرساة اخيرا في حدائق الاكاديمية الهادئة .

صوت : عند افلاطون درست ثماني سنوات ، او عشرين سنة حسب الروايات المتعددة المتناقضة .

ارسطو : الصواب هو انني درست عشرين سنة فأرجو تصحيح معلوماتك .

صوت : ان المرء ليحب ان يتصور ان تلك كانت سنوات سعيدة جدا : تلميذ لامع يرشده معلم لا مثيل له يتمشى كالعشاق اليونانيين في حدائق الفلسفة . ولكن كلاكما كان عبقريا ، ومن الخطر الشديد ان يتفق عبقريان وينسجما ، فهما كالنار والبارود .

ارسطو : بالصواب نطقت ، فعلى شدة تقدير معلمي لي وعبادة احدنا للاخر كان الخصام بيننا متواصلا . والمثل يقول انه عندما يصادف اغريقي اغريقيا ، وخاصة على صعيد عقلي متساو ، فمن المحتم ان يحدث انفجار .

صوت : وكنت ذا دماغ جبار ، ويكاد لا يصدق ان عقلا واحدا يمكن ان يتفتح على مختلف مناحي المعرفة : السياسة ، المسرح ، الشعر ، الفيزياء ، الطب ، علم النفس ، التاريخ ، المنطق ، علم الفلك، التاريخ الطبيعي ، الرياضيات ، البلاغة ، وعلم الاحياء .

ارسطو : وهذه لم تكن الا بضعة صحون على المائدة الغنية الكبيرة التي حاولت بها ان اشبع نهمي الشديد للعلم والمعرفة . وقد اورد افلاطون مرة ملاحظة على سبيل المزاح قال فيها ان اكاديميته تتألف من قسمين : جسد تلامذته ، ودماغ ارسطو .

صوت : ولقد انفقت المال بلا حساب على جمع الكتب.

ارسطو : تقصد المخطوطات اذ لم يكن ثمة كتب مطبوعة في ذلك العصر الذي لم يكن قد عرف الطباعة بعد على معرفته الكبيرة بالكتابة .

صوت : وكنت، بعد يوريبيديس، اول من انشأ مكتبة. ولعل وضع مبادىء تنسيق المكتبات هو في طليعة مساهمتك العديدة في الحقل العلمي.

ارسطو : ومن هنا كان وصف افلاطون لمسكني بأنه « بيت القارىء » غير ان البعض لم يحملوا قوله على محمل الجد

والمجاملة الصادقة، بل حملوه على محمل التهكم ووصفي بأنني في غرامي بالمطالعة اشبه ما اكون ببيت الكتب.

صوت : وقد روى البعض ان خلافا ذر قرنه بينكما في اواخر حياة استاذك افلاطون . ومن قائل انك ادعيت بأن الحكمة لا تموت بموت افلاطون .

ارسطو : وروى البعض ان استاذي ووالدي الروحي افلاطون قال عني اني مثل فلو الفرس الذي يرفس امه بعد ان يمتص حليبها .

صوت : وعلى الرغم من ان بعض المؤرخين يستبعدون هذه الرواية ، الا انه لا يسعنا الا الاعتقاد بأن لا دخان بلا نار . وعلى اي حال عندما توفي افلاطون سنة ٣٤٧ قبل الميلاد كنت انت في السابعة والثلاثين من عمرك ، فتوقعت شرعا ، ان يختاروك لخلافته في رئاسة الاكاديمية ولكن املك خاب ، فمجلس امناء الاكاديمية تجاوزك لاعتبارك اجنبيا ، وانتخبوا للرئاسة رجلا اثينيا اصيلا . فهجرت اثينا اذ سنحت لك الفرصة اثر دعوة احد زملائك الطلبة ويدعى هرمياس الذي كان حاكما على احدى المدن ـ الدول اليونانية بآسيا الصغرى .

ارسطو : لقد كان هرمياس هذا مثل ديونيسيوس ، ملك سرقسطه يتشوق الى اجراء تجربة في الحكم الواعي النير ، شرط الا يؤثر ذلك في ثروته ومجده . ولذا دعاني لأعلّمه كيف يوفق بين العدالة المجردة والنهب الملموس .

صوت : ولكنك فشلت في مهمتك لانك كنت تهتم فحسب بالعدالة وكان صديقك الحاكم يهتم بتكديس الثروة .

ارسطو : ولكني نجحت في الاقتران ببيشيانس نسيبة هرمياس وابنته بالتبني .

صوت : ومع أنك كنت تحبها لنفسها ، الا انك لم تعترض على بائنتها المحترمة .

ارسطو : الواقع ان الثروة من ضروريات الحياة السعيدة ، فقد تزوجتها ، ووظفت أموالي ، وقضيت شهر العسل في جمع الاصداف لمتابعة دراساتي العلمية . وعدت عودة قصيرة الى بلاط هرمياس الذي قتل بعد ذلك بفترة وجيزة على ايدي الغزاة الفرس .

صوت : وهكذا وجدت نفسك مجددا بلا وطن وبلا عمل ، وكان انقاذك هذه المرة كذلك على يد صديق ملكي هو الملك فيليب المقدوني والد الاسكندر الذي دعاك الى بلاطه لتكون استاذ ابنه ، وولي عهده . وقد وجدت البلاط في حالة يرثى لها : منازعات ، مبارزات ، فساد ، اغتيالات .

ارسطو : كان ذلك جدول الاعمال اليومي . اضف الى ذلك ان اولمبياس زوجة الملك فيليب كانت على شغل بالجنون الذي لم يكن يبعد عنه كثيرا زوجها وابنها . ففي احدى المآدب الملكية حاول الاب طعن الابن لانه اهانه . فلم يتورع الاسكندر عن الانقضاض على ابيه محاولا قتله .

صوت : ولكن من حسن حظ الاثنين ان الحضور نجحوا في التفريق بينهما .

ارسطو : ويمكنك ان تقول انه من سوء طالع العالم ان الحضور فرقوا بينهما .

صوت : وقد لازمت الاسكندر صديقا ، ومعلما ، ومستشارا حتى قام سنة ٣٣٤ بحملته الحربية الاسيوية . ومما يروى انه كان يرسل اليك من البلدان التي يمر فيها نماذج من نباتاتها وحيواناتها مساهمة منه في زيادة اطلاعك ، وتسهيل دراساتك وابحاثك .

ارسطو : وهكذا استطعت ان اؤسس ما يعتبر اول حديقة حيوان في العالم .

صوت : وفي اثينا سنة ٣٣٢ افتتحت مدرسة لوقيون، على غرار اكاديمية افلاطون. وقد سميت هكذا نسبة الى ابولو لوقيوس حامي القطيع من الذئاب .

ارسطو : في هذه الكلية جمعت قطيع التلامذة وجهزتهم لمحاربة ذئاب الجهل .

صوت : وعرف اتباعك بالمشائين او الرواقيين لانك كنت تمشي في الرواق بين تلامذتك وانت تلقي عليهم الدروس ، وقد أدرت مدرستك هذه ثلاثة عشر عاما . وعلى الرغم من عداوة الاثينيين لمقدونيا التي استعبدتهم فقد اجتذبت مدرستك الكثيرين وأمست مركزا للابحاث على اختلاف انواعها . فلم يكن ثمة موضوع يناقش في أيامك لم تتطرق اليه في مدرستك أو في كتبك بالحل والتوضيح . ومما لا شك فيه انه لم يساهم مفكر غيرك هذه المساهمة الضخمة في تنوير العالم .

ارسطو : ان كل عصر اتى بعد عصري افاد من حكمتي ووقف على كتفي ليرى الحقيقة . فقد بلغت مؤلفاتي المئات عداً .

صحيح، ولكن ما تبقّى منها ليس الا جزءاً يسيرا، ولكن هذا الجزء وحده، يؤلف مكتبة ضخمة ، ويمكنك ان تسمي مؤلفاتك الانسيكلوبيديا اليونانية. فكل مشكلة تحت الشمس وحولها تجد لنفسها مكانا فيها ولا عجب اذن ان تحفل كتاباتك بالاخطاء والسخافات اكثر مما تحفل بها مؤلفات سائر الفلاسفة.

ارسطو : الا تدري يا هذا ان من لا يعمل لا يخطىء؟..

صوت : ان البعض يشك في انك مؤلف كل كتبك على الرغم من وحدة الاسلوب التي تميز كل انتاجك .

ارسطو : يمكنك على اي حال ان تتأكد من انني المؤلف الروحي لكل الكتب التي تحمل اسمي .. يمكن أن تكون اليد في بعض الحالات يد سواي ، ولكن الدماغ والقلب هما دماغي وقلبي .

صوت : ونأتي الى نهايتك ، فقد توفي الاسكندر سنة **٣٢٣** قبل المسيح وسط انتصاراته في بابل ، ووضعت حكومة اثينا في يد اعداء المقدونيين . وانت من أنصار هؤلاء ، فدبر لك اعداؤك تهمة الالحاد ، وخشيت الاضطهاد والمصير الذي آل اليه سقراط من قبلك ، فهربت الى مدينة خلسيس حيث اقمت حوالي السنة قبل ان تصاب بالمرض الذي قضى عليك وانت في الثالثة والستين من العمر.

ارسطو : شئت ان اجنب الاثينيين فرصة ثانية لارتكاب الخطيئة بحق الفلسفة . وصحيح أنني حوربت من قضاتي ولكنني لم أستطع الهرب من القاضي الاكبر.

صوت : وقبيل وفاتك كتبت اعظم اعمالك، وهو وصية موجزة ولكنها خالدة في التاريخ، ذلك أنك اعتقت عبيدك.

ارسطو : لعل هذه الوصية كانت أول اعلان لالغاء الرق والعبودية في التاريخ.

صوت : في السنة نفسها ٣٢٢ قبل الميلاد، السنة التي توفي فيها ارسطو، وفي السنة نفسها الثالثة والستين، تجرع السم ديموستينيس الد أعداء الاسكندر الكبير. وفي فترة اثني عشر شهرا فقدت اليونان حاكمها الاشهر، وخطيبها الاشهر، وفيلسوفها الاشهر. وخبا المجد الذي كان لليونان في فجر الشمس الرومانية. اما المجد الذي كان لروما فقد كان مجد الجاه والفخفخة اكثر منه نور الفكر. ثم تلاشى ذلك المجد، وكاد الضوء الخافت ينطفىء. وطوال الف سنة خيمت الظلمة على وجه اوروبا وراح العالم كله ينتظر بعث الفلسفة.

ابيقور : فيلسوف كُرم وأسيىء فهمه كثيراً

(٣٤١ ق . م . - ٢٧٠ ق . م .)

صوت : في الجزء الاول من كتاب «غرغنتوى» يروي لنا الاديب الفرنسي الساخر فرنسوى رابليه ، رواية غريبة تدور حول « دير تيليم » . فهذا الدير الخيالي موئل طائفة دينية شعارها « افعل ما تشاء » . ولعل القاعدة الوحيدة التي ينبغي التقيد بها في هذا الدير هي عدم التقيد بأي قاعدة . ويقضي النظام بأن يخلو الدير من كل ساعة تذكّر احدا بمواعيد الصلاة او تأدية اي واجب . وبدلا من الالتزام او التعهد بالنذور الثلاثة : الطهارة ، الفقر ، والطاعة ، فأن رهبان هذا الدير وراهباته يسمح لهم بأن يتزوجوا ، ويكدسوا المال ، ويعيشوا على هواهم متحررين من كل شيء . اما ابواب هذا الدير فستوصد الى الابد في وجه

« المتعصبين، والمرائين، والمحامين، والقضاة، والتجار، والمصرفيين، والسكارى، والكاذبين، والجبناء، والمخادعين، واللصوص. »

ومن جهة ثانية سيكون هذا المكان المنزل المناسب « لكل ذوي الارواح النبيلة التي تسعى وراء المزاح واللهو المفعمين بالحياة » ، الرجال الذين يحبون المتعة ، والنساء اللواتي يستطعن توفيرها ـ وهن النساء المرحات ، الظريفات ، الانيقات ، الصبايا ، الحسناوات ،

اللطيفات ، الماهرات ، المحبوبـات ، الناضجـات ، الذكيات ، الساحرات ، اللائقات ، الجامعات لكل المزايا المحببة في بنات حواء . . .

هؤلاء هم الاعضاء الذين ينبغي ان يتألف منهم سلك هذه الطائفة الدينية ذات طابع « الاستهتار الورع » . فان اهتمامهم الاوحد هو نبذ حياة الغد غير الاكيدة ، والاهتمام بحياة اليوم الاكيدة .

ان هذا الدير ، « دير تيليم » الذي رسمه ابو الظرف والفكاهة في فرنسا ، رابليه ، لهو رسم كاريكاتوري لحديقة ابيقور ، او لدير ـ المتعة الشهير الذي انشأه اشد فلاسفة الاغريق كآبة وحزنا ، ابيقور . ولقد كانت حديقة ابيقور ، كدير تيليم ، ملتجأ دينيا . ولم تكن ، في حال من الاحوال ، مرتعا للفساد والمجون ، أليس كذلك ، ايها المفكر الكبير ؟

ابيقور : بالطبع ! وعلى النقيض كانت حديقتي ، حديقة ابيقور ، مكانا للتأمل الهادىء .

صوت : الواقع ، يا سيدي ، ان كلمة ابيقوري هي من اكثر الكلمات التي اسيء تفسير معناها في اللغتين الفرنسية والانكليزية .

ابيقور : بربك ، ايها السيد ، ماذا تعني هذه الكلمة في هاتين اللغتين اللتين ذكرتهما ؟ يشوقني ان اعرف ذلك . . .

صوت : ان الابيقوري في يومنا هذا يعني الشخص المرهف الذوق في الطعام والشراب ، وذاك الذي ينغمس في الملذات الحسية .

ابيقور : يا لهذا التشويه الفظيع ! فالمذهب الابيقوري الاساسي ، كما لا يخفى عليك يا سيدي ، يقول بأن المتعة هي الخير الاسمى ، والفضيلة هي وحدها مصدر المتعة .

صوت : أعرف ذلك ، ولكم هو بعيد عن الابيقورية ذاك الذي يتعلق بأهداب الوصف الاول المشوه لمذهبك وتعاليمك . فأنت النبي الذي اسس ديانة تقوم على متع العقل والفكر . ولعلها احدى نكات القدر ان يقترن رمز النهم والشره باسم اشهر الزهاد والنساك في العالم القديم . فأنت ، ، يا ابيقور ،كنت اقل الناس ابيقورية بالمعنى الحديث ، المشوه الذي ذكرناه . . . فلنستعرض معا ، اذا شئت سيرتك وتعاليمك في هذا العجالة . . .

ابيقور : كما تشاء ، ولعلنا نجلو في هذا الاستعراض الكثير من الالتباس ، ونزيل بعض التشويه الذي علق بالاذهان .

صوت : لقد ابصرت النور في جزيرة ساموس سنة ٣٤٢ قبل الميلاد ، وسط الاعتداء المقدوني على حرية اليونان . وكان والدك ، المعلم الاثيني ، قد زرع في نفسك كرها شديدا للظلم والطغيان . وكانت والدتك تدعي معالجة الامراض النفسية وذلك ببيع الصلوات والتعاويذ والطلاسم السحرية للمرضى . وكنت في طفولتك مكرها على مرافقة والدتك في تنقلاتها من منزل الى آخر لبيع هذه الادوية .

ابيقور : وهكذا اكتسبت الكره الشديد والصحي للخرافات !

صوت : واظهرت في سن مبكرة اهتماماً بدراسة الفلسفة . ويروى

انك لما كنت في الثامنة عشرة من عمرك قال استاذك ذات يوم وهو يحاول شرح كيفية خلق الكون : « ان كل شيء جاء من الهيولى ، او التشوش ! »

ابيقور : وقد قلت له اذ ذاك ان ما يقوله صحيح ، ولكن سألته من أين اتت الهيولى ، وما اصلها ؟ فاجابني : « لست ادري ولا احد يدري » . وعندئذ قررت أن يكون شغلي الشاغل معرفة الحقيقة وأصل الهيولى التي كانت بدورها اصل الكون ، او بمعنى آخر المادة اللامتشكلة المفروض انها سبقت وجود الكون .

صوت : في الثامنة عشرة هبطت اثينا ، وكانت في فترة غليان . كان حاكم اثينا الذي عيّنه الاسكندر النموذج المثالي للديكتاتور في العالم القديم ، وفي العالم الجديد كذلك . وفي سبيل تحطيم الروح الديمقراطية التي كانت منتشرة في الولايات الاغريقية ، قام بعملية تبديل بين سكان البلدان المحتلة ، طاردا الرعايا الاصليين الثائرين في نظره ليحل محلهم المستعمرين المقدونيين . وفي جملة اللاجئين الذين انتزعت املاكهم وشردوا من منازلهم كان ذووك .

أبيقور : لقد اضطر أهلي للفرار الى آسيا الصغرى ، حيث لحقت بهم بعد اقامة قصيرة في اثينا ، وقد حاولت ان انسى كابوس الحياة الثقيل المزعج بحلم الفلسفة الهادىء . وفضلا عن سعيي القديم الحثيث وراء معرفة أصل الهيولى ، كانت لدي رغبة لايجاد مخرج من هذه الهيولى !

صوت : وهل وجدت سبيلا الى ذلك ؟

أبيقور : كلا ، لم أجد سبيلا الى ذلك لا في خلافات السياسة

ولهوها ، ولا في غيبيات اللاهوت . الا انني وقعت على بعض المبادىء الفيزيائية والميتافيزيقية أعانتني على انشاء واحة سلام لنفسي وسط رمال الوجود السريعة الدوران . فلما اثريت بهذا الاكتشاف ، عدت الى اثينا وابتعت منزلا وحديقة في بعض الضواحي ، وأنشأت أكاديمية في الهواء الطلق لتعليم الفلسفة .

صوت : على غرار أكاديمية افلاطون ، أليس كذلك ؟

ابيقور : تماما ! وكانت هذه الأكاديمية مختلطة ، أي أن التعليم فيها كان للذكور والاناث ، وكانت الصفوف مشرعة الابواب امام جميع الطبقات ، حتى طبقة العبيد الارقاء وبائعات الهوى . ذلك بأنه ليس ثمة تمييز طبقي في مملكة المعرفة . وكنت ، كأستاذ ، اعيش مع تلاميذي في هذه الاكاديمية على صعيد من المساواة ، والالفة ، والاحترام المتبادل .

صوت : وكما كان متوقعا ، فقد انتشرت الشائعات والثرثرة في ارجاء اثينا عن المجون والفساد والحفلات الحمراء الصاخبة في « حديقة ابيقور ».

أبيقور : ولكن الواقع انه لم تكن هناك أي أسس لمثل هذه الثرثرة . فقد كانت حياة هؤلاء الاكاديميين أبعد ما تكون عن الصخب والفساد والنهم ! حتى ان بامكاني القول والتأكيد انهم كانوا شديدي التقشف . فقد كان طعامهم يقتصر على الخبز والماء وحسب ، وفي مناسبات خاصة وقليلة ، كانوا يتناولون شيئا من النبيذ . وكانت الجبنة من الكماليات الغذائية ولا يأكلونها الا في الاعياد . وعلى ذلك كانت الاطعمة الفاخرة محرمة في الاكاديمية ، ذلك

بأنها لا تبعث المتعة بقدر ما تسبب من ألم من جراء سوء الهضم .

صوت : ولا ننسَ انك القائل : « انني ازدري التوابل الغنية بالنكهة اللذيذة ، ليس بسبب كونها توابل ، بل بسبب العواقب الوخيمة التي تنتج عن تناولها ! » وهكذا كان الخبز والماء ، وخمرة الفلسفة ، بالنسبة اليك جوهر الحياة السعيدة ! ولكن ماذا عن فلسفتك التي اتاحت لك ولتلاميذك ان تجدوا القناعة والرضا وسط كل ما هنالك من قلق واستياء ؟

أبيقور : لقد كانت فلسفتي تقوم على هدوء الفكر السليم ، ورباطة الجأش ، وعدم الانفعال . وفصّلت هذه الفلسفة الابيقورية - كما يسعك ان تسميها - في سلسلة مؤلفة من ثلاثماية كتاب . . .

صوت : يلاحظ ان معظم فلاسفة الاغريق لم يكن لديهم وحسب الكثير ليقولوه ، بل كانوا يقولون هذا الشيء الكثير بأسلوب طويل . ولكن مع الاسف الشديد فقدت اغلبية هذه الكتب . ولم يتبقَّ لنا من فلسفتك الا موجز واضح لها في ملحمة الشاعر الروماني لوكريشيوس « حول طبيعة الاشياء » ، وهو فيلسوف ابيقوري عاش في روما بعدك بمئتين وخمسين سنة . ولعل ملحمته هذه التي تدور حول طبيعة الاشياء هي من اغرب المؤلفات في تاريخ الادب .

أبيقور : لحسن الحظ ان لوكريشيوس هذا قد لخص فلسفتي ، كما تقول ، في ملحمة شعرية ، فحفظها من الضياع ، وقد سرني جدا سماع هذا الخبر منك الآن ! . .

صوت : ان ملحمته تلك هي دفاع عن المنطق البارد ، ومع ذلك فقد كتبت بحرارة وانفعال . انها صنيع كافر ينكر انسانية الله ، ولكنه يؤكد على قدسية الانسان والوهيته . وقد نعتت بأنها من اعظم الاناجيل في العالم . . .

أبيقور : . . . انجيل لغير المؤمنين ، بالطبع !

صوت : صحيح . وبمراجعة بسيطة لهذه الملحمة التي وضعها لوكريشيوس يمكننا ان ندخل « قصر المتعة الرائع » ، على بساطته ، او ما يعرف بفلسفة أبيقور . فلنتعرف الآن الى فلسفتك ، ايها المعلم الكبير ! فالغاية من الحياة حسب تعاليمك هي الاستمتاع بالحياة . ولكن لكي نستمتع بالحياة ينبغي لنا ان نفهمها . ينبغي لنا بمعنى آخر ان نعرف من نحن ، ولماذا نحن ما نحن ؟ ! فهل لك ان توضح لنا ما تشاء قوله .

أبيقور : قبل أي شيء لنفهم جيدا وبوضوح من نحن . فنحن لسنا ابناء إله محسن رحيم، بل اولاد طبيعة لامبالية. فالحياة ليست مخططا من وضع فنان الهي، بل هي مجرد عرض في كون ميكانيكي. الا انه بوسعنا ان نجعل هذا الحدث المفاجىء، او هذا العرض، شيئا سعيدا، او على الاقل شيئا مثيرا.

صوت : وكيف يمكننا ذلك ؟

أبيقور : يمكننا ذلك اذا طردنا من تفكيرنا الرعبين العظيمين اللذين يقضّان مضجع البشرية: الخوف من الالهة ، والخوف من الموت ! فليس ثمة ما نخشاه من الالهة ، لاننا لسنا عبيدا

للالهة . . . اذ لا سلطة لها علينا ما دامت لم تخلقنا . وفي الحقيقة هي لم تخلق شيئا على الاطلاق . فالكون ليس من صنع اي اله ، بل هو النتيجة الحتمية لحركة الذرات عبر فضاء لا نهاية له .

صوت : وذلك يجرنا الى بحث نظريتك الذرية ، النظرية التي سبقت بمئات السنين ، النظرية القائلة اليوم بتفسير الكون تفسيرا ميكانيكيا .

أبيقور : اذن فقد كنت رائدا في هذا الموضوع ؟ حسنا . . . ولكن الانصاف يقضي بأن اصارحك بأنني اقتبست هذه النظرية حول النظام الذري من الفيلسوف الاغريقي القديم ديمقريطس ، الذي كانت الحقيقة العلمية بالنسبة اليه اكثر اهمية من اخضاع امبراطورية واستعمارها . ولقد وجدت الجواب عن سؤالي القديم حول الهيولى في هذا الافتراض وهو ان الكون ، او الاكوان ، ليست سوى مجموعة من مواد للبناء صغيرة جدا هي الذرات . ولما توصلت الى تفسير أصل الهيولى من هذا الطريق ، قضيت على الهيولى دفعة واحدة ، فأكدت انه لا يمكن ان يكون هناك شيء من مثل الهيولى او العدم .

صوت : المعروف ، يا سيدي ابيقور ، ان كلمة ذرة ، او « اتوم » ـ وباليونانية « اتوموس » تعني جزءا من مادة لا يمكن قطعه او قسمه الى اجزاء اصغر . ولكن الاتوم في الفلسفة الابيقورية ، كما هي في علم الفيزياء الحديث ، اصغر عنصر او جزء اساسي ممكن في جسم مادي .

أبيقور : هذا صحيح ، والذرات التي تؤلف هيكل العالم لا تخلق ،

ولا تموت ، ولا تتحول . وهي تتحرك تحركا ازليا نحو اسفل عبر الفضاء اللامتناهي ، فضلا عن انها ذات اشكال واحجام واوزان مختلفة . . . وهذه الاختلافات ، او الفوارق ، هي السبب في تعدد الاشياء التي تدخل في صنع العالم . ولكن ذلك لا يعني ان عالمنا هو الوحيد في الوجود . فهناك عوالم اخرى فسيحة مثله ورائعة حقا . لها ايضا ارضها وجبالها ، ومحيطاتها ، واجناسها من البشر ، واجيالها من الحيوانات المتوحشة . فنحن لسنا الحصاة الوحيدة على شاطىء البحر اللامتناهي . ذلك بأن الذرات تدخل في انواع التركيبات نفسها ، في الحالات نفسها ، تكرارا وهي في دورانها الابدي الى اسفل عبر ممرات الفضاء التي لا تحد ولا تنتهي ! وكل هذه الحركة تلقائية ، ولا يد هناك لقيادتها والاشراف عليها .

صوت : حبذا لو كان المجال يتسع امامنا لنسترسل قليلا في نظرياتك العلمية ، لا سيما عندما نعلم انك أثبت نظرية التطور قبل العالم البريطاني تشارلز داروين بألفين ومئتي سنة . وفي ملحمة لوكريشيوس الشهيرة صورة مشوقة وهامة عن العالم كما تمثله نظريتك الخاصة بأصل الانواع والانسان .

أبيقور : لكم يشوقني حديث العلم ، يا سيدي ، ولكن ما دام الوقت ضيقا فسلني ما تشاء .

صوت : كل ما ارغب فيه هو انهاء هذه المقابلة الممتعة المفيدة بالقول ان فلسفتك وتعاليمك كانت تقول كذلك بالسعادة . وان السبيل الوحيد للسعادة هو دعوة الاخرين لمشاركتنا

سعادتنا ـ ليس لان ذلك عمل نبيل بحد ذاته، بل لانه ملحّ كذلك.

أبيقور : بالطبع ، فان حياتنا ينبغي ان تكون مهرجانا للاصدقاء . ينبغي لنا ان ننمي فينا عبقرية الصداقة ، ونجعل منها دينا لنا . ذلك بأن الصداقة شيء عذب ، وجميل ، ومقدس . ولعل عطف الصداقة الحقيقية هو الهبة الاكيدة التي نتمتع بها في هذا العالم الذي نشك في قيمته !

صوت : وهذا ما حدث لك بالفعل ، فان عطف اصدقائك الكثر اعانك على تحمّل الامك ، من فقر، ومرض، وحرمان ، مما جعل حياتك حقا شيئا مشكوكا في قيمته . الا اننا نجدك تكتب وانت على فراش الموت هذه الرسالة الى صديق لك :

«والآن، وانا اقضي هذا اليوم الاخير والمبارك من حياتي ، اكتب اليك . فقد اصبت بمرض مؤلم في المثانة يذيقني ابشع الآلام التي لا تحتمل . ولكن بالرغم من كل ذلك فانني اسعد بذكرى تبادلنا الافكار والآراء والاحاديث في الماضي». فتلك كانت وصيتك الاخيرة ، ايها المعلم الحكيم اللطيف ، الذي يقترن اسمه خطأ اليوم بعقيدة طائشة وبعيدة عن اللطف . والواقع انه لم يكرَّم فيلسوف مثل التكريم الذي اصابك ، ولم يُسأ فهم فيلسوف بقدر ما اسيء فهمك .

أبيقور : شكرا لك ، يا سيدي !

ماركوس اوريلينوس : الملك الفيلسوف

(١٢١ - ١٨٠)

صوت : عندما بدأ ماركوس اوريليوس حكمه في سنة ١٦١ للميلاد ، كانت الامبراطورية الرومانية العظيمة قد جاوزت حد القوة والحيوية اللتين عرفتهما في شبابها . فقد كانت تقترب بسرعة من الشيخوخة . فتحت حكم القياصرة اعتزت الامبراطورية بفتوحاتها ، والآن ، تحت حكم الاباطرة الانطونيين ، كانت قد نضجت لتعاطي الفلسفة . اما هؤلاء الاباطرة الانطونيون فهم السبعة الذين حكموا من سنة ٩٦ الى سنة ١٩٢ للميلاد ، وهم حسب تسلسلهم التاريخي : نرفانوس ، وتراجان ، وادريانوس ، وانطونيوس ، وماركوس اوريليوس ، وفيروس ، وكومودوس . . واما الفلسفة فانها تنمو بقوة وتزدهر في حجرة الحضارة المريضة . فعندما يصاب البشر بصدمة او بضربة مادية في اقدارهم ، فانهم يلتفتون الى شؤون الفكر . وعندما تنهار الامبراطوريات تبدأ الفلسفة . ففي حالة الفلسفة اليونانية مهدت الكارثة الكبرى التي هي تهديم الامبراطورية اليونانية ، السبيل الى ظهور افلاطون ، وارسطو ، والفلاسفة الابيقوريين ، ثم الرواقيين . وقد حاول هؤلاء المعلمون ان يكتشفوا

سبيلا للسلوك الاخلاقي يمكن للفرد ان يسلكه بكل امان بينما تنهار اعمدة حضارته القومية وتتهدم .

ولقد حلم افلاطون بدولة مثالية تنهض على انقاض الدولة القديمة ، يحكمها ملك ـ فيلسوف ، لان مثل هذا الحاكم وحده يستطيع ان يرفع مواطنيها الى مستوى انصاف الالهة .ولذلك ينبغي ان يكون هناك امبراطورية كبرى لهذا الامبراطور الكبير ، او بمعنى اخر، جسم سليم لهذا العقل السليم ـ ذلك كان حلم افلاطون . وقد بدا كما لو ان روما على عهد ماركوس اوريليوس يمكن ان تحقق ذلك الحلم . فالامبراطورية الممتدة من طرف انكلترا الشمالي الى افريقيا الاستوائية ، ومن المحيط الاطلسي الى الفرات ، قد وجدت اخيرا ، وبعد طول انتظار ، في ماركوس اوريليوس ، ملكها ـ الفيلسوف . الا ان حلم افلاطون كان أبعد ما يكون عن التحقيق . ذلك بأن روما تحت حكم ماركوس اوريليوس كانت جسما سقيما له عقل سليم . كانت روما قوية ، ولكنها لم تكن سليمة . ففي صراعها الطويل والعدائي من اجل كسب النصر ، جعلت هذه الامبراطورية التي تخطت حِدود الطموح المعقولة دماءها تنزف حتى الجفاف ! أليس كذلك ، ايها الملك ـ الفيلسوف ؟

اوريليوس : انها الحقيقة المؤلمة ، يا سيدي ، مع الاسف الشديد !

صوت : نعود الى صباك ، يا ماركوس اوريليوس ، لنذكر انك في الحادية عشرة عزمت على ان تصبح فيلسوفا ، فاتخذت لنفسك مسوح الفلاسفة الكلبيين البسيطة ، وكنت تأكل

الطعام العادي وتنام على فراش خشن . هلا حدثتنا عن تعاليم هؤلاء الفلاسفة !

اوريليوس : الفلاسفة الكلبيون هم فلاسفة يونانيون آمنوا بان الفضيلة هي الخير الاوحد ، وبأن جوهرها ضبط النفس . والكلبي كذلك هو المؤمن بأن السلوك البشري تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها ، وهو يعبر عن موقفه هذا عادة بالسخرية والتهكم . ولقد اثارت مخيلتي شخصيات هؤلاء الحكماء الاثينيين الذين حملوا الى روما مدارسهم الفلسفية كما حملوا معها هوامهم او حشراتهم الطفيلية . كانوا يسيرون ورؤ وسهم محنية ، وايديهم متشابكة وراء ظهورهم ، يحاضرون في موضوع عظمة الكون ، وصغر الانسان او ضآلته . وكانوا يمارسون ما يبشرون به . الكلبيون كانوا يهزأون بالسرور ، والرواقيون كانوا يتجاهلون الالم ، انسحبوا من عالم البشر واصبحوا طوعا سجناء وراء قضبان مبادئهم . الا ان هؤلاء البشر لم يكونوا أباطرة ، فهم بنبذهم العالم لم يفقدوا شيئا اللهم الا حزنهم .

صوت : ذكرت الرواقيين، فهل لك ان تحدثنا عن مذهبهم الفلسفي ؟

اوريليوس : الرواقية هي المذهب الفلسفي الذي انشأه الفيلسوف زينون حوالي عام ٣٠٠ قبل الميلاد . ويقول هذا المذهب بأن الرجل الحكيم يجب ان يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح او الترح وان يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة .

صوت : شكرا ، على هذا التعريف ، ودعنا نمضي في استعراض مراحل حياتك وصفوة تعاليمك الفلسفية . فعندما اصبحت في الثامنة عشرة من عمرك تبناك عمك الامبراطور بايوس انطونيوس وجعلك خليفته في حكم الامبراطورية الرومانية المترامية الاطراف .

اوريليوس : الا انني ، يا سيدي ، في هذه الاثناء وكنت من النضوج على صورة لا توحي بها سني ، قد اكتشفت امبراطورية اكثر اتساعا من الامبراطورية الرومانية ، هي امبراطورية الروح ! ولقد ازعجني انني لن استطيع ان اكرس بقية حياتي للفلسفة . الا انني قنعت بمصيري ، واظهرت منذ تلك السن تأثري بالفلاسفة الرواقيين .

صوت : ولم يدخر عمك أي جهد في تربيتك لتصبح جديرا بالعرش . وفر لك افضل الاساتذة في البلاغة والتاريخ ، وعلمك اتقان ركوب الخيل لخوض الحروب . وبمعنى آخر اطلقك في الميدان الذي ينبغي لرجال الدولة ان ينطلقوا فيه . وانعم عليك بلقب قيصر . في القصر كنت ، ايها الامير الشاب تتلقى اطراء رجال الحاشية ، وفي الثكنات كنت تتدرب على المناورات الحربية .

اوريليوس : وفي هدوء حجرتي كنت أتأمل بمصير الامبراطورية ، وبمصدر الطموح ، وبغاية الحياة . ولو عرفت طبقة النبلاء المحافظين ذوي التفكير العملي بما كان يجول في فكر امبراطورهم العتيد لكانوا اصيبوا بصدمة فظيعة ، ذلك بأن الرومان كانوا أمة تعمل أولا ثم تتأمل بعد ذلك !

صوت : ولكن ، من سخرية الاقدار انه كان وسطهم فيلسوف

ملكي . وقد تربعت على العرش بعد وفاة والدك بالتبني ، عرش القياصرة الذي تأسس بالغش والخداع ، وكرس للبغي والطغيان ، ودعم باراقة الدماء .

اوريليوس : عندما ارتديت الارجوان قلت بيني وبين نفسي : « حذار من أن تجسد القيصر ! » سواي من المثاليين نبذوا الثروة من اجل الفقر ، اما انا فقد أكرهت على نبذ الفقر من اجل الثروة . ولقد كان صعبا على الفيلسوف ان يكتفي بالتاج ، وكان كريها على العالم ان ينغمس في مهنة قوامها السياسة والمعارك . لقد ورثت امبراطورية من الوحوش الكاسرة ، وكان ينبغي علي ان اكرس حياتي لحل نزاعات ليست من صنعي ، وشددت الى جرائم وحماقات ارتكبها اجدادي .

صوت : صحيح ، وقد كانت جموع البرابرة عبر الامبراطورية قد ذاقت الامرين من العدوان الروماني طوال خمسة قرون ، وتململت من شدة الالم ، وتأهبت للثورة . فلما تسنمت العرش اندلعت الشرارة . فالبرابرة لم يكونوا يحترمون تأملات أي أمبراطور ، كانوا يحترمون جيوشه وحسب ! ولكن ثورة البرابرة لم تدم الا مائة يوم . وكما تكهنت اغتال احد اتباع القائد الثائر آفيديوس هذا القائد ، وقد اعلنت ، ايها الفيلسوف المحارب انك ستبقي على حياة زوجته واولاده .

اوريليوس : ذلك هو الواقع . وقد ذهبت الى ابعد من هذا الحد فأرسلت الى مجلس الشيوخ نداء طلبت فيه عدم اعدام اي من الجنود الذين اشتركوا في العصيان . وقلت في رسالتي

اليهم : « ليعد المنفيون الى ديارهم ، وليستعد المحكوم عليهم بالموت ممتلكاتهم . ولكم كنت اود أن يبعث من الموت هؤلاء الضحايا المساكين الذين ذاقوا هذا العقاب ! »

صوت : ولكن رجال السياسة في الامبراطورية صعقوا لاحلالك الرحمة محل الانتقام ، والتسامح بدلا من البطش . وعلى اي حال استطعت سنة ١٧٩ ان تدحر اخيرا ما تبقى من القبائل المتمردة ، وانقذت الامبراطورية ـ الى حين ـ ولكنك كنت قد اصبت بمرض من جراء اقامتك الطويلة في المعسكر ، واشرفت بسببه على الهلاك . ولكن قبل ان ننهي هذه المقابلة بنهايتك انت دعنا نستعرض معا صفوة آرائك وفلسفتك . ولعل اسمى فضيلة في فلسفتك هي العدالة بالنسبة الى اتباعك واللامبالاة بمصيرك الشخصي .

اوريليوس : ولكنك نسيت شيئا مهما جدا وهو عدم الخوف من الموت ! فأنا القائل : « اطرد الخوف من الموت ، بالنظر اليه ليس نظرة الخرافة او الفزع ، ولكن على انه واحدة من الوظائف الطبيعية في دورة الحياة ، تماما كالاكل والشرب والنوم والجنس » .

صوت : ومثلما قال ابيقور من قبل كان قولك ان الموت ليس اكثر من تفكك العناصر التي يتألف منها كل كائن بشري .

اوريليوس : أليس حفظ الطاقة هو الذي يحفظ كل ذرة في هذا الكون ؟ واذا كانت العناصر في تغيراتها المتعاقبة لا تصاب بأذى ، لماذا يخاف الواحد منا من الاذى في التبدل في تحلل الكل او

تفككه ، فالموت طبيعي ، ولا يمكن لشيء طبيعي ان يكون شريرا او فاسدا .

صوت : ان ذلك لهو ذروة الانتصار على النفس . ذلك انه لا ينبغي ان يكون ثمة خوف حيث لا شر هناك !

اوريليوس : اذا كان كل احساس يتلاشى بالموت، فلا يمكن ان يكون هناك أي احساس بالخسارة ، ولكن اذا نجم عن ذلك نوع آخر من الاحساس فان المرء يصبح مخلوقا اخر ويبقى حيا .

صوت : لم يزعج الفلاسفة الرواقيون انفسهم في قضايا ما بعد الحياة ولعل في ذلك سببا لاتزانهم ورباطة جأشهم . ولم يكونوا يؤمنون باليوم الاخر وبالثواب والعقاب .

اوريليوس : ولكننا كنا نؤمن بأزلية عتيدة سواء في سلم واع اولا واع . ولعلنابتحررنا من الخوف الذي يمثله الجحيم استطعنا الى درجة كبيرة ان نتحرر من الخوف من الموت . ومن هنا كان انتصارنا على ذواتنا كما سبق ان ذكرت .

صوت : الا انكم ايها الرواقيون كسبتم هذا الانتصار الارضي لقاء ثمن باهظ هو التضحية بأملكم السماوي . على أي حال لا بد ان اذكر ههنا انك في شتاء سنة ١٨٠ للميلاد كنت تعاني سكرات الموت تحت خيمتك وأنت بعد في التاسعة والخمسين من العمر ، وكم كان غريبا ومتناقضا ان تفشل كامبراطور ـ جندي ـ فيلسوف ، بشرت طوال حياتك بالقناعة والاكتفاء ، وتقضي غير قانع على تلك الصورة . لقد كانت معتقداتك اعظم من شجاعتك ! لقد كتبت في

« تاملاتك » تقول : « مدينتي وبلادي ، بالنسبه الي كماركوس اوريليوس ، هي روما . ولكن بالنسبة الي كرجل ، انها العالم ! » ولكنك في حياتك الفعلية نسيت انك كنت رجلا ولم تذكر الا انك روماني . كانت حياتك وفخفختك ، وطموحك ، وحروبك ، وانتصاراتك كلها باطل الاباطيل . ولذلك سر الرومانيون برحيلك عنهم . لقد ارادوا زعيما ليست له فلسفتك ، وعلى جانب كبير من روح المحارب . اتذكر ما كانت كلماتك الاخيرة ، يا اوريليوس ؟

اوريليوس : بالطبع اذكرها تماما . لقد شددت ردائي على جسمي وقلت : « أنا تارك حياة يرغب اولئك الذين كانوا شركائي وعملت من اجلهم وصليت وخططت ، في ان يروني راحلا عن هذا العالم . لماذا اذاً أكافح من اجل حياة أطول ؟ ! »

صوت : اسمح لي ان انهي هذه المقابلة بقصة تروي انك عندما انتزعك الموت قامت آلهة الاولمب مأدبة كبرى على شرفك ، فجلس الى يمينك الاباطرة اوغسطوس، وتيبيريوس، وفسبازيان. وعلى يسارك جلس سائر الاباطرة الانطونيين العظام الذين ذكرناهم في مستهل هذه المقابلة. ولم يسمح بدخول نيرون وكاليغولا. واعلن جوبيتر عن اقامة مباراة لتقرير من كان من هؤلاء الاباطرة اعظم روماني. فوقف كل مرشح بدوره والقى خطابا يـذكّي فيه نفسـه. ومعظمهم تبجح بفتوحاته. ولكن عندما حل دورك في الكلام اكتفيت بالقول : « أنا الفيلسوف المتواضع، قد

غذيت الطموح بألا أسبب ابدا اي الم لأي انسان ».
وتمضي الحكاية فتقول انك على اثر هذه الخطبة الموجزة قد توجت اعظم الرومانيين، لا اعظم الرجال. ذلك بأن ماركوس اوريليوس الفيلسوف اعترضه في طموحه، ماركوس اوريليوس الملك! . . .

لايبنتس : الفيلسوف الموسوعي

(١٦٤٦ - ١٧١٦)

صوت : في صيف سنة ١٩٦٦ اجتمع في مدينة هانوفر الالمانية اتحاد العلوم الدولي مرة اخرى بعد غياب دام فترة طويلة . وحضر المناقشة ، التي دارت حول معقولية وأسس علم الرياضيات مئة عالم من جميع انحاء المعمورة ، من بينهم ٢٥ عالما من الولايات المتحدة الاميركية ، و٢٥ من انكلترا ، و٣٠ من جمهورية المانيا الاتحادية . والمعقولية الرياضية هي اساس الاجهزة الالكترونية الحديثة ذات القدرة العالية . وترجع بداية هذا العلم الخاص الحديث الى العالم والفيلسوف الالماني غوتفريد فيلهلم لايبنتس . ولقد التقى علماء المعقولية الرياضية لتكريم واحياء ذكرى هذا العالم ، في مدينة هانوفر ، هذه المدينة التي شاهدت اعماله الطويلة .

لايبنتس : شكرا لك على هذه المعلومات واهلا بك وسهلا ، يا سيدي . ولكن هل لي ان اعرف السبب الذي من اجله تشرفني بزيارتك وتذكر ما ذكرت ؟

صوت : انا هنا من اجل اجراء مقابلة معك في سلسلة «أعلام الحضارة» وانت، يا سيد لايبنتس آخر الفلاسفة الموسعيين الالمان . . .

لايبنتس : صحيح ! ولكن انتاجي لم يقتصر على الميدان الفلسفي وحده ، بل تخطاه الى سائر ميادين العلم .

صوت : صحيح ! فقد كنت مثالا فذا فريدا من نوعه في تاريخ الحياة الفكرية الاوروبية وانت في الواقع المؤسس الحقيقي للفلسفة الالمانية الحديثة .

لايبنتس : أرأيت انني جمعت المجد من طرفيه ، كما تقولون؟ فقد كنت مؤسس الفلسفة الالمانيـة الحديثـة، واخر الفـلاسفة الموسوعيين الالمان.

صوت : غير ان فلسفتك صعبة ، ويتعذر علينا ان نوجزها في هذه المقابلة السريعة وهي التي طالت سبعين سنة .

لايبنتس : نصيحتي لمن يريد الاطلاع على فلسفتي ان يراجع اي كتاب من كتب تاريخ الفلسفة ، فليس هنا المجال لذلك ! . .

صوت : حسنا . . اسمك الكامل هو غوتفريد فيلهلم لايبنتس. ابصرت النور في اول سنة ١٦٤٦ ، في مدينة لايبزيغ حيث كان والدك استاذ الفلسفة الاخلاقية ومع ان اسم لايبنتس كان سلافيا في الاصل ، فان اسلافك كانوا من الالمان . .

لايبنتس : وقد عملوا طوال ثلاثـة اجيال في خـدمة الحكـومة السكسونية .

صوت : كانت ولادتك قبل نهاية حرب الثلاثين سنة بعامين اثنين . . . . فكان مجيئك الى العالم في تلك الفترة من الدمار الشامل الذي اصاب المانيا بمثابة بزوغ نجم مضيء يبدد بنوره المفاجىء ظلمات الفكر الكثيفة !

لايبنتس : الواقع ان حرب الثلاثين سنة ، ياسيدي،كانت وبالا على المانيا ، فعادت بها القهقرى في مختلف النواحي المادية والحياتية والفكرية .

صوت : ويقال ان خسارة المانيا في الارواح في هذه الحرب وحدها تفوق خسائر الحربين العالميتين الاخيرتين معا . . .

لايبنتس : لم أكن اعرف شيئا عن ذلك . ولكن مما يؤسف له كذلك ان الحرب الثلاثينية لم تبق من الحياة الفكرية والروحية سوى الخلاف بين الطائفتين الدينيتين الكاثوليكية والبروتستانتية ، الذي ارجو ان يكون قد زال كل اثر له في المانيا . فقد عملت جاهدا في ذلك السبيل ، ولكنني لم اوفق الى النتيجة المتوخاة .

صوت : وما يؤسف له كذلك ، يا سيدي ، انه لا يزال لهذا الخلاف اثره اليوم . ولكن ثمة بوادر للتوفيق بين الكنيستين تبشر بالخير . . .

لايبنتس : دعنا بربك اذن من كل هذه الشجون ، ولنتابع السرد المفيد .

صوت : كما تريد . . . فأنت درست في مدرسة نيقولاي في لايبزيغ ، ولكنك من سنة ١٦٥٢ ، عندما توفي والدك اصبحت استاذ نفسك . ومن والدك اكتسبت حب الدراسة التاريخية ،والتهمت كل الكتب التي كانت في متناول يديك .

لايبنتس : وقد درست اللاتينية ، وانا بعد في الثامنة من عمري ، فلما بلغت الثانية عشرة كنت قد اتقنتها ، وبدأت بدراسة

اليونانية . وكنت اجد سهولة كبرى في كتابة الشعر باللغة اللاتينية .

صوت : ومن ثم تحولت الى دراسة المنطق محاولا اصلاح مبادئه وتعديلها . وفي الخامسة عشرة دخلت جامعة لايبزيغ لدراسة القانون . وقد كرست السنتين الاوليين من دراستك الجامعية لدراسة الفلسفة باشراف ياكوب توماسيوس، وهو من المدرسة النيو ارسطوطالية الذي يعتبر مؤسس الدراسة العلمية لتاريخ الفلسفة في المانيا .

ولعلك في تلك المرحلة تعرفت الى المفكرين الذين كانوا قد احدثوا ثورة في العلم والفلسفة امثال فرنسيس بايكون ، وكاردان ، وكامبانيلا ، وكبلر ، وغاليليو ، وديكارت !

لايبنتس : ومذ ذاك رحت اتأمل في الفارق بين الطرق القديمة والحديثة في النظر الى القانون . وفي سنة ١٦٦٦ تقدمت لشهادة الدكتوراه في القانون ، وقبل بلوغي الحادية والعشرين كنت قد وضعت دراسات فكرية وفلسفية ذات قيمة .

صوت : ما شاء الله ! . . جهد كبير ونشاط جم . ولكن لماذا رفضت العمل في سلك التدريس الجامعي في بادىء الامر ، مع انك كنت من المؤهلين له ، واكثرهم جدارة؟

لايبنتس : شئت ان اسلك سبيلا اخر غير التعليم فاهتممت بالعمل السياسي . وكلفني اميري بالذهاب الى فرساي للعمل على تخفيف حدة التهديد الذي كان سيد فرساي الملك

الشمس ، لويس الرابع عشر ، يطالع به المانيا . فشئت ان اصرف ميوله العدوانية عن المانيا بتوجيهي اهتمامه الى اشياء اخرى ، فاقترحت عليه الذهاب الى مصر وحفر قناة السويس . ولكني فشلت في مسعاي . وكان الرد الذي تلقيته : « لقد ولّى الزمن على الحروب الصليبية ولم تعد بدعة حديثة ! »

صوت : ولكن بقدر ما لقيت في فرنسا من فشل في الحقل السياسي ، لقيت من النجاح في ميادين العلم ما يعوض كل شيء . فبقيت في فرنسا اربعة اعوام تدرس ديكارت وسبينوزا ، وهيوجنيس وقد قادك هذا الاخير الى اعماق الرياضيات واغوارها !

وفي باريس وضعت اساس حساب التفاضل ثم رحلت الى هانوفر للعمل كأمين لمكتبة قصر اميرها ، ومستشارا له . . . واحببت هذه المدينة فاتخذتها موطنا ثانيا لك .

لايبنتس : ومن هانوفر قمت برحلات عديدة واسعة الى برلين وفيينا وروما .

صوت : وكنت صاحب فكرة انشاء اكاديمية العلوم في برلين التي اسستها واصبحت رئيساً لها . وكانت لك علاقات وثيقة مع بطرس الاكبر قيصر روسيا !

لايبنتس : وقد اقترحت عليه عددا من الخطط ، وقدمت اليه برامج واسعة لتشجيع العلوم وتطويرها ، وتشجيع التبادل الثقافي بين الامم .

صوت : سوى ان هذه الافكار الكبيرة اثبتت فشلها الى حد كبير لدى التطبيق العملي .

لايبنتس : وفي اثناء عملي في خدمة امير هانوفر اشتغلت بالتشريع ونظم الحكم ، وادارة شؤون الامارة . ووضعت في هذه الفترة مؤلفا ضخما شاملا في التاريخ، الى جانب اعمالي الفلسفية وبحوثي الرياضية والقانونية.

صوت : الواقع انك كنت تهتم باشياء كثيرةجدا ، الى حد انك كثيرا ما لم تتمكن من اتمام كل اعمالك

لايبنتس : صحيح ، وانا اقّدر المخطوطات التي تركتها بخمسة الاف باللغات اللاتينية والفرنسية والالمانية ، فضلا عن الرسائل التي كنت اتبادلها مع اكثر من الف شخص .

صوت : يسرني ، يا سيد لايبنتس،في نهاية هذه المقابلة القيّمة ، ان انقل اليك ان مدينتين ، على الرغم مما بينهما اليوم من فروق بسبب الحرب الاخيرة اللعينة ، والاعتبارات السياسية ، هما هانوفر وبرلين الشرقية ، تقومان بالبحث في حياتك واثارك . وكان من النتائج الاولى لهذه الجهود المشتركة قيام « مؤتمر لايبنتس الدولي » في خريف السنة ١٩٦٦ في هانوفر ، وقد اشترك فيه ثلاثماية عالم من احدى وعشرين دولة . . . وتعمل المدينتان معا الى اصدار مخطوطاتك السياسية . وقد صدر منها حتى الان بضعة مجلدات . كما تعمل هانوفر على اصدار المجلدات المحتوية على رسائلك التاريخية والسياسية ، في حين تعمل جامعة مونستر في دراسة واعداد اعمالك ومخطوطاتك ورسائلك الفلسفية والرياضية .

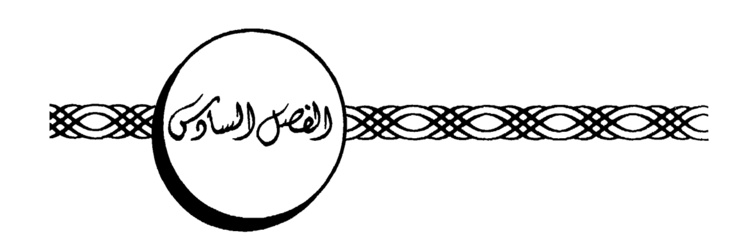
لايبنتس : شكرا جزيلا لك على هذه الاخبار التي تثلج الصدر حقا ! . .

صوت : ولكن مما لا يصدق ، يا سيد لايبنتس، انك على الرغم من هذا الثراء الفكري والثقافي ، لم تكن تعني كثيرا بالنسبة الى معاصريك . ولامر ما اغضبت اميرك ! . . وعندما توفاك الله الى رحمته في السبعين من عمرك لم يشترك احد من العاملين في القصر في تشييع جثمانك الى المثوى الاخير ! . .

لايبنتس : احقا ما تقول ؟ اذن فقد دفنت كما يدفن اللصوص !

صوت : الواقع ان هذه العبارة رددها واحد من الذين شاهدوا رحلتك الطويلة الاخيرة . فلم ينسك احد ، ولم يكرمك احد بتأبين اللهم الا الاكاديمية الفرنسية للعلوم .

لايبنتس : شكرا للاكاديمية الفرنسية للعلوم ، إذاً !



٥ من اعلام السياسة

بيريكليس	:	عصر اثينا الذهبي
يوليوس قيصر	:	عالم يعيش فيه بشر احرار
ماكيافيللي	:	القوة السياسية الباردة
تاليران	:	الشيطان الاعرج
غاندي	:	رسول اللاعنف

بيريكليس : عصر اثينا الذهبي
(٤٩٥ ق . م . - ٤٢٩ ق. م .)

صوت : السلام على اعظم رجال السياسة في بلاد الاغريق ، لقد جئت لاستعيد معك يا سيد بيريكليس ذكريات عصرك المجيد ، عصر اثينا الذهبي . انت من حكم اثينا ، ام الدنيا القديمة ، لاكثر من ثلاثين سنة تمتد بين سنة ٤٦١ قبل الميلاد حتى ٤٢٩ قبل الميلاد طبعا . وقد حملت لواء الدفاع عن الشعب ضد صديقك الشخصي شيمون ، زعيم الحزب الارستقراطي . . .

بيريكليس : وعليك السلام ، يا هذا ، ولكن اسمح لي ان اصحح بعض معلوماتك قلت انني حكمت اثينا ، والصواب ان الشعب هو الذي حكم ، لان اثينا كانت ديمقراطية .

صوت : هذا ما تقوله انت ، يا سيدي ، فالمعروف انك كنت تبلغ الشعب ما ينبغي ان يفعله .

بيريكليس : المعروف عني انني كنت صديق الشعب ، وانني كنت ادفع لافراد الشعب المال ليذهبوا الى المجلس ويقترعوا .

صوت : وكان هؤلاء معجبين بك الى حد انهم كانوا يقترعون لك السنة بعد السنة .

بيريكليس : افتريد ان تقول لي : انني كنت ابتاع هكذا اصواتهم ؟

وكيف يسعني ذلك ما داموا دائما يقترعون لي ، وينتخبونني ؟ أوَلم تسمع بالانظمة التي وضعتها وتقضي بدفع المرتبات للمواطنين الذين يخدمون وطنهم جنودا ، ومحلفين ، وقضاة ، فضلا عن دفع الخزينة اجور الدخول الى المسارح لاولئك الذين لا يستطيعون ذلك ؟

صوت : ان هذا النظام الاخير لافضل ما يمكن للدماغ البشري ابتكاره . . . ليت هناك من يفكر اليوم بتأمين دخولنا المجاني الى المسارح كما فعلتم في عصر اثينا الذهبي .

بيريكليس : لا تنسَ ان العصر كان عصر اثينا الذهبي .

صوت : ولما كانت الديمقراطية تعني الحكم بواسطة الشعب ، فقد كان الاثينيون يتجمعون في احد الامكنة العامة ويحكمون . وكنت انت تقف وسطهم خطيبا ، فيهتف هؤلاء ويصفقون ، ويثنون ، ويوافقون على مشاريع الاتفاقات ومعاهدات الصلح ، واعلان الحرب ، وما الى ذلك من الشؤون السياسية العامة .

بيريكليس : وقد انقصت من قوة اعضاء محكمة اثينا ، القديمة ، التي تتألف من عدد من العجزة معينين مدى الحياة ، ولا تستدعي مهمتهم نقض كل مشروع .

صوت : ولكنك سمحت بحراسة اشجار الزيتون المقدسة في ساحة الاكروبوليس . وقد ذكرت قبل قليل انك فرضت دفع المرتبات للقضاة ، فهل كان ثمة طريقة خاصة لاختيار حماة القانون .

بيريكليس : طبعا، فالقضاة والمحلفون كانوا يُختارون بالجملة، ويعملون جماعات جماعات تتألف احيانا من اربع مئة محلف ومحلفة، او خمس مئة محلف ومحلفة. ولما كان الاثيني العادي غير حاد الذكاء فقد كان ضروريا ان يؤلف مثل هذا العدد هيئة المحكّمين. وكان عليهم ان يسحبوا من وعاء كبير حبات الفاصوليا البيضاء والحمراء. فاذا سحبوا الحبات البيضاء تسلموا عملهم فورا، ولم يكن عليهم ان يثبتوا جهلهم المطبق قبل ان يُقبلوا في هيئة المحلفين.

صوت : طبعا ، فذلك كان امرا مفروغا منه ، ولكن كيف كان يتم اختيار الضباط العسكريين ؟

بيريكليس : كان معظم الضباط الاثينيين يختارون بالقرعة ، اما القادة العشرة الكبار ، وناظر الشؤون المالية ، فقد كانوا ينتخبون انتخابا ، ذلك انه لم يكن بالوسع اختيارهم بالقرعة ، لانه ينبغي ان تتوفر فيهم المزايا الخاصة ، سيما وانهم مؤتمنون على مبالغ من المال يتصرفون بها .

صوت : صحيح ، فأفراد الشعب من الطبقة الفقيرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هذه المراكز،فأصلهم فقراء .

بيريكليس : الم نكن على صواب في هذه الاعتبارات ؟

صوت : المسألة تحتاج الى بحث ومناقشة طويلين وليس هنا مجالها . . . فهناك عدد من الشؤون الهامة نود ان نتحدث عنها لتعميم الفائدة من هذه المقابلة .

بيريكليس : تفضل. . . سل ما بدا لك !

صوت : كانت سياستك الخارجية تهدف الى جعل اثينا زعيمة اليونان ، ولكنك عندما فشلت في تثبيت قوتها العسكرية المطلقة ، تحولت الى تدعيم قوتها البحرية . الا ان انتصاراتك الحقيقية الخالدة كانت في الميدان الفني ، ففي جملة المباني العامة التي شيدت باشرافك على الاكروبوليس ، مبنى البارثنون الذي زينه النحات الشهير فيدياس .

بيريكليس : لقد اصبحت اثينا بفضلي اجمل مدن العالم ! وهكذا كان بوسع الاثيني العادي اذا شاء ، ان يتأمل يوميا اروع الاعمال الهندسية ، والرسوم والمنحوتات في العالم قاطبة .

صوت : ولكن ما فائدته من التأمل، فمما لا شك فيه ان تأثير الاعمال الفنية على المشاهدين يبقى هو اياه في عصرنا هذا كما كان في عصر اثينا الذهبي ! . .

بيريكليس : وهل الحالة عندكم اليوم كما كانت في اثينا في قديم الزمان ؟

صوت : اجل، يا سيد بيريكليس. . . دعنا نتكلم عن شكل آخر من اشكال الفن اليوناني، أعني المسرحية اليونانية، وكانت معظمها روايات تدور حول آغاممنون وكليتمنسترا، وهي بقلم الروائيين آخيلوس ،وسوفوكليس، ويوريبيديس.

بيريكليس : وكنت انا محور هذه الجماعة الفذة اللامعة من الادباء والشعراء والمفكرين يضاف اليهم سقراط الحكيم وسواهم كثيرون . . .

صوت : كانت المسرحية اليونانية تدور حول مواضيع وقصص

معروفة ، بحيث ان المرء كان يعرف سلفا ماذا سيظهر امامه على المسرح من احداث ، كما هي الحال اليوم تماما .

بيريكليس : يدهشني ان كل شيء عندكم اليوم لم يتغير عما كان عليه في زمني .

صوت : الا تعرف القول المأثور « لا جديد تحت الشمس » ؟ !

بيريكليس : وكيف لا اعرفه ؟ انه متداول منذ ايامنا ، ومعروف عندنا .

صوت : اتيت قبل قليل على ذكر سقراط الحكيم ، وكان مفكرا كبيرا ، فماذا يمكنك ان تحدثنا عنه .

بيريكليس : كان سقراط امرءا حكيما ، وقد عُرف بلقب المعلم . كان يجوب الشوارع والطرقات حافيا يسأل هذا وذاك من المارة ، ناشدا الحكمة من الجميع صغارا وكبارا ، اغنياء وفقراء ، اصدقاء وغير اصدقاء . وكانت طريقته في ذلك المحاورة . وعلى وفرة مواهبه كان ما يفتأ يردد انه لا يعرف شيئا ، وانه ليس حكيما ، ولكنه فيلسوف محب للحكمة .

صوت : اليس هو القائل : « انا اعرف شيئا واحدا وهو اني لا اعرف شيئا » ؟

بيريكليس : اجل ، هو من قال ذلك ، وهو من كان يقول : ان الحياة المثلى هي في ان يكون المرء طيبا ، وان الفضيلة معرفة والمعرفة فضيلة .

صوت : حسنا ، فاولئك الذين يتكلمون هكذا يدعون فلاسفة ، الآن لندخل قليلا في خصوصياتك . . . ويقال انك مع اعتزازك الكبير بكل هذه الثقافة الاغريقية كنت شديد

الاهتمام بحياتك الخاصة . لم تكن رجل مجتمع ، وقلما شوهدت خارج منزلك .

بيريكليس : ذلك انني كنت اجد المتعة واللهو في البيت بدلا من نشدانها خارجه .

صوت : وكنت صديقا لامرأة حسناء ذكية تدعى اسبازيا لم تستطع الاقتران بها لانها كانت من مواليد ميليتوس ، في آسيا الصغرى ، وكان القانون يمنع الزواج بالاجنبيات .

بيريكليس : اتدري انني انا من سن ذلك القانون سنة ٤٥١ قبل الميلاد ، ولكن قبل لقائي اسبازيا .

صوت : ولكنك طلقت زوجتك تيليسيبي بتهمة انعدام الانسجام بينكما ، ونقلت اسبازيا الى البيت مكانها .

بيريكليس : ولكني اهتممت بايجاد زوج لزوجتي تيليسبى ، فكان زوجها الثالث .

صوت : وكانت اسبازيا اولى زعيمات الحركة النسائية وذلك لانشائها اول عصبة نسائية سياسية في العالم ، تقوم على مبدأ التعاون المشترك . . وكانت نساء اثينا وقتذاك في اسوأ حال، اذ لم يكن يسمح لهن بمغادرة البيت او بالكلام .

بريكليس: ومن هنا كانت التسمية عصر اثينا الذهبي!

صوت : كانت حالة المرأة اذ ذاك زرية جدا . . لم يكن يسمح لها بتناول الطعام مع زوجها عندما يكون ثمة ضيوف . وفي وجبات الطعام العادية كانت تجلس على الكرسي بينما يتمدد الزوج فوق الصفة الوثيرة ، لماذا ؟

بيريكليس : لان الزوج يكون قد تعب طوال النهار وهو يتناقش مع رفاقه في مواضيع الحقيقة والجمال ، والخير والشر ، والعدالة والحرية والاعتدال ، وسوى ذلك من الامور التي هي محور الفلسفة اليونانية المعروفة !

صوت : لم يكن بوسع الزوجات اليونانيات الخروج الى الشوارع ، بل كان عليهن البقاء في البيوت ، والتطلع من النوافذ ، وانجاب الاطفال .

بيريكليس : وبعد سن الستين كان في استطاعتهن حضور المآتم .

صوت : وافتتحت اسبازيا في منزلك صالونا ادبيا وفكريا ضم مشاهير ذلك العهد ، وكلهم من الاصدقاء امثال هيرودوتس ، وسوفوكليس ، وفيدياس ، وتوسيديدس ، ويوريبيديس ، وآنا كساغوراس ، وسقراط ، ويقال انها لقنتك اصول البلاغة ، وكانت مستشارتك في الشؤون السياسية ، وكثيرا ما ساعدتك في تحضير خطبك . . . وقد رزقتما من اتحادكما الفكري بطفل ذكر دعوتماه بيريكليس الاصغر .

بيريكليس : وكان علينا ان نثبت شرعيته باقتراح خاص في المجلس بسبب ذلك القانون اللعين الذي سننته سنة ٤٥١ قبل الميلاد .

صوت : وكان اواخر سني حياتك عاصفة ، فحروب اثينا واسبرطة شغلتك بالشؤون العسكرية الى جانب بعض القلاقل التي كنت تعانيها في اثينا . فصديقك فيدياس حوكم بعد ان القي القبض عليه بتهمتين خطيرتين . واضطر صديقك

الثاني الفيلسوف آنا كساغوراس الى هجر اثينا بعد ان هُدد بالقتل لآرائه الملحدة ، ومات ابناؤك جميعا من تيليسيبى واسبازيا .

بيريكليس : وكانت ثالثة الاثافي ـ على حد تعبيركم ـ التهمة الشائنة المتعلقة باسبازيا ، التي اثرت في نفسي ابلغ الاثر .

صوت : ولما رأى الشعب ارضه نهبا للعدو ، ووباء الطاعون تفشى فيها ، فقدت مكانتك ونحيت عن الحكم ردحا من الزمن ، ثم لم تلبث السلطة ان اعيدت اليك .

بيريكليس : وما الفائدة فقد كان الطاعون قد ترك آثاره فيَّ ، فتوفيت في خريف سنة ٤٢٩ قبل الميلاد . . .

صوت : ولكن الذي يعزي ، يا سيد بيريكليس ، ان الفترة التي حكمت فيها اثينا ، تعرف باسمك تكريما لك : انها عصر بيريكليس !

يوليوس قيصر :عالم يعيش فيه بشر احرار

(١٠١ ق. م. - ٤٤ ق. م.)

صوت : لم يدرِ قراصنة البحر الابيض المتوسط أي كنز ثمين استولو عليه عندما وقع بين ايديهم ذلك الشاب الروماني ، ذا اللون المشرق ، والعينين السوداوين والشفتين الممتلئتين .

وايقنوا انه من النبلاء، ففرضوا مبلغ عشرين طالنا فدية له. فسخر منهم يوليوس قيصر، وقال لهم انه يساوي خمسين طالنا، وتوعدهم بالعودة والاقتصاص منهم واحدا واحدا. فلما دُفعت الفدية، تمسّك يوليوس قيصر بكلامه، فقاد حملة بحرية، وأسر آسريه، واستعاد مبلغ الخمسين طالنا، ثم شاهد القراصنة يُشنقون. . .

حدث ذلك سنة ٧٦ قبل الميلاد ، عندما كان يوليوس قيصر في العقد الثاني من عمره ، ولكنه مع ذلك كان امرأ ناضجا . درس في المدرسة الكبرى في رودس حيث كانت تُدَّرس اصول القراءة والمحادثة والكتابة ، وكان واحدا من اكثر الرجال ثقافة في ايامه ، ومحدثا لامعا ، وخطيبا ، رائعا . وقد دفعته هذه المواهب وطموحه الشديد الى خوض ميدان الحياة العامة . وقد صنع اسما لنفسه عندما قام بالنيابة عن بعض المدن اليونانية بمقاضاة حاكمها الروماني بتهمة الفساد . وفركت روما عينيها لرؤ ية

الجنس السيد يُدعى لتسديد الحساب بالنسبة الى استثمار البلدان المحتلة ، الامر الذي جعل كاتون ، عضو مجلس الشيوخ ، وأحد الذين كانوا يشكون بأن كل واحد مخرب ، وضعه على اللائحة للتحقيق معه في المستقبل .

يوليوس قيصر: ولكنني، يا سيدي ، لا اكتمك انني كنت بلا ادنى مبالغة ، سياسيا محنكا ، وقد تقلدت المناصب الرفيعة الواحد بعد الآخر.

صوت : صحيح ما تقول ، وفي سعيك وراء القوة والسلطة والنفوذ تحالفت مع الشخصيات المحترمة والادنياء من الناس على السواء . ولكي تضفي على تلك المناصب الابهة التي تستحقها رحت تستدين الاموال الطائلة بلا حساب ، ثم تسددها من خزينة صديقك صاحب الملايين كراسوس . وسرعان ما جرفك حب الاناقة والانغماس في الشهوات الحسية . وطلقت زوجتك الثانية بومبيا لان « زوجة القيصر ينبغي ان تكون فوق الشبهات » وهي لم تكن كذلك . وكالسم البطيء راح فساد روما الوثنية يلقي سحبه القاتمة على مستقبلك الباهر .

يوليوس قيصر: الا انني بعد هدر سنوات معدودة في حياة لا طائل منها ، تجردت من كل عيوبي كما يتجرد المرء من ملابسه القذرة . وقبلت بتعييني حاكما على غرب اسبانيا ، حيث كنت اشاطر كتائبي العسكرية شظف العيش . وشيئا فشيئا اصبح جسدي وارادتي من فولاذ . وبلا كلل ، ووسط الحرارة والغبار والريح والثلج ، طاردت فلول الاشقياء الذين كانوا يعيثون فسادا في تلك البلاد التي ذهبت

لحكمها . وهكذا بلغت شواطىء الاطلسي في مطاردتي لهم . واضفت تلك المنطقة الى الرقعة الرومانية .

صوت : ان هذه المنطقة التي تحدثت عنها هي اليوم البرتغال . وعدت الى روما. فانتخبت بالاجماع لشغل منصب قنصل روما ، فسننت بصفتك رئيسا تنفيذيا للدولة قانونا يمنح المحاربين السابقين الذين اشتركوا في المعارك الخارجية ارضا بلا مقابل . ولكن مجلس الشيوخ ابدى معارضة شديدة لهذا القانون قبل ان تتمكن من اصداره في النهاية بمساندة بومبيوس العظيم لك ، وكان معبود الجماهير في ذلك الحين .

يوليوس قيصر : وامرت بنشر اعمال مجلس الشيوخ يوميا على اماكن بيضاء من جدران المدينة ليكون السكان مطلعين على مجريات الامور . ونجحت في سن قانون يجبر حكام الاقاليم المحتلة على تقديم حسابات عن مداخيلهم . وعندما انتهى اجل ولايتي سنة ٥٩ ق .م. سارع مجلس الشيوخ الى تعييني حاكما على بلاد الغول الرومانية ، وهي منطقة بعيدة تعيش تحت تهديد مستمر من القبائل البربرية .

صوت : هذه المنطقة التي اشرت اليها هي اليوم الجزء الجنوبي من فرنسا القائم على الساحل المتوسط . وقد كتبت بنفسك الفصل العظيم من حياتك العتيدة . وكتابك « الحرب الغولية » هو اليوم من اكثر الكتب العسكرية الكلاسيكية المقروءة من الشبان والفتيات في بلدان كثيرة . وكنت ، يا سيدي القيصر ، ذلك النوع من القواد الذين يعبدهم

جنودهم ، لانك كنت دائم التفكير في شؤ ون معيشتهم ، وفي بناء عزة الجيش . وكنت دائما في مقدمة جنودك ، فهلا حدثتنا عن حملاتك العسكرية .

يوليوس قيصر : في أول الامر تغلبت على السويسريين الذين هبوا على جنودي متدفقين من اوديتهم ، ولكنني زودتهم بالخبز والحبوب طوال سنة كاملة وببذار الذرة للموسم التالي . ولكن تهديدا اسوأ جاءني من الالمان الذين تسللوا من غاباتهم الى الالزاس شرقي فرنسا . فهزمتهم ، ثم شيدت فيها بعد اول جسر بني فوق نهر الراين ، ونقلت بواسطته الحرب الى بلادهم . وهزمت البلجيكيين على انهر المارن والموز والصامبر والصوم . وفي حملتين تأديبيتين للبريطانيين الاعداء ، عبرت بحر المانش وهزمت قوة بريطانية . وطوال ثماني سنوات ، كنت اجوب بلاد الغول من الشمال الى الجنوب مهدئا شعوبها الثائرة ، محولا اياها الى رعايا رومانيين ، ناشرا ألوية السلام والوحدة في تلك المناطق . حتى اصبحت بلاد الغول تلك قلعة جبارة مدت في حياة الامبراطورية الرومانية اربعمئة سنة من العظمة .

صوت : صحيح ، وان القانون واللغة والادب والهندسة في فرنسا اليوم ، كلها تظهر بغنى وجلاء التراث الذي خلفته ، ايها القيصر العظيم . ولعل نجاحك الكبير اذ ذاك اثار نقمة الحزب الذي كان يمثل الطبقة الارستقراطية في روما ، كما اثار حسد زعيمه بومبيوس . وهكذا عندما اوقفت كتائبك المظفرة العائدة في وادي نهر البو شمالي روما ، راح مجلس

الشيوخ ينبش فضائح قديمة تدينك ، ثم امرك بتسريح جيشك والمثول امام المحكمة في روما .

يوليوس قيصر : كنت اعــرف ان جنودي يتبعونني حيثما اريد ، كما كنت ارى بوضوح ان الجمهورية التي كانت عظيمة باتت مهددة بعد ان تسلم مجلس الشيوخ السلطة التنفيذية وبات بومبيوس آلة طيعة بيدهم . فعبرت بجرأة النهر الصغير الذي كان يشكل الحدود الشمالية لمدينة روما ، واصبحت في حرب مع مجلس الشيوخ . اما الكتائب العسكرية التي ارسلت لوضع حد لزحفي ، فانضمت إلي . وهكذا زحفت على روما بهذه القوة الهائلة ، ففر بومبيوس الى شمالي اليونان حيث قوام جيشه الرئيسي . وهناك ، ويوم التاسع من آب سنة ٤٨ ق.م. جرت المعركة الفاصلة بيننا ، فانتصرت واصبحت سيد ذلك العالم ، بينما هرب بومبيوس الى مصر لكي يثيرها ضد روما .

صوت : وتبعته الى مصر حيث قدَّم اليك ملكها بطليموس الثاني عشر رأسه ، ودهش كثيرا لانه لم يحظ هكذا بعطفك . وكان بطليموس هذا قد طرد اخته كليوباترا عن العرش مع انه حسب وصية والدهما كان ينبغي ان يحكما البلاد معا . وهكذا استقبلتك الملكة المبعدة ووجدت فيك سندا قويا لها !

يوليوس قيصر: لقدانتصرت لها بالفعل ، ومن اجلها ومن اجل روما تغلبت على بطليموس ، وضممت أغنى مملكة في العالم الى ملك روما العريض . ولكن في هذه الاثناء كان اتباع بومبيوس يجمعون قواتهم في اسبانيا وشمال افريقيا .

فاجتزت شمال افريقيا الى تونس لملاقاتهم ، وهناك واجهت كتائب اكتون العشر مع خيالة ملك نوميديا السريعة ، ومئة وعشرين فيلا حربيا . ولكن قبل نشوب معركة تابسوس زحف اليّ عدو قديم هو داء الصرع .

صوت : ولكن مع ذلك ، وعندما افقت من نوبتك لم يكن هناك اثر لجيوش كاتون ، وكان ملك نوميديا قد اصبح بلا عرش . وهكذا رحلت بعد ذلك الى روما برفقة كليوباترا والقيصر الصغير ابنكما حيث استقبلتم بحفاوة بالغة دامت اربعة ايام وانعم عليك مجلس الشيوخ بلقب امبراطور على مدى الحياة ، وكان هذا اللقب قد اطلقه عليك جنودك من فرط حبهم وتقديرهم لك .

يوليوس قيصر: وقد قبلت ذلك اللقب على سبيل التحدي لاصلاح حكومة روما التي صُممت لقرون مضت كي تناسب المدينة ـ الدولة الصغيرة التي تجاوزت طورها منذ زمن بعيد . وكان اول ما قمت به ان فتحت ابواب مجلس الشيوخ الذي كان يعتبر ناديا ارستقراطيا امام ثلاثماية عضو جديد معظمهم من التجارِ والمهنيين وممثلين عن البلدان المحتلة . ومنحت ابناء العبيد المحررين من العبودية وسكان بلاد الغول الجنسية الرومانية ، ووضعت مشروعا لمنح هذه الجنسية الى كل سكان الامبراطورية .

صوت : وحاولت وقف تدفق الجنود المسرحين والعاطلين عن العمل الى روما المكتظة بالسكان بارسال ثمانماية الف منهم للاقامة في اشبيلية وآرسال ، وكورنثشيا، وقرطاجة . وشغلت مشاريعك العمرانية الكبرى الالاف المؤلفة من

العمال. ووضعت حدا لاثراء جباة الضرائب من جراء نهب التجارة والزراعة في الاقاليم . وثبتُ النقد باعادته الى قاعدة الذهب . واستعدت من سلطة مجلس الشيوخ امر تعيين الحكام . واصلحت التقويم الذي ما نزال نتمشى عليه الى الان .

يوليوس قيصر : كان الزمن في سباق معي لأن ١٥ آذار من العام ٤٤ قبل الميلاد كان يقترب . ففي ذلك التاريخ كانت نهايتي على يد متآمرين كان معظمهم يدين لي لا بمنصبه ، بل بحياته ايضا ، فاذا بهم يغتالوني لا دفاعا عن حريات الشعب ، بل حفاظا على ميزات طبقتهم المهددة بالزوال. وقد جرى الهجوم عليَّ بحضور كل من اعضاء مجلس الشيوخ، وكان كاسكا اول المهاجمين لي من الخلف. فالتفت اليه ورددت عليه بسلاحي الوحيد: قلمي. وسدد المتآمرون ثلاثا وعشرين ضربة بعد ان طوقني ، وغرز كاسيوس خنجره في وجهي، ومن خلال الدماء التي كانت تسيل الى عيني ابصرت بروتوس ينقض علي ويطعنني في خاصرتي.

صوت : وعندها رددت عبارتك الاخيرة التي ذهبت مذهب الامثال ، وكانت باليونانية : « حتى انت ، يا بروتوس ؟ ! »

يوليوس قيصر : بالواقع صحت : « حتى أنت ، يا بني ؟ ! » وليس « حتى انت يا بروتوس ؟ »

صوت : ووقعت ميتا امام تمثال عدوك القديم بومبيوس وهرب كل المشاهدين من وجه المتآمرين الذين كانوا يشهرون

اسلحتهم الدامية ويهتفون للحرية دون ان يقابلوا بالهتاف من السكان . ووسط الحزن العام الذي زاده حدة رثاء مارك انطونيوس لك ، أحرق جثمانك على ركام من الحطب نصب في ساحة الفوروم .ولكن الخير لم يدفن بدفن عظامك فقد حملت الى الملايين من البائسين عبر بلدان البحر الابيض المتوسط اكثر انظمة الحكم عدلا ورحمة وتعقلا التي عرفتها في تاريخها . وقد تصوّرت وحققت نسبيا ، عالما يعيش فيه بشر احرار ، جميعهم مواطنون ورعايا في مجموعة بشرية كبيرة . وأخيرا وليس اخرا أسست الامبراطورية الرومانية التي نمت على حجارتها الخالدة دعائم الحضارة الغربية .

ماكيافيللي : القوة السياسية الباردة

(١٤٦٩ - ١٥٢٧)

صوت : نحن نعيش اليوم في ظل رجل من فلورنسا، في ايطاليا، رجل علم من دون سائر البشر الاخرين ان يفكروا بأسلوب القوة السياسية الباردة، اسمه نيكولو ماكيافيللي. وقد كان واحدا من المفكرين والمثقفين القلة الذين كتبوا عن السياسة لانهم كانت لهم يد في السياسة ، وعرفوا ماهيتها على حقيقتها. رسومه تبرزه لنا امرأ رقيق الوجه ، قصير القامة ، نحيلا ، ابتسامته غامضة ، وعيناه السوداوان نافذتان كما لو كانتا تودان القول انهما تعرفان اكثر كثيرا مما هما راغبتان في اظهاره . . . وقليلة هي الامور الراهنة التي يمكننا ان نؤكدها حول حياته الاولى .

ماكيافيللي : لماذا ، يا سيدي ؟ فانا ابصرت النور سنة ١٤٦٩ في اسرة كانت جزءا من الارستقراطية الصغيرة الفقيرة في فلورنسا ، وكان والدي المحامي يحاول جاهدا ان يحفظ اسرته من الانزلاق الى صفوف الطبقة المتوسطة .

صوت : وبالطبع كنت في طفولتك كسائر الاطفال الذين عرفتهم شوارع فلورنسا ومنازلها في القرن الخامس عشر . الا انك تختلف عنهم في انك تظهر على عتبة التاريخ سنة ١٤٩٨ ، وأنت بعد في التاسعة والعشرين ، وبعد شهر واحد

وحسب من احراق الراهب والمصلح السياسي سافونارولا الذي سيطر على العقود الاخيرة في القرن الخامس عشر الذي كان يودع فلورنسا . في ذلك الزمن عُينّت في منصب عادي كأمين سر لمكتب المحفوظات الثاني ، وهو منصب شغلته طوال اربع عشرة سنة كاملة ، وكنت ما ندعوه اليوم في عالمنا الحديث خبيرا يساعد في رسم سياسة ما ، تؤدي عملك بطريقة روتينية جامدة .

ماكيافيللي : لقد احببت عملي ذلك اذ كنت رجل الافكار الواقف خلف بعض الساسة الفلورنسيين ذوي القبات المنشاة ـ كما تقولون ـ والبزات الرسمية . ولانني اتقنت عملي ونجحت فيه فقد راح اولئك الساسة ينظرون الي نظرتهم الى امرىء يستطيعون ان يلقوا على كاهليه اثقال العمل الاداري ، امرىء يحبر الاوراق ويرسل الاوامر ويتولى المراسلات ويحفظ السجلات والقيود ، او ما تعارفنا على تسميته حفظ الارشيف .

صوت : وفي الوقت المناسب ، ولما كانت فلورنسا كسائر المدن ـ الدول الايطالية الاخرى تعيش وسط عصر المؤامرات وتعتمد على الدبلوماسية الماهرة الذكية لتأمين وجودها واستمرارها ، فقد وسعوا صلاحياتك ومدى عملك ، واوفدوك في مهمات دبلوماسية عديدة .

ماكيافيللي : في غضون عقد من السنين زرت بصفتي موفدا غير رسمي كل مدينة ـ دولة ذات اهمية في ايطاليا ، وعددا من البلاطات خارج ايطاليا . وقد ارسلت تقارير كثيرة حول تلك المهمات التي كلفت القيام بها .

صوت : وهي تقارير على الرغم من صعوبة فهمها للحقائق الدبلوماسية ما يزال ممكنا ان تُقرأ حتى في ايامنا هذه .

ماكيافيللي : على اي حال ، يا سيدي ، لقد اعتبرت المهمات تلك والتقارير التي كتبتها حولها ناجحة . فلقد اجتمعت بمحركي ومثيري العالم انذاك ، فاتسع بذلك افق فلورنسا الضيق ، وانفتح على نظام اوروبا السياسي .

صوت : وهكذا اتيح لك المجال لكي تصبح المحلل الاول الحديث للقوة والسلطة . وفي حين كان الاخرون ينظرون الى التماثيل ابقيت عينيك مسمرتين خلف الستائر . كنت تبحث عن جوهر سير الاحداث وابعادها ، وكنت تريد معرفة ماذا يجعل للامور علامات فارقة ، وبمعنى آخر كنت تود ان تفكك اوصال ساعة العالم قطعة قطعة لكي تعرف كيف تعمل بالضبط . وهكذا ذهبت في مهمات خارجية ، ونظّمت جيوش فلورنسا .

ماكيافيللي : الا انني مع ذلك كنت دائما مهتما بما يمكن ان تعلمني اياه تلك التجارب حول طبيعة السلطة وفي عصر ساد فيه فن الرسم كان كذلك من الطبيعي بالنسبة الي ان اكون رساما . . . ولكن الاشخاص الذين كانوا مواضيعي لم يعرفوا قط انهم كانوا يجلسون امامي لارسمهم . وهكذا درست البابا يوليوس الثاني ، والامراء الزمنيين المعروفين باسم الكوندوتييري ، وفي طليعتهم درست سيزار بورجيا والدوق فالنتينو الذي كان اقرب ما يمكن من تجسيد المثل الصحيح المجرد للسلطة واكثر من اي امير اخر عرفته او قابلته في حياتي .

صوت : وكان في نفسك كما كان في نفس سافونارولا شعلة حادة ولافحة ، الا انها كانت شعلة زمنية . والاشياء التي كانت تتغذى بها لم تكن كتلك الاشياء المصنوعة منها الاحلام الدينية . ورجل كهذا الرجل كان بامكانه ان يحيا طوال حياته على افضل وجه ، ويتمتع ببعض السلطة والقوة ، ويعرف ما معنى ادارة دولة من وراء الكواليس كتابع او مرؤوس ضئيل الشأن،ثم يموت مخلفا بعض التقارير الدبلوماسية الممتازة وعدداً من الروايات المسرحية ، وبعض القصائد المصقولة باسلوب ذلك العصر . الا ان مصير ماكيافيللي كان مختلفا .

ماكيافيللي : ماذا تريد ، يا سيدي ؟ انت على حق في كل ما ذكرت ، فالاسر المالكة الصغيرة والامراء البورجوازيون التجار الذين كانوا يحكمون المدن ـ الدول الايطالية كانوا يلعبون لعبة الدبلوماسية المشؤومة طوال القرن الخامس عشر ، حتى جرتهم تلك اللعبة في النهاية جميعا في القرن السادس عشر الى الدمار والهلاك. وليس هنا مجال استعراض تعاقب المناورات التي ارادت بها كل من فرنسا واسبانيا فالمانيا والبابوية السيطرة على ايطاليا . وعندما حدث الانشقاق بين فرنسا والبابوية اثر اعلان عصبة كامبريه تمسكت فلورنسا بتحالفها الاساسي مع فرنسا . وعندما طرد البابا يوليوس الثاني الفرنسيين من ايطاليا ضاعت فلورنسا ولم يستطع الجيش الجديد الذي عبأته من المواطنين الفلورنسيين ودربته افضل تدريب ، الصمود امام قوة البابا المعنوية وقواته المؤلفة من المرتزقة

السويسريين . وكان من شروط السلام البابوي اعادة آل ميديتشي الى حكم فلورنسا .

صوت : وهكذا وجدت نفسك انت الذي كنت جمهوريا متصلبا ومتشددا في عداوتك لآل ميديتشي في سنة ١٥١٢، وفي سن الثالثة والاربعين، رجلا حـر التفكير، منبوذا، لاعمل لديك في عالم راح ينهار امامك فتسمع صوت انهياره بأذنيك. وحاولت ان تتوصل الى نوع من الصلح مع آل ميديتشي ولكن دون جدوى، لماذا يا ترى ؟

ماكيافيللي : لقد كان جو فلورنسا اشبه بجو مطاردة المشعوذين فكان كل واحدمتهماً لمجرد انه عرف بعطفه على قضية التحرر ، وعرف عنه تفكيره الحر . وقد وضع اثنان من المتآمرين المتحمسين الشبان لائحة ضمناها اسماء من اعتبروا ان بامكانهم الاعتماد عليهم من اجل المعونة. وكان اسمي بالطبع على تلك اللائحة فألقي القبض علي وجررت بالحبال وانزل بي اشد انواع التعذيب . ولكنني كنت بريئا من كل تهمة . وسرعان ما ظهر ذلك جليا للعيان فافرج عني وانسحبت للعيش في احدى المزارع الصغيرة في الضواحي بالقرب من فلورنسا .

صوت : وطوال الاربع عشرة سنة التي تبقت لك من الحياة في العالم الاول كانت رسائلك مليئة بالنداءات لكي يصفح عنك آل ميديتشي فتعود لتنعم برضاهم وبرضى البابا كما كانت تلك السنوات مليئة بالخطط الكفيلة بتزكيتك لديهم وبالمخططات التي يمكن ان تلفت اهتمامهم الى مواهبك

الجمة . وتلك صورة لك ليست جميلة ولا تليق بك، على حد تعبير الكثيرين من المعلقين الذين يتفقون حول هذا الموضوع .

ماكيافيللي : الواقع ، يا سيدي ، انه ينبغي القول ان ماكيا فيللي بلا اي منصب اوعمل ذي قيمة كان كالسفينة المهملة التي لا فائدة منها . ولعل الرسائل التي تركتها وتحدثت عنها قائلا انني كتبتها في تلك الفترة من حياتي على الرغم من كبريائها المرير واسلوبها المرح انما تدل على ان مطالبتي بعودتي الى منصبي الحكومي لم تكن تعني بالنسبة الي شيئا اقل من العودة الى الحياة نفسها .

صوت : ولكن من سخرية الاقدار ان تلك الفترة من حياتك، فترة خزيك السياسي ، تمثل ذروة قوتك الخلاقة . ذلك بأن الراحة التي فرضت عليك فرضا اكرهتك على العودة الى ذاتك فبعد ان وجدت نفسك بعد اربع عشرة سنة محروما من عملك ، شعرت بأنك مسجون كالعصفور في قفص حديدي فكانت النتيجة كتبك العديدة أنشودة عزلتك . . .

ماكيافيللي : صحيح ، فقد رحت اهتم اكثر فاكثر بالدروس والتفكير ، ومنها ولد كتابي « الامير » المعروف ، ثم كتبي الاخرى «فن الحرب» و«المقالات»،«وتاريخ فلورنسا » ، وعدد من المسرحيات وفي مقدمتها ملهاة من الطراز الاول في نظر الكثيرين من النقاد عنوانها « ماندراغولا» ، ثم مجموعات من القصائد والقصص القصيرة والسير .

صوت : وهكذا اصبح الموظف الحكومي والسياسي والدبلوماسي والمنظم العسكري اديبا وكاتبا رغما عنه . ولكن بقي فقط الفصل النهائي الساخر . ففي سنة ١٥٢٧ دحرت الجيوش البابوية ونهب روما جنود شارل الخامس الاسباني . في تلك الفترة قام الحزب الشعبي في فلورنسا بانقلاب فأطاحوا بحكم آل ميديتشي ، ولفترة قصيرة اعادوا الحكم الديمقراطي فعدت الى فلورنسا على جناح السرعة متشوقا الى استعادة منصبك كأمين سر كالسابق ، ولكنك لم تكن موفقا ولم يتح لك المجال لذلك بسبب كتابك « الامير » .

ماكيافيللي : الواقع ان « الامير » كان قد انتشر كمخطوطة في مختلف الاوساط فأوجد لي الكثيرين من الأعداء. فقد خشيني بسبب ذكائي وشهرتي عدد من الرجال البليدين، الحقيري النفوس ، وكانت في متناولهم القوة والسلطة لتعييني في ذلك المنصب فحرموني اياه .

صوت : ولكن العناية الالهية رأفت بك فقد مرضت ولم تعرف قط ان الاقتراع الاخير في المجلس كان في اكثريته الساحقة ضدك . فقبل ان تصلك تلك الانباء كنت قد ودَّعت الحياة الدنيا . وهكذا مات ماكيافيللي الرجل الذي امَّل ان يستعيد اخيرا المجد بعودته الى المنصب الحكومي في فلورنسا التي احب وضحى من اجلها بحياته . مات مخلفا وراءه وحسب الذكرى وبعض الكتب التي وضعها في المنفى .

ماكيا فيللي : الحمد لله اولا وآخرا على انني تركت كما تقول الذكرى

وبعض الكتب التي ارجو ان تكون ذات فائدة وقيمة .

صوت : الواقع ، يا سيدي ماكيافيللي ، ان الذكرى التي تركتها خالدة خلود كل رجل يترك آثار قدميه على رمال هذا الوجود ـ على حد تعبير الشاعر الانكليزي وردزوورث . اما كتبك ، واشهرها في عرف الكثيرين كتاب الامير الذي يدرّس مع كتابك المقالات في المدارس فخالدة كذلك لانها ذات فائدة وتعتبر من الكتب التي بدّلت وجه العالم . . . ولذا سنستعرضها فيما يلي ببعض الايجاز تعميما للفائدة ، فما رأيك في ذلك ؟

ماكيافيللي : ليس احب الي من ذلك فحديث الكتب هو كل ما تبقّى لي من عملي طوال حياتي . . . فهات ما عندك .

صوت : حسنا . . . لنبدأ بكتابك « الامير » الذي كان السبب في شهرتك واحتقارك في آن معا . كتبت هذا الكتاب سنة ١٥١٣ بسرعة فائقة وحرارة جنونية ، لم يستغرق منك سوى بضعة اشهر ، وقد اهديته الى الامير لورنزو دي ميديتشي وقدمته اليه ، ولكنه اهمله . غير انه نشر كمخطوطة كما ذكرنا ، في حياتك ، ولعله نسخ وزيّف وزيد عليه بحيث افسد ، ولكن نال شهرة كبيرة ككتاب سري . وبعد وفاتك اصبح « الامير » واحدا من نصف دزينة كتب عملت كثيرا على قولبة التفكير السياسي الغربي .

ماكيافيللي : الواقع ، يا سيدي ، ان الكتاب الاول الذي شئت ان اؤلفه لم يكن كتاب « الامير » الذي عرف تلك الشهرة . كان العصر الذي عشت فيه عصر انبعاث المعرفة الانسانية

القديمة . كنت اطالع مؤلفات الكتّاب الكبار التقليديين ، ولما كنت لا اتقن اليونانية فقد كنت اقرأ مؤلفات كبار الكتّاب اليونانيين مما ترجم الى اللاتينية . وكانت قراءاتي تحشد في فكري التجارب المختلفة التي مرت بي في حياتي . ومن جراء تفاعل القراءة مع التجارب راحت تتجلى امامي اراء جديدة في السياسة ، فكنت ادونها بشكل ملاحظات وتعليقات وحواش ، سرعان ما كونت كتابا ضخما لم يكن كتاب « الامير » في حال من الاحوال .

صوت : وماذا كان اذن ؟

ماكيافيللي : كان كتابي الضخم الآخر المقالات الا انني بسبب تصميمي على جعله كتابا شاملا واسعا بكل معنى الكلمة وبسبب ما كان يجري من احداث طارئة حوالي في تلك الفترة فانني وجدت ان معالجة تلك الاحداث في كتابي المقالات الذي سيتأخر صدوره بسبب اتساع مواضيعه ، اضطررت الى اجتزاء بعض المقاطع والاراء منه ووضعها في كتيب مستقل يكون تداوله اسرع ، وهكذا ابصر النور كتاب « الامير » .

صوت : انه بمثابة كتاب الصرف والنحو ، او كتاب قواعد علم فن السلطة ، ليس وحسب للقرن السادس عشر بل لكل الاجيال التي اعقبت ذلك . وفي نهاية هذه المقابلة اسمح لنفسي بالقول ان القليلين ممن يتحدثون عن « الامير » قد قرأوا اكثر من بضع عبارات منه ولكن اقل منهم اولئك الذين قرأوا كتابك الآخر الذي لم يكن له ذلك الاشعاع

الذي كان لكتاب « الامير » مع انه الكتاب الافضل والاشمل والاكثر فهما، عنيت كتاب « المقالات » .

ماكيافيللي : صحيح ، وهو كذلك الكتاب الاطول والاصح الذي انهمكت في تأليفه عندما اضطرتني الانتهازية السياسية الى القفز فجأة الى اصدار كتاب « الامير »، وقد عدت من حسن الطالع اليه وانهيته في غضون عقد من السنين . ودعني ، يا سيدي ، في هذا المجال اشكرك على هذه المقابلة.

صوت : العفو ، يا سيدي ماكيافيللي ، ولكن اسمح لي ان انهي هذه المقابلة بتقييم « الامير » و« المقالات » ، وذلك بالموازنة بينهما ما دام المجال لا يتسع لاستعراض مواضيعهما . شئت ان اقول ان « الامير » اذا كان شهيرا بسبب كثافته ، فان « المقالات » شهيرة بسبب تنوعها . واذا كان « الامير » شهيرا بسبب جدليته فان « المقالات » شهيرة بسبب توازنها . واذا كان « الامير » شهيرا لانه يقدم الينا قواعد السلطة للحكومة ، فان «المقالات » شهيرة لانها تمنحنا فلسفة الوحدة العضوية ليس في حكومة بل في دولة ، والحالات التي في ظلها وحدها يمكن لثقافة ان تحيا وتزدهر .

ماكيافيللي : شكرا جزيلا ، يا سيدي ، على هذا التحليل الرائع حقا !

تاليران : الشيطان الاعرج

(١٧٥٤ - ١٨٣٨)

صوت : لا تتم اي صورة ضاحكة للقرن الثامن عشر في فرنسا ما لم تتخللها الوان وخطوط تشكل رجل الدولة الفرنسي الداهية تاليران الذي قال وهو يلفظ انفاسه الاخيرة : « ان الذين لم يعيشوا في القرن الثامن عشر لم يتذوقوا لذاذات الحياة». ان الرجل الذي ردد هذا القول كان من اذكى الرجال الذين جاؤوا الى هذا العالم. ولعله كان اكثرهم خفة روح ، واكثرهم تعرضا للسخرية : فلقد كان اعرج .

تاليران : شكرا ، يا هذا ، على المقدمة الرائعة التي وصفتني بها ودعني اكمل الصورة التي رسمتها لي فأقول انني عرفت بلقب « الشيطان الاعرج » .

صوت : حسنا، وهذه عبارة تلخص نظرة الكثيرين اليك لابد من ايرادها وهي : «لقد باع تاليران كل الذين اشتروه.»

تاليران : وهناك عبارة اخرى لا اود ان تبقى طي الكتمان وهي «ان تاليران يدفع الثمن لكي يشتروه » .

صوت : والان دعنا نتوغل في مسالك حياتك الصاخبة ، ونستمتع قليلا بنتاج ظرفك وخفة روحك ونوادرك المستملحة . فأنت تدعى شارل - موريس دو تاليران - بيريغور ، ولدت في باريس سنة ١٧٥٤ وتوفيت فيها سنة ١٨٣٨ .

تاليران : تماما ، واختُصر الاسم الطويل بتاليران . وهذا على ما اعتقد ما تقرأه عني في التعريف الذي يورده معجم « لاروس الصغير » .

صوت : وقد قسا عليك معظم المؤرخين ، ونعوا عليك انك خدمت كوزير للخارجية الفرنسية في خمسة عهود مختلفة متعاقبة هي : الثورة الفرنسية ، والديركتوار ، والامبراطورية ، وعهد آل بوربون (اي زمن الملك لويس الثاني عشر) ، وعهد آل اورليان (زمن الملك لوي - فيليب) ، وانك خنت العهود الخمسة جميعا .

تاليران : ماذا تريد ، انها الحقيقة المرة المؤلمة ، ولكن اعلم انني لم اتآمر الا عندما كنت اجد نصف فرنسا شريكة لي في المؤامرة .

صوت : ولكن هناك اسبابا تخفيفية كانت تحول دون نقمة الناس عليك ذلك بأنك كنت امرأ ظريفا ، خفيف الروح ، بل كنت سيد النكتة الذكية في عصرك .

تاليران : شكرا لك ، يا سيدي .

صوت : كنت عنوان الدهاء السياسي ، ولقد احسنت وصفك مدام دو ستال وكانت بك معجبة لحسناتك وسيئاتك على السواء - اذ قالت : « موريس هذا الطيب يشبه كثيرا الدمى الصغيرة التي تمثل الجنود ويلهو بها الاطفال . . رؤوسها من فلين وسيقانها من رصاص ، مهما قلبتها فانها دائما تقف على اقدامها » .

تاليران : ذلك هو الواقع . فبالرغم من ماضي الثوري والخدمات

الجلى التي قدمتها الى عهد الامبراطورية ، استطعت بدهائي ان احظى بعطف الملكية وتقديرها بعد اعادتها .

صوت : لك قول رائع اطلقته في البلاط بعد عودة الملك لويس الثامن عشر الى العرش ، اتذكر ما هو ؟

تاليران : بالطبع ، اذكره . قلت اذ ذاك : « كان هناك مئة ملكي في المنفى فعاد اليوم منهم خمسون الفا ! »

صوت : ولم يكن ليهمك في شيء ان تكسب خصومة صديق في سبيل نكتة او قول لاذع في محله .

تاليران : وانا القائل في هذا الصدد : « ان الكلمة افضل كثيرا من الصديق » !

صوت : هلا اسمعتنا ، يا سيد تاليران ، بعض كلماتك الرائعة .

تاليران : اسمع : « الكلام اعطي للانسان لاخفاء فكره»، و«سمعة الرجل مثل ظله ضخمة اذا سبقته، هزيلة اذا جاءت وراءه » .

صوت : ولك قول شهير يثبت انك كنت تعلم تماما انك ممن لا يستغنى عنهم وهو : « انا احمل الشؤم للحكومات التي تهملني ».

تاليران : صحيح ، وهل من العار على الرجل ان يعرف قدر نفسه ؟

صوت : بالطبع لا . . يقول ساشا غيتري في احد كتبه : « صحيح انني اجهل كل شيء عن السياسة ولا يهمني ان اعرف عنها شيئا ، ولكن يبدو لي انه ليس من المعقول ان يطلب الى

امرىء من عيار تاليران ان يكون خلواً من المطامح ، متواضعا ، صريحا ، قلبه على يده !

تاليران : شكرا لساشا غيتري على هذا التقدير .

صوت : حسنا لنعد الى بعض نوادرك .اتذكر ماذا كنت تقول عن الاديب المعروف شاتوبريان ؟

تاليران : الحقيقة انني لم اكن احب شاتوبريان هذا . وقد قلت يوما مداعبا : « يعتقد انه مصاب بالصمم لانه لم يعد يسمع من يتحدث عنه . »

صوت : يا لها من مداعبة قاضية ؟ أوَ تذكر كذلك ما قلت للسيدة التي ارادت ان تعرّض بعرجك وكان في عينيها حول ؟

تاليران : سألتني : « كيف تسير الامور ؟»فأجبتها : « كما ترين » !

صوت : لقد رددت لها الكيل كيلين ، كما يقول المثل العربي .وهل تذكر ذلك النقاش الذي احتدم مرة امامك عن فائدة وجود مجلس الشيوخ ، وما قيل عن وجود ضمائر فيه ؟

تاليران : لم اكن ارى اي فائدة من وجود مثل هذا المجلس ، ولكن لما قيل لي ان فيه ضمائر قلت من فوري : « آه ، فيه ضمائر كثيرة . . وكثيرة جدا .خذوا سيمونفيل مثلا فان له ضميرين » !

صوت : على ذكر الضمير ما نزال نذكر قول الماريشال دولان (او الدوق دو مونتيبيللو) ، وكان امرأ شريفا ولكنه يبغضك كثيرا . نعى عليك تلونك وجشعك وشراهتك ومراءاتك ، فوصفك بقوله : « اذا تلقّى تاليران رفسة في مؤخره فان وجهه لا يفضح شيئا » !

تاليران : ساحه الله ! ولقد سبق ان قلت انه كان يبغضني كثيرا .

صوت : وكنت دبلوماسيا من طراز رفيع . فعندما اعلن في باريس نبأ وفاة الملك جورج الثالث البريطاني دون ان يؤ يد رسميا جاء من سألك الخبر اليقين ، فأجبته بأروع ما يمكن ان يصدر عن دبلوماسي ماهر .

تاليران : بربك هل كان يمكن ان اجيب بأفضل مما اجبت ؟ قلت : « البعض يقولون ان ملك انكلترا قد مات ، والبعض الاخر يقولون انه لم يمت . انا شخصيا لا اصدق هؤلاء ولا اولئك . استودعك السر ولكن ارجو الا تورطني ! »

صوت : كان نابوليون شديد الحذر منك يا تاليران ، فقال لك ذات يوم بعصبية وحدة : « انك تعتقد خطأ انني اذا ما مت يوما ستكون عضوا في مجلس وصاية او رئيساً له . انك واهم جدا فستموت قبلي . » فماذا قلت له ؟

تاليران : قلت له : « ما كنت اشك في ذلك ، يا سيدي ، ولذا تراني ابتهل اليه تعالى يوميا كي يحفظ جلالتك ويمد في اجلك ».

صوت : ولم تكن تحب الكتابة ، فكنت عندما لا تجد مفرا من الرد على احدى الرسائل تعتمد الاسلوب البرقي . وقد عثر اخيرا على بطاقتين رددت بهما على امرأة اعلمتك بترملها ، ثم عادت فاخبرتك بزواجها .

تاليران : اذكر هاتين البطاقتين : كتبت الى الارملة لدى قراءتي نبأ وفاة زوجها : «سيدتي العزيزة ، هيهات ! المخلص لك!»

وكتبت اليها عندما عرفت بزواجها مجددا : « سيدتي العزيزة ، برافو ! المخلص لك ! »

الصوت : ولم تكن سياستك مع الكهنة على ما يحب هؤلاء ويشتهون ، فلما اشتد عليك المرض يوما قال احد رجال البلاط للملك لويس الثامن عشر مضطربا : « لا اعرف ماذا ينوي تاليران ان يفعل مع الكهنة لتنظيم المأتم . » فقال الملك له : « هون عليك ، فان تاليران قد عرف كيف يعيش ، ولا بد له ان يعرف كيف يموت . »

تاليران : كان ، والله ، رجلا ظريفا ، لويس الثامن عشر هذا .

صوت : عندما سئلت لماذا يعمد السياسيون غالبا الى تجهيز الاضطراب الاجتماعي بدلا من بذل كل جهودهم لابعاد شبح التهديد أجبت بعبارة لخصت فيها كنه السياسة ، فماذا قلت ؟

تاليران : قلت : « لماذا ؟ لان السياسة كانت وما تزال ، وستبقى ، طريقة معينة لاثارة الشعب قبل استخدامه في غايات شتى . »

صوت : شكرا جزيلا لك ، يا سيد تاليران ، على هذه المقابلة الممتعة . ولكن اسمح لي قبل ان اودعك ان اروي هذه النادرة التي جرت لك مع الملك لويس الثامن عشر : « في سانت ـ اوان وعد الملك لويس الثامن عشر رسميا باعلان دستور جديد ، وقد وضع هذا الدستور بسرعة فائقة . وعشية اعلانه اطلع الملك رئيس الحكومة الموقتة تاليران على مضمونه . فقال له تاليران : «مولاي ، اني الاحظ

ثغرة في الدستور. » فسأل الملك: «وما هي؟ » فأجبته: « رواتب اعضاء المجلس النيابي . » قال الملك : « ولكنني اريد ان تكون مناصبهم بلا اي مقابل ، فذلك يجعلهم ارفع مقاما في نظر الدولة والجميع . وكان تعليقك الفوري : « صحيح يا مولاي ، ولكن المجانية تكلف غاليا ! »

تاليران : بربك ، أليس صحيحا هذا القول ؟

غاندي : رسول اللاعنف

(١٨٦٩ - ١٩٤٨)

صوت : غاندي واحد من اغرب متناقضات التاريخ - جندي يحارب بسلاح قديس . فهل كانت رسالته ووسائل تحقيقها صحيحة ؟ الاجيال المقبلة وحدها هي التي تستطيع ان تقرر لنا ذلك ! اما بالنسبة الينا نحن الجيل الحاضر ، وفي هذه المقابلة السريعة فان ما يهمنا في الدرجة الاولى ان نستعرض حياة هذه الشخصية الفذة الغريبة ، التي حاولت ان « تطبع صورة الله على وجوه الوحوش » . . .

اسمه الكامل موهنداس كارامنشند غاندي . اما لقبه المهاتما - اي الروح الكبرى - فقد اطلقه عليه اتباعه . وقد اعتبر الاها .

غاندي : صحيح انني ادعى المهاتما غاندي ، ولكني رجل عادي . فقد اخطأت كثيرا . ويمكنك ان تعتبرني جنديا رقي مصادفة الى اعلى الرتب . ولعلني ابسط جنرال حظي به اي جيش .

صوت : ولكنك اكتشفت طريقة جديدة للحرب . افلست انت القائل ان استقلال الهند سيكون نتيجة قوة الروح لا قوة الجسد ؟

غاندي : اجل ، وذلك هو حكم كل ديانات العالم العظمى !

صوت : سيدي المهاتما ، دعنا نبدأ قصتك من البداية .

غاندي : انه أمر طبيعي ، اليس كذلك ؟

صوت : ابصرت النور سنة ١٨٦٩ ، فلم تمضِ ثلاثة عشر عاما على مجيئك الى هذا العالم حتى زوجت على كره منك جريا على عادة الهنود الذين يتزوجون في سن مبكرة . فثمة أمهات لا يجاوز عمرهن العاشرة او الحادية عشرة . . .

غاندي : ولما كانت نفقات الزواج الهندي طائلة لا قبل لوالدي بتحملها ، فقد ارتأيا ان يعقدا لي ولاخي وابن عمنا في وقت معا ، توفيرا منهما واقتصادا . فكانت هذه الخطوة ثورة مصغرة على التقاليد البالية .

صوت : وخطوت وعروسك الخطوات السبع المفروضة على العروسين وانتما تعضان على قطعة من الحلوى ، فتم بذلك ربطكما برباط الزوجية المقدس .

غاندي : وكتبت بعد ذلك بسنوات عديدة اقول :«كنا اربعة اخوة نتلقى الدروس في احد المعاهد الثانوية . وكان البكر فينا اعلى مني صفا . اما اخي الذي تزوج في اليوم الذي تزوجت فيه انا فكنت اسبقه بسنة مدرسية واحدة ، ولكنه لم يستطع انهاء دروسه ، فكان الزواج وبالا عليه من هذه الناحية . ففي المجتمع الهندي تمشي المدرسة والزواج جنبا الى جنب.»

صوت : وفي التاسعة عشرة من سنيك سافرت وزوجتك واولادك الى انكلترا لتتلقى علومك القانونية في احدى جامعاتها .

وكنت ترتدي الملابس الاوروبية والقبعة الفرنجية .

غاندي : وفي الجامعة اهتممت بمراقبة زملائي الانكليز ، وفي احيان حاولت حتى مجاراتهم في ما يفعلونه . فأكلت لحما في احدى مآدبهم «البربرية» ولكني كدت اقضي من فرط القرف الذي احسست به بعد ذلك . وقد جفاني النوم طوال ليالٍ عدة وكنت اشعر كأنني مجرم قاتل .

صوت : وبعد قضاء ثلاثة اعوام في لندن ـ وهي فترة تقول لنا انك « اضعت الكثير من الوقت والمال محاولا ان تصبح انكليزيا » ـ عدت الى الهند ، وكان ذلك سنة ١٨٩١ وعزمت على ممارسة مهنة المحاماة في المحكمة العليا في بومباي . ومع انك رفضت كل الدعاوى والقضايا التي اعتبرتها غير محقة ولا قانونية ، الا انك سرعان ما جمعت حولك عددا لا بأس به من الزبائن الموكلين .

غاندي : يجمل بي هنا القول انني بسبب خجلي وعصبيتي خسرت اول دعوى تسلمتها ، ذلك بأنه عندما حل دوري لالقاء مرافعتي ، غلبني الخجل وسلمت الدعوى الى محام آخر .

صوت : حسنا ، وعلى الرغم من انك نجحت بعد تلك الدعوى الاولى ، حتى بلغ دخلك السنوي حوالي ٢٥ الف دولار ـ حسب قول صديقك « غوخيل » ـ وبت قبلة انظار الشباب الهندي الطموح ، فانك تركت فجأة كل هذا المجد لانك وجدت قضية جديدة اجدر باهتمامك : قضية المضطهدين ضد بغي مضطهديهم وطغيانهم .

غاندي : ولم تكن خدماتي المطلوبة من اجل هذه القضية قانونية الطابع ، بل معنوية وادبية .

صوت : ودعيت الى بريتوريا ، في جنوبي افريقيا ، للتوكل عن امرىء في دعوى على جانب كبير من الاهمية . وكان يعيش اذ ذاك في تلك الجالية البيضاء المتمدنة زهاء مئة وخمسين الف هندي ذاقوا أمرّ الاضطهاد وعندها قررت ان تأخذ على عاتقك امر انصاف هؤلاء ونصرة قضية العدالة ضد القوة .

غاندي : ولكنني بعملي هذا اثرت حفيظة السكان الاصليين والانكليز الذين خشوا منافستي بعد ان ذاعت شهرتي الخطابية ، والتف حولي عدد كبير من الهنود المتخرجين في المعاهد البريطانية . ولقيت بدوري كل انواع الاهانة : لم يكن يسمح لي بالسفر في القطارات الحديدية مع البيض ، ولا النزول في فنادقهم .

صوت : ولكن كل تلك الاضطهادات والعقبات التي اعترضت سبيل نصرتك قضية الملونين لم تزدك الا تشبثا بموقفك وصلابة وعنادا ، فعدت الى الهند لتصحب زوجتك واولادك . وقد كان وعدت واسرتك سنة ١٨٩٦ الى ناتال في افريقيا الجنوبية على ظهر الباخرة « كورلاند » التي سارع اعضاء « لجنة تخفيض الهجرة الافريقية » الى رفع عريضة للحكومة يطلبون فيها حجز الباخرة بسبب وباء الطاعون الذي كان منتشرا وقتئذ في الهند والخوف من ان يكون بعض المسافرين عليها مصابا فتنتقل العدوى الى سكان الاتحاد الافريقي .

غاندي : واستمر الحجر الطبي ذاك ـ او الكرنتينا ـ ثلاثة وعشرين يوما سمحت بعدها وزارة الصحة للركاب بالنزول الى

اليابسة.غير ان جموعا غفيرة من السكان هرعت الى الميناء مهددة بقتل كل هندي تطأ قدماه الارض الافريقية .

صوت : ولكنك لم تبال ، بل شققت طريقك بين الجماهير المحتشدة ، فكنت ، مع رفاقك ومرافقيك ، هدفا للحصى والعصي والرفس وكدت تقضي وانت في الطريق الى منزلك لو لم تنقذك الشرطة .

غاندي : لم اصدق انني سأنجو بحياتي . ولكن بالرغم من هذا كله لست حاقداً على جلاديَّ هؤلاء . . .

صوت : الا ان هذا الحادث اكسبك العديدين من الاصدقاء الاوروبيين الذين خجلوا من تصرف ابناء جلدتهم ومواطنيهم، فكانوا لك مذ ذاك عونا في عملك من اجل القضية التي نذرت نفسك لها.

غاندي : وكنت بدوري مخلصا للحكومة فلما اندلعت نيران حرب البوير انشأت فرقة اسعاف هندية عملت طوال الحرب جنبا الى جنب مع فرقة الاسعاف الاوروبية لمساعدة الجرحى والمرضى في الجيش البريطاني .

صوت : وعدت الى الهند بعد اتمام معركتك في افريقيا الجنوبية ، وكان لك من العمر ست واربعون سنة ، فأقمت بالقرب من مدينة حيدر آباد حيث انشأت طائفة دينية يستطيع كل شخص ، بغض النظر عن دينه وجنسه ، الانضمام اليها بشروط . هل لك ان توجز لنا هذه الشروط ؟

غاندي : كان على جميع الاعضاء التعهد بما يلي :

اولا : قول الحقيقة دائما .
ثانيا : عدم محاربة الاخرين ، ولا الحقد عليهم .
ثالثا : اكل ما هو ضروري للحفاظ على الصحة فحسب .
رابعا: عدم اقتناء اي شيء ما لم يكن ضروريا.

صوت : وفي الهند وضعت نصب عينيك هدفا واحدا هو طرد المستعمرين من بلادك . وهكذا اصبحت بطلا وطنيا هنديا بعد ان كنت محاميا بريطانيا ، فنبذت لباسك الاوروبي وارتديت بدلا منه اللباس الهندي ، لباس اجدادك ، وصرت تمشي حافيا . وسرعان ما تجعد وجهك واخذت اسنانك تتساقط الواحدة اثر الاخرى . وما هو الا عام واحد حتى اصبحت رجلا جديدا غير الرجل الذي كان ، يحاول ان يتخلص من البريطانيين بسياسة العصيان المدني وعدم استعمال العنف معهم واعلان الصيام حتى بلغ صيامك مرة واحدا وعشرين يوما .

غاندي : كان هدفي عصيان القوانين البريطانية بلطف وهدوء حتى يمل الانكليز من ذلك ويتركونا وشأننا.وتلك هي السياسة التي عرفت بسياسة اللاعنف وانطلقت في ٦ نيسان من سنة ١٩١٩ .

صوت : واستمرت هذه الحرب الغريبة العجيبة بين الايمان والقوة لانك لم ترض بأقل من استقلال الهند وتحررها . ودخلت السجن مرارا ، واقمت فيه فترات طويلة ، ولكن المرارة التي عرفتها في كفاحك هذا سرعان ما اثمرت اينع الثمار

واحلاها ، وحققت لوطنك العزة والرفعة والتحرر . . .
كل ذلك بفضل تضحيتك الكبرى .

غاندي : الحمد لله . . . اسمع ما كتبته سنة ١٩٣١ في مذكراتي :
« ان الطريق الى الطهارة وعر ، وينبغي لمن يريد الوصول الى هذه المرتبة العليا ان يتسامى عن التيارات المعاكسة كالحب والبغض والكلف والنفور ، ليصبح مجردا من العواطف والافكار في الاقوال والاعمال على حد سواء .
اما الانتصار على هذه العواطف فهو اصعب كثيرا من الانتصار على العالم بأسره بالسلاح . ان امامي لطريقا طويلا ، وعرا علي ان اسلكه . يجب ان اصبح مساويا للصفر . فالانسان لا يرضى ان يكون في المؤخرة من تلقائه فعبثا يسعى للخلاص . . »

صوت : اذكر ان الممثل الهزلي الاميركي الشهير تشارلي تشابلن كتب اليك يوما يقول : «انا لست ممثلا هزليا ، ولكني اهتم بالمآسي ، وانت اكبر مأساة عرفها هذا العصر . انت روح ، فكم اكون سعيدا لو يتاح لي التعرف اليك . . »

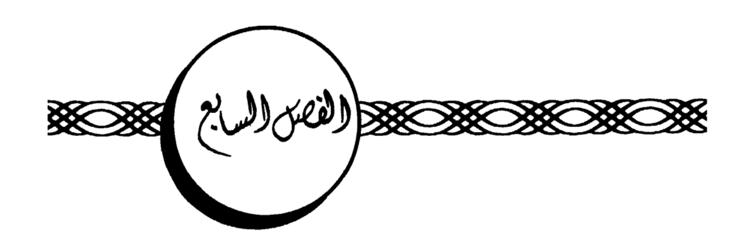
غاندي : وقد اجبته وقتئذ بقولي :«انت تضحك الاطفال والضحك هو افضل جواز سفر لدخول السماء . انا لا اعتقد انني سأبلغ هذه المرتبة العليا لاني لست من القديسين . ثق بأني شديد الرغبة في التعرف الى الممثلين الهزليين امثالك . »

صوت : مستمعي الكرام لا ابالغ اذا قلت في ختام هذه المقابلة القيمة دون ان اجرح تواضع المهاتما غاندي ، انه منذ بوذا لم يعبد رجل في الهند كما عبد غاندي . فقد كان الناس يحجون اليه بالآلاف لسماع صوته ، ولمس جسده

النحيل ، تبركا وطلبا لخلاص انفسهم بالبركة التي تنفرج عنها شفتاه الرقيقتان .

غاندي : الا ان كل ذلك ، يا سيدي لم يمنع احد الحمقى من اغتيالي في الطريق يوم الثلاثين من كانون الثاني سنة ١٩٤٨ .

صوت : العالم كله استنكر وقتئذ هذا العمل الاجرامي الفظيع ، وما يزال يذكر الى اليوم قول رئيس الوزراء البانديت نهرو الذي تردد من محطة الاذاعة في تلك الليلة وجاء فيه : « لقد انطفأ النور من حياتنا ، وفي كل مكان خيمت الظلمة فقد رحل عنا ابو الامة وان افضل صلاة يمكننا ان نصعدها هي ان نكرس نفسنا للحقيقة وللقضية التي نذر مواطننا الكبير حياته من اجلها ومات في سبيلها . . . »



١١ من أعلام الاصلاح

بوذا	:	السلام الذي يكمن في الداخل
فرنسيس الاسيزي	:	منشد الله المتجول
فرانكلين	:	العبقرية المتعددة
برغ	:	رجل الرحمة
فرنسيس ويلارد	:	بائعة الرجاء المتجولة
فلورنس نايتنغيل	:	ملاك الجند الحارس
هنري دونان	:	الرجل ذو الرداء الابيض
زامنهوف	:	ابو الاسبيرانتو
السرويليام اوزلر	:	افضل أطباء العالم
شفايتسر	:	فيلسوف الادغال
ماريا مونتيسوري	:	« أماه ! »

بوذا : السلام الذي يكمن في الداخل

(حوالي القرن الخامس قبل الميلاد)

صوت : للبوذية اليوم من الاتباع ما يفوق اتباع اي ديانة اخرى عرفها التاريخ ، ذلك بأن عددهم اليوم يناهز الخمسماية مليون ، وصور بوذا ورسومه مألوفة كأي عمل فني اخر في العالم بأسره . ولكن كم منا من يعرف من هو بوذا ، وماذا كانت الرسالة التي جاء بها الى الدنيا ، واي شيء اراد قوله حول مشاكل الحياة ؟

طوال خمس واربعين سنة وحتى وفاته في سن الثمانين يهيم عبقري الارادة والعقل في وادي نهر الغانج المقدس مستيقظا عند الفجر سائرا بين خمسة عشر ميلا وعشرين كل يوم معلما بسخاء كل الناس دون اي مكافأة ودون اي تمييز بين الطبقات والطوائف ، مرشدا الى سُبيل السعادة التي وجدها شخصيا . ولم يكن مشاغبا فلم يلق اي مضايقة من قبل الكهنة الذين عارضهم ولا من قبل اي حاكم . وقد نعم بالشهرة والحب بحيث انه كان كلما اقترب من مدينة هرع السكان اليه ناثرين الزهور على طريقه.وقد كانت غايته الحقيقية المنتصرة تعليم الناس طريقة نبيلة وسعيدة للحياة والممات في هذا العالم الاول. فلنتعرف فيما يلي الى حياة بوذا التي تعتبر من ابسط وانبل القصص التي عرفتها الاداب الدينية في التاريخ . . .

بوذا : اسمي الاصلي سيدارتا ساكيا ـ موني غوتاما ـ الذي يعني اذا ما ترجمناه الى العربية : « غوتاما الذي ينتمي الى قبيلة ساكيا والذي بلغ غايته من الكمال ». ولدت في اسرة احد الامراء الهنود وكان والدي يحكم قبيلة ساكيا في ظلال جبال هملايا . وكانت والدتي احدى زوجتي المهراجا وكلتاهما ابنة ملك مجاور ، وقد قيل لي انه لما شعرت والدتي الأميرة باقتراب موعد الوضع هرعت كما كانت العادة القبلية تقضي ، الى قصر والدها للولادة ولكن المخاض جاءها وهي في الطريق فوضعتني في بستان هادىء مليء بالاشجار الاطلسانية ! . .

صوت : اودّ ههنا ان اذكر انك ابصرت النور قبل الميلاد بخمسمائة وثلاث وستين سنة ، واقصد بذلك ميلاد السيد المسيح مؤسس المسيحية الذي ولد في مذود حقير في بيت لحم بفلسطين لاب كان نجارا. ومع ان ثمة اختلافا بينك وبينه من حيث الوضع الاجتماعي ، الا ان تعاليمكما السامية تكاد تتشابه وكذلك الطريقة التي بشرتما بها ونشرتما تلك التعاليم . . . فقد كان كلاكما يطوف في ارجاء بلاده مبشرا الذين يلتقيهم ويختلط بهم ! هذا ما وددت قوله فأرجوا ان تستمر في سرد وقائع حياتك .

بوذا : حسنا ، ترعرعت وسط مباهج القصر الملكي في كابيلا ـ فستو ، وكنت من هذه الناحية اسيرا في سجن من الرخام والذهب لا اتصال لي بعالم شعبي . وكانت حياتي سعيدة جدا وزائفة جدا بروعتها المدهشة . وقد قطفت كل ثمرة شهية من شجرة الحياة بالغا الاغصان الاعلى منها كلما

ازدادت قامتي طولا وازداد طموحي . ثم لما بلغت التاسعة عشرة اقترنت بابنة عمي الحسناء يازودارا !

صوت : ولكن اشراقة زواجك عكرها سواد ظلال الخيبة المريرة ، ذلك بأن زوجتك كانت عاقرا ، فبدأت تكتئب وتطيل التفكير في امور الحياة وتتساءل لماذا تكون هبة الحياة في احسن حالاتها كجوهرة زائفة يمنحنا اياها اله بخيل ؟ لماذا ينبغي ان تكون اسعد حياة مليئة بالامال غير المحققة ؟ واخيرا هل الحياة جديرة بأن نحياها ؟

بوذا : ونتيجة لهذه التساؤلات وبسبب معرفتي بشقاء الانسان عقدت العزم على القيام بعمل ما ، ففتحت قلبي للكهنة المتجولين الذين كانوا يستجدون على عتبة قصري واصغيت لاقوالهم وطلبت اليهم ان يحدثوني عن اهانات هذا العالم ومخادعاته ، وعندها قررت ان اغادر القصر ومباهجه لاصبح حاجاًمتوحداً يبحث عن الحقيقة . فلما تأهبت للشروع في الرحلة بلغني ان زوجتي قد وضعت اخيرا طفلا ذكرا . واحتشد حولي الناس واقاموا الاحتفالات الصاخبة وانشدوا : «سعيد هو الاب ، سعيدة هي الام ، سعيدة هي زوجة مثل هذا الابن وهذا الزوج ! »

صوت : ولكنك فكرت بينك وبين نفسك ان تلك عقدة قوية اخرى ينبغي لك ان تحلها فانتظرت المأدبة التي اقامها والدك المهراجا للاحتفال بولادة الطفل لتتسلل خارجا من القصر وسط الليل دون أن تترك أي كلمة لأحد ، ولكن بعد أن ألقيت نظرة على زوجتك وطفلك

النائمين . لقد كانت ارادتك حديدية ، ذلك بأنك تحـولت من أمير زمني الى أمـير للزهاد والنسـاك . وانتشرت شهرتك انتشار صوت جرس ضخم معلق في السماء . . .

بوذا : وسط ذلك الليل ركبت العربة التي كان يقودها خادمي شانا وصوت الشيطان يلاحقني مرددا : «عد وكن ملكا وسأجعلك اعظم ملك على القارات الاربع تخلَّ وحسب عن هذه المغامرة الجنونية » . ولكنني لم اصغ الى ذلك الصوت ، فالوعد الذي قدمه الي ومناني به لم يكن سوى هواء الليل الفارغ.وبلغنا ضفة احد الانهار عند الفجر فقصصت شعري الطويل ونزعت عني ملابسي ومجوهراتي الملكية واعطيتها جميعا مع جوادي وسيفي الى شانا وطلبت اليه ان يعود الى القصر ويخبر والدي وزوجتي بما عزمت عليه . وبعدها ارتديت ملابس الفلاحين الخشنة ومضيت أنشد الحكمة من الحكماء الذين كانوا يقيمون في كهوف التلال .

صوت : ولكنك لم تجد ما تتعلمه من معلمي الديانات القديمة فأنت لم تنبذ الثروة والجاه والاسرة وتصبح اشبه بالمتسولين لكي تلتقط حكمتهم ، فهؤلاء المعلمون الدينيون كانوا مثل مهراجات الهند اسياد الشعب وكانوا يستعبدون نفوس الجماعات ويقيدونها بقيود الخرافات والشعوذة والطقوس والمراسم .

بوذا : صحيح ما تقول ، فهؤلاء الكهنة البراهمة لم يكونوا يعرفون اي شيء عن الحقيقة . فطوال ست سنوات

عملت بحرفية تعاليمهم . وكان السبيل الوحيد للخلاص في عرفهم العيش عيشة الزهد والتنسك. ولكنني مع كل زهدي وتنسكي لم اقترب قط من الحقيقة ، وايقنت عندئذ ان السبيل الى راحة بالي والسلام الداخلي ليس في ألم الجسد . وهكذا رحت احيا حياة طبيعية وآكل كالآخرين ولكن الذين كانوا يؤمنون بالخرافات والذين كانوا قد تجمعوا حولي واصبحوا من تلاميذي سرعان ما انفضوا عني مرتدين خائبي الرجاء ووجدت نفسي وحيدا من جديد .

صوت : وذات ليلة جلست تحت شجرة تين ضخمة معمرة تتنازع شكوكك ووحدتك عندما نزل عليك سلام عظيم. ولما افقت عند الفجر لم تعد غوتاما المتشكك بل اصبحت بوذا المتنور . ذلك بأنك اخيرا قد فهمت السر الكبير للالم البشري واسبابه وعلاجه . وما لبثت ان يممت شطر مدينة بناريس حيث القيت اول عظة لك في حديقة للغزلان . وقد استمع اليها خمسة اشخاص ، فأدهشهم ما سمعوه من اقوال جديدة تختلف كثيرا عن الاقوال التي كان يرددها عليهم كهنتهم ، فماذا قلت لهم ؟

بوذا : قلت لهم ان الطريق الصحيح للخلاص ليس في عالم خارجي ، بل داخل نفس كل انسان ، وقلت لهم كذلك ان المهم في نظري هو تصرفات الانسان في وجوده الحاضر. ثم انني في تلك الفترة البدائية نوعا من التاريخ اعلنت القاعدة الذهبية التي تفتح العيون وتمنح التفاهم والتي تؤدي الى راحة البال والحكمة الاسمى والتنور الكامل .

صوت : ان الموضوع الرئيسي لكل عظاتك كان بلوغ التنعم بالسعادة الروحية ، فهل لك ان تسمعنا احدى تلك العظات ؟

بوذا : ليتمجد اولئك الذين يعرفون وتكون معرفتهم منزهة عن التضليل والخرافة .
ليتمجد اولئك الذين يقولون ما يعرفون بطريقة رقيقة وصريحة وصادقة .
ليتمجد اولئك الذين سلوكهم مسالم وشريف وخالص .
ليتمجد اولئك الذين يكسبون معيشهم بطريقة لا تسبب الاذى او الخطر لاي كائن حي .
ليتمجد الودعاء الذين نبذوا كل نية سيئة وكل غرور واعتقاد بانهم أقوَم الناس اخلاقا ، واحلوا محلها الحب والشفقة والعطف .
لتتمجدوا عندما توجهون افضل جهودكم للتدريب الذاتي وضبط النفس .
ولتتمجدوا دون حدود عندما تنعتقون من قيود الفردية والانانية .

صوت : وهكذا راحت شهرتك واسطورتك تذيع في ارجاء الهند . وقد رويت الحكايات والقصص الكثيرة عن حكمتك ونظامك. واصبحت تلك القصص متحابكة في انجيل بوذي عظيم . واذا شئتُ ان اختصر تعاليمك فأقول ان السبيل الاكيد للخلاص في نظرك هو من خلال الاحترام المتبادل بين البشر بغضّ النظر عن الطبقات والعقائد .

بوذا : وانا من حثَّ اتباعي على عدم استعمال اي سلاح

للاقناع ، اللهم الا سلاح اللطف الذي هو اللسان المقنع « فاذا لم استطع ان أقنعك فلا ينبغي لي ان احكم عليك ! »

صوت : ولم تكن تهتم بلاهوت دينك بل كان اهتمامك ينصبُّ على اخلاقيته فحسب .

بوذا : هوذا الواقع . . . فانا لا اعرف شيئا عن سر الله ولكنني اعرف كل شيء عن بؤس البشر .

صوت : وبالاختصار فقد علّمت شعبك بطولة الالم دون التسبب بالالم ، والشجاعة امام الموت دون قتل ، وفوق كل ذلك علمتهم الصبر ، الصبر الرزين الذي اشتهر به الشرق والرفق واللين !

صوت : وقد بشرتَ بقوة الحب وكنت تود ان تغسل العالم بالحب ، ولذا تنازلت عن عرش لكي تعيش وسط المحرومين ، وحثثت اتباعك على ان يحذوا حذوك فيتخلوا عن عرش التكبر والغطرسة ويختلطوا بتواضع مع ابناء جنسهم . وكان كل مترهبن يدخل السلك الذي أنشأته ـ «رهبنة الثوب الاصفر » كان ينبغي له ان يلتزم بحياة التجوال على وجه الارض.وقد فرضت على نفسك تحرير فكرك تماما من «شؤ ون الزمان والوعي » !

بوذا : وكرَّستُ حياتي لهدف واحد وحسب هو «السعادة من خلال السلام » ، وعدم مس اي كائن حي بأذى فكما ان النحلة لا تؤذي الزهرة ولا لونها ولا اريجها ، وتطير بعد ان تمتص الرحيق ، كذلك ليعشْ الرجلُ الحكيم على الارض .

صوت : رائع جدا ، وفي ذات مرت اثناء تجوالك حوَّلت خطاك نحو كابيلا فاستو ، المدينة التي كان يحكمها والدك ، فاستقبلك اخوتك واعمامك وحتى والدك في احدى خمائل العاصمة القديمة ، ودهشوا لرؤ يتك على الحال التي وصلت اليها ، وبخاصة لما تناولت صحنك ورحت تطوف بالموجودين طالبا الاحسان منهم . اما انت فدهشت لرؤ ية الجميع من دون زوجتك يازودارا !

بوذا : بالطبع ، فهرعت افتش عنها فوجدتها في الحجرة التي تركتها فيها في اخر مرة رأيتها قبل مغادرتي القصر نائمة وبين يديها طفلنا . فلما رأتني بثوبي الاصفر ورأسي الحليق وملامحي النحيلةعصفت بها ذكرى حياتها السابقة السعيدة وخرَّت على قدميها وتشبثت بقدميً وراحت تنتحب بمرارة . ورآها والدي فطلب الي الصفح عنها كما صفحت هي عني واحبتني طوال هذه المدة ورفضت ان تأكل الا وجبة في اليوم ، وان تنام على سريرها الزوجي بدلا من افتراش الارض .

صوت : وعندها خفضت عينيك بصمت ففهمت يازودارا ونهضت وذهبت لتعود بابنكما راهولا بعد ان البسته اجمل الثياب ، فتقدم منك مرحبا بعودتك سائلا اياك ان تعطيهُ حصته في الميراث . وكان ان اعطيته بعد ان بلغتما شجرة التين الضخمة المعمرة صحنا مثل صحنك لجمع الصدقات وطلبت اليه ان يدخل السلك المقدس الذي انشأته ويتبعك.وطوال السنين التي تبقَّت لك من حياتك المديدة ظللت تجوب المدن وتخيم في الضواحي والحدائق وعلى

ضفاف الانهر ، معلما انجيل السعادة . وأصبحتَ الهاً لديانةٍ جديدة انت الذي لم تكن تؤمن بأي اله !

فرنسيس الأسيزي : منشد الله المتجول

(١١٨٢ - ١٢٢٦)

صوت : كان القديس فرنسيس الاسيزي واحدا من كبار المحبين في العالم . كان محبا لله ومحبا للبشر . وكان التلميذ المثالي للسيد المسيح والنظير الايطالي لبوذا . والحقيقة انه لولا الواقع التاريخي الذي يؤكد ان القديس فرنسيس لم يسمع قط ببوذا لبدت حياته تقليدا متعمَّداً ومدروسا لحياة النبي الهندي فقصتاهما تحملان الكثير من التشابه الشديد كما لو كانتا نسختين من المسرحية نفسها مترجمة الى لغتين مختلفتين . . .

فرنسيس : لقد أثرت فضولي ، أيها السيد ، فهل لك أن تفصّل نقاط التشابه ، انه ليسرني ان اعرف شيئا عن النبي الهندي بوذا الذي ذكرت .

صوت : حسناً ، فقد تخلّيتما بوذا وانت عن جاه الحياة ونذرتما الفقر وشجبتما الملكية الخاصة كمصدر لكل شر . ورحلتما في ارجاء الارض لتلطيف ومسح اخاديد الالم عن وجه الانسانية ، وعرفتما الشفقة وجمال الحياة ونظرتما الى نفسيكما والى كل مخلوق حي آخر على أنكم جميعاً تؤلفون نغمة ختامية مؤثرة واحدة في قصيدة الخليقة . واخيرا كلاكما عندما اشرفتما على الموت طلبتما الى

اصدقائكما ان يوسدوكما الارض العارية لانكما كنتما تجدان سرورا عندما تكونان اقلَّ اعاقة بحطام الدنيا التي تعتبرانها من الاشياء السيئة . ولدتَ سنة ١١٨٢ وعرفت باسم فرنسيس الاسيزي ولكن اسمك الايطالي هو فرانشسكو برناردوني . وكنت ابن بييترو برناردوني ، تاجر الاقمشة الميسور الحال في اومبريا ، وكنت وانت صغير شديد الانفعال ثائرا ومبذرا تنفق المال الذي لا تقيم له اي وزن يمينا ويسارا وعلى العموم في سبيل مسرَّات الاخيرين .

فرنسيس : كنت اعتقد ان توفير الوقت الطيب الممتع لاصدقائي بمال والدي افضل من ان اراه مخزونا في صناديقه .

صوت : وكانت والدتك الزوجةُ المقتصدةُ لرجل ثري غالبا ما تلاحظ بمرارة أنك تتصرف كأمير لا كـإبن صاحب حانوت ايطالي . أما والدك فانه لم يكن ينتظر منك أن تحقق شيئاً في المستقبل .

فرنسيس : ولكن اذا كان والداي يقطبان ما بين حواجبهما فان الشبان في اسيزي كانوا يعبدونني ، وقد اصبحت في نظرهم مثلا يحتذى في المرح واللهو والازياء والطيش .

صوت : عندما بلغت عتبة الرجولة كنت تطمحِ الى امرين وهما ان تبرز في الفروسية وفي الشعر . اردتَ ان تصبح محاربا وكاتبا ، جنديا لكي تحافظ على سلامة مواطنيك ومنشدا لكي تملأهم غبطة . وبصورة خاصة اعجبتَ بالمنشدين المتجولين هؤلاء الذين عرفوا باسم التروبادور ، وكانوا شعراء حب فرنسيين حوَّلوا القسم الجنوبي من اوروبا الى قصيدة غنائية .

فرنسيس : الواقع يا سيدي ان حبي الشديد لشعر التروبادور الفرنسيين هو الذي حمل رفاقي على اطلاق اسم فرنشيسكو علي ، وهو يعني « الفرنسي الصغير » .

صوت : يقال ان والدتك كانت قد سمّتك جيوفاني ، ولكن قبل ان تبلغ سن النضج كان اسم فرنشيسكو قد حل محل اسمك الاصلي ، والى يومنا هذا يعرف قديس اسيزي بالاسم الذي يربطه بالشعراء الفرنسيين : فرنشيسكو ـ القديس فرنسيس ، منشد الله المتجول .

صوت : كانت لك روح المغني الرقيقة وقلب الجندي الشجاع ، ولكن قبل ان تستطيع تعليم مواطنيك كان ينبغي لك اولا ان تحارب من اجلهم . كانت مدينتك في حرب لا نهاية لها من تلك الحروب التي عرفتها القرون الوسطى ضد المدينة الايطالية المنافسة بيروجيا . وكانت الامبراطورية الرومانية القديمة قد تفتتت الى عدد كبير من الامارات المستقلة .

فرنسيس : ان الرومان القدامى الذين اعتمدوا على السيف في محاولتهم توحيد العالم لم ينجحوا الا في تقسيمه . وحروبهم الكبيرة الباطلة قد جرّت كذلك الى حروب صغيرة باطلة. كانت كل مدينة تناصب الاخرى العداء : البندقية ضد فلورنسا ، فلورنسا ضد بيروجيا ، بيروجيا ضد اسيزي ، اسيزي ضد البندقية ، وهكذا دواليك عبر أوروبا . لقد ورث الفُ قيصر صغير الطموح ولكن دون مخيّلة القيصر الاول . وهكذا كانت حضارة القرون الوسطى تتفسخ في هذه النزاعات الحقيرة المستمرة بين مدينة ومدينة .

ولفترة من الزمن عصفت بك شهامتك وفروسيتك وألقتك في تيار تلك المنازعات العسكرية ، فانخرطت في خدمة علم مسقط رأسك . ولكن سرعان ما خاب أملك بعد حملة قصيرة بسبب اقتتال الايطاليين فيما بينهم . وفي احدى المعارك وقعت أسيراً فأتيح لك وأنت في السجن وطوال أكثر من سنة أن تدرس الجانب الأقل اشراقاً والأكثر وحشية من الحرب . فلما خرجت حراً طليقاً عزمت على البحث عن أداة أفضل من السيف لحل النزاعات البشرية .

فرنسيس : ان بحثي عن اداة السلام الغامضة توقّف عندما اصبت بمرض شديد كان نتيجة الالام التي عانيتها في السجن العسكري. وبدا شفائي امرا مشكوكا فيه لفترة من الوقت ، ولكنني ما لبثت ان تغلّبت على الازمة . وحينما كنت مستلقيا على ظهري في فترة النقاهة البطيئة استطعت ان ادرس الحياة من زاوية جديدة . ان كل العالم ارتدى معنى جديداً عندما نظرت اليه من مركز تأملي الهادىء كان هناك بين البشر جعجعة كثيرة بلا طحن ، وركض كثير وراء امور لا قيمة لها ، ومعارك كثيرة حول نزاعات هي اسواء من كونها عديمة الفائدة وتافهة . وفي تلك اللحظة قررت ان اتنازل عن حياة البشر المجنونة لاحيا حياتي الخاصة المعقولة.لقد وجدت ذلك السلاح الغريب القوي الذي يمكن ان يؤمّن السلام بين البشر . ولكن حبذا لو كان بامكاني ان اجعل الاخرين يستخدمونه ، يستخدمون سلاح اللطف المتبادل ، والشفقة المتبادلة ،

والحب اللامتناهي ، ذلك بأن البشرية اخوة ، وبمساندة اخيه يمكن الانسان ان يساند نفسه .

صوت : ولم يمض وقت طويل حتى استطعت ان تضع موضع التنفيذ والتجربة ذلك السر الجديد الذي اكتشفتهُ . ففي احد الايام وبينما كنت على جوادك مارا في حقول اومبريا رأيت رجلا مصابا بالبرص وكنت ترتعد من قبل لرؤية هذه الجثث الحية ، ولكن اثناء مرضك ازددت قربا من رعب الالم وبشاعة المرض بحيث انك لم تعد تحس الا بالشفقة على آلام الآخرين وامراضهم . وهكذا عندما رأيت الابرص يتقدم نحوك قفزت عن صهوة جوادك ولم تمنح هذا الاخ المتألم مالا فقط ، بل منحته نفسك. عانقته وتحدثت اليه كصديق ورفيق ومن تلك اللحظة وجدت نوعا من السعادة الاهدأ والاعمق في البحث عن رفقة المنبوذين .

فرنسيس : ذلك بأن اولاد القدر هؤلاء مثل كل المخلوقات الاخرى التي عاشت وتألمت وماتت لم يكونوا متصلين بي وحسب بل كانوا جزءا مني . وانا القائل في هذا الصدد مخاطبا الانسان «انت بالنسبة الي اكثر من اخ ، انت عضو متألم من لحمي ودمي ، ألمك هو ألمي وفرحك فرحي ! »

صوت : انك بتقدمك من الأبـــرص كما تقدمت عدتَ اخيرا الى نفسك . وهكذا تركت المحظوظين «الاعضاء غير المتألمين في الوحدة الاجتمـاعية » ، وكـرّست نفسك لخـدمة البائسين ، ولقد قيل عنك انك تصغي الى الذين لمْ يُصغِ اليهم الله .

فرنسيس : اود ، يا سيدي، ان اقرر ههنا انني لا التزم بأي طابع مماثل لرسالتي ، فانها ارادة الله ان اصغي الى جميع الذين هم في الم ومحنة . كنتُ احس بالخجل اذ ارى الكثيرين من اخواني البشر مرضى وانا معافى ، واراهم جائعين بينها انا اجد الشراب والاكل . ولذلك بدلا من التنسك في البراري ذهبت اعيش بين الودعاء من الفقراء والمساكين ، عاملا على اعادة كرامتهم اليهم ، مشبعا جوعهم ، مخففا ألمهم . وكانت سعادتي عظيمة جدا لانني كنت افكر في نفسي قليلا وافكر في الاخرين كثيرا جدا .

صوت : عندما كنت تجد طعاما كنت توزعه على المحرومين مكتفيا بأصغر قدر لك ومن ُحيث اللباس كنت تلتف صيفا وشتاء بعباءتك البنية الرثة وتشد وسطك بحبل ، وقد اصبحت هذه العباءة اللباس الرسمي للفرنسيسكان ، اولئك الذين عُرفوا بأنهم جنود المسيح غير المسلحين بالسيوف ، الذين قُدتهم ايها القديس فرنسيس في حملة الشفاء والرحمة . ولقد كان اتباعك بعد سنة من تأسيسك الاخوية اثني عشر وحسب.

واسمح لي الان ان اقول انك لم تدرس كثيرا وقد كنت تؤمن ايمان الاطفال وتحب حب الاطفال البسيط الصحيح من صميم قلبك.وكالاطفال كنت تنظر الى العصافير على انها اخواتك ، والى الريح والشمس على انهما اخواك ، والى الارض على انها الام الحية لها جميعا . ولعل الصفة الغالبة على سلوكك في رأي الكثيرين كانت اللطف والكياسة ، فكنت تعامل ادنى المخلوقات معاملتك

لارفعها من حيث التقدير والاحترام مستعدا للاعتذار من متسول اكثر منك استعدادا للانحناء امام امبراطور .

فرنسيس : واسمح لي ان اضيف ههنا انني كنت مرارا اخفض صوتي في حضرة الاشجار والازهار لكي لا ازعج رقادها . ولكنني اعترف انني رفعت صوتي غاضبا مرة واحدة من حياتي على بعض اتباعي وذلك عندما استقبلوني بعد عودتي من حملتي الصليبية الشرقية استقبالا حماسيا واخبروني انهم انشأوا اثناء غيابي مقرا فخما للاخوية في مدينة بولونيا الايطالية. فقد رفعت يدي ووضعت حدا لحماستهم قائلا لهم : الا قولوا لي ايها الاخوة الذين نذرتم انفسكم للفقر منذ متى رأيتم ضروريا ان تهينوا الفقر بفخفخة القصور ؟

صوت : وهكذا مضيتَ هائما في الارض يا اخا الفقير يلتهب في نفسك حب عمل الخير حتى انهارت قواك في النهاية ، فعدت الى وطنك وكنت قد اصبحت عجوزا تلك الاثناء . كنت في الرابعة والاربعين من عمرك في مقياس الزمن ، وكنتَ ابن قرون في ميزان العطاء والخير ! وعلى الرغم من ضعف نظرك مضيت الى امام كما كنتَ دائما المنشد المتجول السعيد في خدمة الله حتى نهاية الطريق . . . وكانت نهاية الطريق كبدايتها مسقط رأسك اسيزي .

فرنسيس : الواقع أن المرء اذا شاء أن يذهب الى أي مكان أو أن يقوم بأي حج ينبغي له أن يعود دائماً الى مسقط رأسه ذلك بأن هذا المكان هو بيت الله المقدس !

صوت : وفي بيت الله المقدس هذا رحت تنتظر النهاية ، فراشُك

الارض العارية،امك الارض المحبوبة يحيط بك نفر من اخوانك الفرنسيسكان وعدد كبير من اخوتك العصافير . وقبيل النهاية فتحت عينيك وباركت الجميع مرددا : « ليتبارك ابناؤك ايها الرب . . . طوبى للذين يعتصمون بالسلام . . طوبى للذين في ساعة الموت يطيعون الوصية المقدسة « احبوا بعضكم بعضا ! » واستسلمت الى الرقاد الاخير والبركة على شفتيك في ٣ تشرين الاول سنة ١٢٢٦ .

بنيامين فرنكلين : العبقرية المتعددة
(١٧٠٦ - ١٧٩٠)

صوت : عمت مساء يا سفير الانسانية !

فرانكلين : هاي! كيف حالك؟ شكرا على هذا اللقب .

صوت : الشكر ينبغي ان يوجه الى فولتير وسأنقله اليه . انت مولود سنة ١٧٠٦ في بوسطن، من اعمال ولاية مساتشوستس .

فرانكلين : صحيح ، ودعني اهنئك باتقانك لفظ اسم هذه الولاية مشتاسوسيست . . انه صعب كما ترى !

صوت : لا ، يا سيد فرانكلين، مساتشوستس . والدك هاجر من انكلترا الى اميركا سنة ١٦٨٣ وكان يعمل في صناعة الصابون والشمع .

فرانكلين : كان ماهرا في صنعته، رحمه الله ، اخترع الشمعة الملتوية لانارة الزوايا والاركان ، والشمعة بدون فتيلة للنور الاسود ، دون ان نذكر الشمعة ذات الشكل الكروي لتجنب اشعالها من طرفيها .

صوت : من ابيك هذا ورثت روح المرح ورحابة الصدر - هذه الروح التي لازمتك حتى اخر ايام حياتك .

فرانكلين : كان والدي انسانا خاليا من الهموم لا يفتأ يغني وهو يصنع الشموع .

صوت : وماذا كان يغني ؟ اغنيات شعبية من الفوكلور الاميركي ؟

فرانكلين : لا كـان يغني الحان البوغي ووغي . . .

صوت : ولم يدفعك والدك بعيدا في الدراسة علما بأن المعلومات التي تعرفها تكفيك لتنظيم فاتورة .

فرانكلين : اجل ، ففي ذلك الزمن كانت الفواتير بسيطة وغير معقدة ، كما هي اليوم وتقتضي تخرُّج المرء من كلية التجارة .

صوت : وعندما بلغت العاشرة من عمرك عزمت ان تصبح بحّارا ورحت مذ ذاك تتدرب على السباحة والتجذيف .

فرانكلين : اجل ، في كل مرة كنت ارى فيها ماء . اسمع ما جرى لي ذات يوم . كنت مارا بمحاذاة نهر فأبصرت فتى في الماء وقد غمره حتى وسطه فقلت بيني وبين نفسي ان المكان ملائم للسباحة ، فقفزت على رأسي وصحت من فرط الالم «أخ» ، فلم يكن عمق الماء اكثر من عشرة سنتيمترات .

صوت : ولكنك قلت انه كان هناك فتى في الماء وان الماء يغمره حتى وسطه .

فرانكلين : صحيح ، ولكني عرفت عندئذ ان هذا الفتى كان مقعدا .

صوت : الا ان والدك لم يشجعك على مهنة البحارة ، ففضّل ان تدخل لدى احد صانعي السكاكين لتتعلم هذه الصنعة ، ثم التحقت بأخيك دجيمس عاملا في مطبعته ، سوى انكما لم تكونا لتتفقا البتة .

فرانكلين : الحقيقة ان اخي كان فظ الطباع ، سيىء السلوك ، ومثل هذه الخصال لا تتفق والعمل الطباعي .

صوت : في تلك الفترة من حياتك عثرت مصادفة على كتاب يظهر ضرر اللحم ، فأصبحت مذ ذاك نباتيا .

فرانكلين : الحمد لله انني عثرت على مثل هذا الكتاب ، فلو انني عثرت على كتاب حول اكل لحوم البشر لاصبحت من اكلة لحوم البشر .

صوت : ولكنك سرعان ما توقفت عن هذا النوع من الاكل عندما وجدت سمكة صغيرة في بطن سمكة كبيرة .

فرانكلين : أجل ، وبدأت مذ ذاك اهتم بالسياسة .

صوت : ارجو المعذرة ، لم نصل بعد الى هذه المرحلة . فلقد انشأ اخوك جريدة وساهمت معه في اصدارها .

فرانكلين : حسنا ، كنت احرر فيها كل ما لم يكن موقّعا ، مثل «البقية على الصفحة الثالثة» ، و« للبحث صلة » ، الى ما هنالك دون ان انسى وضع الهلالين عندما ينسى كاتب المقال وضعهما في بداية كلامه او نهايته .

صوت : وفي مستهل عام ١٧٢٣ رحلت الى لندن ، وكنت بعد في السابعة عشرة من عمرك لشراء المعدات اللازمة لتأسيس

مطبعة ، ولقد اقرضت كل ما كان بحوزتك من مال لأحد الاصدقاء الذي اختفى عن ناظريك .

فرانكلين : سجل عن لساني هذه الحكمة : « ينبغي للمرء الا يقرض ماله او زوجته ، ذلك بأن الزوجة يعيدونها اليك دائما ، اما المال فلا ! . . »

صوت : ولكن ذلك لم يحدث لخطيبتك ، فقد تزوجت في غيابك لسوء طالعك .

فرانكلين : كان ذلك لحسن طالعي ، تصور انها على العكس ترملت بعد ذلك بقليل، ولو كنت زوجها لقضيت نحبي كزوجها ! . . اليس كذلك ؟

صوت : ولدى عودتك الى اميركا استقر بك المقام في بنسلفانيا حيث انشأت جريدة « بنسلفانيا » ، وقد اضطررت خلال فصل الشتاء عندما حرمت من البريد ان تقتصر في تحريرها على موارد الاخبار المحلية .

فرانكلين : كان عليّ ان استغل ابسط الوقائع العادية الى اقصى حد ، فكنت تقرأ الخبر نفسه في اكثر من مكان من الجريدة ، ولكن معالجا من ناحية مختلفة .

صوت : ايمكنك ان تعطيني مثلا على ذلك ؟ يبدو ان ذلك اسلوب جديد في التحرير الصحفي .

فرانكلين : استمع الى هذه الحادثة مثلا في باب « المجتمع »؛ اعتزمت السيدة دجون ان تقيم حفلة في منزلها لبعض الاصدقاء ، فأرسلت عشر دعوات ولم يلبّ الدعوة الا السيد سميث . وعلى الرغم من برودة الطقس فقد كان

جو البيت حارا ، وقد ساعد على ذلك النبيذ الاحمر المعتق واقراص الحلوى الشهية . ويبدو ان النبيذ فعل فعله في رأس سميث فقام يعانق صاحبة الدعوة في اللحظة نفسها التي فتح فيها الباب ودخل صاحب البيت السيد دجون الذي وجّه الى السيد سميث عبارات لاذعة .

صوت : انه خبر طريف ، ومن اخبار المجتمع حقا ، فكيف يمكنك ان تورده في زاوية اخرى من جريدتك ؟

فرانكلين : استمع مثلا الى هذا الخبر في الزاوية الرياضية . امس اعلن السيدان سميث ودجون عن تحدي احدهما الآخر في لعبة القفز العالي والعريض . وقد فاز السيد سميث لانه استطاع القفز من النافذة من الطابق الاول . ويبدو ان السبب في كل ذلك ـ وننشر هذا بتحفظ كثير ـ هي الشقراء السيدة دجون .

صوت : وقد نشرت فيها بعد تقويمك المعروف الذي تدين له بنصف شهرتك . ويزخر هذا التقويم بالامثال والحكم والاقوال البارعة مثل: « فلان واقف يبدو اعلى من نبيل راكع على ركبتيه . »

فرانكلين : او من مثل : « الافضل ان يكون للبقال دين عليك من الا يكون هناك بقال . » او: « يستحسن الذهاب الى الصيد بدلا من الحانة ، ذلك بأن في وسعك الذهاب الى الحانة بعد الصيد ! »

صوت : وفي سنة ١٧٣٦ اصبحت عضوا في الجمعية العمومية في بنسلفانيا واسندت اليك ادارة البريد .

فرانكلين : وما الغرابة في ذلك، الا تدري انني اول من فكر في ارسال الصحف بالبريد ؟

صوت : وعدت الى انكلترا ثم استطعت النجاة في الوقت المناسب والفرار من هذه البلاد قبل القاء القبض عليك بتهمة تدبير ثورة المستعمرات التي نشبت ضد فداحة الضرائب . ثم هبطت فرساي في فرنسا لمحاولة الحصول على مساعدة الحكومة الفرنسية وأقمت في باسي حيث جاء فولتير يوما لزيارتك ، فماذا قلت له ؟

فرانكلين : قلت له تفضل بالجلوس ، يا سيد فولتير .

صوت : واخيرا وليس آخرا ، ينبغي الا ننسى قصة الطائرة المصنوعة من الورق التي كانت السبب في اختراعك قضيب الصاعقة ، فكيف كان ذلك ؟

فرانكلين : السبب في غاية البساطة ، ففي ذات يوم وكنت اقلّب صفحات القاموس هالني وجود اسماء كثيرة ومنها الصاعقة ، فقلت بيني وبين نفسي : « ما دامت الصاعقة موجودة فينبغي ان يوجد قضيب الصاعقة . » واخترعت قضيب الصاعقة لسد هذه الثغرة . هذا كل ما هنالك .

صوت : برافو ، يا سيد فرانكلين ، انك تتمتع بخفة روح تحسد عليها وبذكاء خارق وبنكتة لاذعة .

والان ، اود ان اشكرك على هذا الحديث الممتع .

فرانكلين : قبل ان تشكرني وتودعني اسمح لي ان اذكِّرك للتاريخ فقط بأنني مخترع المدفأة المعروفة باسمي، وابو طب

الاسنان الحديث، واول من اكتشف ان البرق والكهرباء شيء واحد ، واول من اسس مكتبة عامة للمطالعة في اميركا باشتراكات شهرية ، واول من اسس المكتبات النقالة .

صوت : اعرف ذلك كله ، واكثر منه ، فانت كذلك اول سفير اميركي ، وأول رسام كاريكاتوري سياسي ، واول من نظم دائرة تنظيف الشوارع ، وأول من اوجد الاعلانات التجارية واستخدم الصور في هذه الاعلانات .

فرانكلين : وقد اخترعت الهارمونيكا ، والكرسي الهزاز ، ومصابيح الشوارع، والمنظار، وانا أول من ادخل اصلاحات على التهجئة الانكليزية ، واول من اكتشف ان الهواء الخارج من الصدر لدى التنفس سام ، واول من نظم مصلحة الاطفاء، وأول من اوجد نظام التهوية . . هه . . اين انت يا هذا ؟ الا تريد ان تعرف اكثر عني ؟ ! عجبا لقد ذهب ، رافقته السلامة !

هنري برغ : رجل الرحمة

(١٨١١ - ١٨٨٨)

صوت : جوادان عجوزان هزيلان كانا يضربان بلاط الطريق المكسو بالجليد بحوافرهما ، ويلهثان من شدة التعب ، فلا يستطيعان ان يجرا العربة المزدحمة بالركاب في تلك الليلة العاصفة في ساعة الازدحام الشديد في نيويورك في السبعينات من القرن الماضي . وينزل الحوذي بالسوط يلعس به ظهر جواديه بلا شفقة او رحمة . وتململا ، وحاولا جر العرب بلا جدوى . وزاد الطين بلة أن بعض الناس اغتنما توقف العربة فتعلقا بها وتسلقا درجاتها كأن حملها لا يكفي . وانهال السوط من جديد على الجوادين المسكينين. وفجأة برز من خلال الزمهرير في ضوء الشارع رجل طويل القامة ، يعتمر قبعة عالية ، وبيده عصا ، فظن الحوذي أنه يريد أن يستقل العربة اذ وقف امامه . وكم كانت دهشته عظيمة عندما سمعه يطلب اليه انزال الركاب الزائدين عن حمولة العربة ، مما يسبب ارهاقا للجوادين المسنين . فلما احتج الحوذي بخشونة اشار الرجل الانيق الى شارة مثبتة على صدره . ولما رفض الركاب التحرك راح يسحبهم الواحد بعد

الآخر عن الدرجات . وحاول احد المارة تهديده فما كان منه الا أن دفعه عنه بقوة ، مما هدّأ روع الجموع المحتشدة وجعلها تناصره وتهتف ثلاثا بحياة هنري برغ - «برغ المهووس » - « المتدخل الاكبر في ما لا يعنيه » الذي ايقظ ضمائرهم من سباتها العميق ونصّب نفسه مدافعا عن الحيوانات ، وبدأ بمفرده المعركة الكبرى من اجل ذلك !

برغ : اشكرك ، يا سيدي ، على هذا التقديم الذي أبادر الى القول انني لا استحقه ، فأنا لم أفعل إلاّ ما اعتبرته واجبا علي ، واجبا انسانيا ينبغي ان نؤديه تجاه الحيوانات في معاملتنا لها . فهي تستحق هذه المعاملة لقاء الخدمات الكثيرة التي تؤديها لنا . ولذا نبتت في فكري قضية الرفق بالحيوان .

صوت : اليوم ، يا سيد برغ ، بعد ان كسبت تلك المعركة التي بدأتها وتألفت الجمعيات والمؤسسات الاهلية في طول اميركا وعرضها للرفق بالحيوان ، يدهش المرء حقا اذ يجد انه حتى نهاية الحرب الاهلية لم يكن ثمة اي تشريع يمنع سوء معاملة الحيوانات . وحتى لو وجد اي تشريع بسيط فقد كان بمثابة نصوص ميتة ، يستحيل تطبيقها لفقدان القوة الادبية خلفها . فقد كان ضمير الرأي العام هاجعا .

برغ : صحيح ما تقول، يا سيدي !

صوت وعندها جئت من روسيا - هلاّ عرّفتنا بنفسك ، يا سيدي .

برغ : أنا من نيويورك أصلا ، من أسرة عريقة وثرية جدا ، وقد ورثت ثروة طائلة صُنعت في بناء السفن . أما سبب وجودي في روسيا فهو أن ابراهام لنكولن كان قد عينني سكرتيرا للمفوضية في سان بطرسبرج ، عاصمة القياصرة .

صوت : الواقع أنك برزت كثيرا كدبلوماسي في روسيا ، ولكن جرثومة عظمتك الحقيقية بدأت الحياة عندما ابصرت حمارا يضربه فلاح روسي ، وسجلت احتجاجا على ذلك .وكانت القسوة على الحيوانات الضعيفة في ذلك العهد شيئا مألوفا . الا ان الفلاح المشدوه انتزع الشريط المذهب والازرارالنحاسية من على سترة حوذي المفوضية ليستشهد بها على ما حدث له ، وانصرف .

برغ : ولما عدت الى نيويورك سنة ١٨٦٤ وجدتها مدينة لا تبالي بآلام الحيوانات التي تخدمها . فقد كانت تجارة نيويورك ونقلياتها كلها ، بالطبع ، تقوم على الجياد . وغالبية تلك الجياد كانت إما عرجاء ، أو مريضة، أو جائعة . ولم تكن تلقى من العناية ما كانت تلقاه الآلات . فكانت تُشغل حتى الموت ، وعندها تستبدل بسواها من الضحايا الجديدة البريئة . والى جانب الجياد كانت الكلاب تقوم بأعمال كثيرة من مثل نقل القمامة بجر العربات الثقيلة ، وادارة معامل صنع شراب السيدر من التفاح . فضلا عن أنه كانت تقام حفلات تتصارع فيها الكلاب مع الكلاب ، والديوك مع الديوك وذلك بتشجيع من سلطات الشرطة لأن أموالا كبيرة كانت موظفة في مثل

تلك المباريات . ولا تسلني عن القسوة التي كانت تتعرض لها الكلاب في انواع اخرى من المباريات .

صوت : ولم تكن عاطفيا بالنسبة الى الكلاب ، والجياد ، أو أي حيوان آخر . فعندما خاطبت الجمهور الذي دعوته الى الاجتماع ذات ليلة من ليالي شتاء سنة ١٨٦٦ أوضحت وجهة نظرك حول حماية الحيوانات بهذه العبارات :

برغ . «إنها مجرد قضية ضمير. ليس لها أي جوانب محيرة . وليس للسياسة اي دخل فيها . إنه اعتراف رسمي بأعظم صفة مميزة لسيد هذا الكون الكلي القدرة : الرحمة !»

صوت : وكان ذلك الاجتماع البشير بتألف الجمعية الاميركية للرفق بالحيوانات التي حملت وثيقة اعلانها تواقيع عدد من كبار الشخصيات في نيويورك . وقد شجعك هؤلاء المشاركون في حملتك الانسانية على إقرار قانون لمنع القسوة مع الحيوانات في ولاية اولباني . فلما أصبح القانون بجانبك ، رحت تحضّر نظام المؤسسة التي كنت تعتبر أنها ضرورية لاصدار تشريعات اخرى جديدة ، ولتطبيقها ، والقاء القبض على المتهمين ، وملاحقة الدعاوى . ذلك بأن ضدك لم يكن الجمهور اللامبالي ، الفاتر الشعور ، بل عدواة الكثيرين من الذين كانوا يستغلون تلك الحيوانات العاجزة للكسب .

برغ : كانت شركات القطارات الحديدية التي تجرّها الخيول أقوياء وذوي نفوذ في مجالس التشريع النيابية ، وكان الجزارون ، وصانعو الالبان والاجبان ، والرياضيون الذين ينظمون معارك الديكة ، والكلاب ، والرماية على

الحمام ـ كل هؤلاء كانوا مدعومين بالمال الوفير الذي يفوق ما كان في حوزتي . وقد نظموا أنفسهم لمحاربتي ، وعرفت ذلك .

صوت : إذن فليس غريبا أن يعمد رسامو الكاريكاتور الى تصويرك ، أنت الرجل الطويل القامة ، ذو الوجه الرزين ، والشاربين الطويلين ، بصورة دون كيشوت . ففي الليلة التي ابصرت فيها النور رسميا جمعية الرفق بالحيوان ، خرجت بعد انتخابك رئيسا بالاجماع ، الى الشارع لخوض المعارك بلا هوادة. فما أن رأيت أول سائق عربة نقل يلسع بسوطه ظهر جواده ، حتى أمرت بتوقيفه ، قائلا له ان مثل ذلك العمل لم يعد مسموحا به ، وهو ضد القانون .

برغ : إلا أن ذلك السائق لم يبال بكلامي ، بل شتمني ، واستعمل السوط مجددا ليلهب ظهر الجواد المسكين . ولكنني لم أيأس ، بل ركزت قبعتي العالية على رأسي ورحت افتش عن مخالفات جديدة .

صوت : ومشاكل جديدة.ولكن سرعان ما وفقت الى ضبط مخالفات والى انزال العقوبات بحق مرتكبيها .وكانت اول عقوبة صدرت بحق اساءة معاملة الحيوانات في نيسان من العام ١٨٦٦ .

برغ : ولكن الرأي العام ظل على موقفه اللامبالي ، وحتى الساخر . ولقد اصبحت معروفا في نيويورك بأنني أصارع الطواحين مثل دون كيشوت ، وأجوب الشوارع حاملا عصاي ، واضعا قفازين نظيفين في يدي . وكما

كنت وجها معروفا في الشوارع يتجمع حولي الناس كلما توقفت لفرض سلطة القانون وهيبته ، كذلك كنت معروفا في الصحافة وهدفا للسخرية . وكانت هناك افتتاحيات تهزأ من عملي ، فتطالب بالرحمة للقمل والديدان وسائر الحشرات ! تصور !

صوت : كثيرة كانت السهام التي سددت اليك انت الرجل الرقيق الاحساس . ولكن ذلك لم يزدك إلاّ عنادا في حربك الصليبية ، واعتقادا منك بأنك اذا شئت ان تكسب اي معركة لها اهميتها ينبغي لك أن تجعل نفسك هدف هرج ومرج أعظم . ورحت ترفع القضايا والشكاوى ضد الذين يقسون في معاملتهم للحيوانات حتى امنت لنفسك ، وسط الحملات التي كانت تشن عليك ، دعما قويا من أحد الناشرين المعروفين بعد اقتناعه بجدية عملك وعدالة القضية التي تناصرها . وبات لك نفوذ قانوني في المحاكم فضلا عن تأييد الرأي العام وعطفه .

برغ : ولكن النفوذ القانوني والعطف الشعبي لم يكونا كافيين لجعل جمعية الرفق بالحيوان قوية . فقد كانت الحاجة الى المال ملحة . ففي البدء كانت المبالغ التي خصصتها لذلك من جيبي الخاص . وقد جاء وقت لم تعد مدخراتي تكفي لسد الحاجة الى النفقات المتزايدة .

صوت : وجلست كثيرا في حجرة مكتبك الوحيدة الصغيرة في برودواي والشارع الرابع ـ تلك الحجرة التي قيل انه صدر منها من القوة المعنوية اكثر مما صدر من أي حجرة اخرى بمثل حجمها في أميركا بأسرها . لقد جلست

تفكر في الأمر ، مواجها نهاية عملك ، عندما جاءتك رسالة يطلب فيها أحد النزلاء في مستشفى نيويورك أن تزوره .

برغ : لقد كان ذلك المريض فرنسيا يدعى بونار جمع ثروة لا بأس بها من الغرب الاميركي ، وقد رغب في مد يد المساعدة اليَّ في عملي ، فمنحني مبلغ خمس عشر ألف دولار . فلما ذهبت لزيارته في المستشفى وجدته قد فارق الحياة . وهكذا انقلب الموقف رأسا على عقب وراحت الاكتتابات المالية تنهال عليَّ من كل حدب وصوب ، حتى بات للجمعية موازنة ضخمة ، وفروع في مختلف الأرجاء الاميركية .

صوت : وحتى وفاتك سنة ١٨٨٨ كنت رئيسا لجمعية الرفق بالحيوان . وقد كنت في السنوات الاولى من عمر الجمعية تقوم بكل شاردة وواردة . ولكن مع مرور الزمن تجاوزتك تلك المؤسسة ، تجاوزت طاقاتك الجسدية ، كما تجاوزت مواردك المادية . ولكنها لم تتجاوز المفهوم الأساسي الذي وضعته لها . ولكن الفكرة الرئيسية في أساس عملك هي مفهومك للسبب الرئيسي وراء عطفك على الحيوانات .

برغ : بالطبع ، يا سيدي ، فلقد طالما أكّدت أن الأذى يصيب كرامة النفس البشرية عندما يسيىء الانسان الى الحيوان ، وان القسوة تحط من قدر من ينزلها بالضحية اكثر مما هي مؤلمة لتلك الضحية !

صوت : صحيح ، يا سيد برغ . ولقد كان الجميع يتوقعون أن

تستريح وتنام بعد أن وفيت قسطك للعلى - كما يقول الشاعر العربي . ولكنك لم تفعل بل حوّلت اهتمامك هذه المرة الى الاطفال الذين لم يكن ثمة قانون لحمايتهم ، أو للرفق بهم - على غرار جمعيتك الاولى . وهكذا بعد أن نالت الحيوانات بزمن طويل حقوقها القانونية ، صدرت التشريعات التي تضمن حقوق الاطفال الاميركيين . وننهي هذه المقابلة بعبارة أطلقت عليك هي : « ان هنري برغ قد ابتكر نوعا جديدا من الطيبة » .

برغ : شكرا لك ، يا سيدي !

فرنسيس ويلارد : بائعة الرجاء المتجولة

(١٨٣٩ - ١٨٩٨)

صوت : كانت الصغيرتان فرنسيس وماري ويلارد تلعبان لعبة تدعى « معركة الهنود الحمر » في صالة اللعب في منزلهما ، حيث جمعتا كدسة من الكراسي وقفتا خلفها لحماية نفسيهما من عصابة كانت تتألف من صبيين وكلب . ولم تكن المعركة في مصلحة الفتاتين ، فطرأت على بالها فكرة قدرت انها ستقلب الموقف رأسا على عقب ، فهرعت الى فناء المنزل وعادت بعظمة عليها بعض اللحم ، القتها الى الكلب مرددة : « خذ ، هذه لحمة لك ، فالتهمها وكف عن القتال ! »

واستجاب الكلب للمنطق ، وانحاز من فوره الى فريق الفتاتين المدافع ، وهكذا كسبت الصغيرتان المعركة بفضل نوع من الاستراتيجية الذكية .

تلك كانت الخطة التي اعتمدتها فرنسيس ويلارد طوال حياتها : التوفيق بدلا من النزاع . « خذ لحمتك وكف عن القتال » . كان ذلك مبدأها لكسب العدو الى جانبها ، بدلا من الانتصار على هذا العدو . ولقد قضت فرنسيس طفولتها متنقلة مع ذويها من منطقة الى منطقة في ارجاء العالم الجديد الفسيحة . . . اليس كذلك ، يا فرنسيس ؟

فرنسيس : صحيح ما تقول ، يا سيدي . فيوم ابصرت النور سنة ١٨٣٩ في مدينة تشرشفيل ، في ولاية نيويورك ، كان والدي مديرا لاحد المخازن . ولكن بعد ان حدثت الازمة الاقتصادية بسنتين وجد ابي نفسه عاطلا عن العمل ، فقرر ان ينتقل بأسرته الى ولاية اوهايو ، حيث كان يرجو ان يلتحق بكلية اوبرلن ـ وكان اذ ذاك قد تجاوز حد الاربعين ـ ليدرس اللاهوت ويصبح قسا .

صوت : لم يكن هناك اذن اي شيء صعب بالنسبة الى اسرتك التي لم تكن تعتبر ان الاوان قد فات على هذا او ذلك من الامور .

فرنسيس : لا تستغربن ذلك ، فأسرتنا تدعى ويلارد ، وهذه الكلمة ـ كما تعلم ـ تعني بالانكليزية صاحب الارادة !

صوت : وهكذا حشر والدك جوزايا ويلارد افراد اسرته في عربة مقفلة مع الاغراض والحاجيات المنزلية واتجه شطر الغرب ليبدأ حياة جديدة .

فرنسيس : وحبذا لو اننا بدأنا هناك ، بعد تلك الرحلة الشاقة ، الحياة الجديدة التي كان يرجوها والدي . فقد كانت تنتظرنا آلام ومشقات اخرى قبل ان نستقر نهائيا !

صوت : من مثل ؟ !

فرنسيس : بعد بضع سنوات من الدراسة في اوبرلن ، اصيب والدي بداء الصدر ، فأمره الطبيب بالحياة في الهواء الطلق ، وذلك بالانتقال الى الغرب . . . وهكذا عدنا الى حمل عصا الترحال ، واتجهنا اكثر الى الغرب ، الى

ولاية وسكونسن التي بلغناها بعد ثلاثة اسابيع ، كنا نتوقف خلالها ايام الاحد وحسب للراحة !

صوت : وفي وسكونسن شيد والدك منزلا ، وحرث الارض ، فتحسنت صحته ، وتغلّب على المرض ، ونجح في توفير العيش الكريم والطمأنينة لأسرته التي كانت مكونة من ثلاثة اولاد : شقيقك اوليفر ، وانت فرنسيس ، وشقيقتك ماري .

فرنسيس : الواقع اننا كنا خمسة اولاد ، ولكن اثنين منا رحلا الى العالم الاخر ، الذي اعتبره اجمل كثيرا من المكان الذي كنا نعيش فيه على فرط جماله .

صوت : وكنت في صغرك ، يا فرنسيس ، غريبة الاطوار حقا ، حتى ان الكثيرين كانوا يدعونك فرانك لأنك كنت مغامرة وصخابة اشبه بالصبيان منك بالبنات في ممارستك العابهم ، وعدم اهتمامك بالشؤون المنزلية . ولقد أحببت دائما أن تستكشفي البرية والمجهول اللذين يحيطان بمنزلكم الخلوي في الغابة ، فتحملين على ظهر جديك الطعام لتأكليه في نزهاتك الرائدة تلك في البرية الواسعة التي وصفتها وصفا رائعا اذ قلت انها «بحر من البذور الذهبية يمتد الى ما وراء الافق ! »

فرنسيس : الواقع انني شخصيا أتيت من وراء الافق ، ذلك العالم الكبير المليء بالاماكن المثيرة والأشخاص المثيرين . وكنت اتساءل هل ان الجميع كانوا يعيشون في بيوت كالبيت الذي اعيش فيه ؟ ! وكنت كلما كبرت عرفت من ذويّ انه ليس هناك بيوت كثيرة كبيتنا تعيش بنعمة الله . ففي

بعضها ، وفي اغلبها كان هناك مال قليل ، وبؤس كثير !

صوت : وهل سألت عن السبب في ذلك ؟

فرنسيس : بالطبع ، فقد هزتني ملاحظة والدي فسألته عن السبب فكان جوابه : «هناك اسباب عديدة : الطمع ، والكذب ، والرياء ، والفساد ، والغش ، والخداع ، والنهم ، والنميمة ، ولعنة الخمرة ، السامة ! والحقيقة ان معظم هذه الالفاظ لم تكن تعني الشيء الكثير بالنسبة الي . ولكن واحدة منها فهمتها جيدا . الخمرة السامة !

صوت : لذا دعاكم والدك لتوقيع تعهد بالابتعاد عن الخمرة ، ومكافحة ادمانها ما استطعتم الى ذلك سبيلا ، وذلك على الكتاب المقدس ، تحت عبارة نصها وكتبها ، أتذكرينها ؟

فرنسيس : وكيف لا اذكرها ، وقد كانت دستورنا جميعا ، ودستوري بنوع خاص ، والرسالة التي اضطلعت بها في حياتي . لقد كانت تلك العبارة : « لارواء غليلنا سنجلب دائما الماء البارد المنعش من الينبوع او البئر ، ونتعهد ههنا بكره كل ما يمكن ان يسمم النفوس من شراب ! » ولكنني في تلك الاثناء كنت منهمكة في شؤون اخرى .

صوت : وما كانت تلك الشؤون الاخرى ؟

فرنسيس : العناية بالدجاج والماشية على اختلاف انواعها ، والمطالعة .

صوت : على ذكر المطالعة يروى ان والدك رآك يوما منهمكة في قراءة رواية « آيفنهو » للسر ولتر سكوت ، وكان قد حذرك من مطالعة الروايات بحجة انها ليست للفتيات .

فرنيس : صحيح ، ولكنه نسي اذ قال لي ذلك انني كنت يومها احتفل بعيد ميلادي الثامن عشر ، وانني قد اصبحت امرأة تستطيع ان تفعل ما يحلو لها ، وقلت له « ان الله ليعتز بأنه خلق المرأة اعتزازه بخلق الملائكة ! »

صوت : وماذا قلت له غير ذلك في تلك المناسبة ؟

فرنسيس : سألته هل ان الرجل يحب بلاده اكثر من المرأة ؟ فأجابني بالنفي واستفسر لماذا أطرح عليه مثل ذلك السؤال . فقلت : « لماذا اذن تذهب وشقيقي اوليفر الى صناديق الاقتراع ونمنع نحن النساء من هذا الحق ؟ اني اشعر بالالم يحز في نفسي وتطفر الدموع الى عيني كلما فكرت في ان الانظمة والقوانين تمنحكم أنتم الرجال حقا تحرمه على النساء ! »

صوت : ان اراءك كانت جريئة ، بل خطرة ، ولكـن ماذا كان بامكانك ان تفعلي ؟

فرنسيس : ذلك كان سؤال والدي الذي قال لي ايضا «هل ستغيرين نظام الكون ؟»وكان جوابي : «ولم لا ، أنا ارجو ذلك ، فليس ثمة كلمة « مستحيل » ، كما قال نابوليون » .

صوت : وفي ربيع سنة ١٨٦٨ رحلت الى اوروبا برفقة صديقتك كيت دجاكوس حيث قمت بجولة واسعة تخفيفا للالم

الذي اصابك من جراء وفاة والدك ، بعد وفاة شقيقتك ماري . ثم عدت بعد ان أزددت ايمانا بضرورة العمل الجدي من أجل الرسالة التي نذرت نفسك لها . فماذا فعلت ، وكيف بدأت ؟

فرنسيس : استقلت من سلك التعليم ، والتحقت بحركة تحريم الخمرة التي بدأت وقتئذ تؤتي ثمارها . ففي اوهايو وحدها اقفلت اكثر من مئتين وخمسين حانة في غضون شهرين . وكنت اعرف أنني بعملي ذاك سألاقي مصاعب جمة على الرغم من نشاطي وصلابتي . وكنت اعرف كذلك انني بكوني بائعة الرجاء المتجولة ينبغي لي التنقل ، والتضحية بالراحة والهدوء البيتي ، ولكن من أجل توفير الراحة لسائر البيوت . . . ولم اكن لأتردد في هدم بيتي لتعمير بيوت الاخرين !

صوت : وكنت تعرفين كذلك أن عليك الاختلاط بالسكارى والمقامرين بدلاً من الاختلاط بالمتعلمين والمثقفين ، وبدلاً من التردد على دور الكتب كان عليك أن تقضي وقتك في الحانات وعربات السكك الحديدية !

فرنسيس : لقد كان ذلك سهلا بالنسبة الى ما كنت الاقيه في سبيل اقناع المدمنين على الاقلاع عن تناول الخمرة . فقد كانوا يسألونني : ماذا تنتظرين منا ان نتوقع من حياتنا اذا نحن تنازلنا عن ملذات هذه الحانات ؟ فأجيبهم : مباهج الحياة العائلية والاستقرار البيتي . فيهزأ البعض ويردد : كأن لامثالنا مباهج في هذه الحياة ، نحن معشر العمال

البائسين . . . فأعود الى التأكيد لهم ان الحياة ملأى بالمباهج توزعها على الجميع . ولكني مع ذلك عرفت ان الخمرة شر ثانوي لانها فرار من الواقع . والبؤس والشقاء! ولقد كانت جذور الشر في استغلال العمال وتحطيم حياتهم . وهكذا عملنا ، زميلاتي وانا في حركة تحريم الخمرة على انصافهم وانتشالهم من وهدة الشقاء !

صوت : وهكذا بعد ان انتخبت رئيسة لحركة تحريم الخمرة ، وضعت نصب عينيك القيام بحركة مثلثة الاهداف : ازالة الحانات من الوجود ، الحصول على حق الاقتراع للنساء ، وانصاف العمال البائسين . ورغم المعارضة الشديدة من جانب النساء اللواتي كن يعملن معك للاهتمام بهذه الحركة المثلثة ، فقد قضيت على كل مقاومة لارائك الجريئة .

فرنسيس : رغم كل هذه المعارضة والمقاومة الغاشمة وسط الحركة النسائية التي كنت اتزعمها ، مضيت أشق طريقي وسط الزوابع الهوجاء التي اعترضت هدفي ذاك ، المثلث اذا شئت . وعلى فراش الموت بعد ان قضيت على هذه الارض تسعا وخمسين سنة تمتمت : « هناك عمل آخر في العام الآخر ! »

صوت : ولكن ثقي يا سيدتي ، ان عمل فرنسيس ويلارد ، في هذا العالم يذكره الجميع ويقدرونه . فأنت المرأة الوحيدة التي يقوم تمثالها في بهو التماثيل الشهير في الكابيتول !

فرنسيس : أصحيح ما تقول؟ شكراً لله ، فقد أخذ بيدي طوال حياتي ، وبعد مماتي !

صوت : لقد قفزنا سريعا الى نهايتك ، يا سيدتي ، وكان بودي ان اضيف بعض المعلومات عنك وعن اعمالك التي استمرت حتى النفس الاخير .

فرنسيس : لك ما تريد . . .

صوت : المعروف ان العالم الفسيح كان هدف حركتك المثلثة النبيلة بعد العالم الجديد ، ذلك بأن قضيتك كانت قضية الجنس البشري باجمعه .

فرنسيس : صحيح ! ففي بدء عملي اتخذت شعارا لي هذه العبارة : « من اجل الله ، والاسرة ، والوطن » . ثم ما لبثت ان أبدلت هذا الشعار بما يلي : « من اجل الله ، والاسرة ، وكل وطن ! »

والحقيقة انه لولا وجود مياه الميحطات لكانت شواطىء اوروبا واسيا ، جزءا من بلادنا الاميركية . فنحن جميعا عالم واحد واقع تحت التجربة الانسانية .

صوت : الواقع ، يا فرنسيس ، انك كنت مخلوقة لقدر معين ، وكان قدرك ان تخدمي كواحدة من الممرضات في ميدان الحياة . وكنت فلورانس نايتنغيل اخرى تعملين في نزاع اقل مأسوية ولكنه أشمل : النزاع الازلي بين العوز والطمع ! ولكي تحققي هدفك في اقامة بيوت اكثر نظافة ، وصحة ، وسعادة ، وضعت عريضة ترجمت الى خمسين لغة وارسلتها الى الحكومات الرئيسية في العالمين القديم والجديد .

فرنسيس : حاولت بالاختصار ان ابني ملكوتا سماويا كونيا . وقد

دعوت هذا الحلم العالمي «جمهورية الله» على غرار الجمهورية التي سبق ان وضع دعائمها افلاطون من قبل !

صوت : ولما اقعدك المرض انهمكت في تحضير ترجمة حياتك ، التي صدرت في كتاب يقع في الف ومئتي صفحة ، لم يستغرق منك سوى اثني عشر اسبوعا وحسب . وكنت حتى النهاية ترددين باستمرار : «دعوني أملي رسالة اخرى بعد . انها على جانب كبير من الاهمية !»

فرنسيس : تلك هي الحقيقة ، فأنا اذكر ذلك جيدا . . . وحبذا لو مد الله في عمري ، لأنه كان ما يزال امامي شيء كثير أعمله !

صوت : شكرا لما قمت به ، يا فرنسيس ويلارد ، وشكرا على هذه المقابلة الممتعة حقا ، ولتنعمي بالهدوء والراحة في خلودك !

فلورنس نايتنغيل : ملاك الجند الحارس

(١٨٢٠ - ١٩١٠)

صوت : « الى الامام ، ايتها الكتيبة السريعة . اهجموا على المواقع . » قال القائد . والى وادي الموت اندفع الجنود الستماية . ليس ثمة مجال للتساؤل والتفكير . ليس ثمة سوى الحرب والموت الى وادي الموت اندفع الجنود الستماية !

« متى يخبو مجدهم ؟ يا لهول المعركة التي خاضوها . . . الدهشة استولت على الجميع . مجدوا الهجوم الذي قاموا به . مجدوا الكتيبة السريعة . الجنود الستماية النبلاء . . . »

تلك هي الصورة الرومنطيقية التي رسمها الشاعر الانكليزي الاشهر الفريد تنيسون لمعركة بالاكلافا، في حرب شبه جزيرة القرم . ولكن هذه الصورة الحقيقية ، الواقعية ، التي رسمتها فلورنس نايتنغيل للمشهد الذي اعقب المعركة : « في مستشفى سكوتاري » ليس ثمة قمصان نظيفة . . . كل ما يغطي اجساد الجنود ملابس رثة مشبعة بالدم . . . المستشفى اصله ثكنة عسكرية . . . الجو قذر ، والجنود يئنون تحت وطأة الجراح النتنة ، والحمى . . . الحجرات تعج بالفئران ،

والجرذان ، والحشرات . . . الرياش وادوات التنظيف العادية لا وجود لها ، مثلها في ذلك مثل الراحة والتأديب . . . ولو ان الحشرات كانت تجمعها وحدة الهدف لحملت على ظهورها الجنود الجرحى من هناك الى وزارة الحربية في لندن . معنا الان ، حاملة المصباح فلورنس نايتنغيل . . . اليس ذلك ما كتبته عن انطباعاتك في ذلك المستشفى الحقير ؟

فلورنس : انه قليل من كثير مما كتبته عن الاهوال التي شاهدتها في شبه جزيرة القرم اثناء تلك الحرب الضروس . لقد تحدثت عن حماقة المسؤولين في وزارة الحربية البريطانية . وتحدث الشاعر تنيسون عن بطولة الجنود في ميدان القتال .

صوت : حسنا ، يا سيدتي . ولنبدأ قصتك من البداية . فقد ابصرت النور سنة ١٨٢٠ في مدينة فلورنسا في ايطاليا ، ودعيت تيمنا بذلك الاسم .

فلورنس : احمد الله على انني ابصرت النور في فلورنسا ، ودعيت باسمها ، ولم ابصره في تاناناريف مثلا (يقهقهان) .

صوت : وعندما اعلمت والديك بعزمك على امتهان التمريض استولت عليهما الدهشة ، واخرسهما الذهول . لماذا ؟

فلورنس : لم يكن بوسعهما التفكير في ان فتاة من اغنى الاسر البريطانية يمكن ان تمتهن ادنى المهن المعروفة. ذلك بأن التمريض لم يكن في ذلك العصر شيئاً معتبرا، حتى انه لم يكن يحسب مهنة من المهن. ولا اغالي اذا قلت لك ان التمريض كانت تقوم به اذ ذاك المتشردات السكيرات

اللواتي كن يخيرن في مخافر الشرطة بين السجن والخدمة في المستشفيات .

صوت : وعلى ذلك ، ذهل ذووك اذ طالعتهم برغبتك تلك ، كما لو كنت قد شئت ان تصبحي خادمة ، وانت ابنة الحسب والنسب .

فلورنس : وكنت فوق ذلك جميلة الصورة ، وافضل فتاة في اسرة نايتنغيل ، تلقيت مختلف العلوم من الرياضيات العليا ، الى الموسيقى ، والفن ، والعلوم الطبيعية ، والادب . ودرست اللغات الايطالية والالمانية والفرنسية واتقنتها جميعا اتقاني اللغة الانكليزية . هذا فضلا عن دراستي اللغتين القديمتين اللاتينية واليونانية .

صوت : كنت اذن فتاة مثالية ، بل اميرة ، وكان والداك يخشيان على مستقبلك .

فلورنس : وقد جبت ارجاء اوروبا ، ووصلت الى وادي النيل . وكان بوسعي التحدث الى مختلف الاجناس البشرية ، في شتى المواضيع . حتى انني كنت ادعى الى حفلات الاستقبال التي كانت تقيمها الملكة فكتوريا . وقد كان جميع الشبان الانكليز المرشحين للزواج يخرون على قدمي .

صوت : كنت اميرة بحق وحقيق ، فماذا كنت تريدين اكثر من ذلك ؟ !

فلورنس : كنت اريد ان اهرب من السأم المحيط بي . . من كل ذلك الزيف الملون بالاصباغ والمساحيق . كنت اود ان

اتعرف الى البشر الحقيقيين في لحظاتهم الحقيقية . . في لحظات آلامهم . كان والدى يجعلني اقرأ له دائما بصوت مرتفع كتابا من كتب العهد الفكتوري حول آداب السلوك عنوانه « مراحل في حياة فتاة البيت » . اما انا فكنت افضل ان اقرأ لنفسي كتابا من نوع آخر : « التقرير السنوي لمعهد فيلدنر » .

صوت : وما هو هذا التقرير ، وما هو معهد فيلدنر ؟

فلورنس : معهد فيلدنر كان مدرسة المانية لتدريب الممرضات . وقد ولدت وفي دمائي يجري حب التمريض ، والعناية بالجرحى والمرضى ، حتى انني في طفولتي كنت انصرف عن ممارسة مختلف الالعاب لكي انظف جراح الماشية والدواجن التي كان يربيها الفلاحون في بلدة امبلي .

صوت : وفي اي سن استيقظ وعيك على امتهان التمريض ؟

فلورنس : كنت في السادسة فشعرت بالدعوة الى القيام بمهمة الرحمة تلك . وكنت كلما تقدمت بي السن ارى بوضوح اكثر فأكثر النجم الذي امرت بأن اتبعه .

صوت : ألم تفكري قط في الزواج عندما بلغت سن الصبا ؟

فلورنس : الواقع انني في العقد الثاني من عمري فكرت في الزواج والا سقرار . حتى انه كانت لي علاقة غرامية او علاقتان . ولكنني ما لبثت ان نبذت فكرة الزواج والحياة الزوجية ، لأنني لم اخلق لذلك .

صوت : وعلى ذلك لم يبق امامك سوى تلبية الدعوة السامية .

فلورنس : اجل ، فلطالما اختلست الساعات من وقت نشاطي

الاجتماعي لدراسة علم التشريح ، وزيارة مستشفى الاقليم الذي كنا نعيش فيه . وفي ذات يوم زرت المانيا ، فقضيت اسبوعين في مدرسة فيلدنر للتمريض . وقد راع فيلدنر في بادىء الامر «يداي الرقيقتان الارستقراطيتان » . فلما قال لي انني لن اقبل بمسح البلاط ، اجبته : «جربني » .

صوت : ولما جربك أيقن انك خلقت لتكوني ممرضة !

فلورنس : وقبل ان ينقضي طويل وقت برهنت للانكليز المشككين ، كذلك ، أنني خلقت لاكون ممرضة . فقد عينت مديرة لمصحة شارع هارلي . فاثبت لهم انني اتقن الى جانب مسح البلاط ، تضميد الجراح ، واحياء الامال ، وذلك امر على جانب اكبر من الاهمية .

صوت : وليس من المبالغة في شيء القول انك قمت اذ ذاك بعمل هرقلي ، بصفتك اول امرأة تتولى ادارة مستشفى . وقد نجحت في مهمتك على الرغم من كل المصاعب ، ومن عدم خبرتك .

فلورنس : اسمح لي في هذا المجال ان اردد ما قالته عني الروائية مسز غاسكل : « يبدو ان فلورنس نايتنغيل يقود خطاها الله كما قاد من قبل جان ـ دارك ! . . »

صوت : كان الله يقودك في طريق معين محدد . فقد كانت التقارير عن الاحوال الرهيبة التي تسود مستشفيات شبه جزيرة القرم تترى على انكلترا . وتعالت الصيحات مطالبة بأن تفعلي شيئا في هذا الصدد.

فلورنس : ولقد سمعت الصيحات فكتبت الى صديقي الحميم السر سيدني هربرت ، وكان يتولى وزارة الحربية ، اعرض عليه تطوعي مع عدد من الممرضات للذهاب الى جزيرة القرم للقيام بالواجب المفروض علينا دون ان نحمل خزينة البلاد قرشا واحدا . وحصلت على الاذن .

صوت : ومتى تمت الرحلة ؟

فلورنس : في الحادي والعشرين من تشرين الاول من سنة ١٨٥٤ ابحرت بنا السفينة الى شبه جزيرة القرم ، وكان عددنا تسعا وثلاثين ممرضة ، وقد كانت رحلة شاقة مضنية ، وقعت مريضة من جرائها . ولكن سرعان ما شفيت لانه لم يكن ممكنا ان ارقد في سريري ، وادع الجرحى دون عناية ، وفريسة الاستهتار الفظيع .

صوت : لقد كتبت مرة تقولين ان مستشفى سكوتاري الذي دخلته كان اشبه بجحيم دانتي : « ليفقد الامل كل من يدخل هذا المكان ! »

فلورنس : ولكن واحدة دخلته ولم تفقد اي رجاء . انها فلورنس نايتنغيل (يقهقهان) . فقد دخلت وقلبت كل الاوضاع السائدة رأسا على عقب : من الاوضاع الصحية الى الاوضاع الادارية .

صوت : وقد اعترف النزلاء من الجرحى والمرضى بفضلك العظيم فاطلقوا عليك لقب « السيدة حاملة المصباح » ، ذلك بأن مجرد ظهورك كان يرد الحياة الى الذين كان

الاطباء والجراحون يعتبرون حالاتهم يائسة . والواقع انهم كانوايعبدونك، ويقبلون خيالك وانت تخطرين عبر حجراتهم .

فلورنس : ذلك بأن هؤلاء الجرحى من الجنود كانوا يعرفون معنى التعب ، فيدهشون لمهمتي القسعاء .

صوت : لقد كنت بحق ملاك رحمة . ففي ايام كثيرة كنت تقضين ثماني ساعات بطولها راكعة لكي تضمدي الجراح ، واحيانا كنت تساعدين الجراحين في عملياتهم طوال عشرين ساعة متواصلة .

فلورنس : فضلا عن سائر الاعمال التي كنت اقوم بها من طهو ، وادارة ، وتنظيف ، وغسيل ، وكتابة رسائل .

صوت : وعدت الى الوطن عليلة . ولكن مهمتك لم تكن قد انتهت .

فلورنس : الواقع انها كانت قد بدأت فحسب . فسكوتاري لم تكن المستشفى الوحيد . . . العالم كله كان مريضا ، ويحتاج الى تمريض !

صوت : وحاولت فتح مدرسة لتدريب الممرضات ـ وهي المكان الذي يمكن «للمرأة فيه ان تكون بشرا » .

فلورنس : وكنت اتوق الى اجراء اصلاح جذري في المستشفيات العسركية البريطانية، والثكنات .

صوت : ولكن الصعوبات اعترضت سبيلك . وكان على رأس المعارضين ـ على الرغم من مباركة الملكة فكتوريا

لعملك ـ اللورد بانميور ، الذي خلف صديقك السر سيدني هربرت في وزارة الحربية .

فلورنس : صحيح ، الا انه ما لبث ان اصغى الي بعد ان اصغى الي بتفهم ووعي الرأي العام ، وهب الجميع لمساندتي بالعرائض والمساعدات المالية . وذلك اثر نشري كتابا عن التمريض ، اشرفت على الدعاية له بنفسي ، فراج رواجا كبيرا ، وترجم الى عدد من اللغات ، ودخل هكذا مئات الالوف من البيوت .

صوت : وهكذا حققت حلمك ، فافتتحت مدرسة تدريب الممرضات ، وبني المستشفى العسكري ، واجريت الاصلاحات الصحية .

فلورنس : واسمح لي ههنا بأن أشير الى ان اللورد بانميور حاول ان يظهر « رجولته » مرة اخرى في تغيير الخطط الموضوعة لبناء المستشفى العسكري بحجة ان المرأة لا تفقه شيئا في مثل هذه الامور ، ولكنه لم ينجح ، وكانت الغلبة لي في نهاية الشوط .

صوت : وفي تلك المرحلة من حياتك اصبحت عاجزة عن الوقوف على قدميك معظم الوقت .

فلورنس : ولكنني واصلت العمل ، فكنت اشد بيدي الشاحبتين مئات الخيوط لمئات المشاريع . فقد كان منزلي ملتقى الساسة ، والقادة العسكريين ، والفنانين ، والشعراء واللوردات .

صوت : وخارج البيت ، عندما كنت تقومين احيانا بنزهة في

الحديقة ، كانت الجماهير تلتف حول عربتك معبرة عن تقديرها العميق لك ولعملك ، بطلب لمس شالك ، او هز يدك . وكنت اذ ذاك في الثانية والثمانين من العمر ، ولكن ابعد ما تكونين عن ترك العمل .

فلورنس : كنت في الليل اعنى بالممرضة التي جيء بها للعناية بي ، وفي النهار كنت افكر في شتى المشاريع وفي التخطيط لبناء عالم افضل . . .

صوت : ولما بلغت التسعين لم تعودي قادرة على مواصلة العمل . فقد كان يقترب من بابك وئيدا « الجبل الاسود الذي يركع لدى كل منزل . » وراحت قواك تخونك الواحدة بعد الاخرى .

فلورنس : لا عجب في ذلك ، فتلك حمولة زائدة في رحلة الروح الازلية .

صوت : بدأ العجز فأصاب يديك ، ثم عينيك ، ثم عقلك .

فلورنس : ولكن نتفا ضئيلة من الماضي ظلت تحوم فوق شاشة ذاكرتي المحيطة . وفي ذات ليلة استيقظت مذعورة وصحت : « أأنا تلك التي وقفت على تلك الذرى في شبه جزيرة القرم ؟ »

صوت : ومع ذلك ، وقبيل النهاية ، التمع آخر شعاع من نور . فقد سألك ذات يوم احد الاصدقاء : « اتعرفين اين أنت ؟ » فاجبته بالايجاب ، وقلت : « انا واقفة امام مذبح القتلى . وسأناضل من اجل قضيتهم ما حييت ! »

هنري دونان : الرجل ذو الرداء الأبيض

(١٨٢٨ - ١٩١٠)

الصليب الاحمر الدولي - كما أوجده هنري دونان - لا يعرف اي جنس ولا أي دين ، ولا أي قومية ولا أي حدود . كل ما يعرفه البشر الذين يحتاجون الى اغاثة ، فيمد اليهم يد المساعدة والمعونة أيا كانوا .

أما هنري دونان ، الذي ابصر النور في جنيف سنة ١٨٢٨ ، فقد توفي قبل الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٠ . وقد نال ، مع فريدريك باسي ، أول جائزة للسلام من جوائز نوبل سنة ١٩٠١ .

أما رمز الصليب الأحمر فهو العلم السويسري نفسه معكوساً لأن سويسرا هي موطن مؤسسه .

«سولفيرينو» . . ليست الا اسما لنقطة صغيرة جدا ضائعة على خريطة ايطاليا ، ومع ذلك فهي انتصار حربي فرنسي كبير يحفظ الطلاب الفرنسيون تاريخه : ٢٤ حزيران ١٨٥٩ . والواقع ان معركة سولفيرينو هي واحدة من اعظم الانتصارات العسكرية التي احرزتها جيوش نابوليون الثالث . وهي ، بلا ريب ، من أصفى الانتصارات ، من ناحية معينة بالنسبة الى ما نتج عنها . ولكن . . أواه ، كانت حصيلتها ، ككل

الأنتصارات ، دماء غزيرة من كلا الجانبين المتحاربين اللذين تلاحما في سولفيرينو : ٣٩ ألف قتيل ، و٤٠ ألف جريح . الا انه ، على ثرى سولفيرينو المجبول بالاحمر القاني ، أشرق ، للمرة الاولى في زمن الحرب ، فجر حقيقي من الأخوّة والتعاون الانسانيين . ففي سولفيرينو ، في ميدان القتال نفسه ، اختمرت الفكرة التي وُضعت في هذا العالم بعد سنين من ذلك : الصليب الاحمر الدولي .

في سولفيرينو لم يلتحم في الواقع جيشان ، بل ثلاثة جيوش ، اشتركت في المعركة بقيادة قادة ما نزال نذكر اسماءهم . فمن جهة كان العدو النمساوي وعلى رأسه الامبراطور فرانز ـ جوزف شخصيا ، ومن جهة ثانية كان الجيش الايطالي بقيادة الملك فكتور ـ عمانوئيل الثاني الذي كان ما يزال عاهل مملكة بييمونتي ـ وكان يسانده حليفه امبراطور الفرنسيين نابوليون الثالث ، الذي كان يرجو تحطيم القوة النمساوي وكسر شوكة هذه الامبراطورية ، ولذا حرص على مساعدة ايطاليا على تحقيق وحدتها القومية .

وكان حاضرا في سولفيرينو كذلك بلد رابع : سويسرا ، الممثلة برجل واحد : إنسان ! رجل غريب حقا ، لم يكن حتى جنديا ولم يكن قد التزم أي جانب عقائدي في النزاع القائم إذ ذاك . كل ما كان يشغل فكره طواحين قمح كان يرجو أن يراها تدور في الجزائر . ولكي يلتقي نابوليون الثالث الذي لم يحدد له موعدا

لمقابلته في هذا الصدد في باريس ، وهو الوحيد الذي بامكانه ان يمنحه امتياز انشاء تلك الطواحين في الاراضي الافريقية الشمالية ، اضطر هذا السويسري الى الارتحال الى ايطاليا في إثر الجيش الفرنسي ، كان هذا الرجل الذي ينبغي ألا ينساه احد يدعى هنري دونان ، وكان يرتدي اذ ذاك الملابس البيضاء . سوى أن العمل الذي هبط دونان من أجله ايطاليا تبدّل بقدرة قادر . ففي التاريخ الكثير من اللحظات الغريبة التي يتدخل فيها القدر الغامض بلا شيء احيانا : بنفثة ، أو برصاصة طائشة، أو بصداقة أو بفكرة ـ فيفعل اكثر مما تفعل قنابل المدافع او رصاص الرشاشات .

وفيما يلي مقابلة خاطفة مع هذا الانسان العظيم : هنري دونان ، نتعرف فيها على شخصيته الفذة وعمله النبيل الرائع ، وقد عُرف بلقب « الرجل ذي الرداء الابيض » .

صوت : هكذا كنت أتوقع أن أشاهدك يا سيد دونان ، بالرداء الابيض .

دونان : لا عجب في ذلك ، فقدعُرفت بلقب « الرجل ذي الرداء الابيض » .

صوت : ان مجرد لفظ اسمك : « هنري دونان » يعيد الى الاذهان تضحيتك بكل حطام الدنيا في سبيل انشاء الصليب الاحمر الدولي لاغاثة الجرحى من العسكريين .

دونان : لقد كان دون ذلك أهوال وأهوال ، أين منها أهوال معركة سولفيرينو الطاحنة .

صوت : عى ذكر سولفيرينو . . دعنا نتحدث قليلا عن ذلك الكتاب الغريب الذي نشرته سنة ١٨٦٢ ، ولم يُبَع ولم يُشرَ بل كان يُمنح او يوزَّع او يعار . انه كتاب صغير في حجمه : مئة وعشر صفحات فحسب ، ولكنها مئة وعشر صفحات أخذت تهزّ ضمائر النفوس الطيبة المعطاء في اوروبا . أما عنوانه فهو « تذكار من سولفيرينو» . واسمح لي أن أقول ، في هذا الصدد ، انها كانت المرة الاولى التي تظهر فيها الحرب مجردة من البطولة والحماسة والقدسية ، على نقيض ما يراها الاديب جوزيف دوميتر . تظهر حقيرة ، مُذلة ملأى بالعذابات الباطلة .

واتفق ان حملتك أعمالك التجارية الى سولفيرينو في ايطاليا يوم الثالث والعشرين من حزيران سنة ١٨٥٩ ، فكان ما كان من تحولك الى رسول للمحبة والشفقة ، والى اديب اذا نحن تأملنا جيدا ما انطوى عليه كتابك الرائع « تذكار من سولفيرينو » . فكيف خطر لك ان تكتب ما كتبت وانت لم تكن كاتبا بل رجل اعمال وتاجرا ؟ !

دونان : فكرت قبل كل شيء في ان الرأي العام الساذج الجاهل ، المضلّل في اغلب الاحيان ، ينبغي ان ينوَّر ، فوصفت المعارك الحربية على حقيقتها . وكان الكتاب في البدء ريبورتاجا دقيقا ، وسلسلة متعاقبة من الأحداث والوقائع معروضة بكل دقة . فلم أخف شيئا مما كان يجري تحت سمعي وبصري ، وتحت سمع المتحاربين

انفسهم ويصرهم . وهكذا ذكرت ان المحتضرين من الجنود كانوا يُدفنون احياء ، وأن الجرحى كان يقضي عليهم اللصوص ويسلبونهم ما عليهم وما يحملون ، وتدوسهم الجياد وعجلات العربات ، ويُتركون الى العطش والوحدة والموت .

صوت : وتحدثت في كتابك عن النتن : نتن الرجال الممتزج بنتن الحيوانات ، وعن عيون الموتى تنتزعها الغربان والعقبان ، وعن الديدان تسرح وتمرح فوق الجراح ، وعن الغنغرينا . انها حقا لمناظر تقشعر لهولها الأبدان .

دونان : ولا تنسَ انني تحدثت ايضا عن العالم المبهور بالاساطير ، والروايات الملحمية التي تُنشد المعارك ، والابواق التي تدوّي مؤذنة بالهجوم ، والأعلام المصطفقة في الفضاء .

صوت : فاذا بالعالم المندهش يستفيظ ويكتشف الوجه الحقيقي للحرب ، هذا الوجه البشع الكريه .

دونان : وهكذا رحت أعمل على اقناع ذوي البأس والسلطان في العالم ، وأتوسل اليهم كي يتفقوا على ايقاف المعركة حول الرجل الجريح .

صوت : وحولك ، يا سيّد دونان ، كان التجمع الكبير لنفوس منصفة ، وقلوب رحيمة مُحبة للخير . وانت ، المحموم المنهوك القوى ، لم تعرف طعم الراحة ، فكنت تجوب انحاء اوروبا ضاغطا على الحكومات ، راجيا ،

ملتمسا ، متحدثا كاتبا ، مستحثا ذوي القلوب الكبيرة على إنشاء جمعية الصليب الاحمر .

دونان : كان كل تعب ونصب يهون أمام الغاية التي كنت أسعى اليها . فلطالما تساءلت : « أليس هناك من وسيلة ما ، خلال فترات السلم ، لاقامة جمعيات اسعاف واغاثة تعنى بالجرحى من العسكريين ؟ هذه الجمعيات ، في زمن الحرب ، يمكنها أن ترسل الى المستشفيات ، وساحات الوغى ، متطوعين أكفاء مهمتهم العناية بجميع الجرحى من المتحاربين .

ان الانسانية والمدنية لتفرضان هذا العمل بإلحاح . وأي سلطان ، بل أية دولة ، ترفض منح حمايتها لأولئك الذين يبذلون أنفسهم من أجل محاولة انقاذ جنودها ؟

ان جمعيات من هذا النوع عليها أن تلتمس من الدول المتحاربة الاجازات الخاصة والتسهيلات . لذلك ينبغي أن يكون لها في كل بلد لجنة عليا تديرها شخصيات مرموقة في المجتمع . ينبغي لهذه الفكرة التي ستقدم الى الاسرة الكبرى من البلدان المتحضرة ان تنال عطف جميع الذين لهم قلوب يمكن أن تحس بآلام اخوانهم بني البشر . وما دام ليس في الوسع مع الأسف تجنب الحروب دائما أفليس الحال يدعو بإلحاح إلى محاولة تخفيف ويلاتها ؟

صوت : طبعا ، أكمل يا سيد دونان .

دونان : يجب تأليف هذه الجمعيات . انه نداء أتوجه به الى جميع

البشر قويهم وضعيفهم ، والى كل بلد ، وكل ناحية وكل اسرة . وانني قد أنهيت كتابي بقولي :

« اذا كانت هذه الصفحات ستتيح ولادة حركة رحمة وتضامن انسانيين ، واذا كانت هذه الحركة ستعجل في تشكيل اللجان التي اطالب بها ، عندئذ أكون قد بلغت الغاية التي أسعى اليها » .

صوت : وقيض الله لك النجاح في مهمتك السامية ، ففي سنة ١٨٦٤وقّعت الدول الاوروبية اتفاقية تقضي بحماية الجرحى في ساحات الوغى . ورحت تعمل ليل نهار في خدمة الفكرة التي تعهدتها بالرعاية والعناية حتى نمت وأينعت ، باذلا ، كما سبق وذكرت ، كل وقتك وجهدك ونشاطك ، مضحيا بأعمالك الخاصة التي ما لبثت ان شُلت وتعطلت تماما .

دونان : وتقدمت بي السن ، فإذا أنا فقير ، مُرة حياتي ، واكاد اكون مهجورا لا اصدقاء لي . فقد عشت طوال عمري بلا اصدقاء ، عيشة اولئك الذين آليت على نفسي تحسين احوالهم .

صوت : مع انك ، يا سيّد دونان ، حقيق بكل رعاية وعطف ، فان من كرس حياته لخدمة اخوانه بني البشر ينبغي ألا يغيب وجهه او اسمه عن عيونهم وقلوبهم .

دونان : الحمد لله ، فقبل وفاتي ببضعة أشهر تسلمت جائزة نوبل للسلام عن عام ١٩٠١ ، فكانت تلك المجافأة الرسمية بمثابة تذكير بي ، ولفت للنطر إلي .

صوت : صحيح ، وهبّت أوروبا بأسرها تشترك في تكريمك ، حاملة اليك ، في عزلتك التي لم تشأ الخروج منها ، الدلائل المختلفة على العرفان بجميلك ، وعلى احترامها الفائق !

زامنهوف : أبو الاسبيرانتو

(١٨٥٩ - ١٩١٧)

صوت : حوالي سنة ١٨٨٠ اقيمت في جامعة فرصوفيا في بولونيا حفلة لتكريم احد الطلاب هو لودفيك زامنهوف الذي لم يكن قد تجاوز بعد العقد الثاني من العمر . ولكن لا يتبادرن الى اذهان احد منكم ان هذه الحفلة كانت لمناسبة عيد ميلاد الشاب ، بل لمناسبة ولادة اللغة العالمية التي ابتكرها ـ الاسبيرنتو ، وهي مشتقة من « الامل » ، لانه كان يأمل ان تؤدي الى النتيجة التي وضعها من اجلها . فلنشرب نخب نجاحه في الرسالة التي آل على نفسه تحقيقها قبل أن نستمع منه الى قصة هذه اللغة العالمية الجديدة . . .

زامنهوف : شكرا ، أيها السيد ، وفي صحتك وصحة جميع القراء .

صوت : هلا حدثتنا ، يا سيد زامنهوف ، عن الدوافع التي حدت بك الى الاضطلاع بهذه المهمة ؟

زامنهوف : خطرت الفكرة لي وانا بعد حدث غر . فقد كانت بلدة بيالستوك التي ابصرت فيه النور سنة ١٨٥٩ مسرحا لنزاعات ومشاحنات كثيرا ما كانت تؤدي الى معارك حقيقية تسيل فيها دماء المتشاجرين من الروس

والبولونيين والليتوانيين والالمان وسواهم . وسرعان ما أدركت أن احد الاسباب في اثارة هؤلاء واشتجارهم يعود في الدرجة الاولى الى سوء التفاهم الناشيء عن جهل فريق منهم لغة الفريق الآخر . وهكذا رحت احلم ، ليل نهار ، بايجاد لغة عالمية يكون تعلمها سهلا على الجميع .

صوت : ولكن والدك الذي كان يعترف بأنك نجيب حاد الذكاء ، كان يعتقد انك تضيع معظم وقتك في تعلم اللغات على اختلافها ، ويساءل عن فائدة ذلك .

زامنهوف : اجل وكنت ابرر ذلك بقولي انني افكر في وضع لغة عالمية يتفاهم بها البشر ، فيخفف ذلك من حدة خصامهم .

صوت : ولكنه لم يرد ان يسمع هذه الاقوال ، وطالبك بنزع الافكار الخيالية من رأسك ، واتخاذ مهنة من المهن الشريفة لتكسب منها قوتك .

زامنهوف : رجوت من والدي العزيز الا يقف حجر عثرة في سبيلي ، وفي سبيل الرسالة النبيلة التي آليت على نفسي النهوض بها ، ووعدته بدراسة الطب او أي علم اخر يرضى عنه ، ولكن رجوت منه أن يتيح لي الفرصة ، قبلا ، لانهي ما بدأت به في اللغة العالمية التي كنت اتمثلها مجسدة امامي ...

صوت : ماذا فعلت ؟

زامنهوف : لقد وجدت اللغتين الكلاسيكيتين الاغريقية واللاتينية صعبتين لتحقيق الغاية من وضع اللغة العالمية ، فانتقلت الى اللغات الحية باحثا عن ضالتي المنشودة .

صوت : وهل عثرت على ضالتك المنشودة ؟

زامنهوف : لا ، فقد ادركت ان اختيار لغة من اللغات الحية سيجر حتما الى منازعات دولية حادة ، وتبقى المشكلة هي اياها .

صوت : صحيح ، فالامم كالافراد يغار بعضها من بعض !

زامنهوف : فاذا استعملت لغة من دون اللغات الاخرى قامت قيامة الامم الاخرى ، وهكذا لم يبق امامي سوى ابتكار لغة جديدة يرضى عنها الجميع .

صوت : حسنا ، ولكن الصعوبة في الابتكار ، فكيف تصرفت ؟

زامنهوف : لقد درست هذا الموضوع مطولا ، فاكتشفت أن هناك كلمات مشتركة في عدد من اللغات الحية تتشابه منها الاشكال المألوفة لكل معنى من المعاني ، فأدخلتها في اللغة الجديدة ورحت اتهجأ كل كلمة تهجئة صوتية .

صوت : هذا موضوع لا افهم فيه شيئا ، فهل وصلت الى ما تبغي ؟

زامنهوف : مهلا . . . ووضعت ستة عشر قانونا أساسيا تفي بالاغراض اللغوية جميعا . وبدلا من وضع قاموس ضخم لمفردات اللغة العالمية وضعت حروفا تضاف الى اوائل الجذور وأواخرها .

صوت : فعلت كل ذلك قبل دراسة الطب كما وعدت والدك .

زامنهوف : ذات يوم قال لي والدي : « لقد استمعت اليك تروي قصة لغتك الخيالية . . . والآن ارجو ان تستمع الى

رغبتي وتذهب الى موسكو لدراسة الطب . كفى لعبا وهذرا . »

صوت : وهذا ما قمت به ـ فذهبت الى موسكو لدراسة الطب ، ولكن كان لا بد من عودتك الى فرصوفيا بعد سنتين اثنتين لعجز والدك عن امدادك بالمال .

زامنهوف : عدت الى فرصوفيا دون ان اكمل دراستي الطبية فوجدت والدي قد احرق كل المخطوطات والمستندات التي وضعتها في اللغة العالمية التي كانت تستهلك جهودي اثناء غيابي في موسكو ليحول بيني وبين متابعة هذا العمل .

صوت : ماذا تقول ؟ وماذا فعلت ؟ لقد قضى بذلك على حلمك الذهبي . . .

زامنهوف : لا ، وصحيح انها كانت صدمة قوية ، ولكنها لم تفت في عضدي . فقد جددت المحاولة بتدوين كل ما كانت تعيه ذاكرتي من القواعد والمبادىء التي سبق ان وضعتها قبل مغادرتي فرصوفيا .

صوت : . وبعد ذلك ، ماذا كانت خطوتك الثانية ؟

زامنهوف : نشرت المقاطع التي ترجمتها من الكتاب المقدس ، وبعض المؤلفات الكلاسيكية المعروفة في كل مكان ، وعكفت على التأليف نثرا وشعرا لمهر اللغة العالمية بالدم الجديد الضروري لحياتها ، مع الاشارة الى انني تابعت دراسة الطب متخصصا بأمراض العين .

صوت : وكنت ترجو ان تفاجىء العالم بلغتك العالمية ـ الاسبيرنتو ـ قبل انصرام سنة ١٨٨٦ ، وهي السنة التي كنت ستتخرج فيها طبيبا لامراض العيون . وقد وافق والد ماريا على زواجك منها . فلقد نشأتما معا ، وتلاقيتما على مقاعد الدراسة ، وكانت شديدة الحب لك ، والاعجاب بك . . .

زامنهوف : وكان موقفه على نقيض موقف ابي من عملي . فقد وضع كل ثروته تحت تصرفي لنشر صنيعي اللغوي على الملأ .

صوت : وهكذا نشرت كتابك في اللغة العالمية مشتملا على قواعدها الاساسية في الصرف والنحو والتمارين والترجمات والمفردات بامضاء الدكتور اسبيرنتو ـ ومعنى ذلك الشخص الذي يأمل كذا وكذا !

زامنهوف : حسنا ، وكنت ارجو ان يجد هذا الكتاب طريقه الى الاوساط الفكرية التقدمية ، وكان الامل كبيرا في ذلك وبخاصة انه كان بيني وبين الكثيرين من اتباع هذه اللغة وعلى رأسهم الروائي الروسي الاشهر ليون تولستوي ، مراسلات منذ امد غير قصير .

صوت : على ذلك ، لماذا لم تنشر كتابك بعدة لغات ؟

زامنهوف : هذا ما فعلته . نشرته بالبولونية ، والالمانية والانكليزية ، والفرنسية . وتنازلت عن جميع حقوقي ، مهديا هذا الاثر اللغوي الى العالم بأسره ، لتصبح هذه اللغة ملكا لكل من يود استعمالها .

صوت : ومهنة الطب ماذا كان مصيرها بالنسبة اليك ؟

زامنهوف : أنت تعرفني أنني بمزاولتي الطب وجدت أن المداواة تكلف غاليا، فكان الفقراء والعمال يعجزون عن التداوي. لذلك رحت أعالج مرضاي بالمجان، وبقيت أعالج المعوزين دون أجر، وأنصرف في أوقات فراغي الى تقوية حركة الاسبيرنتو.

صوت : حدثنا قليلا عن النتائج .

زامنهوف : لقد عقدنا ، نحن انصار الاسبيرنتو ، منذ عام ١٩٠٠ الى اليوم الذي رحلت فيه عن هذا العالم عددا من المؤتمرات الدولية ، ورأى الجميع انهم بدوا اخوانا واخوات ، على الرغم من مجيئهم من مختلف انحاء المعمور ، وذلك باستخدام هذه اللغة الجديدة اداة للتفاهم فيما بينهم . ولكم سررت لمعرفة ان جذور الاسبيرنتو قد توطدت في كل مكان فأنصارنا يتكاثرون يوما بعد يوم . وقد لمست ذلك بنفسي في تنقلاتي بين كمبردج وجنيف ودرسدن وبرشلونه وانتويرب وبرن وباريس التي عقد فيها مؤتمرنا العاشر في صيف العام ١٩١٤ . وبعد ذلك التاريخ . . .

صوت : دعني اكمل قصتك يا ابا اللغة العالمية . مرض زامنهوف ابان الحرب الكونية الاولى وهو بعد في منتصف العقد السادس . وكانت الحياة العقلية التي عاشها قد اثرت في صحته ونهكته . ومع ذلك ظل يعمل ويعمل من اجل السلم الذي كان يرجوه وشيكا . ولكنه قضى قبل ان تكتحل عيناه بطيفه . وكانت وفاته في ١٧ نيسان ١٩١٧ ، فدفن في فرصوفيا نفسها . اما روحه فلا تزال

حية في نفوس الكثيرين . وقد ادى الاسبيرنتو خدمات جلى للمسافرين والساسة والتجار ورجال الاعمال والعلماء والعامة على السواء . وتدرس هذه اللغة اليوم في بعض المدارس .

زامنهوف : اصحيح ما تقول ؟

صوت : طبعا ، وقد ظهرت بها كتب وروايات ودواوين شعرية ومسرحيات واناشيد . وقبل نشوب الحرب العالمية الثانية عمدت بعض محطات الاذاعة الى اذاعة فقرات من مناهجها بهذه اللغة المستحدثة . وفي العالم اليوم مئات من المجلات والصحف اليومية تصدر بالاسبيرنتو ، وهناك كتب خاصة بالعميان .

زامنهوف : هذه معلومات جديدة تثلج الصدر ، اشكرك كثيرا على اطلاعي عليها . ولكني استأت كثيرا اذ عرفت منك ان حربا عالمية ثانية قد حدثت .

صوت : انه الواقع مع الاسف ، وقد دامت ست سنوات ، وبعدها كثرت الحروب الباردة التي ما تزال الى اليوم تنشب في مختلف بقاع العالم .

زامنهوف : ارجو ان تبقى باردة ، فلا تتحول الى حرب عالمية ثالثة حارة .

السر وليام أوزلر: أفضل أطباء العالم
(١٨٤٩ - ١٩١٩)

صوت: لم يكتشف وليام أوزلر أي دواء عجيب يقلب شؤون العلاج والشفاء رأساً على عقب. ومع ذلك كان عند وفاته سنة ١٩١٩ أكثر الأطباء في التاريخ حظوة بحب البشر. وبعد ذلك بثلاثين سنة ظهر مقال في مجلة الجمعية الطبية الأمريكية جاء فيه: «إن السنين قد زادته مجداً على مجد. فلم يحتل أحد مكانه كأفضل أطباء العالم!»

إن التشخيص العجيب والأبحاث القيمة، والكتابة العلمية الرائدة، والتعليم الحديث: تلك كانت انجازات الدكتور أوزلر. ولعل الأساليب الثورية التي أدخلها إلى كلية الطب قد أنقذت من الأرواح ما أنقذه التغلب على حمى التيفوئيد. ولم يكن عظيماً وحسب بسبب ما قام به، بل بالنسبة إلى ما كان عليه: كان سيد فن معالجة فكر المريض المضطرب وجسمه المريض على السواء...

ولد وليام أوزلر في مدينة أونتاريو الكندية سنة ١٨٤٩، وكان الابن الثامن للقس فيزرستون أوزلر. طرد من مدرسة القرية وهو في سن الخامسة عشرة

لأنه نزع براغي مقاعد الدرس ذات ليلة وكدسها جميعها في القبو.

أوزلر: لعل تلك الحادثة كانت بركة علي، لأنني إذ نقلت إلى مدرسة خاصة داخلية وقعت تحت تأثير رجلين عظيمين هما عميد المدرسة دجونسون وكان رجل دين يدرس العلوم الطبيعية على سبيل الهواية، والدكتور دجيمس بوفيل طبيب المدرسة الذي أصبح رجل دين في أواخر حياته. ولقد أثر هذان الرجلان تأثيراً شديداً في حياتي، ووجهاني نحو الاخلاص الشديد للعلم والايمان الديني العميق.

صوت: لم يكن في أغلب مدارس الطب في ذلك الزمان أي مجهر. ولكن الدكتور بوفيل كان لديه مجهر كان يدربك عليه هو وزميله دجونسون بعد أن آنسا منك رغبة شديدة في إجراء الأبحاث والاختبارات العلمية. وبعد فترة قصيرة من دخولك مدرسة اللاهوت، نشرت مقالات قيمة عن الحيوانات المائية الصغيرة جداً التي لا ترى إلا بالمجهر. وما هي إلا سنة، حتى أخبرت والدك أنك قررت أن تصبح طبيباً.

أوزلر: وبعد أن تخرجت في كلية «ماك جيل» الطبية في مونتريال في كندا سافرت إلى ألمانيا والنمسا وانكلترا للاستزادة من التحصيل. وفي أحد مختبرات لندن اهتممت بدراسة التكتلات الشاذة التي تتشكل في الدم بعد أن يسحب من الجسم، واستنتجت من ذلك

أن هذه الأجسام تمثل دوراً كبيراً في تخثر الدم. وقد كانت نتيجة إعلاني هذا الاكتشاف العلمي أن دعتني كلية ماك جيل للعودة إلى كندا لكي أصبح، وأنا في الرابعة والعشرين، أستاذاً للفيزيولوجيا.

صوت: وعلى الأثر حولت إحدى قاعات الدرس في الكلية إلى مختبر هو أول مختبر عرفته ماك جيل ثم أنفقت ستئمة دولار، كانت تمثل نصف مرتبك السنوي، في شراء نصف دزينة من المجاهر لتلامذتك. وزاولت أعمالاً إضافية عديدة، منها أمانة سر المكتبة، ورئاسة التسجيل في كلية الطب، كما ساهمت في العديد من المجالات الطبية والجمعيات التي ربما تكون قد أسست فيها بعد الكثير منها، وحضرت من الاجتماعات أكثر مما حضر أي طبيب في التاريخ وكنت رائداً في حقل الصحة العامة، وبسبب اكتشاف داء الترخينة. فحدثنا عن ذلك.

أوزلر: كان داء الترخينة الذي ينشأ عن وجود الترخينات في الأمعاء والأنسجة العضلية مرضاً نادراً جداً في كندا. فقد كان هناك أربع حالات مرضية وحسب مسجلة. ولكن منذ صباي، وبعد الفحص المجهري لأحشاء حيوانات المزارع، عرفت أن دودة الترخينة موجودة في الأمعاء أكثر مما كانوا يتصورون، وربما كانت تمتص قوة عدد لا يحصى من الكنديين. فتطوعت للقيام بعمليات التشريح لكل طبيب يسمح لي بذلك، وسرعان ما بلغ معدل عمليات التشريح المائة في العام

الواحد. وكان قد اكتشف في أوروبا أن الخنازير المصابة تسبب داء الترخينة فقمت طوال ثمانية أشهر بمساعدة جراح وطالب طب بيطري بتشريح آلاف الخنازير في مسالخ مونتريال، فتبين لنا أن العشرات منها مصابة بالترخينة. فطالبنا بمراقبة اللحوم وفحصها قبل بيعها، وبتعليم الجمهور كيفية طهو لحم الخنزير بطريقة سليمة وصحية.

صوت: ومن خلال عمليات التشريح كنت تكتسب تدريباً في علم الأمراض، وأسبابها وأعراضها. مما كان يقصر عن بلوغه كثير من الأطباء الممارسين. وأيقنت أن بوسعك أن تحقق انجازات أكثر إذا استطعت مع دراستك أعضاء أجسام الأموات، أن تدرس المرضى الأحياء وتربط أعراضهم الخارجية بحالة غير طبيعية لأحد أعضاء الجسم الداخلية. ولكن المرضى الأحياء كان يصعب الحصول عليهم. فجامعة ماك جيل كانت تعتبرك رجل مختبر، فلم تسمح لك بأن تفحص المرضى في حجرات المستشفى التابع لها.

أوزلر: صحيح... وكان جناح داء الجدري في ذلك المستشفى تحت إشراف عدد من الأطباء يتناوبون عليه على كره منهم، فتطوعت للاشراف عليه بنفسي، فكانت تلك المناسبة الأولى التي عملت فيها مع أناس مرضى. وأصبت بالجدري، ولكنها كانت حالة خفيفة لحسن الحظ. وما هي إلا فترة قصيرة حتى طلبت إلى رؤسائي أن يكفلوني الأشراف على جناح أمراض غير معدية.

صوت: وكانت المستشفيات في تلك الأيام أماكن كئيبة ومباني مظلمة. فبدلت كل شيء، وكان أول ما عملته أن وزعت الزهور في الحجرات التي أمرت بطلائها بألوان فاتحة. ثم انهمكت في معالجة مرضاك، فكنت تعطيهم القليل من الأدوية والكثير من جرعات التفاؤل، ممارساً العلاج السايكوسوماتي أو الجسدي ـ النفسي، قبل أن يُبتكر هذا الاسم بزمن طويل!.

أوزلر: وإن المعجزات في لورد والسيدة آن في بوبريه لهي حقيقة. ونحن الأطباء نستخدم القوة نفسها كل يوم. انها لن تحيي الموتى، ولن تضع عيناً سليمة أو تلحم عظمة، ولكن لقوة الشفاء الكامنة في الايمان قيمة كبرى عندما تطبق بدقة في الحالات المناسبة.

صوت: وفي هذا المجال يقول أحد أطباء مونتريال ان الأسّرة في مستشفى ماك جيل التي كان يشغلها مرضى مصابون بأمراض مزمنة كانت تفرغ بسرعة لا بالوفاة، بل بالشفاء، ولم تكن الحالات المرضية الجديدة تبقى طويلاً في المستشفى. لقد كانت تلك من أروع الأمثلة على العلاج في تاريخ الطب.وأذاعت هذه التجديدات شهرتك خارج حدود كندا فعرض عليك منصب تعليم الطب في جامعة بنسلفانيا فقبلت به. فكيف وجدت جو التدريس؟

أوزلر: لقد بدلت جو التعليم تبديلاً جذرياً، فبدلاً من أن

أعتلي منبر المحاضرات كما كانت العادة المتبعة وقفت أمام منضدة واعترفت أمام طلابي أنني أكره تحضير المحاضرات معلناً أنه ليس بوسعي التعليم دون وجود مريض يكون بمثابة كتاب الدرس. فدراسة أعراض المدرض من دون كتب أشبه بالإبحار دون الاستعانة بخرائط، ولكن دراسة الكتب دون مرضى أشبه ما يكون بعدم ركوب البحر. وعلى ذلك، أدخلت إلى قاعة المحاضرات شاباً هزيلاً وطلبت إلى التلاميذ أن يروا بأنفسهم كيف تكون حالة حقيقية من حالات الاصابة بفقر الدم. الأمر الذي أدهشهم لأنها كانت المرة الأولى التي يعمد فيها طالب طب إلى النقر على صدر مريض أو الاستماع إلى نبض قلبه، أو فحص الدم تحت المجهر. وذلك بأنه في سنة ١٨٨٤ لم يكن هناك أي كلية طب أميركية تتبع مثل هذا الأسلوب في التعليم التطبيقي.

صوت: ولم تكن تكتفي بجلب المرضى إلى طلابك بل حملت الطلاب إلى المرضى. وكانت تلك كذلك المرة الأولى التي يدخل فيها طلاب الطب في أي بلد حجرات المستشفى بكل حرية، مثلهم في ذلك مثل الممرضات والأطباء المعالجين. فكانوا يدونون البيان الخاص بالماضي الطبي للمرضى، ويفحصونهم بدقة تحت الاشراف الدقيق بالطبع، ويشخصون الأمراض التي كانت تثبت أو تصحح من قبل الطبيب المختص المكلف. ويهمني أن أؤكد أن هذا الأسلوب في

التعليم هو اليوم حجر الأساس لكل تعليم طبي.
هلا تابعت، يا دكتور أوزلر، سرد مراحل نشاطاتك.

أوزلر: كان الأمناء على تنفيذ وصية أحد أغنياء بالطيمور ويدعى دجونز هوبكنز يبنون أعظم مستشفى وكلية طب في الولايات المتحدة. فاختاروني لرئاسة دائرة الطب الداخلي بعد أن بحثوا في أوروبا واميركا عن أطباء للتدريس، ولم أكن قد بلغت سن الأربعين. ومنذ افتتاح المستشفى والكلية اللذين حملا اسم دجونز هوبكنز سنة ١٨٨٩، راح الأطباء المتخرجون والمدربون على يدي بعد بضع سنين ينتشرون في أنحاء البلاد.

صوت: كانت واجباتك في مستشفى وكلية دجونز هوبكنز جزءاً بسيطاً من نشاطاتك. ذلك بأنك كنت أيضاً رئيس جمعية طب الأطفال الأميركية، ومؤلف دراسة عن الشلل الدماغي الارتجافي، وثقة في الذبحة الصدرية وبعض أمراض الدورة الدموية. وثمة مرض يحمل اسمك. وأخيراً كنت أحد مؤسسي الجمعية الأميركية الوطنية لداء الصدر. وكنت في حرب ضد الملاريا والتيفوئيد وبعض الأمراض الزهرية، ورائداً في حملة تحسين مستشفيات الأمراض العقلية. وفضلاً عن ذلك، كتبت زهاء ٢٠٠ كتاب ومقال، بعضها ما يزال كلاسيكياً في حقله، لم يبزه أي إنجاز مماثل حتى بعد نصف قرن من التقدم الطبي.

أوزلر: في سنة ١٨٩٧، قرأ فريدريك غيتس مستشار المحسن

روكفلر الأب كتابي «مبادىء الطب وتطبيقاته» الذي ألخص فيه كل ما عرفه علم الطب حتى ذلك الوقت وأصرح فيه كذلك بأن هناك الكثير مما ينبغي معرفته، وليس معروفاً. فأعجب غيتس بما قرأ، وعرض قضية الكتاب على روكفلر فكان من نتيجة ذلك الاجتماع تأسيس معهد روكفلر للبحث الطبي، ومن ثم ظهور مؤسسة روكفلر.

صوت: ولكنك في سنة ١٩٠٥ أيقنت أنك إذا بقيت تعمل كما كنت تعمل فأنك ستنهك صحتك، ولذا قررت ترك مستشفى دجونز هوبكنز لتشغل منصباً أقل جهداً. ومع أن كليات طبية أميركية كثيرة سعت وراءك، ومع أن صاحب ملايين كندياً عرض على مستشفى ماك جيل مليون دولار إذا نجح في إرجاعك إليه، فإن اختيارك لم يقع إلا على إنكلترا، حيث عيَّنك الملك إدوارد السابع أستاذاً ملكياً للطب في أوكسفورد. وبعد بضع سنوات، أنعم عليك بلقب بارون. وقد أحببت بريطانيا، كما أحبتك، وما لبث منزلك في أكسفورد أن أصبح نوعاً من سفارة للعالم الجديد في العالم القديم، اشتهرت بضيافتها.

أوزلر: وفي الحرب العالمية الأولى انخرطت في الجيش لا للعمل على خط القتال، بل كمستشار طبي للمستشفيات العسكرية الكندية والأميركية في إنكلترا. فكنت أتلقى مئات البرقيات من أنسباء الجنود الجرحى الموجودين في المستشفيات البريطانية فأعمد

إلى البحث عن هؤلاء الجنود وفحصهم. ولا أبالغ عندما أقول ان الجسم الطبي الكندي اعتمد لتطمين ذوي الجرحى هذه العبارة: «إن ولدكم قد عاده الدكتور أوزلر، وهو بخير».

صوت: إلا أن ما يؤسف له، يا سر ويليام أن ابنك الوحيد البالغ من العمر ٢١ سنة، ريفير أوزلر جرح جراحاً بليغة في معركة إيبر في آب سنة ١٩١٧، فخف فريق من أشهر جراحي الجيش الأمريكي وبينهم تلميذك اللامع هارفي لانقاذ حياته، ولكن العملية لم تنجح. وبقلوب كسيرة ودعوا إبن رئيسهم الحبيب إذ ووري جثمانه ثرى سهول الفلاندر. وبعد إعلان الهدنة، قضيت سنة كاملة تجمع المال لتنقذ دور الكتب البلجيكية التي هدمتها الحرب، والأطفال الجائعين في النمسا. إلا أنك في كانون من ١٩١٩، لم تستطع مقاومة ذات الرئة. وبما أنك كنت تعرف عن هذا الداء أكثر مما يعرفه أطباؤك، أيقنت كيف ستكون النهاية، وواجهت الموت بسكون. وبعد رحيلك عن العالم الأول، وجدت قصاصة ورق بالقرب من سريرك، أتذكر ماذا كتب عليها؟

أوزلر: بالطبع أذكر جيداً ما كتبت، فلت فيها: «لقد كدت أصل إلى ميناء السلامة بعد رحلة رائعة مع مثل هؤلاء الرفاق طوال الوقت، إلى حيث ينتظرني ولدي».

شفايتسر: فيلسوف الأدغال

(١٨٧٥ - ١٩٦٥)

صوت : «أنا لست إلا طبيباً صغيراً في افريقيا الاستوائية، وكل ما أردت أن أقوم به كان إنشاء مستشفى متواضع. سوى أن المرضى كانوا يزدادون يوماً عن يوم، فمنحت مساحات واسعة، وجاء من يساعدني، فوجدت نفسي وسط أسرة كبيرة. وفي كل شهر يتدفق عليَّ أناس جدد، يسألونني كيف يستطيعون أن يكونوا نافعين. فاستقبلهم فيفعلون ما يقدرون عليه، وعندما يرغبون في الذهاب يذهبون. . .»

هذا ما صرح به الدكتور ألبرت شفايتسر إلى صحفي أميركي أثناء الاحتفال بذكرى بلوغه التسعين وهذه هي قصته:

في سنة ١٩١٣ وصل إلى لامبارينه، في جمهورية الغابون اليوم، رجل ولا كالرجال، عرف التقدير العميق، كما عرف الانتقاد الشديد في حياته الحافلة - وصل على ظهر زورق مصنوع من جذع شجرة مجوف، إلى ضفاف نهر أوغو - ويه الموحل، تصحبه زوجته إيلينا البالغة من العمر اثنتين وعشرين سنة، حاملاً بعض صناديق الأغذية والعقاقير، يرافقه

رجلان أفريقيان نذرا نفسيهما لمعاونته. هلا حدثتنا، يا دكتور، عن المنطقة التي عملت فيها؟

شفايتسر: كان هذا الركن من الغابون الذي هبطته جحيماً حقيقياً: جحيماً بشمسه وحرارته ورطوبته وأدغاله الكثيفة، التي تعج بالبعوض والثعابين والحشرات السامة. وحوله الأفريقيون الذين كان يفتك بهم سوء التغذية والمرض بأشكاله العديدة الرهيبة، كالملاريا ومرض النوم، والديزنطاريا، والتهاب نخاع العظم والجذام. أما المستشفى الذي أقمته بيديَّ فلم يكن في بادىء الأمر إلا كوخاً طوله ثمانية أمتار وعرضه أربعة، وسقفه من ورق الشجر وسعف النخل.

صوت: لماذا اخترت هذا المصير؟

شفايتسر: لقد أجبت عازف الأرغن الشهير شارل ماري فيدور الذي كان أستاذي حين وجه إلي مثل هذا السؤال بقولي: «لأن الله دعاني».

وكان بيننا نزاع طويل، فقد كان فيدور يعتمد علي - وأنا أذكى تلاميذه وأبرزهم - وكان يدعوني أفضل عالم بفن الموسيقى الأشهر يوهان سيباستيان باخ، لكي أعمل معه، غير أن حياتي العملية خارج حبي الشديد للموسيقى كانت قد حددت معالمها بوضوح.

صوت: دعنا نبدأ قصتك من البداية. فقد أبصرت النور في

كايزرزبرغ في الالزاس سنة ١٨٧٥، وتلقيت دروسك الثانوية في كلية مونستر ثم في مدرسة موهاوس، ثم التحقت بجامعات ستراسبورغ، وبرلين، وباريس، فنلت في الرابعة والعشرين من عمرك درجة دكتوراه في الفلسفة، ثم درجة دكتوراه في اللاهوت بعد سنة، وتوليت الوعظ والارشاد بوصفك مساعد قس كنيسة القديس نقولا في ستراسبورغ ودرّست علم اللاهوت في عاصمة الالزاس.

شفايتسر: وفي ذلك العهد عرفت من نشرة كانت تصدرها جمعية الارساليات الانجيلية في بارس، أن مرض الجذام يفتك فتكاً ذريعاً بسكان أفريقيا الاستوائية، فكان ذلك نقطة تحول في حياتي وجهتني نحو مصيري. وفي سنة ١٩٠٥، وهي السنة التي رسمت فيها قساً، قمت بدراسة الطب التي أنهيتها سنة ١٩١١، بعد أن تخصصت في السنة الأخيرة منها بالأمراض الاستوائية.

صوت: ويعود أستاذك فيدور فيردد على مسامعك العبارات التي كان يأمل بها أن يؤثر عليك فيثنيك عن عزمك فيقول لك: «هناك عشرات الألوف من الأطباء في العالم باستطاعتهم العناية بالسود، في حين أن المتخصصين بموسيقى باخ يعدون على أصابع اليد الواحدة».

شفايتسر: فكنت أجيبه بنبرتي الالزاسية الخشنة: «إن الله دعاني!» ذلك بأنني عندما كنت في جامعة

ستراسبورغ أتذوق متع الدرس في إطار المبادىء العلمية والفنية، لم أكن استطيع منع نفسي من التفكير في أولئك الذين حرموا هذه النعمة لأسباب مادية وصحية. ثم ذات صباح صيفي، وخلال عطلة عيد العنصرة، ومضت في خاطري هذه الفكرة، وهي أنه لم يكن ينبغي لي تقبل هذه النعمة التي منحني إياها القدر دون أن أبذل شيئاً في المقابل. في ذلك الصباح والعصافير تزقزق في الخارج عاهدت نفسي بألا تتعدى مرحلة الدراسة في حياتي الثلاثين، لكي يتسنى لي بعد بلوغي هذه السن أن أكرس نفسي حتى آخر أيامي لخدمة الانسانية.

صوت: ولكن بقيت رسالة ألبرت شفايتسر وزوجته في أفريقيا مجهولة طوال أربعين سنة. وقد تسنى للساحر الأبيض العظيم ـ وهو اللقب الذي عرفت به ـ أن يكتب كتاباً عن اختباراته الافريقية لم يعرف كثيراً في فرنسا، ولكنه ترجم في الولايات المتحدة الأميركية، فدرَّ عليك مبلغاً ضخماً استخدمته في مستشفاك، مع ما كانت تدر عليك محاضراتك وحفلاتك الموسيقية في أرجاء أوروبا بين الحين والحين. وعندما وصفتك مجلة «لايف» الاميركية سنة ١٩٤٨ بأنك أعظم رجال العصر، عمت الدهشة باريس. فلقد كانت فرنسا تجهلك وتجهل قدرك.

شفايتسر: لا غرابة في ذلك... ولكن على أثر ذلك توافد الجميع إلى لامبارينه لمشاهدة الأعجوبة: الفضوليون

والصحفيون والمحسنون وعدد من النساء الرومنطقيات مثل أولغا ديتردينغ، إبنة ملك البترول الأميركي، التي هجرت بين ليلة وضحاها ثروتها وحياتها الذهبية، من أجل سرير حديدي وحياة الممرضات الخشنة في لامبارينه. ومثل دجوان كليمنت الانكليزية، التي هجرت زوجها وولديها لتلتحق بمستشفى الأدغال. ومثل البرتينا فان بيك فولنهوفن، الحسناء الألمانية التي قررت ذات يوم أن تكرس نفسها وحياتها لخدمة المجذومين. وكنت أتقبل كل أصحاب الارادات الطيبة بالابتسام والرضا.

صوت: ولم يزحزح فكرتك عن المهمة الانسانية التي سلكت سبيلها شيء من مغريات الدنيا... لا جائزة غوته التي منحتك إياها مدينة فرنكفورت، ولا جائزة نوبل للسلام التي توجت سنة ١٩٥٢ عامك الثامن والسبعين، ولا حتى المسرحية التي وضعها سنة ١٩٥١ جيلبير سيسبرون بعنوان «إنه منتصف الليل يا دكتور شفايتسر»، والتي تروي قصة «الساحر الأبيض العظيم»، ولا الشريط السينمائي الذي اقتبسه أندريه هاغيه من هذه المسرحية، ومثّل فيها دورك الممثل بيير فريني. أما وجهك فقد ظهر في فيلم يروي سيرة حياتك بعد ذلك بسنوات، وقد أنتجه سينمائي أميركي.

شفايتسر: ورسم جان بول سارتر، وهو من أنسبائي، في كتابه «الكلمات» صورة لأسرة شفايتسر!..

صــوت : أما أنت نفسك فقد ملت لي ماضيك فوضعت كتابك «حياتي وتفكيري» الذي نشر سنة ١٩٦٠ في فرنسا. وقد خلّفت إلى ذلك العديد من الكتابات، ومنها: دراسـات عن أستـاذي أوجـين مـونـخ، ويـوهـان سيباستيان باخ، وكتب في اللاهـوت، وعن أعمال الشاعر غوته. ولننتقل الآن إلى عملك اليومي، فما رأيك؟

شفايتسر: كنت أستيقظ كل صباح في السادسة والنصف، فأقرع بقضيب حديدي خطين حديديين معلقين تحت شرفة منزلي - إنها إشارة بدء العمل اليومي بالنسبة إليّ وإلى مساعدي بعد تناول طعام الصباح المشترك. وفي تلك الساعة كان يصل الزورق يقوده إثنان من المجذومين حاملاً شحنة الأغذية المعتادة والمرضى الجدد، وذلك قبل أن يعود بالذين تمت لهم نعمة الشفاء أو الذين فارقوا هذه الحياة. غير أنني قد تخليت نظراً لتقدمي في السن عن إجراء العمليات والاهتمـام بالشؤون الطبية، دون أن أهمل شؤون البناء والادارة، فـإن عزيمتي في هذا الحقـل لم تنحني قط. وظللت حتى اللحظات الأخيرة من حياتي أهتم بكل شاردة وواردة لتحقيق مبدأي العظيم: «إحترام الحياة».

صوت: أمـا مستشفـاك اليـوم فيشمـل نحـو عشـرة أبنيـة، ومجمـوعات كهـربائيـة لمد غـرفة العمليـات بـالتيـار الكهربائي، وكذلك الصيدلية والمختبـر وعيادة طب الأسنـان. وقد رضيت أن تسـايـر التـطور العلمي

الحديث فأنشأت غرفة للتصوير على الأشعة مكيفة بالهواء. أما عدد المرضى الذين كنت تعنى بهم كل عام فيبلغ سبعة آلاف.

شفايتسر: وكانت تجرى في المستشفى حوالي الألف عملية جراحية سنوياً، وتتم ولادة ثلاثماية طفل أو أربعماية على أيدي الأطباء الذين يقذفونهم من العمى، الذي يصيب الأطفال أحياناً بسبب وسائل التوليد المحلية. وقد أنشئت مستعمرة للمجذومين على مسافة بضع مئات من الأمتار من المستشفى، حيث يستعيد المرضى الذين يخضعون للمعالجة شيئاً فشيئاً النشاط الطبيعي.

صوت: أما زوجتك، أخلص معاونيك فقد توفيت في زوريخ سنة ١٩٥٧، بعيدة عن الزوج الذي كانت تعجب به، بعد أن أنهك قواها وهدها العمل الشاق، الذي قامت به في القارة السوداء، في مناخ شديد القسوة، وفي ظروف حياتية قاسية لا تعرف الراحة. ولكن ماذا عن ابنتكما؟

شفايتسر: أما ابنتنا رينا ـ وهي اليوم رينا إيكارت ـ فقد درست في أوروبا علم الاحياء (البيولوجيا)، وأقامت في لامبارينه مختبراً يجري فيه، منذ سنة ١٩٦٢، بين سبعمائة أو ثمانماية تحليل للدم كل أسبوع.

صوت: وهكذا أصبح «طبيب السود الصغير المسكين» ـ كما

كنت تلقب نفسك تواضعا ـ والذي كانت الصحافة الأميركية تلقبه برسول الأدغال في فترة قصيرة، أشهر رجل في العالم!

شفايتسر: إنهم ولا شك يبالغون... فلم أقم بما قمت به إلا تحقيقاً لرسالة وتأدية للواجب!

صوت: وفي الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة والعشرين من ليل السبت الموافق الرابع من أيلول عام ١٩٦٥ انطفأت جذوة الحياة في هذا الانسان الكبير، وها هو اليوم يرقد في لامبارينه المكان الذي عاش فيه وخدم طوال نصف قرن من الزمن، في قبر بسيط يتميز بصليب خشبي صنعه بيديه قبل وفاته. وقد قال رئيس جمهورية الغابون: «إن أرض الغابون التي تضم جثمان الطبيب العظيم لتستقبله كنزاً ثميناً!» سيدي شفايتسر أتذكر ماذا كتبت في واحد من مقالاتك الأخيرة المنشورة في شباط من عام ١٩٦٥؟

شفايتسر: وكيف لا أذكر؟... ولكن قبل أن أقول أود أن أشكر رئيس جمهورية الغابون على لفتته الكريمة! والآن إسمع ما كتبت: «بعد أن عشت نصف قرن في أفريقيا أبقى على اقتناعي بأن الحقيقة والحب والطمأنينة والتواضع ورحابة الصدر، كل ذلك هو العنف الوحيد القادر على السيطرة على كل عنف آخر. إن كل ما أتيح لك أن تتلقاه بقدر أكثر من سواك، كالصحة والمهارة والنجاح والطفولة السعيدة والظروف العائلية المنسجمة، لا ينبغي لك أن تعتبرها

نعمة تلقائية. مجانية ينبغي لك أن تدفع ثمنها. وبالمقابل ينبغي لك أن تقدم حياتك من أجل الآخرين في تضحية عارمة.

وعندما يسألونني أي مفكر من المفكرين العصريين أثر في حياتي وفلسفتي، فأنني أذكر اثنين: غوته، والهندي النزيه القديس غاندي. فرسالة غوته لأبناء اليوم هي رسالته نفسها لأبناء عصره ولجميع البشر في كل الأزمنة: «من اجتهد في سبيل إنسانية حقيقية أصبح رجلاً مخلصاً لطبيعته الداخلية، رجلاً توافق أعماله شخصيته...»

وهكذا غاندي الذي كان إلهندي الأكثر مسيحية من سائر المسيحيين في هذا العصر، اعترف ذات يوم أنه فكر في مبدأ اللاعنف، وهو يقرأ وصايا يسوع المسيح التي يقول فيها: «ولكني أقول لكم الا تقاوموا الأشرار، وأن تحبوا أعداءكم، وصلوا من أجل الذين يستثمرونكم ويضطهدونك لكي تستحقوا أن تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات».

وهكذا في نظر غوته، كما في نظر غاندي، فإن الاكتمال الذاتي من وجهة نظر أخلاقية يسير على مبدأ المحبة. وليس علم الأخلاق - بالنسبة إليّ - سوى احترام الحياة،واحترام الحياة هو مصدر مبادئي الأساسية في الأخلاق، أي أن الخير يقتضي حفظ الحياة ومساعدتها وتمجيدها وإبراز قيمتها، وان الشر يعني تدميرها، والاساءة إليها، وخنقها، وعرقلتها!»

ماريا مونتيسوري: «أماه!»

(١٨٧٠ - ١٩٥٢)

صوت: دكتورة ماريا، كنت في الثامنة والثمانين من عمرك عندما انتقلت من العالم الأول إلى العالم الثاني، وكنت أول طبيبة إيطالية. وقد كرست حياتك لخدمة الأطفال وتربيتهم، فهل لك أن تحدثينا عن عالم الطفل الذي تصفينه بأنه يعادل في أهميته العالم الجديد الذي اكتشفه قبل مئات السنين كولومبوس، من أبناء وطنك إيطاليا؟

ولكن، ما هذا الكتاب الذي بين يديك؟

ماريا: إنه كتابي «أسرار الطفولة» ويحلو لي تقليب صفحاته أحياناً... فهو يضم زبدة اختباراتي في حقل تربية الطفل الذي خضت غماره زهاء أربعين عاماً، وجبت من أجله مختلف بلدان العالم. إنه إحد مؤلفاتي العديدة التي أثارت ضجة كبرى حين صدورها.

صوت: ولقد أحدث هذا الكتاب، على ما أعلم، ثورة عارمة في الأساليب التربوية الموروثة البالية، وشطر الرأي العام شطرين من الأنصار والمعارضين.

ماريا: صحيح، ولا يدهشنك قولي ان والدي كان من أشد الذين عارضوا في فكرة دخولي كلية الطبّ. فقد كان من المحافظين المتعلقين بأهداب التقاليد المتبعة آنذاك. ولو لم تكن لي الارادة الحديدية لما استطعت أن أحقق الهدف الذي كنت أصبو إليه منذ نعومة أظفاري.

صوت: تدهشني، أيتها الدكتورة، جرأتك، وتحطيمك كل العراقيل التي وضعت في سبيلك، وما زلت أذكر أن لك عبارة مأثورة في هذا الصدد، حبذا لو يتخذها كل انسان مؤمن بنبل الرسالة إنجيلاً له يهتدي بنوره: «لقد خلقت المصاعب لنقتحمها».

ماريا: إنها الحقيقة يا سيدي. فلو خلت الحياة من المصاعب لانعدم الطموح والنشاط، ولأصبحت الأيام التي نقضيها على وجه الأرض رتيبة، مملة، تسير على وتيرة واحدة...

صوت: صحيح ما تقولين، ولقد أعجبني موقفك من هجمات معارضيك، ومضيك في سبيلك، وقولك لمن جاء يستطلع سر موقفك السلبي: «إذا نبح كلب وراءك وأنت تصعد السلم فمن الأفضل أن تستمر في صعودك وإلا أضعت وقتك في الهبوط من على السلم لتقذفه بالحجارة».

ماريا: أراك تعرف الكثير عن حياتي، فماذا تريد مني أن أزيد على معلوماتك؟

صوت: الواقع أني درست بعض نواحي حياتك قبل أن أعكر عليك صفو راحتك بهذه المقابلة، فلقد شئت أن

أعيش في جوك السامي بعض الوقت، فتكرمي الآن بسد الثغرات في معلوماتي الناقصة عنك...

ماريا: حباً وكرامة. أنا أبصرت النور سنة ١٨٧٠. فلما بلغت الرابعة عشرة قلت لوالدي اني أشعر بميل شديد إلى دراسة علم الأحياء (البيولوجيا) فأرجو أن تسمح لي بدخول كلية الطب. فدهش وقال: «ماذا تقولين، أيتها الصغيرة؟ أتريدين دراسة الطب؟ إن هذه الدراسة محرمة على الفتيات، ونحن قوم محافظون، فهل تريدين أن تجعلينا مضغة في الأفواه؟» فاحتججت بقولي: «ولكن ما لنا ولآراء الآخرين، ومن حرّم على الفتيات دراسة الطب؟ أليست هي التقاليد الموروثة التي ينبغي لنا أن ننبذها عاجلاً أم آجلاً؟»

صوت: وقال لك الوالد الكريم: «فكري قليلاً بما ستتعرضين له من زملائك في كلية الطب، ولا تنسي أنه من العار أن تمارس الفتاة تشريح الجثث أمام الشباب. أكاد أجن كلما فكرت بما أنت عازمة عليه. لماذا لا تبقين حيث أنت في كلية الهندسة بعد أن أظهرت نبوغاً في الرياضيات؟»

ماريا: إنه الواقع، يا هذا، كأنك كنت معنا عندما دار بيننا ذلك الجدل. وعندها قلت له: «لا تحاول أن تثنيني عن عزمي، فلقد خلقت المصاعب لنقتحمها».

صوت: وهددك بقطع كل علاقة بينكما إذا ما دخلت كلية الطب.

ماريا: تماماً، ولكني تغلبت على العاطفة ونفذت مشيئتي،

وسرعان ما اعترف بخطأه في معارضتي، وهنأني لما نلت شهادة الطب، وشجعني على المضي في اداء الرسالة التي نذرت نفسي من أجلها.

صوت: ماريا... عفواً، دكتورة ماريا، بعد نيلك الشهادة وبدء عملك في عالم الأطفال المتخلفين، ماذا فعلت؟

ماريا: الحقيقة، يا هذا، أنني لم أكن أدري مدى البؤس الذي يعيش وسطه هؤلاء الأطفال المتخلفين. إنها لفئة منكوبة، محرومة من عطف المشرفين على أوضاع المعاهد التي تؤويها. من السهل جداً توجيه الطفل الطبيعي وتقويمه، ولكن الطفل المتخلف بحاجة إلى عناية أشد، وتضحية أكبر.

صوت: وكيف كان السبيل إلى ذلك؟

ماريا: عممت فكرة ممارسة المهن اليدوية التي تشغل وقت الأطفال في أعمال مفيدة، وتبعدهم عن العبث المضرّ بهم وبمن حولهم. وقد عرضت علي إحدى شركات البناء الكبرى إدارة دار الأطفال في مجموعتين ضخمتين من أبنية السكن الرخيصة النظيفة في روما. وقد ضمت الدار هذه ستين طفلاً بين طبيعي، ومنحرف، أو متخلف. وفي هذا الدار كان حقل تجاربي واختباراتي في عالم الطفل.

صوت: إن أعمالك لتثلج الصدر. حدثينا قليلاً عن عملك هذا.

ماريا: عندما بدأت العمل بمشروع «دار الأطفال» شبهت نفسي بفلاحة عثرت على تربة خصبة، فبذرت فيها حبوباً، وجلست أراقب الزرع، وأهفو إلى موسم الحصاد. فما لبثت أن اكتشفت أنني أخطأت في هذا التشبيه. فلقد كان يجدر بي أن أقارن نفسي بعلاء الدين الذي وجد في فانوسه، على حين غرة، مفتاحاً لكنوز دفينة لا تعد ولا تحصى. فتلك البذور كانت تحتوي على عناصر ثمينة، وإن ما حصدته كان ذهباً خالصاً، لا قمحاً!

صوت: ما هي نظريتك التربوية؟

ماريا: نظريتي التربوية تتلخص في تشخيص قواعد تربوية تسمح للطفل الطبيعي باستخدام استعداداته وإمكانياته الفطرية، في الوقت نفسه الذي تسمح فيه للطفل المنحرف باسترداد أحواله الطبيعية. وعندما أتحدث عن استبداد الراشد وضغطه على الطفل وتحكمه به لا أقصد أن يترك الطفل وشأنه، ولست أشجع على الفوضى، معاذ الله... إنما جل ما هناك أن الخوف، وعدم الاستقرار، والاستبداد لمن العوامل التي توقف نمو الطفل الروحي، وتشل استعداده الفطري، ولا تتيح له الافادة من تجاربه الخاصة التي من شأنها إنماء شخصيته الدفينة. وفي شرعي أن التحرر هو في الخلاص من القيود المصطنعة التي يكبل بها المجتمع روح الطفل، ويحول بينها وبين النمو والتفتح ومن هنا كانت الخطوتان الأوليان في أصول التربية: الأولى هي استعمال الطرق التي تسمح

للطفل باسترداد أحواله الطبيعية، والثانية هي تمهيد الوسائل التي تسمح بنضج شخصيته.

صوت: أتسمح الدكتورة مونتيسوري بإيضاح ما ورد في أحد مؤلفاتها عن «الانفجارات؟» أثمة شيء من الديناميت؟

ماريا: لا، لقد أدت تجاربي إلى ما دعوته «إنفجارات». فالطفل يكتشف فجأة بعد فترة من التركيز والاهتمام أنه توصل إلى القراءة أوالكتابة أو التخطيط أو إلى أي عمل إيجابي. وفي هذا الطور يتوجب على المربي أن يحصر وظيفته في التوجيه الحازم المستنير لتمهيد السبيل، وتأمين المواد والجو المناسب، والوسائل العلمية التي تساعد على حدوث هذا التطور بصورة كاملة. وهنا ترى الطفل وقد أصبح يشعر بمحبة من يوجهه ويرعاه، فيتحول التمرد الأعمى في نفسيته إلى طاعة واحترام، والميل من الشغب والفوضى إلى حب للتركيز والهدوء.

صوت: تقولين كذلك، يا دكتورة، إن الطفل معلمك، فماذا تقصدين بذلك؟

ماريا: قصدت بذلك إقناع الراشد بوجوب النزول إلى مستوى الطفل لتُفهم حقيقته. فالراشد فرض على المجتمع منذ زمن سحيق أصولاً ونظماً لا يدركها الطفل، وهيهات أن تنجح في تقويمه. والنزول إلى مستوى الطفل لا يعني مطلقاً الخضوع لارادته، ولكنه أفضل السبل التي تتيح للمربي أن يكشف أسلوباً

مثمراً للتوجيه. ولا يخفاكم أن عالم الطفل مليء بالأسرار ولذا اهتممت بأن أتعلم منهم ما يقنعهم ويرضيهم ويثير في نفوسهم بادرة الاهتمام التي تدفعهم إلى التركيز والبحث. . .

صوت: من كلماتك المأثورة، يا دكتورة مونتيسوري، أنه لا وجود للمشكلات في هذه الدنيا، فهي من ابتداع عقل الانسان، فما القصد من ذلك؟

ماريا: القصد الذي رميت إليه هو أن الفئات التي تخلق المشاكل دائماً هي من أصحاب النفوس المعقدة التي لم تولد وتترعرع في وسط يسمح لها بالانطلاق الطبيعي الكامل. فلنربِّ الأجيال الجديدة تربية صحيحة واعية لنتخلص من مشكلات كثيرة نحن في غنى عنها.

صوت: بالاصالة عن نفسي، وبالنيابة عن الأطفال والآباء أتقدم بالشكر إلى الدكتورة ماريا مونتيسوري على هذه الايضاحات القيمة حول نظرياتها التربوية التي نسفت الكثير من الأوضاع البالية. ولا يسعني في ختام هذه المقابلة إلا أن أذكر أن الدكتورة مونتيسوري التي أوجدت أسلوباً قوياً لتربية الأطفال تتبعه دول عدة في الغرب والشرق، قد نالت أرفع الأوسمة، وحظيت بأعلى الدرجات والألقاب العلمية. إلا أن اللقب الذي فضلته على سائر الألقاب جميعاً، هو كلمة بسيطة رددها الكبار والصغار معاً: «أماه»! فشكراً يا أماه. . .

ماريا: لا شكر على واجب، يا بني! . .

الفهرس
الفصل الرابع
٣٧ من أعلام الفن
(رسم ، موسيقى)

الفصل الخامس
٦ من أعلام الفكر

الفصل السادس
٥ من أعلام السياسة

الفصل السابع
١١ من أعلام الإصلاح

١٥٢
من أعلام الحضارة

لقاءات في حوار
مع

٢٥ من أعلام العلم
٢٥ من أعلام الأدب
٩ من أعلام الريادة
٣٧ من أعلام الفن
٦ من أعلام الفكر
٥ من أعلام السياسة
١١ من أعلام الإصلاح
٣٤ من أعلام العرب

